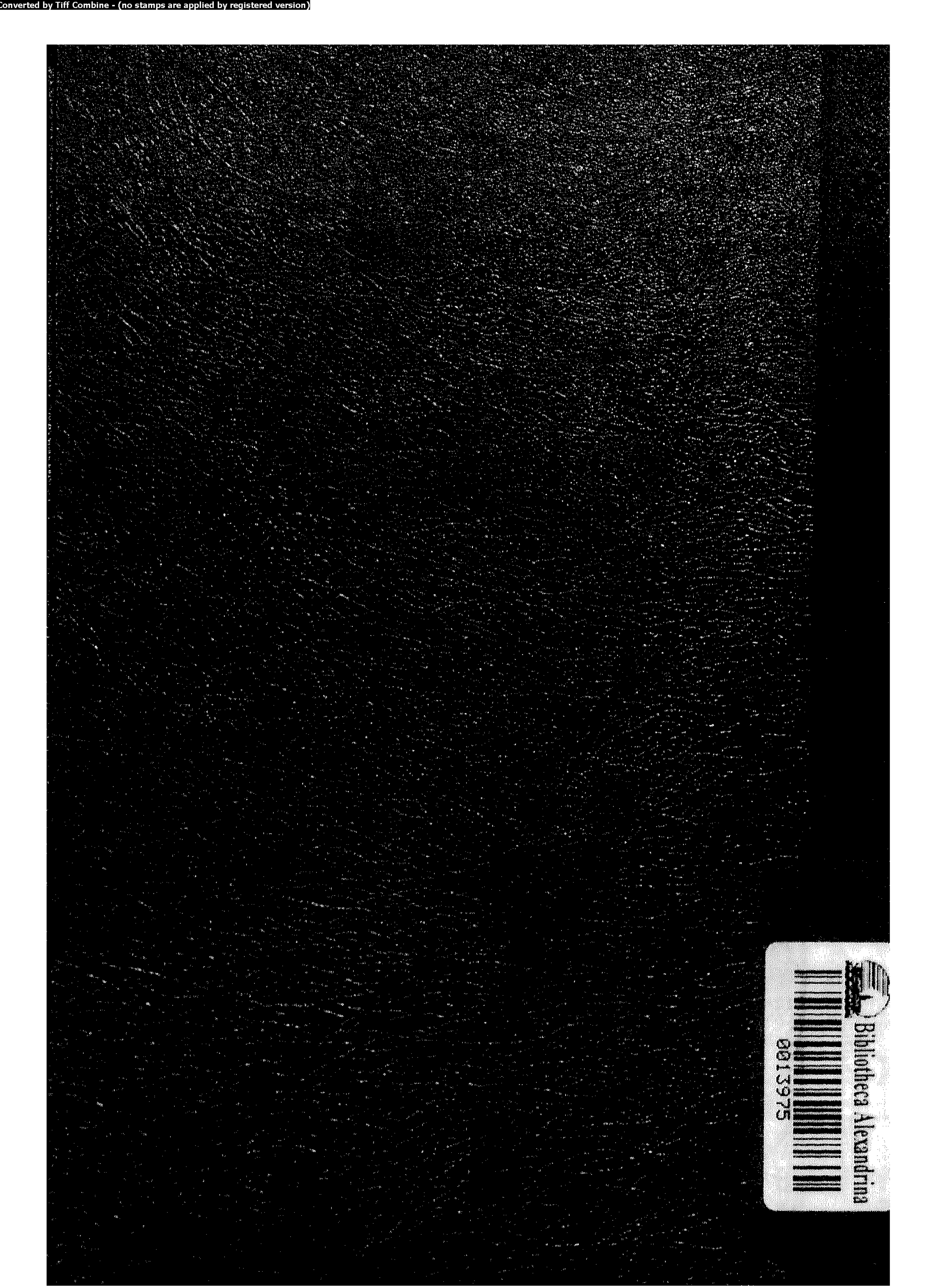

Bibliotheca Alexandrina
0013975







الدار المصرية للتأليف والترجمة

أسرار التوحيد

في مقامات الشيخ أبي سعيد

تأليف

محمد بن المنور بن أبي سعيد بن طاهر بن أبي سعيد بن أبي الخير

ترجمة : إسعاد عبد الهادي قنديل

مراجعة : الدكتور يحيى الخشاب



تقديم

كتاب « أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد »

تعريف بالكتاب :

كتاب « أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد » واحد من الآثار القيمة فى النثر الفارسى التى ألفت فى القرن السادس الهجرى . وهو كما يستفاد من اسمه ، فى شرح أحوال ومقامات وأقوال الصوفى الشهير الشيخ أبى سعيد فضل الله ابن أبى الخير الميهنى .

ويعتبر كتاب « أسرار التوحيد » أول كتاب مفصل ألف باللغة الفارسية فى شرح حال واحد من شيوخ الصوفية الكبار ، وأقدم مؤلف من هذا النوع أبقت عليه الأيام فوصل إلينا .

مؤلفه :

ومؤلف هذا الكتاب هو واحد من أحفاد الشيخ أبى سعيد يدعى محمد بن المنور بن أبى سعيد بن أبى طاهر سعيد بن أبى سعيد بن أبى الخير والذى يتصل نسبه بالشيخ أبى سعيد بثلاثة أجداد .

ولا يعرف شىء عن أحوال هذا المؤلف إلا ما ذكره عن نفسه فى بعض مواضع من كتابه .

ويستخلص مما كتبه عن نفسه انه كان مثل جده من أهل ميهنه ، وانه كان فى سنة ٥٥١ ه ، وهى السنة التى تخلص فيها السلطان سنجر السلجوقى من أسر الغز شخصاً محترماً وصاحب مكانة تجعله جديرا بالمثول بين يدى السلطان .

كما يستفاد مما كتبه فى مقدمة كتابه أنه كان يهوى منذ طفولته جمع حكم جده الشيخ أبى سعيد وأقواله ، وأنه قصر همته منذ بداية شبابه على استقصاء أخبار الشيخ من أبنائه وأحفاده والشيوخ الآخرين ، وأخذ يتحقق من السجلات والتقاليد التى ورثتها عائلته أبا عن جد ، ويجتهد فى تصحيح أسانيدها باذلا فى ذلك أقصى ما يمكنه من جهد .

ويحدثنا ابن المنور عن السبب الذى حدا به إلى تأليف هذا الكتاب فيقول . انه بعد الفترة العصيبة التى اكتسحت فيها قبيلة الغز التركمانية حدود خراسان ، وأعملت النار والسلاح فى هذه المقاطعة ، وارتكبت المذابح ضد السكان فى كل مكان بحيث قتل فى ميهنه وحدها خمسة عشر ومائة شخص من أبناء الشيخ وأحفاده ، علاوة على الكثير من المريدين الصادقين وكبار رجال الدين وشيوخ الصوفية ، حتى لقد تم القضاء تماما على الدين وتوقف البحث عن الحقيقة ، وقنع المسلمون من الإسلام بالإسم ، ومن الصوفية بالشكل ، قد وفقته العناية الإلهية للاستجابة لمطلب بعض المريدين فى أن يكتب تاريخ التجارب الروحية والحكم التى قالها الشيخ أبو سعيد لتشجيع الراغبين فى سلوك الطريق ، ولتكون نجما هاديا ومرشدا لتلك الطريقة ، فأقدم على تأليف هذا الكتاب معتمداً على كل المعلومات التى تسنى له أن يجمعها .

وقد أهدى المؤلف كتابه إلى ملك الغور « غياث الدين أبى الفتح محمد بن سام » (٥٥٨ — ٥٩٩ هـ) ، كما يتضح من مقدمة الكتاب .

تاريخ تأليف الكتاب :

لم يعين المؤلف تاريخ تأليف الكتاب فى مقدمته ، كما لم يشر إلى ذلك صراحة فى أى موضع من كتابه .

غير أن المستشرق الروسى « زوكوفسكى » الذى قام بنشر هذا الكتاب ، حدد تاريخا لتأليفه على وجه التقريب معتمداً فى ذلك على بعض ماورد فيه ، فقد ذكر ابن المنور فى موضع من كتابه أنه حظى بمقابلة السلطان سنجر السلجوقى (٥١١ — ٥٥٢ هـ) فى مرو بعد أن تخلص من أسر الغز ، وهو يروى قصة هذا اللقاء مشيرا إلى السلطان باعتباره متوفيا إذ يقول :

فى ذلك الوقت الذى تخلص فيه السلطان السعيد سنجر بن ملكشاه برّد الله مضجعه ، من يد الغز ، وجاء إلى العاصمة مرو .

واستناداً إلى هذه العبارة ، وإلى ما ورد فى مقدمة الكتاب من أن المؤلف أهدى كتابه إلى الملك غياث الدين محمد بن سام ، حدد زوكوفسكى تاريخا لتأليف الكتاب هو الفترة مابين « سنة ٥٥٢ هـ و سنة ٥٥٩ هـ » . وأول التاريخين هو تاريخ وفاة السلطان سنجر ، وثانيهما تاريخ وفاة الملك غياث الدين .

وقد تابع الكثيرون زوكوفسكى فى تحديد هذه الفترة لتأليف أسرار التوحيد وخالفه بعض المتأخرين فحددوا تاريخ تأليف الكتاب بالفترة مابين سنة ٥٧٠ ، ٥٨٠ هـ ، كما ذكر بعضهم تاريخا سابقا على هذه الفترة وهو سنة ٥٦٠ هـ ، وذكر آخرون تاريخا تاليا لهذه الفترة هو سنة ٥٧٤ هـ .

وقد عثرت أثناء ترجمة كتاب « أسرار التوحيد »على عبارة وردت فيه يمكن استنادا اليها أن نرجح التاريخ الأخير .

وقد وردت هـذه العبارة على لسان ابن المنور عندما أخذ يعقب على بعض ماذكره الشيخ أبو سعيد عند وفاته من أن نفحات ولايته ستظل بين الناس مائة عام بعد وفاته تكون خلالها عوناً لهم وتدرأ عنهم البلايا والمحن وبعد هذه الفترة يندثر كل شيء فلايتبقى منه الرائحة ولا الأثر ، فقال :

« وقد حدث هذا فى الوقت الذى تمت فيه المائة عام بحيث لم يبق فى الشهر التالى شيء من هـذا كله ، ولم يبق على قبره إلا نفر قليل من أبنـائه ومريديه ، واستشهد الباقى جميعهم على يد الغز ، واغترب بعضهم فى أنحاء الدنيـا ، وانتقلوا جميعاً إلى رحمة الله فى غربتهم ، وقد مضت الآن أربعة وثلاثون عاما لم يظهر خلالها على قبره المقدس أى ترتيب » .

ونحن إذا استرجعنا فى أذهاننا تاريخ وفاة الشيخ أبى سعيد وهو عام ٤٤٠ هـ وراعينا المائة عام التى أشار الشيخ إلى أن نفحات ولايته ستبقى خلالهـا ، وأضفنا إلى ذلك الأربعة والثلاثين عاما التى ذكر ابن المنور — كما يبدو من عبارته — أنها مرت عندما كان يؤلف كتابه أمكننا أن نرجح أن كتاب أسرار التوحيد ألف حوالى عام ٥٧٤ هـ .

مصادر الكتاب :

المصادر التى اعتمد عليها المؤلف ثلاثة :

(١) المصدر الأول :

نص لمؤلف عن أبى سعيد ، لا يعرف اسمه ، كتبه حفيد آخر من أحفاد الشيخ أبى سعيد قبل تأليف أسرار التوحيد . وقد قرر بن المنور فى مقدمة كتابه أنه أفاد من هذا المؤلف كما ذكر اسم مؤلفه .

وبناء على الأوصاف التي وردت فى كتاب أسرار التوحيد استطاع زوكوفسكى أن يلحظ الشبه الكبير بين هذا المؤلف الذى أشار إليه ابن المنور ، وبين مخطوطة وحيدة فى المتحف البريطانى ، مجهولة الاسم والمؤلف ، أشار إليها ريو فى فهرست المخطوطات الفارسية ص ٣٤٢ .

وبمقارنة ما ذكره ابن المنور عن مضمون الكتاب الذى اعتمد عليه ، بمضمون المخطوطة ، وأقوال مؤلفها التى ذكرها فى بداية الفصل الأول ليشرح منهجه العام فى كتابه ، أمكن لزوكوفسكى أن يستنتج أن نص ما ورد فى هذه المخطوطة هو نفسه نص الكتاب الذى أشار ابن المنور إلى أنه أفاد منه .

غير أن زوكوفسكى لم يعثر على الاسم الحقيقى لهذا النص لأن مؤلفه لم يشر إلى ذلك ، كما أن ابن المنور لم يذكر ذلك الاسم فى كتابه أيضا .

وعلى هذا وضع زوكوفسكى لهذا المؤلف اسما ينطبق على موضوعه فنشره تحت عنوان « حالات وسخنان شيخ أبو سعيد فضل الله بن أبى الخير الميهنى » .

وقد اعتمد مؤلف أسرار التوحيد على هذا الكتاب اعتمادا كبيرا . ونقل عنه كثيرا حتى أنه ليكون سدس المادة التى عرضها فى كتابه ، وإن كان لا يشير إلى ذلك فى المواضع التى ينقل عنه فيها . كما أنه لم ينقله بأكمله . ولعل السبب فى ذلك أنه لا يحوى المعلومات الثابتة التى يجزم بصحتها جميعها .

المصدر الثانى :

المصدر الثانى الذى اعتمد عليه مؤلف أسرار التوحيد ، هو مجموعة من الروايات الشفوية التى جمعها المؤلف ، والتى تأكد من صحتها . وهو يمنح السند أكبر عناية فى كل قصة . ولكى يذود الملل عن القارىء يذكر سلسلة الرواة

بالطويلة يكتفى بذكر الحلقة الأولى فقط فيذكر شخصا واحداً هو الأقرب إلى زمن أبى سعيد أو يكون معاصرا له . وفى هؤلاء الأشخاص نصادف أقرباء الشيخ وتلاميذه وخدامه وقراءه والشيوخ .

ويقول المؤلف أنه لا يذكر من هذه الروايات إلا التى يعتقد اعتقادا جازما بما جاء فيها ، أما التى يشك فيها فانه يستبعدها لأنه لا يجد وجها لقبولها .

المصدر الثالث :

المصدر الثالث الذى اعتمد عليه ابن المنور هو بعض الكتابات التى يصدقها ويثق فى صحتها ، فقد ذكر فى كتابه خمس مرات عبارة : رأيت مكتوبا بخط (فلان) .

أقسام الكتاب :

قسم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول :

فى بداية حياة الشيخ أبى سعيد .

ويشتمل على ذكر بعض أحوال الشيخ فى طفولته وشبابه ، ونوع العلوم التى حصلها ، والرياضات التى قام بها ، وذكر اساتذته وشيوخه ، وتاريخ حياته حتى بلوغه سن الأربعين .

الباب الثانى :

فى أواسط حياة الشيخ ، وهو على ثلاثة فصول :ـ

الفصل الأول : فى الحكايات المشهورة عن كرامات الشيخ والتى ثبت للمؤلف صدقها :

ويبلغ عدد حكايات هذا الفصل مائة وعشر حكاية . ولكن نوع الكرامات فيها واحد . فهى تحكى ـ باستثناء عدد قليل منها — اطلاع أبى سعيد واشرافه على الخواطر ، وسيطرته على أفكار الآخرين .

الفصل الثانى : فى الحكايات المتضمنة للفوائد ، وبعض ما نقله عن المشايخ من الحكايات والأقوال .

وهذا الفصل قسمان .

الأول : يشتمل على حكايات عن الشيخ ويبلغ عددها ثمانين حكايه .

والثانى : فى أقوال الشيخ وبعض الحكايات والفوائد التى ذكرت متفرقة على لسانه .

الفصل الثالث : فى بعض فوائد أنفاس الشيخ ، وبعض الرسائل والأشعار التى جرت على لسانه بالقدر الذى تحقق للمؤلف صدقه .

الباب الثالث : فى انتهاء حياة الشيخ ، ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى وصاياه عند وفاته .

الفصل الثانى : فى وفاته وكيفيتها .

الفصل الثالث : فى كراماته التى جرى بعضها على لسانه أثناء حياته وظهرت بعد وفاته ، وبعض ما أشار إليه ورآه الناس بعد وفاته على سبيل الكرامة .

أسلوب الكتاب :

النثر الفارسى حافل بالكثير من الآثار القيمة التى تخلفت فيه على مر العصور ولعل أشهر الكتاب الذين انشأوا روائع النثر الفارسى جماعة من الأدباء والكتاب

الذين عاشوا فى الفترة ما بين القرن الرابع والقرن السابع الهجرى ، فهذه القرون تعتبر أزهى عصور النهضة العلمية والأدبية فى ايران .

وكتاب أسرار التوحيد واحد من الكتب التى ألفت فى هذه الفترة وقد كتب بالنثر البسيط السلس الخالى من كل نوع من التكلف اللفظى والجامع لشروط البلاغة والفصاحة .

وقد أدرك مؤلف الكتاب الذى يدل مؤلفه على حسن ذوقه ومهارته الكاملة فى فنون الأدب ، أن الوضوح والصدق وأستقامة المعنى من أكبر شروط البلاغة فرجح جانب المعنى على جانب اللفظ ، واستعمل المفردات البسيطة السهلة الفهم فى تركيب الجمل ، وانتخب دائما من الالفاظ ماهو أكثر مطابقة للمعنى وأقوى دلالة عليه .

وقد التزم مؤلف أسرار التوحيد قواعد النحو الفارسى بدقة كاملة ، وحرص على توضيح معنى مايقول فكان يتحرز دائما من التقديم والتأخير ، والحذف والزيادة . كما كان يتجنب العبارات والكلمات المتنافرة ، ويتجنب التكرار الممل . وكان أيضا يلجأ إلى الايجاز إذا أقتضى الأمر ذلك .

وبالنسبة لرواية القصص نجد مؤلف أسرار التوحيد يختلف عن أولئك الكتاب الذين يركزون أهتمامهم على سرد الوقائع وذكر الأحوال ، فهو يهتم بوصف جزئيات كل واقعة ، ويشرح كل حال ملتزما فى ذلك الدقة الشديدة .

كذلك كان المؤلف دقيقا فى اثبات بعض الحقائق والأحكام وشرح الآداب والرسوم ومصطلحات الصوفية والشروط المناسبة لكل حال ومقام وترجمة العبارات العربية وتفسيرها .

على أننا نلاحظ ظاهرة الاستطراد التى كانت تبدو طبيعية فى كتابات ذلك العصر سواء العربية منها أو الفارسية ، فهذه الظاهرة تتضح فى بعض المواضع من الكتاب لاسيما فى الباب الأول الذى يكتب فيه المؤلف تاريخ حياة أبى سعيد حتى بلوغه سن الأربعين ــ فهو عندما تعترضه شخصية أو مدينة أو ذكر مذهب يترك الموضوع الأصلى أو الحكاية التى كان يرويها ويتحدث عن هذه الشخصية أو المدينة ، أو يعقد فصلا فى شرح هذا المذهب ثم يعود إلى تكملة الموضوع الذى كان يتحدث فيه أو القصة التى كان يرويها ، وفى بعض المواضع يمتد هذا الاستطراد لبضعة أسطر ولكنه فى مواضع أخرى يستغرق صفحات .

قيمة الكتاب :

كتاب أسرار التوحيد من أقدم وأوسع المصادر الصوفية ، فهو يعتبر أول مثل بالفارسية لمؤلَّف قائم بذاته موضوعه حياة أحد الصوفية . وقد أعطيت فيه صورة لأبى سعيد وسط دائرة الصوفية والدراويش الذين عاش معهم فى تفاصيل واسعة . وهو من هذه الناحية يعتبر من أوضح الكتب التى صورت لنا حياة الدراويش فى القرن الخامس الهجرى .

والكتاب يشتمل على معلومات قيمة عن رسوم وعادات واجتماعات وتشكيلات الصوفية ، والكثير من المفاهيم الحقيقية لبعض مصطلحات هذه الفئة مثل الخلوة والزاوية والرياضة والمراقبة والسماع والرقص والخرقة والمرقع والوجد والحال والقبض والبسط . كما يمدنا بوصف شامل لأنواع الرياضات والمجاهدات وآداب السلوك ومقاماته . والشروط التى ينبغى توفرها فى الشيخ والمريد . وطريقة تأديب الشيخ لمريديه ، ونوع العلاقة بينهما . ونظام الحياة فى الخانقاهات .

ويضم الكتاب إلى جانب هذا كثيرا من التعريفات والأقوال الصوفية التى أثرت عن أبى سعيد وعن الكثير من أعلام الصوفية الذين سبقوه .

ولا يخلو الكتاب أيضا من الفائدة فى الناحية التاريخية والاجتماعية ففيه ذكر لبعض الوقائع التاريخية والأوضاع الاجتماعية فى القرنين الرابع والخامس الهجريين، فضلا عن الكثير من أخبار شيوخ الصوفيه وكبار رجال الدين والأئمة المعاصرين لأبى سعيد .

ويعتبر كتاب أسرار التوحيد من المصادر الأصلية التى اعتمد عليها فريد الدين العطار . ويقول زوكوفسكى أنه ينقل عنه كثيرا فى تذكرته دون أن يشير إلى ذلك ، وقد إستفاد منه إلى أبعد حد ، كما تأثر به فى سرد القصص المنفصلة فى كثير من الأحيان .

ولقد أفاد جامى أيضا من أسرار التوحيد على نطاق واسع ، وكان أساسه الذى اعتمد عليه ، لافى كتابته عن أبى سعيد فحسب ، وإنما فى كتابته عن كثير من الشيوخ الآخرين .

وقد طبع كتاب أسرار التوحيد ثلاث مرات :

الطبعة الأولى : قام بها المستشرق الروسى « زوكوفسكى » عندما نشر هذا الكتاب لأول مرة فطبعه فى بطرسبرج عام ١٨٩٩ م ١٣١٧ هـ .

الطبعة الثانية : قام بها « بهمنيار » فطبع أسرار التوحيد فى طهران عام ١٣١٣ هـ . ش .

الطبعة الثالثة : وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى ترجمة هذا الكتاب وقام بها

« ذبيح الله صفا »، فطبع أسرار التوحيد فى طهران عام ١٣٣٢ هـ . ش .

وقد اعتمد ذبيح الله فى طبعته على مخطوطة لمكتبة استانبول، يرجع تاريخ تدوينها إلى سنة ٧٠٠ هـ ، ويظن ذبيح الله صفا أن هذه المخطوطة أو المخطوطة التى نسخت عنها هى المتن الأصلى لأسرار التوحيد .

* * *

أما عن أبى سعيد فهو أبو سعيد فضل الله بن أبى الخير محمد بن أحمد الميهنى ، شاعر فارسى وشيخ من شيوخ الصوفية ، عاش فى أيران فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى والنصف الأول من القرن الخامس ، فقد كان مولده فى مدينة ميهنه من أعمال خاوران باقليم خراسان فى أول محرم لعام سبع وخمسين وثلاثمائة بعد الهجرة .

وقد تلقى أبو سعيد علومه الأولى فى ميهنه فقرأ القرآن وتعلم النحو والصرف، ثم أنتقل إلى مدينة مرو لدراسة الفقه فقرأ على أبى عبد الله الخضرى خمس سنوات، وبعد وفاته تحول إلى أبى بكر القفال فقرأ عليه خمس سنوات أخرى .

وبعد ذلك توجه أبو سعيد إلى مدينة سرخس لدراسة علوم الدين على أبى على زاهر بن أحمد فكان يقرأ عليه التفسير فى الفجر وعلم الأصول فى الظهيرة وأخبار الرسول فى العصر .

وفى سرخس التقى أبو سعيد يوما بدرويش مجذوب يدعى لقمان فقدمه إلى أبى الفضل حسن من شيوخ الصوفية فى هذه المدينة ، وكان هذا اللقاء بين

أبي سعيد وأبي الفضل نقطة التحول في حياة أبي سعيد إذ ترك بعده دراسة علوم الدين وأعتنق الصوفية وأتخذ أبا الفضل مرشدا له .

وأمره أبو الفضل بالعودة إلى ميهنه والبحث عن مكان يختلى به ويعرض فيه عن نفسه وعن الناس ، فرجع أبو سعيد إلى بلده واختار زاوية داره مكانا لاعتكافه ، وأمضى بها سبع سنوات قضاها في التأمل . ثم رجع إلى سرخس حيث مارس الرياضة عاما آخر تحت أشراف أبي الفضل . وفي نهاية هذا العام أكد له أبو الفضل أن كل شيء قد انتهى وأمره بالعودة إلى ميهنه ودعوة الناس .

وعاد أبو سعيد إلى ميهنه ولكنه بدلا من أن يرضى نفسه بما أكده له شيخه زاد من رياضاته . وفي هذا الوقت توفي والداه فاتجه إلى صحراء خاوران وأمضى بها فترة أخرى من الرياضة امتدت لتسبع سنوات قضاها متجولا في هذه الصحراء . ولم يكن يرى خلال هذه الفترة إلا نادرا ويظن أنه كان يقتات بنباتات الصحراء.

وظل أبو سعيد على اتصال بأبي الفضل حسن في بداية هذه الفترة وبعد وفاة أبي الفضل أتصل أبو سعيد بأبي عبد الرحمن السلمى في نيسابور ونال على يديه الخرقة الأولى .

وفي نهاية هذه الفترة اتصل أبو سعيد بأبي العباس القصاب في آمل ونال على يديه الخرقة الثانية .

ورجع أبو سعيد من آمل إلى ميهنه وجاءت عودته مع الحدث الكبير في حياته وهو بلوغه مرحلة الكشف الكامل . ويبدو أن السلوك الطويل للطريق قاده في النهاية إلى الكشف الكامل المستمر فانقشع عنه الحجاب الذى كان حتى ذلك الوقت يرتفع ليعود مرة أخرى وكانت سنه عندئذ أربعين عاما .

وفى ميهنه بدأ أبو سعيد يمارس نشاطه كولى من أولياء الله وشيخ يشرف على تربية المريدين ، وكانت الخطوة الأولى هى أن حول منزله إلى خانقاه للدراويش فتجمع حوله المريدون وذاعت شهرته فى المناطق المجاورة .

ثم رأى ابو سعيد أن ينقل نشاطه إلى ميدان أوسع فانتقل إلى نيسابور واخذ يعقد المجالس بها ويقوم بوعظ الناس وارشادهم .

ولم يكن أبو سعيد يقتصر فى مجالسه على تفسير القرآن والأحاديث بل كان يتعدى ذلك إلى قول الشعر وإقامة حلقات الرقص والسماع الأمر الذى أثار عليه أئمة نيسابور ورؤساء الفرق الدينية فشكوه إلى السلطان فى غزنه . ورد السلطان على هذه الشكوى بأن يعقدوا مجلسا من أئمة المذهبين الشافعى والحنفى وأن يطبقوا عليه ماتقتضيه الشريعة . غير أن أبا سعيد استطاع أن يواجه أعداءه ، وأن يجبرهم على عدم التعرض له .

وظل أبو سعيد فى نيسابور فترة طويلة سلك خلالها مسلكا لفت إليه النظر ونسبت إليه كثير من الكرامات .

ثم عاد أبوسعيد من نيسابور إلى ميهنه للمرة الأخيرة وظل بها إلى أن توفى فى الرابع من شعبان لعام اربعين واربعمائة بعد الهجرة بالغا من العمر ثلاثة وثمانين عاما واربعة أشهر فمن المعروف أنه عمر ألف شهر .

* * *

ولقد كان من أهم الموضوعات التى أثير حولها الجدل بالنسبة لأبى سعيد موضوع صحة نسبة الرباعيات إليه . وقد اختلف الدارسون لأبى سعيد بشأن هذه المسألة فاعتمد بعض المستشرقين على حكاية وردت فى كتاب « أسرار التوحيد »

ذكر المؤلف فيها أن أبا سعيد كان مستغرقا فى الله بحيث لم تكن لديه القدرة على قول الشعر باستثناء بيت من الشعر ورباعية واحدة ، وقالوا أن أبا سعيد لم ينظم شعرا قط ، بينما أكد البعض الآخر أنه كان شاعرا ، بل ووصفه البعض بأنه أول من أبدع الشعر الصوفى من شعراء ايران . ولكن الأمر الذى لاشك فيه أن أباسعيد كان يقول الشعر وخصوصا من لون الرباعى ، وأن كان هذا لا يتنافى مع ماذكرته بعض المصادر من أن الأشعار التى كان يقولها فى بعض المجالس والمناسبات ، والتى كان القوالون ينشدونها بين يديه فى السماع لم تكن كلها من نظمه وإنما كانت أيضا من نظم بعض شيوخه . وقد نص أبو سعيد بنفسه على هذا فى كثير من الأحيان كما يتضح من بعض المواضع فى كتاب « أسرار التوحيد » .

أما بالنسبة لمذهب أبى سعيد فقد كان من أوائل المروجين لوحدة الوجود . ورغم أن مذهبه الذى يقوم على الفناء ووحدة الوجود لم يكن جديدا ، فقد سبقه إليه الصوفى الفارسى بايزيد البسطانى ومعاصره أبو الحسن الخرقانى ، إلا أن عبقريته شكلته فى صورة جديدة .

ويعتبر ابو سعيد من ناحية التطور التاريخى للصوفية مشرعا مبرزا فقد حدد معالم الطريق ووضع الشروط التى ينبغى توفرها فى الشيخ والمريد ، كما شرّع القواعد والرسوم لحياة أهل الخانقاه حتى أنه ليعد بحق المؤسس الأول لنظام الخانقاهات فى الإسلام .

وأبو سعيد من أوائل شيوخ الصوفية فى إيران الذين صاغوا عقائدهم وآراءهم نظما بالفارسية وفى هذا الصدد يجدر اعتباره رائداً لصوفية ايران الكبار «سنائى» « والعطار » و « جلال الدين الرومى » .

ورغم أنه لم تنسب إلى أبي سعيد طريقة خاصة ، ولم يخلفه في طريقته أتباع ، إلا أنه أرسى أساس طريقة في التصوف تختلف عن الطرق الأخرى ، فلقد خالف أبو سعيد كثيرا من الصوفية الذين سبقوه في معالجته لبعض الأمور التي تتعلق بالتصوف ، وكان يميل دائماً إلى التخفيف من صرامة النظم ، ويترك تلاميذه يعيشون في بحبوحة وحرية .

إسعاد عبد الهادي قنديل

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نور قلوب أوليائه بلطائف أنواره ، وجعل سراير أحبائه وبواطنهم كنوز أسراره ، وكشف عن عقول أصفيائه حجب الطغيان وأستاره ، والصلاة والسلام على محمد عبده ونبيه وخيرته من أخياره ، وعلى آله وأصحابه وأعوانه وأنصاره وسلم تسليما كثيراً .

الشكر والثناء بلا حد ، والحمد بلا نهاية ، والمدح بلا غاية ، لخالق الكائنات وصانع المخلوقات تعالى وتقدست صفاته ؛ الخالق الذى خلق العالم من غير ما غرض ولا علة ولا طلب فائدة ولاخير ؛ بل بمحض كرمه ، وكمال عنايته، ولطفه، وإظهاراً لقدرته غير المتناهية ،وخصه بأنواع الغرائب والبدائع ؛ من جملتها أنه خلق آدم الصفى والد البشر ، وموئل أهل العالم ؛ من حفنة من تراب ،وترك قالبه الذى صنعه من حجر مسنون بين مكة والطائف أعواماً طويلة ؛ حتى إذا ما تحقق له استعداد الروح وأستكمال النفس الإنسانية من عالم المشيئة ،زين قالبه بحلية « ونفخت فيه من روحى » ،وأطلق عليه اسم الإنسان .ولما كانت كلمة إنسان وأنس ومؤانسة كلمات مركبة من حروف متناسبة ؛ اقتضت الحكمة البالغة أن يحتاج إلى مؤنس لكى يدفع عنه وحشة الوحدة بمؤانسة ذلك المؤنس فخلق حواء أم البشر من ضلعه الأيسر على وجه الإبداع وسبيل الاختراع . (ص٤) ، وجعل الشهوة وهى من عوارض النفس الحيوانية فى طويتهم ،حتى استحكمت بينهما صلة التوالد والتناسل بذلك ،فظهر وانتشر فى أرجاء الأرض وعلى ظهر البسيطة، آلاف وآلاف من الآدميين . وقدجرت على كل صنف منهم صفات خاصة ، واتسمت كل طائفة

بسمات مميزة وجعل لكل قوم لساناً ولغة مباينة للأخرى ،ترجع كلها إلى أصل واحد وان كثرت فروعها وشعبها . حتى رحبت أرجاء الأرض وأقل ظهرها من العالمين من لا يحصون كثرة ليتهيأ بذلك دليل قاطع وبرهان ناصع على كمال قدرة الخالق .

وفى كل شيء له آية .·. تدل على أنه واحد

واعتبر الأنبياء والرسل خيرة أبناء آدم الصفى . ولما كانت تلك الطائفة هى الواسطة بين المعبود والعباد وبين الخالق والمخلوقات فقد جعل نفوسهم فى كمال التجرد وعلى درجة كبيرة من الترفع حتى يكونوا مثل الخلق من حيث الصورة ومثل الحق جل جلاله من حيث الصفات فيقتبسون ما هومن حقيقة الحق وينظرون بخاصية نور النبوة ، ويجعلون من واجبهم إرشاد الناس وهدايتهم بذلك النور ، ويأخذون أنفسهم بنهيهم عن الغي والضلال حتى يوصلوهم من غمرات الجهل وتيه الحيرة إلى ساحل النجاةوشاطىء الرشد،ويتحولوا من درجةالحيوانية إلى حد النطق والصفات الإنسانية ، وجعل بعد طبقة الأنبياء الأولياء أصحاب الكرامات وأرباب المناجاة والمقامات ، وهم من حيث المعنى قريبون من الرسل والأنبياء . والفرق بين تلك الطائفة وطبقة الأنبياء ليس أكثر من أن النبى يستطيع فى حال واحد أن يكون شبيهاً بالحق من حيث الصفة وشبيهاً بالخلق من حيث الصورة . أما الولى فيكون انشغاله بالحق مانعاً له عن الانشغال بالخلق . ومن ناحية أخرى أن النبى مأمور بالدعوة والإرشاد أما الولى فهو معافى من ذلك كله وهو إنما يفعله لكمال كرمه وتناهى حكمته ، لأنه يتعذر فى كل عصر وجيل بعث الأنبياء وحملة الرسالات ، ولكن وجود أصحاب الكرامات وأرباب المقامات يمكن أن يكون ميسوراً فى كل وقت حتى إذا ما وقف الخلق على أحوالهم وأقوالهم

وحركاتهم وسكناتهم اتجهوا من عالم الصورة إلى عالم المعنى (ص ٥) فيعرفون أنه يوجد خارج هذا العالم المبين للصورة والذى لا معنى له عالم آخر خلق الإنسان من أجله حتى يهيء لنفسه فى هذه الدنيا زاد الآخرة ويتهيأ له استعداد الاتصال به . وإذا لم يستطع أن يسمو إلى درجة الملائكة فإنه يرتفع عن طبقة البهائم والحيوانات . وبعد المزيد من الحمد والشكر للمعبود عزت كبرياؤه لتنبثق من أعماق الروح ولتجرى على عذبة اللسان الكثير الجم من الصلوات والتحيات والسلام والثناء على الروح المقدسة والتربة المطهرة والروضة المعطرة لسيد الأنبياء وقدوة الأصفياء على أن لا تنقطع تلك الصلوات والتحيات حتى تسكن نجوم السماء عن دورانها وأوتاد الأرض عن حركاتها . وبعد السلام على سيد العالم عليه السلام لتصل وتتصل على مرور الأيام وتعاقب الشهور والأعوام، آلاف التحيات والمدح والثناء على الأرواح الطاهرة للصحابة الطيبين وأهل بيت النبى الذين كانوا نجوم سماء الهداية وشموع جماعة الرشد والعناية آمين يارب العالمين ، يقول مؤلف هذا الكتاب العبد المذنب محمد بن المنور بن أبى سعيد بن أبى طاهر بن الشيخ الكبير سلطان الطريقة وبرهان الحقيقة أبى سعيد فضل الله بن أبى الخير الميهنى قدس الله روحه العزيز ونور مضاجعهم إنه قد قصر همته منذ بداية الطفولة وعنفوان الشباب على طلب فوائد الأنفاس الميمونة وآثار ومقامات جده سلطان الطريقة وبرهان الحقيقة أبى سعيد فضل الله بن أبى الخير الميهنى قدس الله روحه العزيز . وكان يتنسم الأخبار من المشايخ أبنائه وحفدته ومن الأكابر نور الله مضاجعهم . وقد بذل غاية وسعه فى تصحيح أسانيد تلك الأخبار . ولما كان ذلك العهد عهد دولة الدين ، وكان ذلك العصر عصر ازدهار الطريقة والشريعة ، وزينة العالم بوجود الأئمة الكبار الذين كانوا شموس سماء الدين ونجوم فلك اليقين ،

وكانت الأرض مزدانة بالمشايخ العظام الذين كانوا أوتادا لأرض الطريقة وأقطاباً لعالم الحقيقة ومريدين (ص ٦) صادقين ومحبين مشفقين قصروا همتهم على طلب الشريعة ووقفوا قوتهم على السير فى الطريقة فإن الجميع ، لبركة ويمن عصرهم ولكى يكون لهم دليل ومعين فى سلوك نهج الحقيقة ، يتذرعون به إلى تلمس الطريق لحضرة الحق ويفرقون بين الخواطر النفسانية والإلهامات الروحانية بهدى منه ، كانوا يذكرون كثيراً أحوال ومقامات شيخنا وفوائد أنفاسه وآثاره قدس الله روحه العزيز ويقضون أيامهم فى تذاكر ذلك ، ولهذا السبب لم تتحرك همة مشايخنا نور الله مضاجعهم إلى جمعه . ولما كانت جميع الخواطر مستنيرة بتلك الفوائد ، وجميع الأسماع مشنفة بسماعها وجميع الألسنة معطرة بذكرها ، لم تكن جماعة المنبئين فى حاجة إلى إجمال هذا ولا تفصيله لأن تلك المقامات والمقالات كانت معروفة بين الخاص والعام وكانوا فى غنى عن جمعها . وظل الأمر كذلك حتى ظهر الغز وهاجت فتنتهم فى خراسان ووقع ما وقع فى خراسان على وجه العموم ورأينا ما رأينا وقاسينا ما قاسينا فى ميهنه على وجه الخصوص . والحق أن بلداً من بلاد خراسان لم يبتل بمثل ما ابتليت به ميهنه وأهلها من المحن والمشقة ، ومصداق ذلك الخبر الذى يقول « أشد البلايا للأنبياء ثم للأولياء ثم للأمثل فالأمثل » قد تحقق لنا ولأهل خراسان جميعاً وشوهد عياناً بياناً فيما ابتليت به ميهنه ، وإذا أجملنا القول قلنا إنه هلك فى ميهنه وحدها بأنواع التعذيب من نار وتراب وغير ذلك مائة وخمسة عشر من أبناء الشيخ أبى سعيد الصغار والكبار واستشهدوا بحد السيف ، كما استشهد آخرون خارج المدن بسبب القحط والوباء الذى تخلف عن هذه الحادثة رحمة الله عليهم أجمعين . وينبغى أن نقيس على هذه الحال المريدين الصادقين والمحبين العاشقين وعظماء الدين وشيوخ الطريقة الذين احتجبوا بنقاب التراب فظهر قحط فى الإسلام وانمحت عزته ، وفسد أمر الدين

واختل اختلالا عظيما ، (ص ٧) وحل زمن انقراض أئمة الدين وانقطاع مشايخ الطريقة وأنجز الله سبحانه وتعالى وعده « أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها » ، وظهر البرهان القاطع على حقيقة القول المأثور « ان الله تعالى لا ينتزع العلم انتزاعا ولكن يقبض العلم بقبض العلماء » وتوقف الطلب وفسدت العقائد فسادا تاماً ، وقنع أكثر أهل الإسلام من الإسلام بالاسم ومن الطريقة والحقيقة بالرسم المجرد . ومن ثم بدت فى دخيلة هذا المسكين جذبة من جذبات الفضل الربانى دفعته للاستجابة لمطالب بعض المريدين فى أن يكتب كتابا فى مقامات وأحوال وآثار جده سلطان الطريقة وبرهان الحقيقة الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير قدس الله روحه العزيز لتتوفر رغبات الراغبين فى دخول الطريق وليكون مرشدا وقدوة للسالكين فى سلوك طريق الحقيقة كما جاء فى قوله تعالى « إنا على آثارهم مهتدون » وعلى نحو ما قال فى موضع آخر فى ذكر جماعة الأصفياء الذين خصهم بنظر عنايته الإلهية : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »

ولما كانت أحوال ميهنه قد أصبحت بسبب تعاقب الأيام ووقوع الغارات والنهب والسلب بحيث لم يبق بها من آثار شيخنا قدس الله روحه العزيز سوى قبره وضريح قائم فانه لم يصل إلى اليد رغم بذل الجهد الجهيد إلا القليل من المطلوب وبعض المتفرقات من كل جانب . أما ما كان مستقرا فى الخواطر فقد طواه النسيان لكثرة البلاء والمشقة ، وبقى فى حجاب (شغلنى الشعير عن الشعر) .

وقد كانت مدة عمر شيخنا قدس الله روحه العزيز ألف شهر بلغت ثلاثا وثمانين سنة وأربعة أشهر على نحو ما جرى على لفظه المبارك فى مجلس الوداع (ص ٨) إذ قال: لقد تم لنا ألف شهر وليس بعد الألف عدد . وكيف يمكن

ضبط هذه المدة ومراقبتها وهذا نفسه محال ، ومن جملة ماليس فى الامكان القدرة على نقل جميع أقوال وأفعال وحركات وسكنات شخص طيلة مدة عمره . أما ما كان فى إمكان هذا الداعى وفى مجال قدرته فقد نفذه وبذل قصارى جهده فيه واجتهد بأقصى مايمكنه فى تصحيح أسانيده ، كما عمد إلى حذف كل ما كان فيه خلل فى روايته أوشبهة فى إسناده وتحاشى ذكره .

وكان ابن عمى الإمام العالم الأجل جمال الدين أبو روح لطف الله بن أبى سعيد قد ألف فى عهد الاستقرار كتيبا قبل هذا تلبية لطلب أحد المريدين وجعله على خمسة أبواب وروى فى كل باب خبرا بإسناد ، وأورد فصلا فى معنى ذلك الخبر على نحو يليق بكمال فضله وفصاحته وجعل موضوعه أحوال وأقوال الشيخ قدس الله روحه العزيز ولكنه سلك فيه سبيل الاختصار والإيجاز. ولا يريد الداعى أن يعرض مع هذا الجوهر النفيس معدنه الخسيس ، أو أن يضع هذه البضاعة المزجاة فى مقابل ذلك النصاب من الفضل والبلاغة لأنه لا يرى نفسه أهلا لذلك فكيف يتأتى له أن يقبض بيده على زمام عظمته ، وكيف يستطيع أن يصل فى أى فن من فنون فضله إلى غبار دابته . . ولكنهم قالوا انهم يسلكون المعادن الخسيسة مع الجوهر فى سمط . وكان المأمول أن ما أتى به هذا العظيم وما انتهى إليه ذلك الداعى وصح من آثاره وكلماته يجرى على شبات القلم حتى يبقى بين الناس طويلا . أما ما اندرس بسبب الفتن والقلاقل فيعاوده رونقه وجدته ويبقى ذكرا لنا من بعدنا فمن المعلوم على وجه اليقين أنه كلما تباعد الزمان بالناس ازداد القصور فى همتهم (ص ٩) ،وقل سالكو الطريق، ولا يعين العلم كل شخص . والمعاملة نفسها كبريت أحمر فى الندرة فلا أقل من أن يشنف أسماع المعتقدين

بكلام عظيم الدين وأوحد العهد هـذا ويستروح قلوب وأرواح مدعى الطريقة على نحو ماقيل :

إذا لم أستطع أن أشترى ثغرا معسولا

فلا أقل من أن أذود عنـه الذباب

ومن قول العظماء (عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة)

ولما كانت أحوال جمـلة النـاس ومراتب أعمالهم لاتخرج عن ثلاث هى البداية والوسط والنهاية فقد جعلت هذا الـكتاب على ثلاثة أبواب :

الباب الأول:

فى بداية حال الشيخ قدس الله روحه العزيز منذ أيام طفولته حتى بلوغه سن الأربعين وماوصل إلينا من تعليمه ورياضاته ومجاهداته فى هذه المدة .

الباب الثانى :

فى أواسط حال الشيخ قدس الله روحه العزيز ، وهذا الباب على ثلاثة فصول

الفصل الأول : فى الحـكايات التى ظهرت عن كراماته ، والتى ثبت لنـا صدقهـا من الرواة والثقاة .

الفصل الثـانى : فى الحـكايات المتضمنة للفوائد وبعض الحـكايات وأقوال المشايخ التى جرت على لفظه المبارك من أجل الفائدة .

الفصل الثالث : فى بعض الفوائد والنـكات المتفرقة من الأقوال ، وبعض الدعوات والأبيات المتفرقة التى جرت على لفظه العزيز ، وعدد من رسائله التى وصلت إلينـا .

الباب الثالث : فى انتهاء حال شيخنا قدس الله روحه العزيز وهو على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : فى وصاياه عند وفاته .

الفصل الثـانى : فى كيفية وفاته .

الفصل الثالث : فى الـكرامات التى ظهرت بعد وفاته ، وبعض ما أشار
(ص ١٠) إليه فى حياته ورآه الناس بعد وفاته .

وقد سميت هذه المجموعة باسم أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد وسألت الحق سبحانه وتعالى التوفيق فى اتمامه وسلوك جادة الاستقامة والرشاد . وقد حذفت منه الأسانيد طلبا للايجاز والاختصار ، اسأل الحق سبحانه وتعالى التوفيق بكمال فضله وكرمه ولطفه ، وأن ييسر لى ما يطلبه أهل العقيدة من حقوق الطريقة وأن يحفظهم من التراجع والنقصان ونعوذ بالله من الحور بعد الـكور فانه خير موفق ومعين .

وبعد . فان هذا الداعى بالخير يأمل فى أن يسدى إلى حضرة ملك الاسلام السلطان المعظم وملك الملوك الأعظم ، مالك رقاب الأمم ، ومولى ملوك العرب والعجم ، مغيث العباد ، ظل الله فى البلاد ، ناصر أولياء الله، قاهر أعداء الله ، معين خليفة الله ، غياث الدنيا والدين ، معز الإسلام والمسلمين ، عضد الدولة القاهرة ، تاج الملة الزاهرة ، جلال الأمة الباهرة ، نظام العالم ، أبى الفتح محمد بن سام قسيم أمير المؤمنين أعلى الله كلمته ، وعقد بالخلود دولته أن يسدى إليه خدمة ، ويقدم إليه تحفة حتى لا يكف هذا الداعى بالخير فى آية حال عن الدعاء لدولته وأداء شكر نعمة ذلك الملك العالم العادل وحتى لا تخلو حضرة جلاله وبساط رفعته وهما موضع سجود الملوك ومقبل سلاطين العالم من تحفة وهدية هذا الداعى المخلص . وفى كل وقت تعرض فيه لطيفة من تلك الفرائد ودقيقة من تلك الفوائد الدينية على المسامع الشريفة أسمعها الله المسار والبشارات ، وتحظى بمطالعة الملك

الميمونةوالنظر السلطانىفان ذكرهذا الداعى بالخيريتجددعلىوجه التشريف وسبيل التعريف فى الحضرة العليا والمجلس الأشرف وهما كعبة الآمال وقبلة الاقبال . وعلى ذلك فمهما مددت يد الطلب إلى زوايا القلب فان كل ما خططته على رقعة هذه الهدية ولو كانت بساط الربع المسكون قد أصبح (ص ١١) ناقصا وصغر كالديدان ازاء هذا البساط الملكى ، بل كان فى حقيقة أمره مثل ساق الجرادة أمام سايمان . وبحكم تلك المقدمة فان هذا الداعى المخلص رأى أن الدوران حول تلك الهدية والتحفة التى لا نظير لها فى العالم أقرب إلى الأدب ، فمن المحقق أن التحف الدنيوية فانية فناء الدنيا ولا يمكن أن تتبقى السعادة من مطالعتها . ورغم أنه ليس فى الدنيا بأسرها تحفة أكبر ولا أعز عند هذا الداعى بالخير من هذه التحفة فإنهقد أرسلها على سبيل الهدية إلى تلك الحضرة وهى أكبر حضرة . ولما كانتهمة السلطان الأعظم مقصورة على إحراز الفوائد الدينية ففى معتقد هذا الداعى المخلص أن هذه التحفة ستقع موقع القبول إذانه وإن كان فى المستطاع تهيئة الزادلطريق العالم الباقى فإن متابعة سنة المصطفى ومتابعة سيرة الاولياء بعد هذه المتابعة وبعد العلم التام على كيفية السير والوقوف على دقائق الآداب والسنن الباقيةتتأتى وتتاح .

وبما أن الشيخ أبا سعيد قدس الله روحه العزيز هوشيخ ووالد ورائد ومقتدى هذا الداعى فإن الخادم الداعى قد كرس أوقاته طوال عمره لطلب فوائد انفاسه ومقالاته ومقاماته فى طريق الشريعة والطريقة ، وبذل وسعه وغاية إمكانه فى أن يجعل من هذه الفوائد مجموعا من أجل السائرين إلى تلك العتبة ومريدى تلك الحضرة . وبما أنه لم يجمع أحد من المريدين قبل هذا الخادم فوائد ومقالات شيخه على نحو أوفى من هذا فإنه أراد أن يرسل هذه التحفة وهى أكمل وأكبر التحف

إلى حضرة الملك وهى أفضل وأعظم حضرات ملوك الدنيا . وإن الأمل فى فضل وكرم الحق سبحانه وتعالى ، بل اليقين الصادق أن هذا السلطان العادل كما أنه فى الدنيا أعظم ملك من ملوك العصر سوف يأخذ بعدل وباعتقاد بمذهب وبسيرة أعظم الملوك فى سراى البقاء وجنة عدن ، وسيصل إلى درجة القرب فى حضرة العزة وسيصبح أول سلطان من سلاطين الآخرة فى الجنة وفقا لما جاء فى الخبر عن صاحب الشريعة صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : أن ساعة واحدة من عدل الملك العادل أفضل من عبادة العابد التقى سنوات عديدة . ولما كان المصطفى صلى الله عليه وسلم قد قال « الدنيا مزرعة الآخرة » . وهذا الملك لم يبذر فى الدنيا سوى بذرة العدل والإنصاف والرعاية والإحسان بالضعفاء والعاجزين ،والمروءةمع أهل الدين والخير، (ص ١٢) فلاشك أن ريع هذه البذرة لن يكون فى الغد إلا تلك الثمرة فإنه « فى مقعدصدق عند مليك مقتدر » . وأملهذا الداعى أن يلحظه وأن يشرفه بالقبول فى حضرته العالية، وأن يعتبر هذا المسكين فى كل حال وفى كل مقام الداعى الخاص لتلك الدولة ، وأن يعرفه كشاكر لانعام تلك الحضرة وهى ملجأ وملاذ الناس أجمعين . وإذا ما بدرت من هذا الخادم الداعى عثرة أو هفوة على سبيل النسيان واطلع عليها الملك العادل خلد الله سلطانه بإصابة رأيه الذى ينظم الدنيا فعليه أن يتجاوز ويعفو عن تلك الهفوة بكرمه الملكى وأن يسترها بفضله الذى لاينتهى .وليجعل الخالق تعالى وتقدس،شمس دولة ظل الحق هذا مشرقة إلى قيام الساعة وأن يحرسها ويصونها من كسوف الزوال، وان يجعل عدل وانصاف شمس سلاطين الدهر وملوك العصر إلى أبد الآبدين دائمة الاشراق على رؤوس ضعفاء الرعية وكافة الاتباع ، وأن يقرن ملك تلك الدنيا الفانية بسلطنة ومملكة الدنيا الباقية، وأن ييسر بفضله وكرمه كل مافيه صلاح هذا السلطانالعادل والحمد لله رب العالمين والصلاةعلى نبيه محمد وآله أجمعين وحسبنا الله وحده وهو نعم المولى ونعم المعين . . .



الباب الأول

فى بداية حال شيخنا أبى سعيد بن أبى الخير قدس الله روحه العزيز



إعلم أن شيخنا قدس الله روحه لم يشر إلى نفسه قط بلفظ « أنا » أو « نحن » وحيثما ذكر نفسه قال « هم قالوا هذا » أو « هم فعلوا هذا » . وإذا ذكرت أقوال الشيخ فى هذا الكتاب على المنوال الذى جرى به لفظه المبارك واحتفظت بسياق الكلام تبركا فإنه يكون بعيدا عن فهم العوام . بل أن بعض القراء إن لم يكن أكثرهم قد يخطئون فى نظم الكلام وترتيب المعانى، ولا يستطيعون أن يذكروا دائما هذا الامر وهو أن الشيخ قد أراد بلفظ « هم » نفسه ، ويكون ذلك صعبا عليهم وخصوصا على من لم يقرأ مقدمة الكتاب ولم يعرف هذا الأمر . وعلى هذا فانى لهذه الأسباب حيثما ذكر الشيخ لفظ « هم » سأذكر لفظ « نحن » لأن هذا اللفظ معروف ومتداول بين الناس ، وهو أقرب إلى فهم القراء . ولكن ينبغى أدراك هذا الأمر وهو أنه حيثما ذكرنا لفظ « نحن » على لسان الشيخ ، فإن الذى جرى على لسانه المبارك هو لفظ « هم » والعاقل تكفيه الاشارة .

أعلم أن والد شيخنا قدس الله روحه العزيز كان يدعى « أبو الخير » وكانوا فى ميهنه يسمونه « بابو بوالخير » . وكان عطارا، ورعا متدينا ، على علم بالشريعة والطريقة ، يجلس دائما مع أهل الصفة وأصحاب الطريقة .

وقد كانت ولادة الشيخ أبى سعيد قدس الله روحه العزيز فى يوم الاحد غرة شهر محرم لسنة سبع وخمسين وثلاثمائه (٩٦٧) . وكان والد شيخنا يجلس دائما مع جماعة الصوفية فى ميهنه حيث كانوا يجتمعون كل ليلة لمدة أسبوع فى منزل واحد من هذه الجماعة . وإذا ماوفد على المدينة متصوف أو درويش تجمعوا وبعد أن يتناولوا قليلا من الطعام ،ويفرغوا من الصلاة والأوراد كانوا يقيمون

السماع . وذات ليلة كان بابو بو الخير ذاهبا إلى اجتماع للدراويش فالتمست والدة الشيخ رحمة الله عليها (ص ١٦) من أبيه أن يأخذه معه لكى ينال بركة الدراويش والصوفية فأخذ بابو بو الخير الشيخ معه . وعندما انشغلوا بالسماع أنشد القوال هذه الرباعية :

أجل إن هذا العشق هو هبة للدراويش
وان اتحادهم مع الله لفى إنكارهم ذواتهم،
زينتهم ليست فى الدرهم والدينار
وكل مايعنيهم هو أن يبذلوا أرواحهم

وعندما أنشد القوال هذا الشعر اعترت الدراويش حال من الوجد وأخذوا يرقصون ويؤدون الذكر على هذا الشعر طوال الليل حتى مطلع الفجر . ولكثرة ماردد القوال هذه الرباعية حفظها أبوسعيد عن ظهر قلب ، وعندما عادا إلى المنزل سأل والده عن معنى ما كان يردده القوال وانتشى الدراويش من الاستماع إليه . فقال له والده : صه ، إنك لاتستطيع إدراك معناه ، ثم ماشأنك به ؟ . وعندما وصل أبوسعيد تلك الدرجة التى وصل إليها فيما بعد ، وكان والده قد توفى ، كثيراً ما كان يذكر هذه الرباعية فى أحاديثه قائلا :

من لى بأبى الخير اليوم لأقول له أنه هو نفسه لم يكن يعلم معنى ماسمعه فى تلك الليلة !! .

وقيل أن والد شيخنا كان يحب السلطان « محمود » حبا جما فبنى فى ميهنه قصرا – يعرف الآن بقصر الشيخ – ونقش على جدرانه اسم السلطان وذكر خدمه وحشمه وأفياله ومراكبه ، وكان الشيخ صغيرا فى ذلك الوقت فقال لوالده : ابن لى مكانا فى هذا القصر يكون خاصا بى . فبنى له والده حجرة فوق القصر – وهى

صومعة الشيخ . ولما تم بناؤها وطليت جدرانها ، أمر الشيخ بأن يكتبوا على جدرانها وسقفها كلمة « الله ، الله ، الله » فقال له والده : ماهذا يابنى ؟ . فأجاب الشيخ : كل شخص يكتب على جدران منزله اسم أميره . فسر والده وأصدر أمره بإزالة كل ما كان قد كتب على جدران القصر (ص ١٧) ومنذ تلك الساعة أخذ ينظر إلى ولده نظرة أخرى ، ويهتم بأمره .

وقد تعلم شيخنا أبو سعيد قدس الله روحه العزيز القرآن على أبى محمد العنازى وكان إماما يتصف بالورع والتقوى ، من مشاهير قراء خراسان ، وقبره رحمة الله عليه فى نسا .

قال الشيخ: عندما كنت أتعلم القرآن فى طفولتى، اصطحبنى والدى بابو بو الخير إلى صلاة الجمعة . وفى الطريق إلى المسجد التقينا بالشيخ أبى القاسم بشر ياسين ، وكان من مشاهير علماء عصره وكبار مشايخ دهره ، يقيم فى ميهنه .

وعندما رآنى سأل والدى: ابن من هذا الصبى؟ .فقال له والدى: إنه ابنى . فاقترب منى وجلس القرفصاء أمامى ونظر فى وجهى واغرورقت عيناه بالدمع ثم قال :

ياأبا الخير ، إننى لم أكن أستطيع الرحيل عن هذه الدنيا لأننى كنت أرى مقام الولاية خاليا ، والدراويش ضائعين . والآن وقد رأيت ولدك اطمأننت إلى أنه سوف يكون للولاية شأن على يد هذا الصبى.

ثم قال لوالدى : عندما تنتهى من الصلاة أحضره إلى .

ولما فرغنا من الصلاة أخذنى والدى إلى أبى القاسم بشر ياسين . وعندما ذهبنا إلى صومعته وجلسنا أمامه كانت هناك كوة مرتفعة جداً فى تلك الصومعة فقال أبو القاسم بشر لوالدى : احمل أباسعيد على كتفك لينزل رغيفا من فوق

تلك الكوة . فحملنى والدى ، ومددت يدى وأنزلت ذلك الرغيف ،وكان رغيفاً ساخناً شعرت بسخونته من لمس يدى له . فأخذ أبو القاسم الرغيف من يدى وبكى وقسمه إلى نصفين وأعطانى نصفا وقال لى : كله . وأكل هو النصف الآخر . ولم يعط والدى شيئا . فقال له والدى : أيها الشيخ ، ما السبب فى أنك لم تعطنى نصيبا منه لأتبرك به !. فقال أبو القاسم بشر: يا أبا الخير . لقد وضعنا هذا الرغيف فوق تلك الكوة منذ ثلاثين عاماً . وقد وعدنا بأن من يصير هذا الرغيف ساخنا فى يده سوف تزهو به الدنيا(ص١٨)ويختم به التصوف . والآن تحققت هذه البشرى وسوف يكون ابنك ذلك الرجل. ثم قال لى أبو القاسم بشر: ياأبا سعيد احفظ هذه الكلمات وقل دائما : « سبحانك وبحمدك على حلمك بعد علمك ، سبحانك وبحمدك على عفوك بعد قدرتك » فحفظت هذه الكلمات وجعلت أرددها دائما .

قال الشيخ : وخرجنا من عند أبى القاسم ولم أكن أفهم ما ذا كان يقول فى ذلك اليوم . ثم امتد عمر الشيخ أبى القاسم حتى كبر شيخنا وأفاد منه كثيرا .

قال شيخنا : عندما أتممت حفظ القرآن قال لى والدى : يجب أن تذهب غداً إلى المؤدب . فأخبرت أستاذى بذلك فقال لى . على بركة الله ، ودعا لى ثم قال : أذكر عنى هذا القول: « لأن ترد همتك على الله طرفة عين خير لك مما طلعت عليه الشمس » فحفظت هذا القول . وقال لى الأستاذ أعفنى ! . فقلت : أعفيناك . فقال : بارك الله تعالى علمك .وفى اليوم التالى أخذنى والدى إلى أبى سعيد العيارى ، وكان إماما وأديبا ومفتيا ، ومكثت لديه مدة كنت خلالها أتردد على الشيخ أبى القاسم بشر ياسين وأتعلم منه علوم الإسلام .

قال الشيخ قدس الله روحه العزيز : قال لى أبو القاسم بشر ياسين يوما : يا أبا سعيد اجتهد فى أن تطرح الطمع فى معاملاتك (مع الله) لأن الإخلاص لايتأتى من الطمع . والعمل مع الطمع هدفه الحصول على الأجر، وهو مع الإخلاص عبادة . ثم قال : عليك أن تحفظ ماقاله الرسول عليه السلام . قال عليه الصلاة والسلام : « قال الله لى ليلة المعراج : يامحمد مايتقرب المتقربون إلىّ بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولايزال يتقرب إلىّ العبد بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ويداً ومؤيداً ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يأخذ ».

ثم قال أبو القاسم : إن أداء الفريضة (ص ١٩) إظهار للعبودية وأداء النوافل إظهار لحب الله ، ثم أنشد هذا الشعر :

كمال الحب يأتى من حبيب خلا من الطمع
وأى قيمة لما يقدر بالثمن
يقينا ان المعطى خير لك من العطاء
وما العطاء حتى ولو كان عين الكيمياء

وقال شيخنا قدس الله روحه العزيز : كنت يوماً عند أبى القاسم بشر ياسين فقال لى : يابنى هل ترغب فى التحدث إلى الله ؟ فقلت: نعم ، وكيف لا ؟. فقال كلما خلوت بنفسك قل هذه الرباعية :

ياحبيبى اننى لاقرار لى بدونك
ولست بقادر على أن أحصى إحسانك علىّ
لو كانت كل شعرة فى جسدى لسانا
ما استطعت أن أفى بواحد على الألف مما تستحق من شكر

فكنت أردد هذا باستمرار حتى فتح لى الطريق إلى الله فى طفولتى .

وقد توفى أبو القاسم بشر ياسين فى ميهنه سنة ثمانين وثلاثمائة (٩٩٠) . وكلما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز يذهب إلى مقابر ميهنه كان يبدأ بزيارة قبره .

وقال الشيخ أثناء حديثه يوما : كان هناك شيخ كفيف مؤمن يأتى إلى هذا المسجد — وأشار إلى المسجد الذى يقع على باب ضريحه — وكان يجلس ويضع عصاه خلف ظهره . وفى يوم كنت عائداً من عند المؤدب ومعى كتبى ، فاقتربت منه وألقيت عليه التحية . فرد على قائلا : أأنت ولد « بابوبوالخير » ؟ قلت : نعم . قال : ماذا تقرأ ؟ قلت كتاب كذا ، فقال : لقد قال المشايخ « حقيقة العلم ما كشف على السرائر » ، ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت مامعنى الحقيقة وماذا يكون الكشف حتى أطلعنى الله تعالى بعد ستين عاما على معنى ذلك الكلام (ص ٢٠) وأظهرنى عليه .

وعندما فرغ شيخنا أبو سعيد قدس الله روحه العزيز من تعلم اللغة ورغب فى تعلم الفقه قصد مدينة مرو : قال الشيخ يوما أثناء حديثه : عندما ذهبت من ميهنه إلى مرو كنت قد حفظت ثلاثين ألف بيت من الشعر . وبعد ذلك ذهب الشيخ إلى مرو عند الإمام أبى عبد الله الخضرى وكان إمام زمانه ومفتى العصر، مطلعا اطلاعا تاما على علم الطريقة ، ومن جملة الأئمة الكبار . وكان الخضرى تلميذاً لابن سريج ، وكان ابن سريج تلميذا للمزنى ، والمزنى تلميذا للإمام الشافعى المطلبى رضى الله عنه .

وكان شيخنا قدس الله روحه العزيز شافعى المذهب ، وكذلك جميع المشايخ الذين عاشوا بعد الشافعى كانوا يعتنقون هذا المذهب . وكل من اعتنق مذهباً آخر قبل السير فى الطريق إذا أراد الله سبحانه وتعالى بكمال فضله وعنايته الأزلية

أن يمنحه يوما محبته ، ويختصه بالقربى التى لهذه الطائفة فى حضرة عزته ، وجهه إلى المذهب الشافعى، مثل الشيخ الحضرى الذى كان يقيم فى بغداد وغيره من المشايخ الذين إذا ذكروا وذكرت أحوالهم انتهى الأمر بنا إلى التطويل وليس هدفنا ذكر هذه الأمور .

أما المشايخ الذين عاشوا قبل الشافعى فقد كانوا على مذهب السلف أو على مذهب شيوخهم .

وتعتقد جماعة أن الشيخ الكبير بايزيد البسطامى قدس الله روحه العزيز كان يعتنق مذهب الإمام العظيم أبى حنيفة الكوفى رضى الله عنه ، ولكن الأمر ليس كذلك ،لأن بايزيد قدس الله روحه كان مريدا وسقاء لجعفر الصادق رضى الله عنه ، وكان جعفر رضى الله عنه يدعوه بايزيد السقاء . وقد اعتنق بايزيد مذهب جعفر الصادق ،لأنه كان شيخه، وإمام أسرة المصطفى المباركة ،صلوات الله وسلامه عليه . وليس له بنفسه أية صفة فى الطريقة ، لأن المريد لا يكون إلا على مذهب شيخه ، (ص ٢١) ولا يجوز له مخالفته فى أى شىء من الاعتقاد أو الحركات أو السكنات .

ولكيلا يظن أحد ، بهذه الكلمات التى جرى بها القلم ، أن المشايخ كانوا يعتنقون مذهب الإمام العظيم الشافعى لأن هناك نقصاً فى مذهب الإمام أبى حنيفة رحمة الله عليه ، نقول كلا وحاشا ولا يجوز مطلقا أن يتخيل أحد هذا ، ونعوذ بالله أن يخطر هذا على خاطر أحد لأن عظمته وزهده أكثر مما يصل إليه علمى وشرحى ، فقد كان سراج الأمة ، وقدوة ملة النبى صلوات الله وسلامه عليه . والمذهبان متساويان فى الحقيقة ، وكل ما صدر عن الإمامين من أقوال كانا فيه متابعين لكلام الله المجيد سبحانه وتعالى ، ومطابقاً لنص حديث المصطفى

صلوات الله وسلامه عليه، والحق أن كل من ينظر فى المذهبين دون تعصب يعرف أن كلا الإمامين فى الحقيقة واحد ، وإذا وجد اختلافا فى الفروع وجب عليه أن ينظر إلى ذلك بعين « اختلاف أمتى رحمة » . وإذا كان أحد الإمامين قد تساهل فى مذهبه فينبغى أن يراه بعين « ما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، وينظر إليه بنظر « بعثت بالحنيفية السمحة السهلة » لا عن طريق التعصب الذى ابتلى به أكثر الناس . ويجب أن يعلم علم اليقين أن كل ما قال الإمامان لا يمكن أن يكون إلا حقاً . وهؤلاء الأئمة الكبار معصومون ومعافون مما فينا من تعصب على النحو الذى ورد بإسناد عن أبى الدراوردى فقد قال : « رأيت مالك بن أنس وأبا حنيفة رضى الله عنهما (ص ٢٢) فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العشاء الأخيرة وهما يتذاكران ويتدارسان حتى إذا وقف أحدهما على القول الذى قال به وعمل عليه أمسك أحدهما عن صاحبه من غير تعنت ولا تعسف ولا تخطئة لواحد منهما حتى صليا الغداة فى مجلسهما ذلك » . ولكن لما كان طريق هذه الطائفة هو الاحتياط ، ولما كان المشايخ قد أوجبوا على أنفسهم فى بداية المجاهدة أشياء من أجل الرياضة بعضها سنة وبعضها نافلة، على نحو ما ذكر أبو عمرو البشخوانى أنه وفقاً للخبر الذى يقول إن المصطفى صلوات الله وسلامه عليه قال « اليد اليمنى لأعالى البدن واليد اليسرى لأسافل البدن » لم تصل يدى اليمنى منذ ثلاثين عاماً تحت سرتى ، ولم تصل يدى اليسرى فوق سرتى الالسنة .

وبشر الحافى قدس الله روحه العزيز الذى لم ينتعل حذاء فى قدمه قط ، وقال إن الله سبحانه وتعالى يقول « والله جعل لكم الأرض بساطا » فالأرض

بساط الله سبحانه وتعالى فلا يليق بى أن أسير عليها بحذاء ونعل . وسار عارى القدمين طيلة عمره ولهذا السبب لقب بالحافى .

وقد قال الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز : لقد فعلت كل ما قرأت ورأيت فى الكتب وسمعت أن المصطفى صلوات الله عليه كان يفعله . وكل ماسمعت وطالعت فى الكتب أن الملائكة تفعله فعلته كله فى بداية تصوفى . (ص ٢٣) وسوف يأتى شرح ذلك فى مكانه .

كانت سيرة المشايخ جميعا على هذا النحو ، فساروا طوال حياتهم على سنة المصطفى وأوجبوا على أنفسهم النوافل والأوراد . وجملة القول أن كل مايتعلق بإذلال النفس والاحتياط فى طريق الدين كان موضع اختيارهم. ولما كان فى مذهب الإمام الشافعى رضى الله عنه ضيق فقد اختارته هذه الطائفة لإذلال أنفسهم لا لأن هناك فرقا بين المذهبين فى حقيقتهما أو أن أحد الإمامين يفضل الآخر ؛ وفى رأينا أنهم مثل الخلفاء الراشدين الذين نعرف أنهم جميعا على حق ونحبهم جميعا من أعماق قلوبنا ونقر بفضائلهم ، ونعتقد فيهم ، ونقيم الدليل على أحقية كل منهم للخلافة ، ونعترف بهم ولا ننكرهم ، وندعو الجميع ألا يطعنوا بسبب هوى النفس والعناد والتعصب فى صحابة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه . وأئمة السلف والمشايخ الكبار رضى الله عنهم أجمعين ، وإلا يصدقوا الوقيعة وأن يعرفوا حقهم جميعاً .

وقصارى القول أن اعتراف الانسان بأن كل شخص أفضل منه أمر طيب جدا . والقول بترك الاعتراض فى جميع الأحوال طريق حسن جدا . وإنه لمن الأقرب للصواب لمن يتتبع عثرات الآخرين أن يشتغل بإصلاح نفسه . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يقرب الجميع إلى طريق رضاه بفضل منّه وجوده .

وقد قرأ شيخنا قدس الله روحه العزيز على الإمام أبى عبدالله الخضرى خمس سنوات وعندما أتم دروسه (ص ٢٤) أنتقل هذا الأمام إلى رحمه الله تعالى ، وقبره بمرو .

ولما توفى الخضرى اختلف الشيخ على الأمام أبى بكر القفال وقرأ عليه الفقه خمس سنوات أخرى . وكان زملاؤه فى درس القفال الشيخ ناصر المروزى والشيخ أبو محمد الجوينى والشيخ أبو على سنجى وكان كل منهم قدوة الدنيا . وفى هذه المدة أتم شيخنا على القفال درسين ثم ترك مرو قاصدا سرخس . وعندما جاء إلى سرخس ذهب إلى الإمام أبى على زاهر بن أحمد الذى كان مفسراً ومحدثا وفقيها ، وقد قام بنشر المذهب الشافعى فى سرخس .

وكان الأئمة الذين تخلص أهل هذه الولاية من بدعة الاعتزال ببركة أنفاسهم ورجعوا بفضلهم إلى المذهب الشافعى هم : حميدو محويه فى «شهرستانه» و«فراوة» و « نسا » وأبو عمرو الفراهى فى « استو » و « خوجان » و وبولبابه الميهنى فى « ابيورد » و « وخاوران » وأبو على الفقيه فى « سرخس » رحمة الله عليهم أجمعين .

وكان شيخنا قدس الله روحه العزيز يقرأ التفسير على أبى على الفقيه فى الفجر ، وعلم الأصول فى الظهيرة ، وأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم فى العصر ، وتتلمذ على أبى على الفقيه فى هذه العلوم الثلاثة . وقبر هذا الإمام بسرخس .

وبعد أن قضى شيخنا زمنا يطلب العلم على أبى على ، قابل يوما لقمان السرخسى

قال الشيخ قدس الله روحه العزيز : عندما كنت أطلب العلم على أبى على الفقيه فى سرخس ، كنت أسير يوما فى الضواحى ، فرأيت لقمان السرخسى جالسا على تل يخيط رقعة على ثوبه [وكان لقمان مجذوبا من عقلاء المجانين ،

وكانت له فى بداية أمره مجاهدات كثيرة واحتياط فى المعاملة ، وفجأة حدث له كشف أودى بعقله. وقد ذكر الشيخ أن لقمان كان فى بداية أمره رجلا مجتهدا ، ورعا، ثم ظهر عليه الجنون وأصبح على هذه الحال . قيل له (ص ٢٥) يالقمان ، ماذا حل بك ؟ قال : وجدت أننى مهما أكثرت من العبادة وجب أكثر منه ، فعجزت ، وقلت ياآلهى عند مايصبح العبد شيخا فإن الملوك يعتقونه ، وأنت ملك عزيز ، وقد أصبحت شيخا فى طاعتك فأعتقنى . فسمعت نداء يقول : « يالقمان ، لقد أعتقناك » . والدليل على هذا أن الله أخذ منه عقله . وكثيرا ما كان شيخنا قدس الله روحه العزيز يقول : أن لقمان معتوق الله حرره من أمره ونهيه] (١) فاقتربت منه وأنا أنظر إليه ، وكان الشيخ قد وقف بحيث وقع ظله على ثوب لقمان ، وعندما خاط الرقعة قال لى : يا أبا سعيد لقد خطتك مع هذه الرقعة على هذا الثوب. ثم نهض وأمسك بيدى وقادنى إلى إقليم توجد به خانقاه الشيخ أبى الفضل حسن ونادى على باب الخانقاه فخرج الشيخ أبو الفضل ، وكان لقمان قد أمسك بيدى ، فوضعها فى يد الشيخ أبى الفضل حسن وقال له : ياأبا الفضل ، أرع هذا الشاب لأنه منكم.

وكان الشيخ أبو الفضل حسن رجلا عظيما . وقد سئل الشيخ قدس الله روحه العزيز عندما بلغ الكمال وتوفى الشيخ أبو الفضل حسن ، كيف أرتفع شأنك ؟ . فقال : بفضل نظرة من الشيخ أبى الفضل . فعندما كنت أطلب العلم على أبى على الفقيه فى سرخس ، كنت أسير يوما على شاطىء النهر ، وكان الشيخ أبو الفضل يسير على الشاطىء الآخر ، فنظر إلى نظرة من جانب عينه ، وكل ما أدركته منذ ذلك اليوم حتى يومى هذا كان بفضل هـذه النظرة .

قال الشيخ قدس الله روحه العزيز : فأخذ الشيخ أبو الفضل بيدى وقادنى

(١) العبارات المكتوبة بين الحاصرتين فى هذه الصفحة والصفحات التالية تبين استطراد المؤلف .

إلى الخانقاه . وعند ما جلسا فى الصفة (ص ٢٦) أخذ الشيخ أبو الفضل كتابا وجعل ينظر فيه ، فسألت نفسي كما هى عادة طلاب العلم : فى أى فن هذا الكتاب ؟ فأدرك الشيخ أبو الفضل ذلك وقال لى: يا أبا سعيد ، إن المائة والأربعة وعشرين ألف نبى الذين أرسلوا إلى الناس بعثوا ليعظوا بكلمة واحدة. لقد أمروا بأن يقولوا للناس : قولوا « الله » واستغرقوا فيها . فالذين استمعوا إلى هذه الكلمة رددوها حتى صار كيانهم كله هذه الكلمة فلما تغلغلت فى نفوسهم واستغرقوا فيها تحرروا وطبعت على قلوبهم فأصبحوا فى غنى عن قولها . قال الشيخ أبو سعيد : ولقد استولى على هذا القول حتى حرمنى النوم طوال الليل .

وفى الفجر عندما فرغت من الصلاة والأوراد ، استأذنت الشيخ أبا الفضل وذهبت إلى درس التفسير عند أبى على الفقيه ، فلما جلست إليه بدأ درس هذا اليوم بتفسير هذه الآية « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » .

قال الشيخ : عندما سمعت هذه الكلمة فتح باب فى صدرى وغبت عن نفسى .

ورأى الأمام أبو على ماطرأ على من التغير فسألنى اين كنت ليلة الأمس؟ . قلت عند الشيخ أبى الفضل حسن . فقال لى : انهض وعد حيث كنت ، فحرام عليك أن تترك ذلك الدرس إلى هذا . فعدت إلى الشيخ — أبى الفضل — وقد تملكتنى الحيرة والقلق ، وشعرت بأنى فنيت فى هذه الكلمة . وعندما رآنى الشيخ أبو الفضل قال لى: يا أبا سعيد مستك شدة فلا تعرف رأسك من رجلك . قلت : أيها الشيخ ، بم تأمر ؟ فقال : أدخل وافن فى هذه الكلمة فإنها ستفعل بك الكثير .

قال الشيخ : ومكثت عنده مدة مؤديا حق هذه الكلمة . وذات يوم قال : ياأباسعيد لقد انفتحت لك أبواب حروف هذه الكلمة . والآن تغزو حشود

الألطاف الآلهية صدرك ،فترى أودية (ص ٢٧) مختلفة . ثم قال : لقد قبلت !
فانهض وابحث لنفسك عن خلوة تعرض فيها عن نفسك وعن الناس ، واستسلم
لإرادة الله .

قال الشيخ : فتركت كل هذه العلوم وعدت إلى ميهنه واعتكفت فى محراب
تلك الزاوية — وأشار إلى داره — ومكث سبع سنوات مردداً « الله ، الله ، الله »
وكلما غلبت علىّ حال من النعاس أو الغفلة نتيجة لضعف الطبيعة البشرية ظهر لى
من أمام المحراب شبح فى يده حربة من نار ، فى صورة مخيفة ومفزعة للغاية ، وصرخ
فىّ قائلا : يا أبا سعيد قل « الله » . وبسبب ما كان يبعثه فىّ من الخوف والفزع
كانت الحمى والرجفة تنتابنى لعدة أيام وليال حتى لم تعد تأخذنى سنة من النوم
أو الغفلة .

وفى النهاية أخذت كل ذرة فى وجودى تصرخ قائلة « الله ، الله ، الله » . وبعد
ذلك عدت إلى الشيخ أبى الفضل حسن .

وكان الشيخ أبو الفضل حسن شيخ الشيخ أبى سعيد ، ومريدا للشيخ أبى نصر
السراج الملقب بطاووس الفقراء ، وله مصنفات فى علم الطريقة والحقيقة ، وكان يقيم
بطوس ، وقبره بها .

وكان أبو نصر السراج مريدا لأبى محمد بن عبد الله بن محمد المرتعش الذى
كان رجلا عظيما ، فريداً فى عصره ، وقد توفى ببغداد .

وكان المرتعش مريداً للجنيد ، والجنيد مريداً لسرى السقطى ، وسرى مريداً
لمعروف الكرخى ، وكان هذا مريداً لداود الطائى ، الذى كان مريداً لحبيب العجمى .
وكان العجمى مريداً للحسن البصرى ، والبصرى مريداً لأمير المؤمنين على بن أبى

طالب كرم الله وجهه ، وكان على مريداً للمصطفى صلوات الله وسلامه عليه وابن عمه . وقد كان هؤلاء هم شيوخ شيخنا قدس الله روحه العزيز حتى المصطفى عليه السلام .

وحين ذهب شيخنا قدس الله روحه العزيز (ص ٢٨) إلى الشيخ أبى الفضل حسن أعطاه صومعة فى مواجهة صومعته ، وكان يراقب أحواله دائماً ، ويأمره بما يلزم من شروط تهذيب الأخلاق والرياضة .

قال الشيخ : ذات ليلة كان المريدون قد ناموا وأغلقوا باب الخانقاه وباب الرباط . وجلست مع الشيخ أبى الفضل على الصفة ،ودار الحديث فى المعرفة ، وعرضت مسألة مشكلة ، فرأيت لقمان السرخسى وقد طار فوق الخانقاه،ثم جلس أمامنا وأجاب على تلك المسألة . ولما اتضح لنا الأمر ، وزال ذلك الإشكال، قام ثم طار ثانية وخرج من النافذة . فقال الشيخ أبو الفضل : يا أبا سعيد ، هل ترى مكانة هذا الرجل فى هذه الحضرة ؟ . قلت : أجل . قال : إنه لا يصلح قدوة . قلت: لماذا ؟ قال : لأنه لا علم له .

وعندما مارس الشيخ الرياضة مدة فى تلك الخانقاه ، أمره الشيخ أبو الفضل بأن ينقل زاويته إلى صومعته . وظل معه مدة فى صومعة واحدة ، وكان يراقب أحواله ليلا ونهارا ، ويأمره بالرياضات المختلفة . ثم أرسل الشيخ أبو الفضل الشيخ أبا سعيد إلى ميهنه، وقال له اذهب للعناية بوالدتك . فتوجه الشيخ إلى ميهنه ، واعتكف فى تلك الصومعة التى كانت مقرا له ، وأخذ يمارس قواعد الزهد ، واعتراه وسواس عظيم ؛ حتى أنه كان يغسل باب الصومعة وجدرانها ، ويصب عدة أباريق فى الوضوء ، ويغتسل كل صلاة . ولم يكن يتكىء على باب أو جدار قط ، أو يضع جنبه على فراش . وكان فى هذه المدة يملك ثوباً واحداً ، وكلما تمزق خاط

عليه رقعة حتى صار وزنه فى النهاية عشرين منا .ولم يخاصم أحدا قط ،ولم يتحدث
إلى أحد إلا فى وقت الضرورة ، ولم يتناول فى هذه الفترة (ص ٢٩) طعاما قط
فى النهار ، وكان يفطر على كسرة من الخبز ، ويستيقظ الليل . وأحدث فى جدار
صومعته فتحة بمقدار طوله وعرضه وصنع لها بابا ، كان حين يذهب إليها يغلق بابها
وباب المنزل والصومعة جميعا ويشتغل بالذكر بعد أن يسد أذنيه بالقطن حتى
لا يسمع صوتا يشغل خاطره . وكان يرعى سريرته دائما حتى لا يطوف بقلبه شيء
سوى ذكر الله سبحانه وتعالى ، وأعرض عن الناس تماما . ولما مضت عليه مدة
على هذا النحو أصبح غير قادر على تحمل المجتمع وضاق برؤية الناس .وكان يذهب
دائما إلى الصحارى ويتجول فى الجبال والفيافى ، ويأكل من نباتات الصحراء .
كما كان يختفى فى الصحراء لشهر أو أكثر فيبحث عنه والده طيلة الليل والنهار
فلا يجده حتى إذا ماراآه أحد من أهل ميهنه فى برية أو مزرعة ، أو رأته قافلة فى
مكان من الصحراء أخبروا والده فيذهب ويعيده . وكان الشيخ يعود إرضاء
لوالده ، وبعد أن يمكث عدة أيام يضيق بصحبة الناس فيفر ويعود ثانية إلى الجبال
والصحارى . وكثيرا ما كان أهل ميهنه يرونه مع شيخ مهيب يرتدى ثوبا أبيض
وعندما بلغت حال الشيخ تلك الدرجة التى بلغها سألوه عن هذا الشيخ فقال إنه
الخضر عليه السلام .

وقد رأيت مكتوبا بخط الشيخ أبى القاسم الجنيد بن على الشرمقانى جاء فيه
(ص ٣٠) : كنت أسير مع الشيخ أبى سعيد قدس الله روحه العزيز فى طريق
ميهنه فقال لى بجوار جبل : يا أبا القاسم . هذا هو الجبل الذى رفع منه الله
عز وجل إدريس إلى السماء إذ يقول : « ورفعناه مكانا عليا » وأشار إلى جبل
يعرف بصومعة إدريس عليه السلام على بعد فرسخين من « حرو » و« تياران »

ثم قال: إن النـاس يأتون من الشرق والغرب ويجتمعون فى هـذا الجبل ويمضون الليل هنا ويصلون كثيرا . وكثيرا ماحضرت أنا أيضاً إلى هنا ، وذات ليلة كنت فى هذا الجبل وكان هناك تل بارز منه يفقد من يرقاه الوعى رعبـا إذا نظر إلى أسفل ؛ وفى ذلك الوقت فرشت السجادة على التل وفـكرت فى أن أختم القرآن فى ركعتين بتوفيق الله ، وقلت لنفسى أنه إذا غلبنى النوم سقطت وتمزقت أربا . وعندما قرأت جزءا من القرآن وسجدت غلبنى النوم واستسلمت له فسقطت فى الحال . ولما استيقظت رأيت نفسى فى الهواء فطلبت الأمان ، فرفعنى الله تعالى بفضله من الهواء إلى قمة الجبل .

وكان أكثر مقام الشيخ فى الرباط القديم وهو رباط بجوار ميهنه على طريق ابيورد . وقد قام الشيخ فيه بـكثير من الرياضات والمجاهدات ؛ وكانت هنـاك هضبة على طريق مرو بالقرب من بوابة ميهنه يقال لها « زعقل » (ص ٣١) . ورباط آخر فى طريق طوس على بعد فرسخين من ميهنـه ويقع فى سفح الجبل ، وكانوا يسمونه رباط « سركله » ورباط آخر على بوابة ميهنه يؤدى إلى المقابر .

قال الشيخ : ذات يوم كان هناك وحل كثير ، وكنت ضيق الصدر فجئت وجلست على باب المنزل . فخرجت والدتى إلى الباب وأخذت تقول لى : ادخل . ادخل . فأجبتها بلطف . ولما عرفت أنها ذهبت قمت وأمسكت حذائى فى يدى وأخذت أسير حتى رباط المقابر . وعندما بلغته كان هناك ماء جار فغسلت أقدامى وانتعلت حذائى ، وطرقت الباب . فأقبل حارس الرباط وفتح الباب وأخذ ينظر إلى حذائى وهو يقول : حذاؤه جاف فى مثل هذا اليوم ومع كل هـذا الوحل !. وأخذ يتعجب من ذلك. وأغلقت الباب وقلت: ياربى !. يا إلهى ! . إننى أستحلفك بحقك وبحق ألوهيتك وبحق ربوبيتك وبعظمتك وجلالك وكبريائك وبسلطانك

وسبحانك وتوفيقك ألا تخفى عنى كل ماطلبته منك ومنحته لى ، ومالم أطلبه منك ولم يصل فهمى إليه وخصصتنى به ، وكل ماهو مخزون ومكنون فى علمك وليس لأحد (ص ٣٢) علم به ولاسبيل لأحد إليه ولايعرفه أحد ولايدركه إلا أنت ، أن تحقق إربى . وعندما دعوت هذا الدعاء خرجت ثانية وعدت إلى المنزل .

كانت هـذه الأمكنة المذكورة كلها أماكن عبـادة الشيخ ، إذ أنه كثيرا ما كان يقيم فيها عندما يكون فى ميهنه . وهناك أماكن أخرى كثيرة يطول الأمر لو ذكرت وليس فى ذكرها فائدة أكثر من هذا . ولو وفق الله أحدا وذهب إلى هذه الأماكن وزارها لعرف أنها كانت مقرا لعظيم الدهر وأوحد الدنيا .

ودأب الشيخ على أن يهرب من النـاس ويشتغل بالعبادة والمجاهدة والرياضة وحيدا فى هذه الأماكن . وكان والد الشيخ يبحث عنه دائما ويعيده إلى المنزل فى لطف بعد شهر أو أكثر أو أقل ويراقبه حتى لايهرب .

وقد حكى والد الشيخ هذه القصة فقال : عندما كنا ننتهى من الصـلاة كل ليلة ونعود إلى المنزل ، كنت أغلق الباب بالسلاسل وأنصت حتى ينـام أبو سعيد وعندما يأوى إلى فراشه وأظن أنه استسلم للنوم أنام أنا أيضا .

وذات ليلة استيقظت من النوم فى منتصف الليل ونظرت فلم أر أبا سعيد فى الحجرة فقمت وبحثت عنـه فى المنزل فلم أجده . وذهبت إلى باب المنزل فلم أجد السلاسل فى مكانها فعدت ونمت وأنا أصغى .

وعند (ص ٣٣) الفجر دخل أبو سعيد من باب الدار فى هدوء وأغلق الباب بالسلاسل وارتدى ثياب النوم ونام . وجعلت أرقبه كل ليلة فكان يفعل هذا ، ولم أطلعه على هذا الأمر وتظاهرت بأننى غافل عنه ، ولـكننى كنت أرقبـه كل

ليلة . ولما تكرر هذا أخذتني عليه شفقة الأبوة وانتابتني الهواجس المختلفة . « فالصديق مولع بسوء الظن » ، وأخذت أقول لنفسي أنه شاب ولا يبعد وفقاً لحكمة « الشباب شعبة من الجنون » أن يقطع عليه الطريق إنس أوجن . واستقر رأيي على أن أراقبه ليلة لأرى إلى أين يذهب وماذا يفعل .

وذات ليلة عندما نهض وخرج قمت أنا أيضاً وسرت في أثره ، وأخذت أتبعه حيثما ذهب وأنا أرقبه من بعيد بحيث لا يشعر بي . وجعل أبو سعيد يسير حتى الرباط القديم ، وهناك دخل وأغلق على نفسه الباب فصعدت على سطح الرباط فرأيته وقد دخل إلى المسجد الذي به وأغلق الباب ووضع خشبة خلفه . وأخذت أراقبه من طاقة المسجد ، وكان بالمسجد عمود من خشب ربط به حبل ، فأمسك العمود ، وكان في ركن المسجد بئر . فسار إليها وربط الحبل في قدميه ووضع العمود على فوهة البئر وعلق نفسه بالحبل وتدلى في البئر ورأسه إلى أسفل ، وأخذ يقرأ القرآن وأنا أنصت إليه حتى انتهى من تلاوته وقت السحر ثم سحب نفسه من البئر ووضع العمود مكانه وفتح الباب (ص ٣٤) وخرج وأخذ يتوضأ في وسط الرباط . فنزلت من سطح الرباط وعدت مسرعا إلى المنزل ونمت مطمئنا حتى جاء أبو سعيد ونام كما يفعل كل ليلة . وعند ما حان الوقت الذي ينهض فيه كل ليلة قمت وأيقظته كالمعتاد وذهبنا مع الجماعة ، وجعلت أراقبه عدة ليال فكان يفعل هذا ، وظل يواظب على هذه الرياضة زمنا .

وكان يأخذ المكنسة ويكنس المساجد ويساعد الضعفاء كما كان يذهب أكثر الليالي إلى تلك الشجرة القائمة على باب روضته المقدسة ويتعلق بغصن من أغصانها ويشتغل بالذكر ، وكان يغتسل في جميع الأوقات حتى في البرد القارس بالماء البارد ، ويقوم بخدمة الدراويش بنفسه .

وقد ورد على لسان شيخنا يوما أثناء الحديث قوله : فى يوم من الأيام قلت لنفسي أنني أملك العلم والعمل والمراقبة جميعا ، وأريد الآن أن أغيب عنها، وتفكرت فوجدت أن هذا الأمر لا يتحقق إلا فى خدمة الدراويش ،لأنه «إذا أراد الله بعبد خيرا دله على ذل نفسه ». وعلى هذا اشتغلت بخدمتهم ، وكنت أنظف صوامعهم ودورات مياههم ، وآخذ زنبيلا وأقوم بقضاء حاجاتهم ، واحضر الوقود ، فلما واظبت على هذا العمل أصبح عادة : ثم اشتغلت بالسؤال من أجل الدراويش . ولم أرعلى النفس أقسى من هذا العمل . وفى البداية كان كل من يرانى يعطينى دينارا ،وبمضى الزمن تناقص هذا العطاء حتى بلغ دانقا واحدا. ثم ظل ينقص شيئا فشيئا حتى وصل إلى حبة من الزبيب أوجوزة . وانتهى الأمر إلى الكف عن إعطائى حتى هذا .

وذات يوم (ص ٣٥) كانت هناك جماعة من الدراويش ولم أستطع أن أسأل أحدا عونا لهم،فبعت عمامتى من أجلهم ، ثم بعت نعلى ، ثم بطانة الجبة ، ثم الجبة نفسها . وقد رآنى والدى يوما عارى الرأس والجسد فلم يحتمل هذا ،وقال لى: يا ولدى ماذا يقال عن هذه الحال !؟ . فقلت له : لا تهتم بما يقول أهل ميهنه .

وكان شيخنا يكنس المساجد دائما، ويبذل ماله وجاهه على الدراويش وغيرهم من الخلق حتى ولو كان كسرة خبز . وكان إذا ما أشكل عليه أمر ذهب إلى الشيخ أبى الفضل فى سرخس حافى القدمين فيحل المشكل ثم يعود .

وقد جاء فى رواية صادقة عن الشيخ عبد الصمد ، أحد مريدى الشيخ ، أنه فى أكثر الأوقات التى كان الشيخ يذهب فيها إلى سرخس على هذا النحو ، كان يذهب معلقا فى الهواء ،فيما بين الأرض والسماء ،دون أن يراه سوى أرباب التصوف؛ وكان للشيخ أبى الفضل مريد يدعى « أحمد » . وذات يوم رأى الشيخ آتيا فى

الهواء فذهب إلى الشيخ أبى الفضل وقال له : إن أبا سعيد الميهنى قادم ، وهو يسير معلقا فى الهواء فيما بين الأرض والسماء . فسأله الشيخ أبو الفضل : أرأيت ذلك ؟ . فأجاب : أجل رأيت . فقال له أبو الفضل إنك لن تموت حتى يكف بصرك . وقال الشيخ عبد الصمد إن « أحمد » كف بصره فى أواخر أيامه كما قال الشيخ أبو الفضل.

وعند ما أمضى الشيخ مدة فى المجاهدة على هذا النحو رجع إلى أبى الفضل حسن فى سرخس، ولبث معه عاما . وأمره أبو الفضل برياضات أخرى ، ثم ألبسه الخرقة ، وهذه رواية ضعيفة .

أما الرواية الصحيحة فهى أن الشيخ قدس الله روحه العزيز اشتغل أثناء حياة الشيخ أبى الفضل حسن بالرياضة والمجاهدة (ص ٣٦) ولم يتقلد الخرقة . وعندما توفى الشيخ أبو الفضل ذهب شيخنا إلى أبى عبد الرحمن السلمى وتقلد منه الخرقة . وكان الشيخ عبد الرحمن السلمى قد تقلدها من يد أبى القاسم النصرابادى ، والنصرابادى من يد الشبلى ،والشبلى من يدالجنيد،والجنيد من يد سرى السقطى ، والسقطى من يد معروف الكرخى ،والكرخى من يد جعفر الصادق،والصادق من يد أبيه محمد الباقر ، والباقر من يد أبيه على زين العابدين ، وعلى زين العابدين من يد أبيه أمير المؤمنين الحسين ، والحسين من يد أبيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، وعلى بن أبى طالب من يد محمد صلوات الله وسلامه عليه .

وعندما تقلد شيخنا الخرقة — وفقا لتلك الرواية الضعيفة — قال له أبو الفضل: لقد تم كل شىء الآن ، وعليك أن تتوجه إلى ميهنه ، وتدعو الناس إلى عبادة الله، وتعظهم . وجاء الشيخ أبو سعيد إلى ميهنه عملا بمشورة الشيخ أبى الفضل ، وأكثر من الرياضات والمجاهدات . ولم يكتف بما أشار به الشيخ ، وأخذ يزيد من العبادة والرياضة كل يوم . وفى هذه المرة بدأ الناس يظهرون له التبجيل كما ذكر

هو بلفظه المبارك فى أحد المجالس ، فقد سئل قدس الله روحه العزيز عن هـذه الآية : « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق » ، فقال شيخنا قدس الله روحه العزيز: إن هذه الآية صحيحة عن أحوال الصوفية ، فذلك هو المقام الأخير الذى يظهر لهم بعد كل هذه الجهود والعبادات والترحال والإقامة والآلام والامتهان والتحقير والمذلة التى يمرون بها .

ففى البداية يهتدى الصوفى إلى باب التوبة فيتوب ويسترضى خصمه ، ثم يعمل على إذلال النفس ،ويتقبل جميع الآلام ،ويسعى لراحة الناس بقدر مايستطيع. ثم يشتغل بأنواع الطاعات (ص ٣٧) فيقوم الليل ، ويجوع النهار ، ويؤدى الفرائض، ويزيد كل يوم فى جهوده ، ويوجب على نفسه أشياء جديدة . وقد فعلت هـذا كله فأوجبت على نفسى فى البداية ثمانية عشر شيئا ، وفتحت لنفسى بهذه الأشياء ثمانية عشر ألف عالم ،فداومت على الصوم ، وامتنعت عن اللقمة الحرام ، وواظبت على تلاوة الذكر، وقمت الليل ، ولم اضطجع على الأرض ،ولم أنم إلا وأناجالس وكنت أجلس موليا وجهى إلى القبلة ، ولم أتكىء على شىء ، ولم أنظر إلى شاب أمرد نظرة سوء ، ولم أنظر إلى المحرمات ، ولم أستعبد لأحد ، ولم أسأل أحدا شيئا . وكنت قانعا مستسلما لإرادة الله . كما كنت أجلس فى المسجد دائما ولا أذهب إلى السوق لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : إن أسوأ الأماكن الأسواق وأفضلها المساجد .

وكنت متابعا للرسول صلى الله عليه وسلم فى كل ما أفعل ، وكنت أختم القرآن كل يوم وليلة ، وكنت أعمى فيما يُبصر وأصم فيما يُسمع وأبكم فيما يقال ، وظللت عاما لا أتحدث مع أحد فأسمانى الناس مجنونا ، وسمحت لهم بأن يطلقوا علىّ هذا الاسم عملا بالحديث : «لايكمل إيمان العبد حتى يظن الناس أنه مجنون» .

وقمت بعمل كل شيء قرأت أو سمعت أن المصطفى صلى الله عليه وسلم قام به او أمر به حتى أننى سمعت أن المصطفى صلى الله عليه وسلم جُرح فى قدمه فى غزوة أحد فلم يستطع الوقوف عليها فكان يصلى واقفا على أطراف أصابعه ، فوقفت مقلدا له وصليت أربعمائة ركعة . وجعلت حركاتى الظاهرة والباطنة وفقا للسنة حتى تصبح هذه العادة طبيعة فى النهاية . وكل ماسمعت أو قرأت أن الملائكة تفعله فعلته وقمت به (ص ٣٨) حتى أننى سمعت وقرأت أن الملائكة تعبد الله على رؤوسها ، فوقفت على رأسى فوق الأرض وأمرت أم أبى طاهر الموفقة أن تربط أصبع قدمى بحبل وتربطه فى مسمار وتغلق على الباب . ولما فعلت قلت : يا إلهى إننى لا أريد نفسى فنجنى منها . وبدأت أقرأ القرآن . وعندما بلغت قوله تعالى: « فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم » تدفق الدم من عينى وغبت عن الوعى . ثم تغيرت الأمور .

وقد مرت بى رياضات من النوع الذى لاتصوره العبارات ، وقد أعاننى الله عليها ووفقنى فيها . وكان يخيل إلىّ أننى أقوم بكل هذه الأعمال بنفسى ؛ ولكن ظهر فضل ربى ،وأوضح لى أن الأمر لم يكن كذلك ، وأن هذه الأعمال كلها كانت بتوفيق الله وفضله ،فتبت عن هذا الظن ، وتبينت أن ذلك كله كان وهما وغرورا . فإذا قلت الآن أننى لن أسلك هذا الطريق لأنه طريق الغرور ؛ فإننى أقول لك أن رفضك فى حد ذاته غرور ،لأنك إذا لم تمر بهذا كله فلن يتكشف لك الغرور . ولن يظهر لك الغرور حتى تتجاوز الشرع . والغرور موجود فى الدين ، والدين شرع ، والامتناع عن القيام بالفرائض الدينية كفر فى الشرع ، والقيام بهذه الفرائض دون فناء عن النفس شرك . فإذا كنت أنت موجودا وهو موجود فإنه يكون هناك اثنان وهذا شرك . ولذلك يجب أن تفنى عن نفسك تماما . وكانت لى صومعة كنت مغرما بإفناء نفسى فيها ، فظهر لى نور بدد ظلمة

وجودى ،وكشف لى الله عز وجل عن أننى لم أكن هذا ولاذاك ،وإنما هو توفيق الله وفضله ، ورحمته وعنايته (ص ٣٩) حتى أننى أخذت أردد :

« رباعية »

عنــدما أفتح عينى أشــاهد جمــالك كله

وعندما أحدثك بسرى يصبح جسدى كله قلبــا

وعنــدما أتحــدث إليك أطيل الحديث

وأشعر أنه حرام على أن أتحدث إلى سواك

ثم بدأ الناس ينظرون إلى بكثير من التبجيل والرضا ، وأخذ المريدون يتجمعون حولى ويتوبون على يدى . وامتنع جيرانى عن شرب الخمر احتراما لى حتى بلغ بهم الأمر أن اشتروا قشرة بطيخ وقعت من يدى بمبلغ عشرين دينارا . وفى يوم كنت امتطى جوادا فأسقط هذا الجواد بعض الروث فأقبل الناس ومسحوا به رؤوسهم ووجوههم . وبعد ذلك كشف لى أن ذلك — الاحترام — لم يكن من أجلى . وجاءت صيحة من جانب المسجد تقول « أو لم يكفك ربك » ، فظهر نور فى صدرى ،وارتفعت أكثر الحجب حتى رفضنى كل من كان قد تقبلنى من الناس إلى حد أنهم ذهبوا إلى القاضى وشهدوا بكفرى ، وقالوا أن كل أرض مررت فيها لاينبت فيها نبات بسبب ما أجابه لها من الشؤم . وكنت قد جلست فى المسجد يوما فأقبلت بعض النسوة وألقين القاذورات على رأسى . ومع ذلك سمعت الصوت يصيح « أو لم يكفك ربك » . وكفت جشود ذلك المسجد عن الصلاة وأخذوا يقولون إننا لن نصلى جمــاعة مادام هــذا المجنون فى المسجد . فجعلت أردد :

« رباعية »

كنت أسدا وكان النمر صيدى

وكنت مظفرا أينما توجهت

ولكن منذ تملكنى عشقك

طردنى الثعلب الأعرج من عرينى !

ومع هذا كله انتابتنى حال من القبض وفتحت المصحف على تلك النية فوقعت عينى على هذه الآية : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » (ص ٤٠) كما لو كان الله تعالى قال لى : كل ما اضع فى طريقك من البلايا أن يكن خيرا فهو بلاء ، وإن يكن شرا فهو بلاء ، فلا تهبط إلى الخير والشر وعد إلىّ . ثم فنيت عن هذا أيضا وأصبحت رحمته كل شىء .

« بيت »

— لقد صارت بخارى اليوم مثل بغداد فى كل حال ،

لأن الظفر يحل حيث حل أمير خراسان .

وقد جرى هذا الحديث على لسان شيخنا قدس الله روحه العزيز أثناء مجلس من المجالس .

وفى خلال تلك الأحوال توفى والد الشيخ وأمه فارتفع بذلك قيد كان يقيده من أجل إرضائهما. فتوجه إلى الصحراء الواقعة بين « باورد » « وسرخس » ، وقضى سبع سنوات مشتغلا بالرياضة والمجاهدة بحيث لم يكن أحد يراه إلا نادرا . ولا يعرف مما كان يقتات خلال هذه السنوات السبع. ولقد سمعنا من شيوخنا ومما هو متداول على أفواه الناس ، سواء منهم العامة والخاصة ، أن شيخنا قدس الله روحه العزيز كان يقتات خلال هذه الأعوام بنباتات الصحراء .

وروى أنه عندما بلغ حال الشيخ تلك الدرجة التى بلغها وأصبح مشهوراً، كان قد جلس يوما على باب روضته المقدسة، عمرها الله، وكان أحد مريديه يأكل بطيخة حلوة وقد رشها بالسكر المسحوق، فقدمها للشيخ ليأكل منها. ومر أحد المنكرين على هذا المكان فقال له: أيها الشيخ، ماطعم ذلك الذى تأكله الآن، وماذا كان طعم ما كنت تأكله طيلة الأعوام السبعة وأيهما أطيب؟ فقال الشيخ: أن لكل منهما طعم الوقت، فإذا كان للوقت (ص ٤١) صفة البسط يكون ذلك العشب والشوك أطيب من هذا — وأشار إلى البطيخ — وإذا كان هناك قبض «لأن الله يقبض ويبسط»، والمطلوب فى الحجاب، فإن هذا السكر ليس أطيب من ذلك الشوك. ولهذا قال الشيخ قدس الله روحه العزيز: كل من رآنا فى أول الأمر صار صديقا، وكل من رآنا فى النهاية صار زنديقا. أى أنه فى أول الأمر كانت هناك رياضة مجاهدة.

ولما كان الناس كثيرا ماينظرون إلى الظاهر ويعبدون الصورة فقد كانوا عندما يرون تلك الحياة ويشاهدون تلك المجاهدات الكثيرة فى طريق الله كان تصديقهم لهذا الطريق يتزايد فينالون درجة الصديقين. وفى النهاية تكون المشاهدة وعندئذ تظهر ثمرة المجاهدات فتكون هناك رفاهية وتنعم فى كل وقت. وهذه الحال على عكس الأولى، فكل من رأى هذه الحال وهو يجهل الحال الأولى ينكر ماهو حق، وكل من ينكر الحق يصير زنديقا. وهناك أدلة كثيرة على هذا منها أنه إذا أراد شخص أن يتقرب إلى ملك ليكون صاحب أسراره فإنه ينبغى عليه أن يواجه كثيرا من الآلام والبلايا، وأن يتذوق أنواع المشقات وأن يحتمل الطيب والوضيع، ويستمع إلى الأقوال الغليظة. كما يجب عليه أن يصبر على هذا كله، وأن يتقبل كل هذه الآلام بوجه باش وطبع سمح، ويؤدى

فى مقابل كل جفوة خدمة ، ويقول فى مقابل كل سب ثناء حتى يصل إلى ما يريد، ويصبح صاحب سر الملك . ومن كل ألف يستطيع فرد واحد أن ينفذ هذا . وإذا نفذه فقد يصل إلى هذه المرتبة أو لا يصل . وعندما يشرف برضاء الملك (ص ٤٢) ويحصل على شرف القرب منه يجب عليه أن يؤدى كثيرا من الخدمات الحسنة حتى يعتمد الملك عليه . وعند ما يعتمد عليه ويصبح أهلا لمنزلة صاحب السر، وتكون جميع المشقات قد ذهبت وحلت محلها الكرامة والقرب والمنزلة والنعمة والراحة ، فإنه عندئذ تبدو وجوه اللذة والراحة ، ولا يبقى أى عمل لهذا الشخص سوى ملازمة الملك. وهو لا يستطيع أن يغيب عن بلاط الملك طرفة عين فى أى وقت من الأوقات سواء فى الليل أو النهار حتى إذا ما طلبه الملك فى أى وقت ، أو أراد أن يفضى إليه بسر ، أو يمنحه شرف مناقشته ، وجده بين يديه . وهذه الدرجات واضحة ، والقياس عليها ظاهر .

قال الشيخ قدس الله روحه العزيز : كنت كلما اعترضتنى مشكلة أذهب إلى الشيخ أبى الفضل ليلا فيحل ما أشكل علىّ ثم أعود .

وبعد أن أقام الشيخ سبع سنوات فى الصحراء على هذا النحو عاد إلى ميهنه . قال الشيخ قدس الله روحه العزيز : ثم أخذت استشير الشيخ أبا العباس القصاب قدس الله روحه العزيز إذ كان آخر من تبقى من المشايخ . ذلك أنه بعد وفاة الشيخ أبى الفضل ، والذى كنت ألجأ إليه فى كل إشكال يعترضنى ، لم يكن هناك من ألجأ إليه لحل مشاكلى غير الشيخ أبو العباس القصاب . ولم يكن شيخنا أبو سعيد قدس الله روحه العزيز يدعو أحدا بكلمة « شيخ » سوى أبى العباس القصاب وكان يدعو الشيخ أبا الفضل بالمرشد (پير) (ص ٤٣) لأنه كان مرشده فى الطريقة . قال الشيخ : بعد ذلك ذهبت إلى « آمل » بجوار « باورد » و« نسا »

قاصدا زيارة قبور المشايخ ، وكان معى أحمد النجار ومحمد بن الفضل .

وكان محمد بن الفضل مريدا ورفيقا للشيخ منذ البداية حتى النهاية وقبره بجوار قبر الشيخ أبي الفضل حسن في سرخس .

قال الشيخ : وذهب ثلاثتنا إلى باورد . ثم قصدنا « شاه ميهنه » عن طريق وادى الكز .

وقرية « شاه ميهنه » قرية من أعمال وادى الكز ، وكانت تسمى قبل ذلك « شامينه » . وعندما بلغ الشيخ قدس الله روحه العزيز ذلك المكان سأل : ماذا يسمون هذه القرية ؟ فقالوا « شامينه » . فقال الشيخ قدس الله روحه العزيز : ينبغى أن تسمى هذه القرية « شاه ميهنه » ومنذ ذلك الوقت وهم يسمونها بهذا الاسم تيمنا بقول الشيخ ، وعملا بإشارته الشريفة .

قال الشيخ : ذهبنا لزيارة قبر الشيخ أبي على وكان هذا هدفنا . وعندما اقتربنا من القبر كان هناك جدول ماء وحجر على شاطئه فتوضأنا عليه وصلينا ركعتين . ورأينا صبيا يقود ثورا ويقوم بحراثة الأرض . وكان على حاشية الحقل شيخ ينثر البذور ، وقد بدا مذهولا ، لأنه كان ينظر إلى القبر كل لحظة ويصيح ، فتملكنى الاضطراب . وتقدم الشيخ وسلم علينا وقال : هل يمكنك أن ترفع عبئا عن صدرى ؟ . قلت : إن شاء الله . فقال : كنت أفكر الآن أنه إذا كان الله تعالى عندما خلق هذه الدنيا لم يخلق فيها أى كائنات ، وملأها بالحب من الشرق إلى الغرب ومن الأرض إلى السماء ، وجعل فيها طائرا واحدا وقال له أن طعامك كل ألف سنة هو حبة واحدة من هذا الحب ، (ص ٤٤) وخلق إنسانا واحدا وأشعل فى صدره الوجد ، وقال له إنك لن تصل إلى مرامك حتى يأكل هذا الطائر كل ما فى العالم من الحب ، وستظل تكابد ما أنت عليه من ألم ووجد ، فإن هذا

الأمر سرعان ماينتهى . قال الشيخ أبو سعيد : فحل ذلك الشيخ ما أشكل على وأصبح الأمر واضحا أمامى .

وعندما بلغنا قبر أبى على فتح الله علينا وحظينا بالنفحات ، ثم قصدنا نسا .

ولما بلغ شيخنا قدس الله روحه العزيز مدينة نسا كانت هناك قرية بجوار المدينة يسمونها «اندرمان» فأراد أن ينزل بها وسأل عن اسمها فقالوا : «اندرمان» فقال : لانكاد نذهب حتى نرحل ، وعدل عن الذهاب إليها . وكذلك لم يدخل مدينة نسا وسار خارجها . ومر بقرى نزل فى واحدة منها تسمى «ردان» . ثم توجه إلى « يسمة » . وفى ذلك الوقت كان الشيخ أحمد بن نصر من كبار المشايخ مقيما فى مدينة « نسا » ، وينزل فى خانقاه سرواى التى تقع فى أعالى المدينة بالقرب من الجبل حيث قبور المشايخ والعظماء .

[وقد بنى الأستاذ أبو على الدقاق قدس الله روحه العزيز خانقاها وفق أشارة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، لأنه عندما جاء الدقاق إلى نسا لزيارة قبور المشايخ لم يكن للصوفية مكان ، فنام تلك الليلة ، ورأى المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى النوم ، فأمره بأن يبنى للصوفية مكانا فى هذه البقعة ، وأشار إلى المكان الذى توجد به هذه الخانقاة الآن ، ورسم خطا حوله لتبنى فيه . وفى فجر الغداة نهض الأستاذ أبو على وجاء إلى ذلك المكان فوجد الخط الذى رسمه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه واضحاً على الأرض ، وكذلك رآه الجميع . فبنى الأستاذ أبو على تلك الخانقاه على الخط . وبعد ذلك جاء كثير من الصوفية والمشايخ إلى تلك البقعة . (ص ٤٥) ولا يزال أساس هذه الخانقاه باقياً وظاهرا حتى اليوم . ويوجد فى المقبرة التى على طريق الجبل بجوار الخانقاه قبور أربعمائة شيخ من كبار المشايخ ومشاهير الأولياء ، ولهذا يسمى الصوفية مدينة

« نسا » بالشام الصغرى ، فكما توجد قبور الأنبياء فى الشام ، توجد قبور الأولياء فى نسا.

ومدينة نسا أرض كريمة جداً ازدانت دائماً بوجود المشايخ الكبار وأرباب الكرامات وأصحاب المقامات . وقد ذكر المشايخ أن البلايا والفتن التى كانت تظهر فى خراسان ماتلبث حتى تتبدد حين تتجه إلى نسا . ولقد شاهدنا هذا الأمر بأنفسنا ، ففى خلال الثلاثين سنة أو أكثر التى اشتعلت فيها الفتن والغارات والنهب والحرق والقتل فى خراسان دفع الله سبحانه وتعالى بفضل رحمته ولطفه وببركة المشايخ كل كارثة وفتنة اتجهت إلى نسا .

والآن وفى هذا العهد الذى أجدب فيه الدين واضمحل الإسلام ، وخاصة فى خراسان ، بحيث لم يبق فيها أى أثر للتصوف ، بقى فى نسا الكثير من المشايخ والصوفية ذوى التجارب الروحية أطال الله بقاءهم ، فلا جرم أن الأثر الذى يقول «بهم يرزقون وبهم يمطرون» مهما كان الأمر فيه ظاهراً فقد تحقق بصورة أكمل.

ويقيم فى هذه الولاية كثير من الصوفية أصحاب الخرق ممن لا مثيل لأحدهم فى كثير من الولايات . ورغم أن أكثر الأولياء قد اختفوا عن أبصار العامة خلف ستار « تحت قبابى لايعرفهم غيرى » (ص ٤٦) إلا أن آثار عهودهم وبركات أنفاسهم كثيرة جدا] .

وقد اتخذ الشيخ أحمد بن نصر الذى كان مقيما فى خانقاه سرواى صومعة فى هذه الخانقاة التى يسمونها الآن زاوية الشيخ .

وأخرج — الشيخ أحمد بن نصر — رأسه من الصومعة وقال للجماعة الذين جلسوا معه على صفتها : هاهو صقر الطريقة — يقصد أبا سعيد — يمر الآن وعلى كل من يريد أن يراه أن يذهب إلى بيسمه لرؤيته .

قال الشيخ قدس الله روحه العزيز : عندماذهبنا إلى نسا قصدنا ييسمة إذ كان في نيتنا زيارة قبر أحمد بن علي .

وييسمة هذه قرية على بعد فرسخين من نسا وبها قبر الشيخ أحمد بن علي النسوي، وكان من مشاهير مشايخ خراسان ومريدا للشيخ عثمان الحيري . ويذكر الشيخ أبو عبدالرحمن السلمي في كتابه « طبقات أئمة الصوفية » اسمه على أنه « محمد عليان النسوي » ، ولكنه معروف في ولاية نسا بأحمد بن علي . وكانت له أحوال شريفةوكرامات ظاهرة منها: أنه عند ما رجع الشيخ قدس الله روحه العزيز من ذلك السفر وظهر شأنه في التصوف أرسل أبنه الأكبر أبا طاهر لأمر في مدينة نسا . وعندما بلغها أبو طاهر أصيبت قدمه بحيث لم يعد يستطيع الحركة . وفي أثناء غيابه ولد للشيخ في ميهنه ابن . وعرف الشيخ بفراسته وكرامته مرض السيد أبي طاهر ، فدعا أحد الدراويش وقال له : ينبغي أن تذهب إلى أبي طاهر في نسا ، فقد بلغنا أنه أصيب في قدمه ، ويجب أن يذهب إلى قبر أحمد بن علي في ييسمة (ص ٤٧) ليشفى من مرضه إن شاء الله تعالى . وكتب الشيخ رسالة إلى أبي طاهر جاء فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم، سنشد عضدك بأخيك » وعندما وصلت الرسالة إلى أبي طاهر خرج للزيارة ،فحملوه على محفة إلى ييسمة ، وأقام ليلة على قبر أحمد بن علي . وفي اليوم التالي شفاه الله سبحانه وتعالى وزالت آلامه .

قال الشيخ : وزرنا قبر أحمد بن علي ، وفي الطريق صادفنا حادث ، فدخلنا القرية لنخرج من طريق آخر . وكان هناك قصاب شيخ جالسا على باب حانوته فتقدم الينا وحيانا وأرسل صبيه خلفنا ليرى أين ننزل . وكان هناك منزل بجوار النهر فنزلنا فيه وتوضأنا وصلينا ركعتين. وأقبل ذلك الشيخ وأحضر طعامافأكلنا، وعندما انتهينا قال القصاب للشيخ: هل بينكم من يجيب على مسألة ؟ فأشاروا

إلىّ ، فسألنى : ماشروط الطاعة ، وما شروط الأجر ؟ . فأجبته بنصوص من علم الشريعة ،فقال : اليس هناك شىء آخر ؟ فنظرت إليه فى صمت فالتفت الشيخ قائلا لى فى غضب : لاتتحدث عن هـذا فقد طلقته . وكان يعنى بذلك أننى قد تخليت عن ذلك العلم فلا ينبغى أن أعود إليه .

[وقد حدث ذلك على هـذا النحو . فعندما قاد الشيخ لقمان شيخنا إلى أبى الفضل حسن فى سرخس وأمره بتلك الرياضات والمجاهدات وتحول الشيخ من علم القال إلى علم الحال ، جمع الكتب التى قرأها والمذكرات التى كتبها ودفنها وشيد فوقها (ص ٤٨) دكانا وزرع غصنا امتدت فروعه فوق ذلك الدكان ، ونما واخضر فى أمد قصير وصار شجرة كبيرة . وقد اعتاد أهل بلدنا عند ولادة الأطفال أو غسل الموتى وتكفينهم أن يستعملوا بعض أغصانها أملا فى الحصول على البركة . وكانوا يحملونها إلى الولايات البعيدة. وظلت خضراء يانعة حتى عهدنا ، وعندما اجتاح الغز ولاية خراسان وظلوا بها ثلاثين عاما كان كل يوم منها أسوأ من الآخر ، دمرت تلك الشجرة مثل بقية الآثار المباركة الأخرى .

وقد تحدث الشيخ قدس الله روحه العزيز عن هذا الأمر فى أحد المجالس فقال : فى بداية تصوفى عندما فتح الله علىّ ، كانت لدى كتب كثيرة وأجزاء عديدة تصفحتها واحداً واحداً وقرأتها جميعاً ولكننى لم أحصل على كل ما كنت أصبو إليه من الراحة والاستقرار النفسى ، فدعوت الله عز وجل قائلا : ياإلهى إن الأمر لم يتكشف لى بقراءة هذه الكتب ،ومازلت عاجزا عن الوصول إليك رغم قراءتها فاجعلنى اللهم مستغنيا بشىء أجدك فيه . فتفضل الله علىّ ، وأخذت أشعر بشىء من الراحة وأنا أمسك بهذه الكتب واحدا واحدا حتى وصلت إلى تفسير الحقائق ، وأخذت أقرأ القرآن فقرأت الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام حتى وصلت إلى هـذه الآية « قل الله ، ثم ذرهم فى خوضهم

يلعبون » — وكنت قد حفظتها من قبل — وهنا وضعت الكتاب، وكلما حاولت أن أتقدم فى القراءة لم أستطع . (ص ٤٩) وعند ما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز يدفن كتبه ويضع فوقها التراب ويصب عليه الماء . أخبروا والده بذلك فأقبل والد الشيخ وقال له : يا أبا سعيد ، ما هذا الذى تفعله؟ فقال له الشيخ : هل تذكر ماذا صنعت يوم جئت إلى حانوتك وسألتك : ما ذا فى هذه الخرائط وماذا اخفيت فى هذه الأجربة ؟ . لقد قلت لى حينئذ : ألا تعرف ـ اللهجة ـ البلخية ؟ . قلت أعرفها . فقلت : إن هذه لا تصلح مهنة لك .

وفى الوقت الذى كان فيه الشيخ يدفن الكتب نظر إليها وقال : « نعم الدليل أنت والاشتغال بالدليل بعد الوصول محال » .

وقد جرى على لسان الشيخ أثناء حديثه هذا القول : « بدا من هذا الأمر كسر المحابر وخرق الدفاتر ونسيان العلوم » .

وعندما دفن شيخنا تلك الكتب وغرس الغصن ورواه قال له بعض الناس : أيها الشيخ ، أما كان الأفضل أن تعطى هذه الكتب لمن يمكن أن يفيد منها ؟ فقال الشيخ : «أردنا فراغة القلب بالكلية من رؤية المنة وذكر الهبة عندالرؤية» .

وقال الشيخ أيضاً : كنت أقرأ يوماً فى أحد كتب السيد حمدان فقيل لى : أما تزال تقرأ الكتب ؟ . . . أتريد أن أردك إليها ؟ . فتبت واستغفرت كثيراً حتى عفا الله عنى .

وروى أحد أصحاب الشيخ (ص ٥٠) هذه القصة فقال : فى إحدى الليالى ظل الشيخ قدس الله روحه العزيز يئن فى صومعته حتى الفجر ، فبت منهكا متألماً

حتى الصباح ، ولم أنم من كثرة التفكير . وفى الغداة خرج الشيخ فسألته : أيها الشيخ ، ماذا ألم بك بالأمس مما جعلك تتأوه هكذا ؟ . فقال الشيخ : رأيت بالأمس كتابا فى يد أحد العلماء فأخذته منه وقرأت فيه وقد عوقبت طوال ليلة الأمس بألم فى أسنانى ، وقيل لى لماذا تعود إلى ما طلقت ؟]

قال الشيخ : قال لى ذلك القصاب الشيخ : لن تكون عبداً لله ما لم تتحرر من نفسك ، وإذا لم تصير الفاسق ناصحا مصلحا فلن تحصل على الجنة « جزاء بما كانوا يفعلون » . قال الشيخ : لقد حل ذلك القصاب الشيخ مشكلتى بقوله هذا.

وبعد ذلك رحل الشيخ عن نسا وقصد آمل عند أبى العباس القصاب ، ولبث معه عاما . (جاء هذا فى رواية وهى أكثر صحة ، وفى رواية أخرى أنه أقام هناك عامين ونصف ولكنها رواية ضعيفة) . وكان للشيخ أبى العباس القصاب زاوية فى خانقاته على شاكلة الحظيرة اعتكف فيها واحدا وأربعين عاما بين تلاميذه. وكان إذا ما أكثر أحد الدراويش من الصلاة فى الليل قال له : « نم يابنى فإن ما يفعله شيخك إنما يفعله من أجلك فلا فائدة له فيه ولا حاجة له إليه ، غير أنه لم يقل هذا قط للشيخ أبى سعيد خلال المدة التى قضاها عنده . وكان الشيخ يصلى طوال الليل حتى الصباح ويصوم دائماً. وقد أعطى الشيخ أبو العباس شيخنا زاوية فى مواجهة زاويته . وكان أبو سعيد يقيم فيها ويمارس أنواع المجاهدات والرياضة ، ويثبت عينيه على ثقب بالباب ، ويراقب أحوال الشيخ أبى العباس دائماً . وفى يوم من الأيام كان الشيخ أبو العباس قد احتجم ، وفى تلك الليلة انزلق الرباط عن يده فانفتح العرق وأدمى ولوث يده وثوبه فخرج من زاويته . ولما كان الشيخ أبو سعيد (ص ٥١) يراقب أحواله دائماً فقد خرج مسرعاً من زاويته وغسل له يده وربطها وأخذ ثوب القصاب وأعطاه ثوبه وارتدى ثوبا قديما ، وغسل ثوب أبى العباس

وجففه فى الليل وحمله إليه . فقال له الشيخ أبو العباس : هو لك فالبسه . فقال له شيخنا : فليلبسنى الشيخ إياه بيده المباركة . فألبسه الشيخ أبو العباس الخرقة بيده ، وكانت هذه هى الخرقة الثانية التى أخذها شيخنا .

[وحتى لايذهبن أحد إلى القول بأن من يرتدى خرقة من شيخ لايجوز له أن يلبس خرقة من شيخ آخر ، نقول أن الأصل فى ارتداء الخرق هو أنه حينما يستحق شيخ من شيوخ الطريقة الخرقة بمعنى أنه أصبح أهلا للاقتداء به بعد أن عرف علوم الشريعة والطريقة والحقيقة وأداها على وجه الكمال ، ورأى وعرف وجرب المقامات والسير فى منازل هذا الطريق ومراحله ، وتطهر من الصفات البشرية فلم يبق له من نفسه شىء على نحو ما ذكر الشيخ أبو الحسن الخرقانى فى حق شيخنا فقد قال : فى الوقت الذى بلغ فيه الشيخ أبو سعيد ما بلغ من التصوف قال : لم تبق هنا بشرية ولا نفس ، الكل هنا حق ، الكل هنا حق . (وسوف يأتى هذا فى مكانه وإنما غرضنا هنا هو الاستشهاد) ، فعندما يقف مثل ذلك المرشد على أحوال مريد أو محب ، ويعلم سره وعلانيته عن طريق التجربة ، ويرى لياقة ذلك الرجل بعين البصيرة والبصر ، ويعرف أنه قد ظهر استحقاقه (ص ٥٢) وتقدمه فى مقام الخدمة حتى أنه يستطيع أن يجلس بين هذه الطائفة ، ويرى أنه قد تم له الاستعداد لأن يتقدم فى الرياضة والمجاهدة حتى يكون واحدا من هذه الجماعة ، وأنه صار أهلا لهذا بفضل تربية هذا الشيخ أو تربية وإرشاد وهداية شيخ آخر جدير بتربية المريدين ، فإنه يلبسه الخرقة اعترافا منه بأن هذا المريد لائق للجلوس مع هذه الطائفة . وحين يكون هذا الشيخ مقبول القول بين القوم مرموقا فإن الجميع يعتمدون على كلمته . ولهذا فإن الصوفية إذا ما جهلوا درويشاً حين يدخل عليهم الخانقاه ، أو يريد مصاحبتهم سألوه عن شيخه ، وعمن ألبسه الخرقة . وهذا الانتساب

محل اعتبار كبير بين أفراد هذه الطائفة ، وليس لديهم فى الطريقة نسب أعظم من هذين النسبين . وكل من لاتصح نسبته فى ذلك إلى شيخ جدير بالقيادة أبعدوه ولم يمكنوه من صحبتهم .

ولمراتب الشيوخ والمريدين والخرقة والصحبة شرح كثير وليس من غرض هـذا الكتاب . وإذا وصل شخص عن طريق التجربة والرياضة إلى درجة عالية ولم يكن له مرشد أو قدوة أنكرته الطائفة . قال شيخنا : « من لم يتأدب بأستاذ فهو بطال ، ولو أن رجلا بلغ أعلى المراتب والمقامات حتى تكشف له من الغيب أشياء (ص ٥٣) ولا يكون له مقدم ولا أستاذ فإنه لايجىء منه شىء » .

ومدار الطريقة على الشيخ لأن « الشيخ فى قومه كالنبى فى أمته » . ومن المحقق أنه لايمكن لأى شخص الوصول إلى شىء بنفسه . وللمشايخ أقوال كثيرة فى هذا الأمر ، وفى هـذه الأقوال فوائد لاحصر لها وخصوصا شيخنا أبوسعيد قدس الله روحه العزيز وسوف يرد بعضها فى مكانه . ولو بدت لشخص تلك الكرامة وتملكه العشق،فإن تلك الآلام تجبره على ملازمة الشيوخ ،والاعتكاف فى خلواتهم ليكتسب الفائدة، لأن هذا العلم لايتأتى إلا عن طريق العشق « ليس الدين بالتمنى ولا بالتحلى ولكن بشىء وقر فى القلب وصدقه العمل » .

« بيت »

— أنت يامن لم تكتو بنار العشق ،
إن العشق هبة وليس تعلما .

وحتى لايتخذ أحد لنفسه العذر بسبب هذا القول ، ويتعلل بأنه لايوجد فى هذا العهد مثل هذا الشيخ الذى يشترط وجوده ، وأنه لايوجد الآن واحد من الشيوخ

والأئمة كالذين كانوا من قبل ، وأن هـذا هو السبب فى اضطراب النفوس والتكاسل ، نقول إن كل من وجد فى نفسه القدرة على هذا الأمر ، وعشق هذا الطريق ، وجب عليه أن يـكون كما قال الشيخ أبو الحسن الخرقانى قدس الله روحه العزيز : يلزم فى البداية عمل شيئين ، أحدهما السفر ، والآخر الأستاذ . وقد تجولت كثيرا بسبب هذا وصعب علىّ الأمر . وشاء الله تعالى أنه كلما اعترضتنى مشكلة وعجزت أمامها أقبل عالم من المذهب الشافعى وناقش معى هذه المشكلة. وعشت ثلاثا وثمانين عاما مع الحق ، فلم أسجد سجدة مخالفة للشرع ، ولم أتنفس نفسا واحدا موافقا للنفس . وفى السفر هيأوا لى فى كل خطوة مايهتز له العرش. وعندما يـكون العشق صادقا وتـكون الإرادة خالصة (ص ٥٤) تـكون ثمرة الحياة طيبة هـكذا .

وهناك أصل عظيم متعارف عليه بين هـذه الطائفة وهو أن الـكل واحد والواحد كل ، ولا يوجد خلاف بين جميع صوفية العالم . ولا يدخل فى هذا كل من كان زيفا مظهره كالصوفية . وإذا كانت ألفاظ الشيوخ تختلف من حيث العبارة فإن المعانى كلها واحدة . ومادام الأمر كذلك فإنه إذا لبس شخص الخرقة من شيخ فإنهم يسمونها الخرقة الأصلية ، ويسمون الخرق الأخرى خرقة التبرك . وإذا تأملت هذا الأمر من حيث معناه فإنه مادام الـكل واحد فإن جميع الأيدى تـكون واحدة، وجميع الأنظار واحدة ، ويسرى هذا على الخرق أيضا . وكل من يصبح مقبولا عند شيخ يكون مقبولا لدى الجميع ،ومن يكون مردودا لدى واحد يـكون هـكذا عند الجميـع والعياذ بالله . وكل من يلبس خرقتين يـكون كأنه حصل على دليلين صادقين على أهليته هما خرقة المشايخ والتبرك على أيديهم .

وإذا أردت أن تستوثق فاستمع إلى هـذه القصة حتى لاتبقى لديك شبهة

في أن جميع الشيوخ وجميع الصوفية المخلصين متشابهون لايختلفون فى صفة ما .

إعلم أن اتفاق جميع الأديان والمذاهب محقق لدى العقلاء ، لأن المعبود والمقصود جل جلاله واحد ، والحق جل جلاله وتقدست أسماؤه واحد من كل وجه . وقطعا ليس هناك مجال للشرك . وإذا كان هناك اختلاف فى السلوك أو الطريق فإنه عندما يصلون إلى الهدف يرتفع الخلاف ويتبدل كله بالوحدانية ، لأنه إذا بقى فى السالك شيء من صفات البشرية فلن يصل إلى هدفه ، بل يظهر التلون على حاله أثناء الطريق . فإذا وصل إلى مطلوبه (ص٥٥) ومقصوده لا يبقى له من صفاته البشرية شيء ، بل يفنى فى وحدة تامة . ولهذا السبب يقول واحد من المشايخ «أنا الحق» ، ويقول آخر « سبحانى » ، ويقول شيخنا « ليس فى جبتى سوى الله» .

المحقق إذن أنه إذا لم يصل السالك إلى مقصده ، فإنه يصبح غير لائق لأن يصير شيخا ، بل أنه يكون عندئذ محتاجا إلى مرشد ليدله على الطريق . وكل من يصل إلى مقصده يصبح جديرا بأن يصير شيخا . إذن فأقوال المشايخ أصبحت صادقة بالبرهان ، لأن ماذكروه من أن الكل واحد ، والواحد كل ، قد أخبروا به عن الوصول إلى المقصد ، ولا تبقى شبهة فى هذا بعد ذلك ، لأنه مادام الكل واحد والواحد كل ، فإن أيديهم وخرقهم تكون كلها واحدة . وكل من يقول أنه لايجوز أخذ خرقة من شيخين ، فإنه يخبر عن نفسه بأنه مازال فى عالم الشرك ، وأنه يرى الشرك ويقره ، ولايعرف أى شيء عن أحوال المشايخ . وعندما يفتح عينيه ويقع نظره على هذا العالم فإنه عندئذ يتحقق من هذا .

وربما يريد شخص من القول بأنه لايجب أخذ خرقة ثانية ، نية بطلان الخرقة الأولى . وهذا القول صحيح ، فإن الخرقة الثانية بهذه النية لايكون أخذها صحيحا . وكل من يفعل مثل هذا يبطل الخرقة الأولى التى ارتداها ، ويصبح ارتداء الخرقة الثانية حراما عليه ، ويحرم بين الجميع من الخرقتين والعياذ بالله .

ولقد لبس الشيخ أبو العباس القصاب الخرقة من يد محمد بن عبد الله الطبرى. والطبرى من يد أبى محمد الجريرى ، والجريرى من الجنيد ، والجنيد من سرى السقطى ، (ص٥٦) والسقطى من معروف الكرخى ، والكرخى من داود الطائى ، والطائى من حبيب العجمى ، والعجمى من الحسن البصرى ، والبصرى من أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنهم أجمعين ، وعلىّ من يد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه]

ثم ذهب شيخنا أبو سعيد إلى زوايته . وعندما فرغوا من صلاة الفجر نظر جماعة الدراويش فرأوا الشيخ أبا العباس يرتدى ثوب الشيخ أبى سعيد ، والشيخ أباسعيد يرتدى ثوب الشيخ أبى العباس فتعجب الجميع وسألوا أنفسهم كيف حدث هذا. وأدرك الشيخ أبو العباس بفراسته مايجول بخواطرهم فقال : حقا لقد كانت كل الهبات بالأمس من نصيب هذا الشاب الميهنى باركه الله . ثم التفت الشيخ أبو العباس إلى شيخنا وقال له : أرجع إلى ميهنه فسوف يدقون هـذا العلم على بابك بعـد مدة قصيرة .

قال الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز : فرجعت إلى ميهنه وفقا لأوامر الشيخ مع مائة ألف مكرمة وفتوح . والتف حولى المريدون وتم لى الأمر .

وعند ماوصل أبو سعيد إلى ميهنه توفى الشيخ أبو العباس فى آمل .

قال شيخنا قدس الله روحه العزيز : عندما كنت فى آمل ، كنت جالسا ذات يوم بين يدى الشيخ أبى العباس القصاب ، فدخل رجلان وجلسا أمامه وقالا : أيها الشيخ لقد جرى بيننا حديث فقال أحدنا أن هموم الأزل والأبد أتم ، وقال الآخر إن سرور الأزل والأبد أتم . فماذا يقول الشيخ ؟ . فمسح الشيخ أبو العباس

وجهه بيديه وقال : الحمدلله أن مقام ابن القصاب ليس ألما ولاسرورا « لبس عند ربكم صباح ولامساء » . فالألم والسرور صفاتك ، وكل ماهو صفاتك يكون محدثا ، وليس للمحدث طريق إلى القديم . ثم قال : إن ابن القصاب يطيع الله في الأمر والنهي (ص ٥٧) ويتابع طريق المصطفى في السنة . وإذا ادعى أحد أنه يسلك طريق الرجال فدليله هو هذا الذى قلت وليس سبيل العجائز من النساء بل منازل الأبطال . وعندما خرجا سألت من يكونان ؟ . فقال : أحدهما أبو الحسن الخرقاني والآخر أبو علي الدستاني .

قال الشيخ : كنت في خدمة الشيخ أبي العباس القصاب يوما فقال في أثناء حديثه : نصيبك من التوحيد الإشارة والعبارة ، وليس لوجود الحق تعالى إشارة وعبارة. ثم التفت إليّ وقال: يا أبا سعيد ، إذا سئلت أتعرف الله تعالى « فلاتقل أعرفه ؛ لأن هذا شرك، ولاتقل لا أعرفه ؛ لأن هذا كفر، ولكن قل: «عرفنا الله ذاته وألوهيته بفضله » .

وقال الشيخ: في يوم من الأيام قال الشيخ أبوالعباس للجماعة أثناء حديثه . إن أبا سعيد محبوب الملائكة .

وقد ذكر جدي — جد المؤلف — شيخ الإسلام أبوسعيد أنه قد تم للشيخ الكشف في سن الأربعين . ولم يكن في الإمكان سوى هذا ؛ لأن الاولياء الذين هم نواب الأنبياء لايصلون إلى درجة الولاية قبل سن الأربعين . وهكذا كان المائة والعشرون ألف نبي ، فقد بلغوا النبوة في سن الأربعين « حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة » ، ماعدا يحيي بن زكريا وعيسى بن مريم صلوات الله وسلامه عليها وعليهما فقد جاءتهم النبوة والوحي قبل سن الأربعين كما قال سبحانه وتعالى في حق يحيي: « يايحيي خذالكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا».وقال عن عيسى

« قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا » . (ص ٥٨) وقد مارس الشيخ قدس الله روحه العزيز الرياضة والمجاهدة أربعين عاما . ورغم أن الحال والكشف كان قد ظهر قبل ذلك ، إلا أنه قام بها من أجل تمام تلك الحال ودوامها ، كما جرى على لسانه المبارك فى مجلس من المجالس عندما سئل عن هذه الآية :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً » فقال : إن قالب آدم طرح فيما بين مكة والطائف أربعين عاما ، ووضعت فيه أخلاط كثيرة « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه » ، وملأنا صدره بهذا الشرك والغرور والكبر والإنكار والخصومة والوحشة والغيبة والحديث عن النفس والغير « حين من الدهر » أى لمدة أربعين عاما ، والآن « بلغ أشده وبلغ أربعين سنة » . وفى هذه السن نخرج من صدور الأحبة ماوضعناه فى أربعين سنة لنطهرهم ، وتتم هذه العمليات فى أربعين سنة . وكل بيان يخالف ما ذكرت باطل ، كما أن كل من يمارس المجاهدة أقل من أربعين سنة لايتم له الكشف ويعود الى الحجاب ، وكل من يعود إلى الحجاب لايتم له الكشف . وأنا أقول هذا الكلام لاعن سمع ورؤية وإنما أقوله عن تجربة .

وقد صدق هذا فى حكايات الشيخ ؛ ففى الوقت الذى رأى فيه الشيخ أبو سعيد الأستاذ أبا على الدقاق قدس الله روحهما العزيزة ، كانا جالسين معا يوما ، فسأل الشيخ الأستاذ أبا على قائلا : أيها الأستاذ ، أيكون هذا الكشف على الدوام ؟ فأجاب الاستاذ : كلا . (ص ٥٩) فاحنى الشيخ رأسه فترة ثم رفعها وقال مرة أخرى : أيها الأستاذ ، هل يكون هذا الكشف على الدوام ؟ . فأجاب الأستاذ ثانية : كلا . فأحنى الشيخ رأسه ثانية ثم رفعها بعد مرور فترة وقال : أيها الأستاذ هل يكون هذا الكشف على الدوام ؟. فقال الأستاذ أبو على : إذا كان دائما

فإن هذا يكون أمراً نادرا جدا. فأخذ الشيخ يصفق وهو يقول : هذه هى إحدى الحالات النادرة ، هذه هى إحدى الحالات النادرة .

وكانت تعترى شيخنا بعد هذا حالات من القبض فى بعض الأحيان ليس بسبب الحجاب ،ولكن بسبب الانقباض البشرى،فكان يطلب من كل شخص ويسأل كل فرد حتى يظهر البسط .

وقد روى أن الشيخ قدس الله روحه العزيز اعترته يوما حال من القبض فأخذ يطلب من كل شخص، ويسأل كل فرد فلم يحدث البسط. فأمر الخادم بأن يخرج من الدار ويحضر كل من يراه . فخرج الخادم فرأى شخصا يمر فقال له إن الشيخ يدعوك . فدخل الرجل وحيا الشيخ . فقال له الشيخ : تحدث إلىّ . فقال الرجل : أيها الشيخ ، إن كلامى لا يليق لسمعك المبارك ، ولست أعرف كلاما يمكن أن أقوله لك . فقال له الشيخ : قل ما يتأتى لك . فقال الرجل : سأقول لك حكاية عن نفسى . ثم قال : فى وقت من الأوقات قلت لنفسى إن الشيخ أبا سعيد إنسان مثلنا ، وهذا الكشف الذى ظهر له هو نتيجة المجاهدة والعبادة ، فلأتجه الآن أنا أيضاً إلى العبادة والرياضة حتى تظهر لى تلك الحال . وأخذت أقوم بالعبادة وأنواع الرياضة والمجاهدة . ووقر فى نفسى (ص ٦٠) أننى وصلت إلى مقام تجاب فيه دعواتى فى كل وقت ولا ترد بأى حال من الأحوال. وفكرت فى نفسى أن أسأل الله تعالى أن يحيل الحجر ذهبا من أجلى لاقضى بقية عمرى فى رفاهية وأنفذ رغباتى . وذهبت وأحضرت عددا من الأحجار ووضعتها فى ركن الزاوية التى أتعبد فيها.واخترت ليلة عظيمة واغتسلت وأخذت أصلى طوال الليل . وعند الفجر ، وهو وقت إجابة الدعاء ، رفعت يدى وقلت فى عقيدة ويقين صادق : يا إلهى ، اجعل هذه الأحجار ذهبا ... ! وعندما قلت هذا عدة مرات سمعت صوتاً من ركن الزاوية يقول : فيضه العميم لايحد . وعندما قال الرجل

هذه العبارة ظهر البسط للشيخ ، وسر كثيراً ،ونهض على قدميه ،وأخذ يهز أكامه وهو يقول : فيضه العميم لايحد . وظهرت حال طيبة وتحول ذلك القبض بسطا .

وكان الشيخ كلما تزايد القبض ذهب إلى قبر الشيخ أبى الفضل حسن فى سرخس .

وقال السيد أبو طاهر الإبن الأكبر للشيخ قدس الله روحه العزيز : فى يوم من الأيام كان الشيخ يعظ فى مجلس ، وكان يعتريه قبض فى ذلك اليوم . وبكى الشيخ فى وسط المجلس وبكى جميع الحاضرين . وقال الشيخ : عندما يعتريني قبض أذهب إلى قبر الشيخ أبى الفضل ليتبدل القبض بسطا . فأعدوا الجواد . ثم ذهب الشيخ والناس فى صحبته . وما أن دخلوا الصحراء حتى استولى السرور على الشيخ وتبدل القبض بسطا ، وأخذ الشيخ يتحدث بينما الجميع (ص ٦١) يصيحون ويصرخون وعندما وصلوا إلى سرخس تحول الشيخ عن الطريق الرئيسى ، وذهب إلى قبر الشيخ أبى الفضل حسن ، وطلب من القوال أن ينشد هذا البيت .

— هذا هو معدن الجود والكرم ومعدن السرور ،

وإذا كان الحرم قبلة الناس فقبلتنا وجه الحبيب.

فأخذ القوالون ينشدون هذا البيت ،وأمسكوا بيد الشيخ وأخذ يطوف حول قبر الشيخ أبى الفضل وهو يصرخ. وكان الدراويش يطوفون عراة الرؤوس والأقدام وكانت أرجلهم تغوص فى التراب . وعندما هدأت نفوسهم قال الشيخ : سجلوا تاريخ هذا اليوم لأنكم لن تروا يوما مثله مرة أخرى . وبعد ذلك كان كل مريد يعتزم الحج يرسله الشيخ إلى قبر الشيخ أبى الفضل ويقول له: يجب عليك أن تزور هذا القبر وتطوف حوله سبع مرات حتى يتحقق مقصودك .

وبعد أن فرغ الشيخ من هذه الرياضات تم له الكشف الكامل . وكان تلاميذه يقولون إنه لم يترك أى سنة ولا أدب من آداب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه دون أن يؤديها سواء فى السفر أو الإقامة . واشتغل بالعبادة تماما بحيث كان إذا نام إنبعث من حلقه صوت يردد « الله ، الله ، الله » . ولم يكن أحد يعلم بما يقوم به الشيخ قدس الله روحه العزيز من الرياضة والمجاهدة ، وكان يخفى هذا الأمر عن الناس ولا يتحدث به ، ويجتهد فى إخفائه إلا ما كان يستشهد به أثناء وعظه ، ويقول من أجل هداية المريدين وترغيبهم .

قال الشيخ يوما فى مجلس من المجالس : كل ما يجب قوله قد فعلته . وكان جميع الأولياء قدس الله أرواحهم هكذا يخفون حالاتهم وكراماتهم عن الناس إلا ما ظهر منها دون تعمد . (ص ٦٢) وقد حدث أن واحدا منهم ظهر شىء من كراماته دون قصد فدعا الله سبحانه وتعالى قائلا : يا إلهى ... لقد اطلع الناس على ما بينى وبينك ، فانزع اللهم روحى فليس لى قدرة على تحمل الناس ؛ لأنهم سوف يشغلوننى عنك . فمات فى الحال . ومثل هذه الطائفة لا تصلح أن تكون قدوة للناس ؛ إذ أن من يصلح للقدوة لا يهتم بإظهار الكرامات . غير أنها إذا ظهرت منهم دون تعمد فإن هذا لا يؤثر فيهم ، وربما يظهرون كراماتهم فى وقت من الأوقات بقصد المصلحة دون أن تكون مشقة الناس حجابا لهم . فهم مأمورون بوعظ الناس وهداية المريدين وإرشادهم وتهذيب أخلاقهم . وهذه الطائفة أكثر نضجا .

ولهذه الطريق مقامات كثيرة . وقد بين شيوخ الصوفية ألفا وواحدا من هذه المقامات التى يطول شرحها . وهدفنا هو القول بأن المشايخ لا يجتهدون فى إظهار الكرامات بل أنهم يسعون لإخفائها .

وهناك فرق بين الولى والنبى ، وهو أن الأنبياء أمروا بإظهار المعجزات ،

أما الأولياء فقد أمروا بكتمان الكرامات . وقد كان ـ أبو سعيد ـ لهذا السبب كثيرا مايخفى مجاهداته ورياضاته وكراماته ، ولم يكن يطلع احداً عليها . وقد بالغت فى تصحيح ما وصلنى من الثقاة وذوى العدل ، أما ما كان بينه وبين الله فلا يمكن التحدث فيه .

وقد عاش الشيخ ألف شهر ، لأنه عمر ثلاثة وثمانين عاما وأربعة أشهر . وتوفى فى مساء يوم الخميس الرابع من شعبان سنة أربعين وربعمائة فى مدينة ميهنه فى صومعة داره، ودفن فى ضحى يوم الجمعة فى الروضة المقدسة التى تواجه داره على نحو ماشار به . أسأل الله سبحانه وتعالى ألا يقطع بركات همته وأنفاسه عن جميع الناس ، وأن يثبت قدمى وأقدام الجميع فى متابعته بحق محمد وآله أجمعين .

الباب الثاني

في أواسط حال شيخنا قدس الله روحه العزيز وهو ثلاثة فصول



الفصل الأول

فى الحكايات المشهورة عن كرامات شيخنا قدس الله روحه العزيز وثبتت صحتها

حكاية :

عندما فرغ الشيخ أبوسعيد قدس الله روحه العزيز من الرياضة والمجاهدة وعاد إلى ميهنه ووصل هذا الحال والكشف إلى الكمال ، توجه إلى نيسابور. وعندما وصل إلى مدينة طوس أرسل قبله أحد الدراويش من قرية « باز» التى تقع على بعد فرسخين من المدينة وقال له : ينبغى أن تذهب إلى المدينة وتسأل المعشوق هل يأذن لنا فى النزول بولايته ؟. ولم يكن الشيخ يقول لأحد قط « أفعل هذا » أو « لاتفعل ذلك » بل كان يقول « ينبغى أن تفعل هذا » أو « لاينبغى أن تفعل ذلك » .

وكان المعشوق من عقلاء المجانين ، وشيخا عظيما كاملا ، يقيم فى طوس وقبره موجود بها .

وعندما ذهب ذلك الدرويش ، أمر الشيخ باعداد جواده ، وذهب خلفه وفى رفقته جماعة الصوفية . وحين وصل إلى بعد فرسخ من المدينة فى موضع يقال له « دو برادران » به هضبتان يمكن منهما رؤية المدينة ، توقف جواد الشيخ وتوقف الجميع معه . ولما وصل ذلك الدرويش عند المعشوق وذكر له قول الشيخ

ابتسم المعشوق وقال : إذهب وقل له يحضر . وعندما تلفظ المعشوق (ص ٦٦) بهذا القول في المدينة ساق الشيخ جواده من ذلك المكان ، وسار معه الجميع حتى التقى الدرويش به في الطريق ، وأبلغه قول المعشوق . وجاء الشيخ إلى المعشوق فاستقبله وعانقه قائلا : أطمئن فإن هذه الطبول التي يدقونها هنا وهناك سوف يدقونها جميعا على بابك أياما عديدة .

وبعد ذلك رجع الشيخ من هناك ونزل في خانقاه الأستاذ أبي أحمد التي كانت مقرا لأبي نصر السراج. واحتفى الأستاذ أبو أحمد بشيخنا وقام على خدمته ، واستبقاه في طوس عدة أيام ، وعقد له مجلسا في خانقاته . وعندما سمع أهل طوس أقوال الشيخ ورأوا كراماته الظاهرة ، أصبحوا من مريديه ، ووجد الشيخ قبولا كبيرا .

وقد سمعت من الأمير الإمام عز الدين الايلباشي « طول الله عمره » قوله: سمعت الأمير أبا على يقول : عندما جاء الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز إلى طوس وكان يعظ في المجالس في دار الأستاذ أبي أحمد ، كنت لا أزال شابا صغيرا . فذهبت مع والدي إلى المجلس، وكان قد تجمع به خلق كثير بحيث لم يعد هناك مكان على الباب أو السطح . وبينما كان الشيخ يتحدث في المجلس ، وقد أجهش الناس بالبكاء دفعة واحدة ، سقط طفل صغير من حجر أمه بسبب تزاحم النساء على السطح . ولما رآه الشيخ قال : اللهم احفظه . فظهرت يدان في الهواء وأمسكتا بالطفل ووضعته على الأرض دون أن يصاب بأذى . ورأى جميع أهل المجلس ذلك ، وانبعث الصياح من الناس . وقد أقسم أبو على على أنه رأى هذا بعينيه .

حـــكاية :

قال عمى كمال الدين بن أبى سعيد : ذهبت إلى سرخس مع والدى السيد أبى سعيد وجدى السيد أبى طاهر رحمة الله عليهما لتحية نظام الملك فقــال لنــا : (ص ٦٧) عند ماجاء الشيخ أبوسعيد قدس الله روحه العزيز إلى طوس كنت صغيرا ، أقف مع جماعة من الصبية على رأس حى المسيحيين . وأقبل الشيخ مـع الجماعة ، ولمــا اقترب منا التفت إلى الصوفية وقال : قل لمن يريد رؤية سيد الدنيا أنظرفها هوقد وقف هناك . وأشار إلينا . فأخذ كل منا ينظر إلى الآخر فى تعجب لـكى نتبين من المقصود بهذا القول : فقد كنا جميعا صغارا لا نعرف شيئا . واليوم مر على هذا الحادث أربعون عاما وقد عرفت الآن أنه كان يشير إلىّ .

حـــكاية :

حكى السيد أبو القاسم الهاشمى هذه الحــكاية فقال : كنت فى السابعة عشر من عمرى عند ماجاء الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز إلى طوس ، وكان والدى رئيسا لهــا ومريدا للشيخ ، يذهب إلى مجلسه فى خانقاة الأستاذ أبى أحمد كل ليــلة ويأخذنى معه . ولم أكن أجلس فى حضرة والدى قط . وكانت لى معشوقة فى الخفاء كعادة الشبان . وذات ليلة أرسلت إلىّ تلك المرأة تقول:سوف أذهب إلى عرس فلا تنم حتى أراك عند عودتى . فجلست على السطح ، ومضى الليــل فى بطء ، واستولى على النعــاس ، فأخذت أقول لنفسى هــذه الرباعية حتى لا أنام .

« رباعية »

قــد امتلأت عيــونى بالدمع بدلا من النوم
ذلك أنهــا تتعجـــــــل رؤيتك
يقولون لى نم حتى تراه فى النوم !
فيــا أيهــا الحمقى من أين لى النــوم

وأخذت أردد هذا الشعر ولـكن النوم غلبنى ، وبقيت نائما حتى أذن المؤذن صلاة الفجر ، فصحوت من نومى ولم أر أحدا .

وفى اليوم التالى ذهبت مع والدى إلى مجلس الشيخ فسألوه عن المحبة فى طريق الله ، فأخذ يقول كلاما فى هـذا المعنى ثم قال : أنظر طريق البحث عن آدمى تحبه لترى أية متاعب تـكابدها ، (ص٦٨) وأية حيلة تصنعها لـكى تصل إلى مقصودك أو لاتصل ، لتعرف كيف يمـكن للسالك فى طريق الحق أن يصل إلى مقصوده . فهاك محبوب وعد هذا الشاب بالأمس ، وأشار إلىَّ ، فظل بدون نوم نصف الليل وأخذ يقول : لقد امتلأت عيونى بالدمع بدلا من النوم . ماهى الشطرة الثانية أيها الشاب ؟ .

قال السيد أبو القاسم : فلم أقل شيئا من الخجل . فقالها الشيخ مرة ثانية فوقعت مغشيا على . ولمـا أفقت قال لى الشيخ : مادامت عيونك قد امتلأت بالدمع بدلا من النوم ، فلماذا نمت حتى عجزت عن بلوغ مقصودك ؟ . ثم قال الرباعية كلها، فصاح الناس جميعا، وغبت عن الوعى ، وأسقط فى يدى. وقال لى الشيخ يـكفيك هذا القدر . وتملـكت الجميع الأحوال فألقوا بالخرق واشترى لهم والدى غيرها .

وعندما جاء الشيخ إلى دارنا بعد ذلك ، رجاه والدى قائلا : إذا أردت أن تشرب فاشرب من يدى أبى القاسم . ووقفت بجوار الشيخ وفى يدى الـكوز فشرب الشيخ من يدى مرتين وقال لى : سوف تـكون رجلا طيبا ، ولم اقترف

حراما قط واحدا وثمانين عاما، فترة عمرى ، ولم أشرب الخمر قط احتراما لقول الشيخ ، ولم أقم بخدمة مخلوق ، ولم أسيء إلى أحد قط . وكنت صاحب هاتين الكرامتين من كرامات الشيخ .

حكاية :

روى أن الشيخ أبا سعيد والشيخ أبا القاسم الجرجانى قدس الله أرواحهما كانا قد جلسا معا على منصة واحدة فى مدينة طوس ، ووقفت جماعة من الدراويش أمامهما . فتساءل درويش بينه وبين نفسه مامنزلة هذين العظيمين؟ . (ص ٦٩) فالتفت الشيخ أبو سعيد إلى ذلك الدرويش فى الحال وقال: «كل من أراد أن يرى ملكين يجلسان معا على عرش واحد وهما متآلفان ، قل له أنظر» فلما سمع الدرويش هذا الكلام ، رأى فى الحال هذين الملكين ، فقد رفع الحق سبحانه وتعالى الحجاب عن عينه حتى ينكشف أمام قلبه صدق كلام الشيخ ويعلم عظمته . وجال بخاطره خاطر يقول هل لله عبد على الأرض أعظم من هذين الرجلين ؟ فنظر الشيخ قدس الله روحه العزيز إلى الدرويش فى الحال وقال : « إن قليلا من الملوك يمكن أن يكونوا مثل ابى سعيد وأبى القاسم » ، ثم أخذ يقول : «سبعون ألفا لا يبلغون منزلته ، سبعون ألفا لا يبلغون منزلته » ثم ذهب فى التفكير .

حكاية :

بعد أن أقام الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز عدة أيام فى طوس قصد نيسابور ، وكان السيد محمود المريد يقيم بها ، وقد بلغ من عظمته أن الشيخ أبا سعيد كان يرسل إليه المريدين، ويقول إنه سالك طيب. وفى يوم من الأيام قال محمود هذا : رأيت فى نومى أن جبل طوس الذى يقع ناحية نيسابور ينشق ، ويخرج القمر من وسطه ، وينزل فى خانقاه محلة « عدنى كويان» . وفى هذه اللحظة كان الشيخ يصل إلى المدينة ، فاستقبلوه وأنزلوه فى خانقاه عدنى كويان . وقال

السيد محمود : سيمضى وقت طويل قبل أن نعد طعاما فعلينا أن نحضر سريعا رأسا مشويا من السوق . وأعدت المائدة وقدموا الرأس المشوى فقال الشيخ: لقد شرعنا فى الأكل فليبارك الله لنا فيه . وعندما فرغوا من الطعام قال السيد محمود المريد : أيها الشيخ ، ما رأيك فى الحمام ؟. فقال الشيخ: (ص ٧٠) ينبغى أن نذهب إليه . وذهب الشيخ مع الجماعة إلى الحمام . وعندما فرشوا سجادة الشيخ أحضروا له ازارا نظيفا . ورفع السيد محمود العمامة عن رأس الشيخ وقبلها ووضعها أمامه. فقال له الشيخ : بارك الله فيك . ولما أظهر محمود الطاعة لم تعد هناك أهمية للآخرين . وأخذ الشيخ الازار والتف به وذهب إلى الحمام. وأخلدوا إلى الراحة بقية يومهم. وفى اليوم التالى أعدوا للشيخ مجلسا فى محلة عدنى كويان . وحين بدأ المجلس قالوا للشيخ : هنا رجل عظيم يدعى «أبو القاسم القشيرى » يقول إن العبد يصل إلى الله بقدميه فماذا يقول الشيخ ؟ فقال الشيخ: كلا، انهم يقولون إن العبد يصل إلى الله بقدم واحدة . وذهب مريدو الاستاذ الامام إليه وأبلغوه هذا القول . فقال لهم : ألم تسألوه كيف يكون ذلك ؟ . وفى اليوم التالى سألوا الشيخ: قد قلت بالأمس أنهم يصلون إلى الله بقدم واحدة فقال الشيخ : نعم ، واليوم أقول هذا نفسه. فسألوه: كيف أيها الشيخ ؟ . فأجاب بين العبد وربه قدم واحد ، فلا تكاد تخرج عن نفسك قدما واحدة حتى تصل إلى الله . وعندما قال الشيخ هذا صاح طواف باب الخانقاه قائلا: « نحن ونعمه كلها» . . فقال الشيخ : استمعوا إلى قول ذلك العاقل وأعملوا به ، فأخرجوا قليلا بكون الكل أنتم .

« بيت »

— لكى يبقى العشق بيننا خالصا دون عقد ،
علينا بالوفاق وحسن الطبع وألا نغضب أبدا .

وحكى مريدو الاستاذ الإمام له هذه للحكاية فقال الأستاذ : هو كذلك كما يقول الشيخ .

وكلما خطر لأحد الاستفسار عن أمر كان الشيخ يوضحه له حتى يتبينه ، ثم يتابع الشيخ الحديث . وأقبل أهل نيسابور على الشيخ واتجهو إليه . وكان الشيخ يقول الشعر فى وسط الحديث ، (ص ٧١) ويقيم الولائم الفاخرة . كما كانوا يقيمون السماع بين يديه ؛ ومن ذلك انكره جميع أئمة الفرق .

حكاية :

يقول السيد حسن بن المؤدب رحمة الله عليه : حينما تردد فى نيسابور أن شيخ الصوفية قد أقبل من ميهنه، وأنه يقوم بالحديث فى المجالس ويخبر الناس بأسرارهم، وكنت أحتقر الصوفية ، فقلت إن الصوفى لايعرف العلم فكيف يتحدث فى المجلس ؟ ولم يعط الله علم الغيب لأحد ، ولن يعطيه ، فكيف له أن يخبر بأسرار عباد الله تعالى ؟. وذات يوم ذهبت إلى مجلس الشيخ على سبيل الاختبار ، وجلست أمام منصته وقد ارتديت ملابس فاخرة، وعقدت شالا طبريا على عمامتى . وجلست بقلب مملوء بالإنكار والخلاف . وأخذ الشيخ يتحدث فى المجلس . وعندما أنهى الحديث طلب ثوبا لواحد من الدراويش . فقدم الحاضرون له بعض الثياب . وحدثت نفسى أن أعطيه عمامتى، ولكنى عدت وقلت لقد جاءتنى هذه العمامة هدية من آمل وقيمتها عشرة دنانير ذهبية فلن أعطيها . ثم طلب الشيخ عمامة. ففكرت أن أعطيه العمامة ، ولكننى عدلت عن هذه الفكرة مرة أخرى ، وعاودنى نفس الخاطر الأول. وكان يجلس إلى جانبى أحد الشيوخ ،فسأل الشيخ : هل يقول الله سبحانه وتعالى كلاما للعبد ؟ . فأجاب الشيخ : إنه يقول ، ولكنه لايقول أكثر

من مرتين من أجل عمامة طبرية ، فقد قال لذلك الرجل الذى جلس إلى جوارك مرتين أن أعط هذه العمامة التى على رأسك لذلك الدرويش وهو يقول لن أعطيها لأن قيمتها عشرة دنانير وقد أحضروها لى هدية من آمل . قال حسن بن المؤدب : عندما سمعت هذا الكلام ارتعدت ونهضت ، وتقدمت إلى الشيخ وقبلت أقدامه ، وأعطيت العمامة والملابس جميعها إلى ذلك الدرويش ، وتخليت عن الإنكار والخلاف ، وأسلمت من جديد ، وبذلت كل ما أمتلك من مال ومتاع فى سبيل الشيخ ، ووقفت نفسى على خدمته .

وهكذا أصبح — حسن بن المؤدب — خادما لشيخنا وظل فى خدمته بقية عمره . وقبره بميهنه . (ص ٧٢) .

حكاية :

سمعت من الشيخ محمد الشوكانى خادم الشيخ ، ومن أخيه زين الطائفة عمر الشوكانى قولهما : سمعنا والدنا يقول : كنت شابا عندما أرسلنى أبناء الشيخ أبى سعيد ، قدس الله أرواحهم العزيزة ورحمهم رحمة واسعة ، من ميهنه للخدمة فى خانقاه الشيخ فى نيسابور ، فاشتغلت بخدمة الدراويش . وفى يوم من الأيام ذهبت إلى الحمام المجاور للخانقاه ، وكان الشيخ يذهب إليه كثيراً ، وعندما دخلت الحمام وحلقت شعرى وجلست ، جاء شيخ وأراد أن يدلكنى ، فمنعته من ذلك ، وقلت له : أنت شيخ ، وأنا شاب ، ومن الواجب على أن أقوم بخدمتك . فقال لى : دعنى أدلكك ، وأروى لك حكاية . فتركته . وبدأ يحكى ، فقال : كنت شابا أملك حانوتا على مفترق الطرق فى هذه المدينة ، أقوم فيه بصناعة الحلوى . وعندما اشتغلت بهذا العمل فترة وتوفر لى رأس مال ، استهوتنى التجارة ، فنهضت من حانوتى ، وأعددت للسفر . ولم

أكد أخرج من المدينة حتى رأيت قافلة كبيرة تمر بجوار بخارى . فاستأجرت أنا أيضاً جملا وسرت فى صحبتهم . وعندما وصلنا سرخس وأقمنا بها يومين توجهنا إلى مرو كعادة القوافل . فتقدمتُ القافلة ،وقطعت جزءا من الطريق ، ونمت حتى تصل القافلة. فلما لحقت بى ، نهضت وسرت معهم ، ومكثت أسير على هذا النظام حتى جاء يوم أقبل فيه الليل على غرة، وكنت منهوكا متعباً وقد غلبنى النوم ،فسرت فى اتجاه من الطريق وتقدمت مسافة طيبة ونمت . وبقيت نائما حتى جاءت القافلة وارتحلت وأنا لا أزال نائماً إلى أن ايقظتنى حرارة الشمس. فصحوت من نومى، ونهضت ،فلم أر أثراً للقافلة فى أى مكان . وكانت الرمال من حولى ، ولم أتبين الطريق . فأسرعت مسافة ،ثم ضللت الطريق، ووقعت فى حيرة . وفكرت فى نفسى أننى إذا سرت مسافة فى هذا الطريق ، أو ذلك الاتجاه فلن أصل إلى أى مكان . والصواب يقتضى أن اجتهد مع نفسى، واستحضر قلبى ،حتى يستقر رأيى على اتجاه أسير فيه . فأجمعت أمرى، واجتهدت، وتخيرت اتجاها أخذت أسير فيه حتى جاء الليل. وكان الحر شديدا ، فأجهدنى العطش والجوع . ولما اعتدل الجو تمالكت نفسى قليلا ، وقلت: من الأفضل أن أسير ليلا . وفى تلك الليلة سرت حتى مطلع الفجر . وعندما أقبل الصباح نظرت من حولى ،فرأيت الصحراء كلها رمال وأشواك . ولم أر أثراً للعمران فى أى مكان ، فتحطمت. وأخذت أسير على هذا النحو من العطش والجوع والعجز ، حتى اشتدت حرارة الشمس وتجاوز العطش مداه ، فسقطت ، واستسلمت للموت. ثم قلت لنفسى : لا ينفع فى مثل هذه الحال غير بذل الجهود، ثم يكون الاستسلام للموت بعد نفاذ جميع هذه الجهود . ولم تبق لى سوى حيلة واحدة ، وهى أن أبحث بين هذه الكثبان الرملية عن كثيب يكون أكثر ارتفاعا،

وأتحايل على أن ارقاه ، وانظر فى ارجاء هذه الصحراء ، لعلى أرى مكانا عامرا ،
أو نبع ماء ، أو مأوى للبدو ، فإذا كان ذلك فهو المراد ، وإلا حفرت قبرى فوقها ،
واستسلمت للموت . ثم نظرت فرأيت مرتفعاً كبيراً ، فرفعت نفسى فوقه ، ونظرت
إلى تلك الصحراء ، فرايت سوادا من بعيد ، وامعنت النظر فوجدته عشبا . فقوى
قلبى ، وقلت لنفسى: حيثما يوجد العشب يكون الماء ، وحيثما يكون الماء يمكن
أن يوجد آدمى . وبذلك انبعثت فى القوة ، ونزلت وتوجهت إلى ذلك العشب .
وعندما بلغت ذلك المكان (ص ٧٤) وجدته أرضا صلبة تمتد خلال الرمال
على مسافة مرمى سهم ، بها عين يتدفق منها الماء الصافى ، ويغمر مساحة من الأرض
حولها ، حتى نما فيها العشب واخضر . فرفعت رأسى ، وشربت جزءا من ذلك
الماء ، وتوضأت ، وصليت ركعتين ، وسجدت شكراً لله على أنه أحيانى من جديد .
وقلت لنفسى: ينبغى أن اقيم هنا ولا أرحل عن هذا المكان ، فربما يأتى إليه أحد
فى طلب الماء ، وإلا فلا أقل من أن أستريح هنا بجوار الماء يوما وليلة . ثم
أكلت بعض العشب ، وابتعدت عن تلك العين ، وصعدت فوق الكثبان ، ووضعت
رأسى على الرمال كالثور ، واحطت نفسى بالأشواك لئلا يرانى أحد . وجعلت
أنظر من خلال الأشواك خشية أن يفترسنى حيوان ، أو يظهر آدمى
لا يخشى الله فيهلكنى ، ومازلت مختفيا بين الاشواك وانا انظر إلى اطراف
الصحراء . ولما حل وقت الظهر ، ظهر سواد من بعيد ، واتجه إلى هذه العين .
وحين اقترب كان رجلا . فقلت لنفسى « الله أكبر !! » لقد فتح باب لخلاصى .
ولما صار على مقربة ، وجدته رجلا ، طويلا ، أبيض اللون ، ضخم الجسم ، واسع العينين ،
تصل لحيته إلى وسطه ، وقد ارتدى مرقع الصوفية ، وحمل عصا وابريقا فى يده ،
وطرح سجادة على كتفه ، ووضع قلنسوة الصوفية على رأسه ، وانتعل خفا . وكان

النور يشع من وجهه. وجاء إلى حافة المـاء ،وألقى السجادة على نحو مايفعل الصوفية، وسحب أبريق الماء ، وذهب خلف مرتفع واستنجى . وعاد وجلس على حافة العين، وتوضأ ،وصلى ركعتين ، ورفع يديه ودعا دعاء. وأدى السنة ،ثم أقام الصلاة وأدى الفريضة . ومشط لحيته . ثم نهض وألقى السجادة على كتفه ، وحمل العصاة والأبريق ، واتجه إلى الصحراء . وكنت لا أشعر بنفسى (ص ٧٥) طيلة وجوده أمامى ، لشدة هيبته ،وانشغالى بطلعته ، وحسن طاعته. وعندما غاب عن عينى ، وعدت إلى وعيى لمت نفسى كثيراً وقلت ماهذا الذى فعلته ! لقد كنت أتمنى من الدنيا جميعها آدميا ليخلصنى من هذه الصحراء المهلكة ،فوجدت رجلا له مثل هذا النور ومع ذلك لم أطلب منه أن يدلنى على الطريق . ثم قلت : ليس هناك حل الآن سوى الصبر فربما يعود. وأخذت أنتظر حتى حل وقت صلاة العصر ، فظهر نفس ذلك السواد من بعيد ،فعرفت أنه نفس الشخص ، ولما اقترب كان هو فعلا. فأدى صلاة العصر فى هـذه المرة أيضا .

وكنت قد صرت أكثر جرأة هذه المرة،فخرجت من بين الأشواك فى بطء، ونزلت من ذلك المرتفع. وعندما فرغ من الصلاة، ورفع يديه بالدعاء ،هم بالذهاب . فأمسكت بذيله وقلت له : أيها الشيخ ، اعنى بحق الله .. . أنا رجل من نيسابور، وكنت قادما إلى بخارى مع قافلة ، وقد مضى على الآن يومان وأنا ضال ، وقد ذهبت القافلة وبقيت وحدى فى هذه الصحراء ، ولست أعرف لى طريقا . فأحنى رأسه ، ثم رفعها بعد لحظة ،وأمسك بيدى ونظرت، فرأيت أسدا آتيا من تلك الصحراء. وجاء الأسد أمامه ،وحياه، ووقف . فوضع فمه على اذن الاسد، وهمس فيها شيئا، ثم أجلسنى عليه ، ووضع شعر رقبته فى يدى ، وقال لى: أحكم قدميك تحت بطنه،

فإذا ماوقف فانزل عنه وسر فى الاتجاه الذى يوجه وجهه إليه . فأغمضت عينى ،وسار الأسد . ومضت ساعة ثم توقف عن السير. فنزلت عنه، وفتحت عينى (ص ٧٦) فوجدت طريقا . ولم أكد أسير خطوات حتى وجدت القافلة قد نزلت بذلك المكان . فذهبت معهم إلى بخارى ،وحصلت على ربح طيب من المتاع الذى حملته معى إلى بخارى ، واشتريت أمتعة تناسب نيسابور ، وعدت إلى حانوتى أصنع الحلوى مرة أخرى . ومضت عدة سنوات . وذات يوم ذهبت إلى محلة عدنى كويان لعمل ما ، فرأيت جمعا على باب الخانقاه. فسألت عما حدث. فقيل لى: لقد جاء رجل من ميهنة يقال له الشيخ أبو سعيد بن أبى الخير ، وهو شيخ ، وزعيم للصوفية ،وله كرامات ظاهرة . وقد نزل بهذه الخانقاه، وسيتحدث اليوم فى هذا المجلس ، وهؤلاء الناس يرغبون فى حضور مجلسه . وهذا هو سبب الازدحام . فقلت لنفسى فلأدخل أنا أيضا لأرى ماذا يقول . وحين دخلت من باب الخانقاه كان هناك عمود على طرف الرواق ،فوقفت بجواره . وكان الشيخ قد جلس على المنصة وأخذ يتحدث . ونظرت إليه ،فرأيت فيه ذلك الرجل الذى اجلسنى على الأسد فى الصحراء . وكان يتحدث وهو يتجه إلى ناحية أخرى . وعندما سمعت صوته ، عرفته للمرة الثانية . وأردت أن أقول ذلك ،فالتفت إلىّ فى الحال وقال: إياك . . إياك ، ألم تسمع بأن ما يُرى فى الصحراء لايقال فى العمران ؟ . ولما قال هذا انطلقت منى صرخة ،ولم أشعر بنفسى، ووقعت مغشيا على. وكان الشيخ قد عاد إلى الحديث وأتم المجلس. وعندما عدت إلى وعيى كان الشيخ قد أنهى المجلس، وذهب الناس وتفرقوا . وكان أحد الدراويش قدجلس ووضع رأسى على رجليه ، فلما أفقت ونهضت قال لى : لقد أمر الشيخ بأن تدخل معنا . فتقدمت ،وركعت

تحت قدمى الشيخ، فلاطفنى كثير ،ومنحنى بركاته ، وأمر حسن بن المؤدب أن يحضر لى ملابس جديدة ، فخلع عنى ملابس الحلوى ، (ص ٧٧) والبسنى تلك الملابس ، ووضع فى كمى كيسامن السكر ، وقال لى : أحمل هذا إلى صغارك ، وعاهدنى على ألا تقول هذا الكلام لأحد مادمت حيا ، وألا تفشى السر. فوافقته، وعاهدته على ذلك . ولم أقل هذه الحكاية لأحد طيلة حياة الشيخ ، فلما رحل إلى دار البقاء قلتها لك .

حكاية :

حكى السيد حسن بن المؤدب خادم الشيخ الخاص هذه الحكاية فقال : عندما جاء الشيخ أبوسعيد قدس الله روحه العزيز إلى نيسابور فى بداية حاله ؛ كان يتحدث فى المجالس. واتجه نحوه الناس، وأصبح له كثير من المريدين . وكان زعيم الكرامية فى نيسابور فى ذلك الوقت الاستاذ «أبو اسحاق الكرامى»،ورئيس أصحاب الرأى والرافضة القاضى صاعد . وكان لهما اتباع كثيرون . وكانا ينكران الشيخ انكارا شديدا ،ويظهران العداء لجميع الصوفية . وكان الشيخ يقول الشعر فوق المنبر ، ويقيم الولائم الفاخرة بحيث كان ينفق على الوليمة الواحدة الف دينار. كما كان يقيم السماع دائما . وكان هؤلاء ينكرون ذلك على الشيخ انكاراشديدا، بيد أن الشيخ لم يهتم بذلك واستمر فى عمله . وقد اجتمع هؤلاء ، وكتبوا عريضة شهد عليها أصحاب الرأى. وجاء فيها أنه «قد جاء إلى هنا رجل من ميهنه ، يدعو إلى الصوفية ، ويتحدث فى المجالس ، ويقول الشعر على المنبر ، ولايتحدث فى التفسير والاخبار،ويأمر بالسماع ، ويرقص، ويأمر الشباب بالرقص ، ويأكل الجوز

واللوز والطيور المشوية وألوان الفاكهة،ويطعمها للآخرين ، ويزعم بعد ذلك أنه زاهد. وليس هذا شعار الزهاد ولا الصوفية. وقد التف حوله الناس، وضلوا الطريق، ووقع أكثر العامة فى الفتنة . فإذا لم يتدارك — السلطان — هذا الأمر سريعا، ظهرت الفتنة » (ص٧٨) وأرسلوا تلك العريضة إلى السلطان محمود فى غزنين . فكتب لهم خطاباعلى ظهرها ؛بأن يجتمع أئمة الفريقين الشافعية والحنفية لينظروا فى أمره،ويطبقوا عليه ماتقتضيه الشريعة. ووصل ذلك الأمر يوم الخميس ،فسر أولئك المنكرون ، وقالوا : غدا الجمعة . وفى يوم السبت نعقد مجلسا ونشنق الشيخ مع جميع الصوفية على مفترق الطرق . وقرروا هذا جميعا . وانتشر الخبر فى المدينة ، وغضب لذلك اتباع الشيخ وتألموا . ولم يجرؤ أحد على أن يخبر الشيخ بهذا الأمر ؛ إذ أنه لم يكن من الضرورى أن يحاط علما بشىء ؛لأنه كان يرى ويدرك كل ماىجرى بفراسته وكرامته .

قال السيد حسن بن المؤدب : وحين فرغنا من صلاة العصر فى ذلك اليوم ، دعانى الشيخ، وقال لى: ياحسن ، كم عدد الصوفية ؟ فقلت : مائة وعشرون، ثمانون منهم مسافرون،والأربعون مقيمون. فقال: أقم لهم غداً مأدبة ، ماذا ستعد لهم ؟.. قلت : مايشير به شيخنا . فقال : غدا يجب أن تضع أمام كل واحد رأس حمل مشوية مع كثير من السكر المسحوق ، لينثروه على مخ ذلك الحمل . وأن تضع أمام كل واحد رطلا من الحلوى ، وتحضر ماء الورد والبخور لكى نحرق العود، ونصب عليهم ماء الورد . وتحضر حبالا قوية الفتل ،وتضع المائدة فى المسجد الجامع ،ليرى أولئك الذين يغتابوننا فى الخفاء ماذا يطعم الحق سبحانه وتعالى أعزاء حضرة عزته من حجب الغيب . قال حسن : ولما أشار الشيخ بهذا ، كان

معروفا أنه لم يكن فى الخزانة رغيف واحد . ولم أكن أعرف فى نيسابور جميعها
من اجترىء عليه بطلب درهم واحد ، إذ أن الجميع كانوا قد تغيروا بسبب هذه
الشائعات . ولم أجرؤ أن أقول للشيخ من أين أهيىء هذا . فخرجت من عنده ،
وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب ، ووقفت متحيرا على رأس محلة عدنى
كويان لا أدرى ماذا أصنع حتى انقضى النهار ، واصفرت الشمس وغربت . وكان
الناس يغلقون حوانيتهم ، (ص٧٩) ويتوجهون إلى منازلهم . وحانت صلاة العشاء
وغم الظلام ، ورأيت رجلا فى نهاية السوق يسرع عائدا إلى منزله ، فرآنى واقفا ،
فقال لى : ياحسن ، ماذا دهاك حتى جعلك تقف حائرا هكذا ؟ مرنى بحاجة
أو خدمة . فأخبرته بالقصة ، وبما أمر به الشيخ ، وقلت له أننى لا أعرف لهذا الأمر
مخرجا ، وسأظل واقفا هكذا حتى الفجر ، إذا دعا الأمر ، إذ لا سبيل أمامى لعودة .
ففتح ذلك الشاب كمه فى الحال وقال لى : أدخل يدك فى كمى وخذ مايلزمك ،
وانفقه على نحو ما أشار الشيخ . فوضعت يدى فى كمه ، وأخذت حفنة من الذهب
الاحمر . وارتاح قلبى وأثنيت عليه واتجهت للعمل وأعددت كل ما أمر به الشيخ .
وكأن يدى كانت ميزانا لما قاله الشيخ ، فقد أعددت هذا كله بحيث لم ينقص درهم ،
ولم يزد درهم واتممت ذلك كله فى تلك الليلة ، وذهبت فى الوقت المعين ، وأخذت الحبال
ومددت المائدة فى المسجد الجامع على النحو الذى أشار به الشيخ . وحضر الشيخ مع
الصوفية . واشتغل كثير من الناس بالنظر إلى هذا ، وحملوا الخبر إلى القاضى
صاعد والأستاذ أبى بكر أن الشيخ قد أعد وليمة للصوفية فى المسجد الجامع . فقال
القاضى صاعد : اتركوهم لينعموا اليوم ويأكلوا الرؤوس المشوية فغدا سوف تأكل
الغربان رؤوسهم . وقال أبو بكر اسحاق : اتركوهم يشحمون اليوم بطونهم
لانهم سوف يشحمون المشنقة غدا . ووصل هذا الخبر إلى آذان الصوفية فاغتم

الجميع وتألموا . وعند مافرغوا من الطعام قال الشيخ : ياحسن ، ينبغى أن تحمل سجاجيد الصوفية إلى مقصورة القاضى صاعد لاننا سوف نصلى خلفه . وكان القاضى صاعد خطيب المدينة . قال حسن: فحملت سجاجيد الصوفية إلى المقصورة وأنزلت خلف القاضى صاعد مائة وعشرين سجادة وصففتها صفين بحيث لم يعدهناك مكان لأحد . ودخل القاضى صاعد وذهب إلى المنبر وخطب خطبة انكار ونزل . ولما قضيت الصلاة (ص ٨٠) نهض الشيخ ولم ينتظر السنة. وحين سار نظر القاضى صاعد خلفه، وأراد أن يقول كلاما. فنظر إليه الشيخ باحتقار، فأحنى رأسه فى الحال. وذهب الشيخ، وذهب الجميع فى خدمته. وعندما عاد الشيخ إلى الخانقاة قال لى: اذهب إلى سوق الكرمانيين تجد هناك بائع حلوى وضع كعكا نظيفا محشوا بالفستق، فخذ منه عشرة أمنان من الكعك، ثم دعه وسر حتى تجد بائع عنب، فخذ منه عشرة أمنان من العنب، وضعهما فى فوطتين طبريتين، واذهب بهما إلى الاستاذ أبى بكر اسحاق، وقل له: ينبغى أن تفطر عليهما الليلة. قال حسن: فنهضت وذهبت إلى السوق الكرمانيين، و نفذت أمر الشيخ، وذهبت إلى بيت أبى بكر اسحاق، واستأذنت ودخلت وسلمت عليه، وأبلغته سلام الشيخ، وقلت له: إن الشيخ يرجو أن تفطر الليلة على هذا الطعام . وعندما رآه تغير لون وجهه، وعض أصابعه. وأظهر تعجبه، وأجلسنى. ونادى حاجبه «أبو القسمك» وقال له: اذهب إلى القاضى صاعد وقل له انى قد عدلت عن الموعد الذى كان بيننا غدا لنذهب ونناظر هذا الشيخ والصوفية ونؤذيه ، وأنت أعلم بهم . وإذا قال لك لماذا ؟ فقل له انى نويت الصيام بالأمس ، واليوم حين وصلت إلى سوق الكرمانيين فى طريقى إلى المسجد ، رأيت كعكا نظيفا على باب أحد حوانيت الحلوى ، فرغبت فيه ، وفكرت فى أنى بعد الصلاة سوف أبعث من يشترى لى كعكا من ذلك الحانوت لأفطر عليه الليلة . وحينما تجاوزته ، رأيت بائع عنب

فقلت أن العنب لطيف مع الكعك لأفطر عليهما . وحين عدت إلى المنزل كنت قد نسيت كل شيء عن هذا الأمر، ولم أتحدث به لمخلوق . بل كان مجرد خاطر. والآن أرسل الشيخ إلىّ هذين الشيئين من نفس الموضعين قائلا افطر عليهما الليلة والشخص الذى يكون له مثل هذا الاطلاع على ضمائر الناس ،لايسعنى إلا أن اتجنب مناظرته .(ص ٨١) وذهب الحاجب أبو القسمك ،وعاد برسالة — من القاضى صاعد— يقول فيها : لقد كنت أنا أيضا على وشك أن أبعث إليك بمن يخبرك بمثل ما أخبرتنى به ، فقد صلى — الشيخ — خلفى اليوم ، وعندما أنهى الفريضة نهض ولم ينتظر السنة وسار. فأتبعته بنظرى راغبا فى الاساءة إليه ، وأسأله ماذا يكون شعار الصوفية هـذا الذى لايؤدى السنة فى يوم الجمعة ؟ فنظر إلىّ الشيخ فى احتقار ، وذابت جرأتى ، وتخيلت أنه صقر وأننى عصفور صغير ، وأنه سيفترسنى فى هذه الساعة . وبذلت جهدا كبيرا لأتكلم، ولكنى لم أستطع أن أقول شيئا . وقد أظهر لى اليوم هيبته وعظمته، فلاشأن لى معه . ولقد كنت أنت صاحب الرأى فى مخاطبة السلطان فى أمره ،والمسئول عن هذا ، والأصل فى ذلك، وكنا نحن أتباع لك . وعندما انتهى الحاجب أبو القسمك من هذه الرسالة التفت أبو بكر اسحاق إلىّ وقال لى . اذهب وقل للشيخ إن القاضى صاعد ومعه ثلاثة آلاف رجل من أتباعه ،وأبا بكر اسحاق ومعه عشرون ألف رجل ، والسلطان ومعه مائة ألف رجل وسبعمائة فيل محارب ،قد اعتزموا جميعا محاربتك اليوم،وأعدوا القلب والميمنة والميسرة والجناح ، وأرادوا أن يقهروك ، فهزمتهم بعشرة أمنان من الكعك ،وعشرة أمنان من العنب،وضربت الميمنة والميسرة والجناح بعضها ببعض.

والآن أنت أعلم بدينك ، ونحن أعلم بديننا « لكم دينكم ولى دين » .

قال حسن : فعدت إلى الشيخ ،وأخبرته بما حدث. فالتفت إلى المريدين وقال لهم: منذالأمس وأنتم ترتعدون خوفا، وظننتم أنهم سيشحمون المشانق بدمائكم... كلا .. . انهم يشحمون المشانق بدماء الابطال، مثل الحسين بن منصور، الذى لم يكن له فى عهده نظير فى المشرق والمغرب فى علوم التصوف ، لا بدماء الجبناء من أمثالكم. ثم التفت إلى القوال وقال له : تعال ، أنشد هذه الرباعية :

تعالى إلى الميدان والبس الدرع والكنانة
ولاتباهى بنفسك وباه بى
وعش سعيدا سواء كان المصير
باردا كالثلج أو حارا كالنار . !

(ص ٨٢) فردد القوال هذه الرباعية ، وصرخ الصوفية ، وظهرت الأحوال ، وأحرم ثمانية عشر شخصا ولبوا ، وارتدوا الخرق . وفى اليوم التالى أقبل القاضى صاعد للسلام على الشيخ ، واعتذر له قائلا: أيها الشيخ ، لقد تبت ورجعت عن ذلك.

وكانوا يسمون القاضى صاعد « قمر نيسابور » لجمال وجهه ، فقال الشيخ هذه الرباعية .

قلت انى قمر نيسابور
فياقمر نيسابور ، أن نيسابور لك
لك ماتملك وما نملكه نحن أيضا
فهلا قلت لنا فيم العداوة بيننا

وعندما جرت هذه الرباعية على لسان الشيخ ،وقع القاضى على أقدامه ،وبكى،

واستغفره ،وصفا الجميع من البغضاء والتشاحن ،ونهضوا مسرورين. وبعد ذلك لم يجرؤ أحد فى نيسابور على أن ينتقص من قدر الصوفية .

حكاية :

كان فى نيسابور سيدة يقال لها « ايشى نيلى »، وكانت زاهده عابدة ، ومن أسرة كبيرة . وكان أهل نيسابور يتقربون إليها . وظلت لاتغادر قصرها طيلة أربعين عاما . وكان لها مربية تقوم على خدمتها . ولما ذاعت شهرة الشيخ قدس الله روحه العزيز فى نيسابور قالت ايشى لمربيتها يوما : انهضى واذهبى إلى مجلس الشيخ واحفظى مايقول لتحدثينى به حين تعودين . وذهبت المربية إلى مجلس الشيخ وكان الشيخ يقول كلاما لم تستطع المربية أن تحفظه ، ثم قال هذه الرباعية :

عندى حبة ونصف ، وهو قدر ضئيل
وقد اشتريت قد حين من النبيذ ، وهو قدر ضئيل
لم تبق على عودنا نغمة منخفضة أو عالية
فالى متى تقول إن الفقر غم وهم

وعندما عادت المربية سألتها ايشى عما قاله الشيخ ، وكانت لم تحفظ مما قاله سوى الرباعية ، فروتها لها . فقالت ايشى : أيكون هذا كلام العلماء والزهاد انهضى وأغسلى فمك . (ص ٨٣) فغسلت المربية فمها . وكان من عادة ايشى أن تصنع للناس مرهما للعين . ونامت فى تلك الليلة فرأت فى نومها شيئا مخيفا ،فاستيقظت

وقد رمدت عيناها . وعالجتهما كثيرا، ولجأت لجميع الأطباء دون جدوى. وظلت تصرخ وتتألم عشرين يوما وليلة . وذات ليلة نامت فرأت هاتفا يقول لها : إذا كنت تريدين أن تشفى عيناك فاذهبي واسترضي الشيخ . وفى اليوم التالى وضعت ايشي الف درهم فى كيس،واعطته للمربية وقالت لها: احمليه إلى الشيخ، وعندما ينتهى من المجلس ضعيه أمامه ، ولاتقولى شيئا ، ثم عودى . وذهبت المربية إلى مجلس الشيخ . ولما فرغ من المجالس سلمت عليه ، ووضعت كيس النقود أمامه . وكان من عادة الشيخ عندما ينتهى من المجلس أن يضع أحد المريدين أمامه رغيفا جافا،واعوادا من الخلال، فكان الشيخ يأكل الخبز ،ويخلل أسنانه . ولما اقتربت المربية من الشيخ ، كان يخلل أسنانه ، فوضعت النقود أمامه ، وأرادت أن تعود. فقال لها الشيخ : تعالى ، واحملى هذا الخلال إلى سيدتك ، وقولى لها : أغسلى هذا الخلال فى الماء وضعيه فى عينيك حتى تجدين الشفاء ، واخرجى من قلبك الانكار والشك فى هذه الطائفة حتى تشفى بصيرتك أيضا . فقالت المربية هذا الكلام لايشي . ففعلت ما أمر به الشيخ ،و غسلت الخلال فى الماء ، ووضعته فى عينيها ، فشفيت بقدرة الله فى الحال . وقامت فى اليوم التالى ، وأخذت كل ماتملك من الذهب والجواهر والملابس ، وأحضرته إلى الشيخ ، وقالت له : أيها الشيخ ، لقد تبت واخرجت الانكار والشك من صدرى . فقال لها أن تختار خدمة هذه الطائفة فنهضت ايشي ، ولبست الخرقة ، وقامت بخدمة الدراويش ، وانفقت كل ماتملك فى سبيلهم .

حكاية :

روى أن الشيخ أبا سعيد قدس الله روحه العزيز ذهب إلى نيسابور واقام بها

كما كان يعقد المجالس خلاله ويتحدث إلى الناس . وكان الاستاذ أبو القاسم القشيرى (ص ٨٤) لم يعرف الشيخ بعد ، وكان ينكره . وفى خلال هذا العام كان سبعون رجلا من مريدى الاستاذ الأمام قد ذهبوا إلى مجلس الشيخ، ومن بينهم « أبو نصر الحرصى » الذى كان يلح على الأستاذ الأمام دائما فى أن يحضر مجلس الشيخ ولو مرة واحده ويستمع إلى حديثه ، حتى أجابه الاستاذ الأمام إلى طلبه بعد عام وقال له : سأحضر غدا . وفى تلك الليلة ذهب الاستاذ الامام إلى دورة المياه كعادته ، وأخذ فى الاستبراء من خارج الملابس .

وهذه ليست سنة ؛ فالسنة أن تكون اليد من داخل الثوب لكيلا تكشف عن العورة حتى ولو كنت بمفردك ، وذلك وفق ماورد فى الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم « واستحيوا من الذين يرونكم وأنتم لاترونهم » . ولم يكن الاستاذ الامام من أولئك الذين تفوتهم هذه السنة سهوا .

ثم صعد وأيقظ الجارية وقال لها : نظفى اللجام وأطراف السرج ، ثم شرع فى الوضوء . وفى الفجر ذهب إلى مجلس الشيخ . وأخذ الشيخ فى الحديث كعادته ، وكان الاستاذالامام ينظر إليه ،ويرى تلك السيطرة والاشراف على الخواطر فقال لنفسه : أن هذا الرجل ليس أكثر منى فضلا ، ونحن متساويان فى المعاملة ، فمن أين وجد تلك المنزلة ؟ . فالتفت إليه الشيخ فى الحال وقال له : أيها الاستاذ ، أنهم يتساءلون الآن عما حدث فى ذلك الوقت ؛ فليس من السنة أن يدخل السيد الحجرة وهو يستبرىء ، ويوقظ الجاربة قائلا لهـا انهضى ونظفى اللجام وأطراف السرج . وعندما سمع الاستاذ الامام ذلك القول ،استولى عليه الذهول والفرح . ولما نزل الشيخ عن المنبر تقدم إلى الاستاذ الامام وعانق كل منهما الآخر(ص٨٥) وتخلص الاستاذ الامام من الانكار والتحكم .

حكاية :

روى أنه عندما زال الانكار عن باطن الأستاذ الإمام ، كان لايزال ينكر السماع الذى يقيمه الشيخ ، ذلك أنه كان ينكر السماع فى البداية . ومر يوما على باب خانقاه الشيخ ، وكانوا عندئذ يقيمون السماع فى الخانقاه ، وقد غمرت النشوة الصوفية ،وظهرت الأحوال،فكانوا يرقصون والشيخ معهم. ونظر الأستاذ الإمام فى الخانقاه ، وجال بخاطره أنه فى المذهب لاتسمع شهادة الشخص الذى يرقص ويدور حول نفسه ، لأن ذلك يبطل العدالة. وفى اليوم التالى كانوا يرافقون الشيخ إلى وليمة ، وكان الأستاذ الإمام ذاهبا إلى مكان مافتقابلا على مفترق الطريق ،وتبادلا التحية ،فقال الشيخ: ياأستاذ ، متى رأيتنا فى صف الشهود ؟ فأدرك الأستاذ الإمام أن هذا جواب على ذلك الخاطر الذى خطر له بالأمس ، فتخلى عن ذلك أيضا . وفى يوم آخر مر الأستاذ الإمام على باب الخانقاه وكان الشيخ قد أمر بالسماع،وقد تملكه حال من الوجد ،وشملت النشوة جميع الدراويش، وأخذ القوال ينشد هذا البيت :

— لاعار عليك إذا أصبحت وثنيا من أجل صنم ،
لانك إذا لم تصبح وثنيا لا يكون الصنم صديقاً لك .

فانكر الأستاذ الإمام ذلك البيت وقال لنفسه: لو أمكن تأويل جميع الأبيات على وجه من الوجوه ،فإن هذا البيت يكون من الأبيات التى لايمكن تأويلها ، ومع هذا فالشيخ على هذا القدر من السرور . وقد جال هذا الخاطر فى نفس الاستاذ الإمام ولم يظهر عليه أحدا وسار . وبعد ذلك دخل الأستاذ الإمام على الشيخ يوما ولما جلس التفت الشيخ إليه وقال : يا أستاذ .

« بيت »

— ألا يلحق بك العار إذا أصبحت وثنيا من أجل صنم؟،

وإذا لم تكن وثنيا هل يكون الصنم صديقا لك.

(ص٨٦) قال الشيخ البيت هكذا على وجه الاستفهام . وعندما سمع الاستاذ الامام طريقة تفسير هذا البيت الذى لم يستطع أن يفسره ،ورغم ماله من علم ودراية في التصوف ورغم أنه فكر فيه كثيرا ، أقر بأن السماع مباح للشيخ ، ومسلم به ، وتاب وعزم على ألا ينكر على الشيخ شيئا . وبعد ذلك ظل يختلف عليه كل يوم ، أو يذهب الشيخ إليه .

حكاية :

كان الشيخ أبو أحمد صاحب سر الاستاذ الامام ، قدس الله أرواحهما العزيزة ،رجلا عظيما جدا . وقد روى أنه ولد للاستاذ الامام ذات ليلة ولد،فابلغوه الخبر سرا ،ولم يكن أحد من الدراويش قد علم بذلك ،ولم يكن الاستاذ قد اختار له اسما بعد. وأمسك شخص بحلقة باب الخانقاه ،فقال الاستاذ الامام ، إنه الشيخ أبو سعيد . وفتحوا الباب فكان هو . فدخل وقال للاستاذ الامام : لقد علمنا أن الله وهب لكم غلاما،وقد بقى أن نسميه، فوهبنا له اسمنا « أبو سعيد ». وأقام الاستاذ الامام ثلاث ولائم تعبيرا عن شكره لهذا الحادث ، كما أقام صهره السيد أبو عمر ، وكان رجلا عظيما ميسور الحال ، أربعين وليمة أيضا .

حكاية :

قال السيد أبو بكر بن المؤدب إن الشيخ أبا سعيد كان يعظ فى المجلس يوما ، وفى اثناء الحديث قال : لقد تأخر الاستاذ الامام .. ثم عاد وقال : عجبا ، عجبا . ثم تحدث مرة أخرى وقال : إن قلبي مشغول على الاستاذ الامام ، لأنه

كان مريضا بالامس . وعندما قال الشيخ هذا دخل الاستاذ الامام من الباب ، فصرخ الناس ، والتفت الشيخ إليه وقال : يا استاذ ، أننا لم نغفل عنك بالامس ، وسوف أقول حكاية أثبت بها عيادتى لك . ثم روى الشيخ هذه الحكاية :

كان أحد القرويين جالسا ذات يوم ، فاحضر له أحد مزارعيه خيارا ظهر حديثا . فاحصى القروى أهل بيته وأعطى كل واحد خيارة . وأعطى واحدة لخادمه ولم يبق له شىء . وأخذ الغلام يأكل الخيارة . ومالت نفس السيد إليها فقال لغلامه : (ص ٨٧) أعطنى جزءا من هذه الخيارة . فاعطاه الغلام قطعة منها . وعندما ذاقها السيد وجدها مرة فقال له : أيها الغلام ، أتأكل خيارا على هذا القدر من المرارة بكل هذه اللذة ؟ . فأجاب الغلام : أى عذر لى حين أرد شيئا واحدا مرا وأنا آكل من يد الله أشياء حلوة سنين عديدة . ثم قال الشيخ : أيها الاستاذ :

« قطعة من الشعر »

— كيف تألم من الحبيب لشىء من الاشياء ،
والحب هكذا ، تارة سرور وتارة ألم وعناء .
— وإذا أذلك العظيم فليس ذلك الذل عيبا ،
فإنه حين يعود ويلاطفك تذوب فى ملاطفته آلام الجفاء
— وسيئة واحدة لا يمكن أن تنسيك مائة حسنة ،
وإذا ظننت التمر صلبا فلن تأكل منه واحدة .
— ومن شأن الحبيب أن يغضب فعليك مداومة الاعتذار ،
فليس من الممكن أن تجد حبيبا جديدا بين ليل ونهار .

وحين سمع الاستاذالامام هذا القول صرخ وغاب عن الوعى. ولما انهى الشيخ المجلس وتفرق الناس ودخل المنزل ، اقترب مشايخ الصوفية من الاستاذ الامام وسألوه عما حدث بالامس فقال : حدث أمر عجيب ، فبالامس تكاسلت عن أداء الورد الذى تعودت أداءه ، وكنت مضطربا لذلك ، فقلت لنفسى : سوف أذهب إلى المسجد يوم الجمعة، وأغتسل فى الحوض ،وأذهب إلى قبور المشايخ وأؤدى هذا الورد . وعندما وصلت إلى المسجد الجامع ، نزلت إلى الحوض ، ووضعت السجادة والملابس على حافته ،وأخذت أصب الماء على رأسى ،فدخل رجل وسرق ثوبى ونعلى . فتألمت لذلك، وزل لسانى فى حق السيادة ،وخرجت من الماء ،وذهبت عاريا إلى الخانقاه ،ولبست ملابس أخرى، وقلت يجب إتمام الأمر .وخرجت قاصدا الزيارة ، وعندما وصلت إلى باب المسجد الجامع، عثرت قدمى بحجر وجرحت ، ووقعت عمامتى عن رأسى، وأقبل رجل واختطفها . وبقيت حائرا ، فرفعت رأسى إلى السماء وقلت : يا الهى ! .. إذا كنت لاتريد أبا القاسم فإنه لاقبل لى بصفعاتك، وجراحك ، فالورد والزيارة كانا من أجلك ، فإذا لم تردها أبقيتهما لنفسى ! . . ولم يدر أحد قط بما حدث لى. واليوم يقول الشيخ: (ص ٨٨) لقد كنت معك بالامس ، فإذا كان قد أطلع على هذا السر فما أشد عارى لو أنه عرف عنى ماحدث .

حكاية :

سمعت عن السيد أبى الفتوح الغضائرى إنه قال : كان فى محلة عدنى كويان دكان بجوار زاوية الشيخ ، فكانوا يذهبون إليه كل يوم عند العصر ، ويرشون الماء ، ويعدون المكان . وقد اعتاد الشيخ أن يجلس هناك ، ويجلس الشيوخ بين يديه ، ويقف الشبان من خلفهم . وكان المكان بهيجا طلقا طيبا . وذات يوم

كان الشيخ قد جلس كعادته فقال : هل تريدون أن تروا جاسوسا من جواسيس الله تعالى ؟ إذا كنتم ترغبون فى ذلك ،فانظروا إلى هـذا الرجل . فنظر الجميع ولم يروا أحدا . وفى الحال ظهر الأستاذ الامام أبو القاسم القشيرى من نهاية الطريق، فلما اقترب ، ألقى عليهم بالتحية ، ثم مضى . فنظر الشيخ خلفه وقال : إنه أستاذ ، إنه أستاذ حقا .

حكاية :

روى أن الشيخ أبا القاسم القشيرى فكر ذات ليلة وقال لنفسه : غدا اذهب إلى مجلس الشيخ أبى سعيد، وأسأله ما الشريعة ، وما الطريقة ؟، وأرى بماذا يجيب. وفى اليوم التالى ذهب إلى مجلس الشيخ وجلس، وبدأ الشيخ الحديث، وقبل أن يتسأل الأستاذ الإمام سؤاله قال الشيخ : أيها الرجل الذى تريد أن تسأل عن الشريعة والطريقة ، إعلم أننا جمعنا العلوم كافة فى هذا البيت :

— جاءت رسالة من الحبيب أن أحسن العمل ، وهذه هى الشريعة ،
وقدم الحب من قلبك وتجنب الفضول ، وتلك هى الطريقة .

وقد قال إمام الحرمين أبو المعالى قدس الله روحه العزيز : إن كل ما أثبتناه فى الكتب، وصنفناه، قد بينه سلطان الشريعة والطريقة الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز فى هذا البيت الواحد . (ص ٨٩)

حكاية :

روى السيد أبو الفتوح الغضائرى رحمة الله عليه هذه الحكاية ، فقال : طلبت السيدة فاطمة إبنة الأستاذ أبى على الدقاق ، زوج الأستاذ الإمام أبى القاسم القشيرى،

من الأستاذ الإمام الإذن فى الذهاب إلى مجلس الشيخ أبى سعيد ، فلم يمنحها الأستاذ الإمام هذا الإذن. ولما كررت الطلب ،قال لها : قد أذنت لك، ولكن تنكرى وتخفى ،وألقى قناعا على رأسك بحيث لا يعرف أحد من أنت. ففعلت فاطمة ما أشار به الأستاذ ، وجاءت إلى مجلس الشيخ ، وجلست بين النساء على السطح . وعندما بدأ الشيخ الحديث إستهله بحكاية عن الأستاذ أبى على الدقاق وقال: ها كم جزءا من أجزائه هنا ،وشطيبة من شطائبه حاضرة . وعندما سمعت السيدة فاطمة هذا القول، تملكها حال ، وغابت عن الوعى ،ووقعت من السطح. فقال الشيخ: يا إلهى . لا تكشف سترها . فظلت معلقة فى الهواء حتى مدت النسوة أيديهن ورفعنها إلى السطح. ولما عادت إلى المنزل ، أطلعت الأستاذ الإمام على ماحدث.

حكاية :

سمعت عن زين الطائفة الشيخ عمر الشوكانى أنه قال: سمعت عن الإمام أحمد ابن مالك أنه قال: ذهب الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز يوما إلى سوق نيسابور ومعه الأستاذ الإمام وجماعة من كبار المتصوفة . وكان هناك حانوت وضع على بابه لفت مسلوق . فوقع نظر أحد الدراويش عليه ، وهفت نفسه إليه . وأدرك الشيخ بفراسته ذلك ،فاستدار وقال لحسن بن المؤدب: اذهب إلى حانوت بائع اللفت ،واشتر كل مالديه منه، وأحضره.وكان هناك مسجد ، فدخل الشيخ هذا المسجد ومعه الأستاذ الإمام وجماعة الصوفية . وذهب حسن إلى حانوت الرجل، وأحضر اللفت،ودعى إلى الأكل، فأخذ الدراويش يأكلون (ص٩٠)والشيخ معهم، ولكن الأستاذ الإمام رفض،وأنكر ذلك فى نفسه، لان المسجد يقع وسط السوق، كما أن بابه كان مفتوحا . وبعد ذلك بأيام قليلة دعى الشيخ والأستاذ الإمام إلى

وليمة فاخرة . وكانت المائدة مجهزة بألوان كثيرة من الاطعمة ، إلا أن ذلك الطعام الذى كان يشتهيه الاستاذ الإمام ، فقد كان بعيداً عنه ، وكان الخجل يمنعه من أن يمد يده إليه . فالتفت الشيخ إليه وقال : يا أستاذ عندما يعطونك إياه ترفضه ، وعندما تريده يمنعونه عنك . فاستغفر الاستاذ على ماجال بخاطره وتنبه .

حكاية :

روى الشيخ أبو نصر عن حسن بن المؤدب أنه قال : حدث يوما فى نيسابور ، أن نزع الاستاذ الإمام عن أحد الدراويش خرقته ، وأساء إليه ، وطرده من المدينة ؛ لان ذلك الدرويش كان ينظر إلى السيد اسماعيل الدقاق نظرة سيئة ، وكان إسماعيل هذا من أقارب الاستاذ الإمام . وكان الدرويش قد قال لاحد أصدقائه : ينبغى أن تقيم لنا وليمة الليلة ، وتدعو إليها إسماعيل ، حتى يقضى الليل فى صحبتنا ؛ لنستمتع بجماله ، ونضج وجدا ، فقد احترقنا شوقاً إليه . فنفذ ذلك الصديق رغبة الدرويش ، وأعد الوليمة ، ودعا القوالين والسيد اسماعيل . وفى اليوم التالى بلغ الخبر الاستاذ الامام ، فنزع عن الدرويش خرقته ، وسبه ، وطرده من المدينة . وحملوا هذا الخبر إلى زاوية الشيخ ، فغضب الدراويش . وقال الشيخ لحسن بن المؤدب : ينبغى أن تعد لنا الليلة وليمة فاخرة ، وتدعو إليها جميع أهل المدينة ، والاستاذ الامام ، وأن تشعل شموعا كثيرة . قال حسن : فذهبت وهيأت كل ما أمر به الشيخ ، ودعوت الاستاذ الامام ، وأحضرت أهل المدينة . وجاء الاستاذ الامام ، فأجلسه الشيخ معه على المنصة ، (ص ٩١) وجلس الصوفية فى ثلاث صفوف أمام منصة الشيخ ، فى كل صف مائة رجل . ومددنا المائدة ، وكان السيد أبو طاهر يقوم بالخدمة عليها . وكان عندئذ لايزال شابا أمرد ، بارع الجمال ، يرتدى سترة موشاة ، ويروح ويغدو

على المائدة كالشمعة المضيئة . وعندما حل ميعاد الحلوى، وضعت شراب اللوز أمام الشيخ الاستاذ الإمام ، وبعد أن شربا عدة كؤوس ، كفا أيديهما. وقال الشيخ .

يا أبا طاهر تعال، واحمل هذه الكأس ،واذهب بها إلى ذلك الدرويش — مشيراً إلى أبى على الترشيزى — واشرب نصفها ، واسقه النصف الآخر . فحمل السيد أبو طاهر كأس شراب اللوز، وذهب أمام ذلك الدرويش ،وركع على ركبتيه فى احترام شديد ، وشرب نصف الكأس ،وسقاه النصف الآخر. وفعل أبو طاهر هذا مرة أخرى ، فصرخ ذلك الدرويش ، ومزق ثوبه ، وخرج من زاوية الشيخ ملبيا وهو يجرى ويصرخ .

وقال الشيخ للسيد أبى طاهر: يا أبا طاهر ، قد وقفتك على خدمة ذلك الدرويش ،فاذهب إليه،واحمل عصاه وإبريقه، وسر خلفه ، وقم بخدمته ،واتبعه حيثما ذهب حتى يصل إلى الكعبة. فحمل السيد أبو طاهر عصا الدرويش وأبريقه، وسار خلفه . ونظر أبو على فرأى السيد أباطاهر يتبعه ، ولما وصل إليه سأله : إلى أين تذهب ؟ فأجاب أبو طاهر: لقد أرسلنى والدى لخدمتك ، وحدثه بالامر . فرجع أبو على إلى الشيخ وقال له : أيها الشيخ . بحق الله ارجع أباطاهر من خلفى . فدعا الشيخ أبا طاهر ، فأدى التحية لذلك الدرويش وذهب . وعندما انصرف أبو على التفت الشيخ إلى الاستاذ الإمام وقال له : أيها الاستاذ .. الدرويش الذى يمكن إخراجه من المدينة ، وإرساله إلى الحجاز بنصف كأس من شراب اللوز، فيم الغضب عليه ، وانتزاع خرقته ، والإساءة إليه ؟ . لقد فعلنا هذا من أجلك ، فقد كان هذا الدرويش مصابا بحب ولدنا أبى طاهر منذ أربع سنوات ، ولم

نـكن نظهر ذلك ، (ص ٩٢) ولو لم يكن الامر متعلقا بك لما قلته لأحد .
فنهض الاستاذ واستغفر ، وعم السرور الجميع ، وظهرت الاحوال للصوفية .

حـكاية :

روى أنه عندما زال انكار الاستاذ الامام لشيخنا ، رجاه قائلا : ينبغى أن تعقد مجلسا فى زاويتى مرة كل أسبوع .فأجابه الشيخ إلى طلبه ،فـكان يعظ عنده مرة كل أسبوع .وحل ميعاد مجلس الشيخ يوما ،وكانوا قد صفوا المقاعد ،وأخذ الناس فى الحضور ، والجلوس فى أماكنهم . ودخل الشيخ عبد الله باكو ليسأل الاستاذ الامام فى ذلك ،فلما رآه قال له: ماهذا ؟ فأجاب الاستاذ الامام: إنه من أجل الشيخ أبى سعيد ،فسوف يتحدث فى المجلس ، انتظر لتستمع إليه . فقال عبد الله: انى أنـكره ، أى لا أعتقد فيـه . فقال له الاستاذ الامام : لقد قلت أنا أيضاً مثل ماتقول الآن ، ولـكن عندما عرفت الحقيقه أصبحت مريداً له . ثم قال له : انتبه فإن هذا الرجل مشرف على الخواطر ، فإذا صنعت حركة ، أو فـكرت فى شىء فسوف يظهره فى الحال. ثم دخل الشيخ أبو سعيد ، وارتقى المقعد ، وقرأ المقرئون القرآن ،وقام الشيخ بالدعاء، ثم بدأ فى الحديث. فنفخ الشيخ عبد الله بفمه فى الخفاء، وقال لنفسه فى صوت منخفض : كثير من الأنفاس فى الريح . ولم يكد يتم كلامه حتى التفت الشيخ إليه وقال: فى الريح معدن الانفاس ، قال هذه الـكلمه وعاد إلى الحديث. فقال الأستاذ الامام للشيخ عبد الله : ماذا فعلت ؟ قال: قلت هكذا. فقال له الأستاذ : ألم أقل لك لاتقل شيئا لأن هذا الرجل مطلع على كل ماتصنع وتفـكر فيه ؟.

وعندما استرسل الشيخ فى الحديث، وظهر عليه الانفعال، قال الشيخ أبو عبد الله.

لنفسه لما شاهد حال الشيخ: قد وقفت متجردا فى كثير من المواقف، (ص ٩٣) ورأيت كثيرا من المشايخ، وقمت بخدمتهم، وأمضيت أكثر من تسعين عاما فى خدمة المشايخ، فما السبب فى أن يظهر كل هذا على الشيخ دون أن يظهر على؟. فالتفت إليه الشيخ فى الحال وقال له: أيها السيد:

« بيت »

— أنت هكذا وحظك هكذا،
وأنا كذلك وحظى كذلك.

وصلى الله على محمد وآله أجمعين. ثم مسح وجهه بيديه، ونزل عن المقعد، وتقدم إلى الأستاذ الأمام وعبدالله باكو. ولما جلسوا قال الشيخ للأستاذ: قل لهذا السيد اجعل قلبك سعيدا. فقال الشيخ عبد الله: سأكون سعيدا إذا أتيت إلى زاويتى كل خميس. فقال الشيخ: لقد وقعت عليك أنظار كثير من العظماء والمشايخ، وسوف آتى من أجل هذه الانظار، لا من أجلك أنت. وحين قال الشيخ هذا القول، بكى الناس وصاحوا، وتخلى الشيخ أبو عبد الله عن أنكاره، وعم الصفاء الجميع.

وكانت حالهم هكذا، فساروا على جادة الصدق، ولم تكن هذه الرعاية بينهم رياء ولا نفاقا، فلاجرم أن ظهر الصفاء والسرور من تلك الكلمة الغايظة التى صدرت عن صدق، بعيدة عن المداهنة فى طريق الدين. وفى عهدنا هذا لاتظهر ذرة من الصفاء من ألف كلمة نقولها فى لطف ورعاية، لأنها مشوبة بالرياء والنفاق والمداهنة. وإنى أرجو الله تعالى أن يوقظنا من نوم الغفلة قبل الموت، وأن يكرمنا بمتابعة الصدق، وآداب المشايخ المتقدمين.

حكاية :

روى أنه عندما زال ذلك الافكار والتحكم عن الشيخ عبد الله ، كان يذهب كل وقت للسلام على الشيخ ، ويتحدث معه ، ولكنه كان ينكر السماع والرقص على الشيخ أبي سعيد ، ويجهر بذلك أحيانا ، حتى رأى فى منامه ذات ليلة أن هاتفا يصيح (ص ٩٤) به قائلا : « قوموا وارقصوا لله سبحانه وتعالى » فاستيقظ وقال : لاحول ولاقوة إلا بالله ، لقد أظهر الشيطان لى هذه الرؤيا السيئة . ونام مرة أخرى فرأى الهاتف يقول : « قوموا وارقصوا لله » فاستيقظ وقال : لاحول ولاقوة إلا بالله ، ثم ردد الذكر ، وقرأ سورتين أو ثلاث من القرآن ونام . ورأى الرؤيا نفسها ، فأدرك أن هذا لا يمكن أن يكون سوى هاتف من عند الله . واستيقظ عند الفجر ، وذهب إلى الخانقاه لزيارة الشيخ ، فرآه يقول من داخل المنزل « قوموا وارقصوا لله » . فنزع الشيخ عبد الله الانكار من قلبه .

وحدث فى الوقت نفسه أن ذهب الشيخ عبد الله باكو إلى الشيخ أبى سعيد ، وكان الشيخ يجلس متكئا على أربع وسائد ، فأنكر عليه ذلك ، فقال له الشيخ : لاتنظر إلى الخلق بالاربع وسائد ، بل بالخلق والطبع . وعندما وضح الشيخ هذه المسألة بهذه العبارة الموجزة ، زال الإنكار عن الشيخ عبد الله وتاب قائلا : لن أعترض على الشيخ مرة أخرى .

حكاية :

قال إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى قدس الله روحه : أنه عندما جاء الشيخ أبو سعيد إلى نيسابور ، كان والدى ينكره إنكارا شديداً ، بحيث لم يكن أحد يستطيع أن يتحدث عنه فى حضرته . وذات يوم قال لى والدى ، بعد أن فرغ من

صلاة الفجر: البس ملابسك لكى نذهب لزيارة الشيخ أبى سعيد ، فعجبت لذلك كثيرا . ثم ذهبنا إلى زاوية الشيخ . ولما دخلنا من باب الزاوية قال الشيخ : ادخل ياخليل الله عند حبيب الله ، (ص ٩٥) فعجبت لهذا الكلام أيضاً . ودخل والدى ، وكان الشيخ وحيداً فى الصومعة ، فنادى المريدين قائلا: تعالوا وارفعونى.

وكان الشيخ فى أواخر عمره ينهض بصعوبة ، بسبب كثرة الرياضة التى قام بها فى أوائل عهده ، وتعليقه نفسه من أقدامه . وكثيرا ما كان يجلس على المنصة ويدلى قدميه ، ويعتمد بيديه عليها ، حتى ينهض دون معونة أحد .

وأسرع اثنان من المريدين ، وأمسكا به ، فعانق الشيخ والدى ، وجلسا يتحدثان برهة . ولما مضى بعض الوقت ، دخل الاستاذ الإمام . وتحدثوا بعض الوقت ، ثم نهض الاستاذ الإمام وانصرف . وأتبع والدى الاستاذ الإمام بنظره ، فوضع الشيخ فمه على أذن والدى وأسر له شيئا ، فقبل والدى فخذ الشيخ ، فازددت تعجباً من هذه الحركة . ثم نهض والدى وخرجنا .

ولما وصلنا إلى المنزل قلت لوالدى: لقد عجبت اليوم ثلاث مرات ، الأولى: أنك كنت تنكر الشيخ أبا سعيد ، وفى الفجر أمرتنى أن أنهض لنذهب لزيارته. والثانية : أننا عندما ذهبنا إلى الشيخ قال : أدخل ياخليل الله عند حبيب الله . والثالثة : أنه حين أنصرف الاستاذ الإمام نظرت خلفه ، فهمس الشيخ فى أذنك ، فقبلت فخذه . فقال والدى : رأيت بالامس فى نومى أننى أذهب إلى مكان عزيز مبارك ، وموضع طيب ، فنظرت الشيخ أبا سعيد يتحدث فى مجلس فى ذلك المكان ، وكان هناك أناس كثيرون يستمعون إليه . ولشدة ما كنت عليه من الانكار للشيخ ، حولت وجهى عن ذلك المكان ، فسمعت هاتفا يقول لى : أتحول وجهك عن شخص فى منزلة حبيب الله فى الأرض ؟ . فلما سمعت هذا

أحسست بالغيرة ،وقلت لنفسي: (ص ٩٦): إذا كان هو في منزلة حبيب الله، فماذا تكون منزلتي ؟. فسمعت الهاتف يقول: أنت بمنزلة خليل الله . فاستيقظت ولم يبق في قلبي شيء قط من الانكار للشيخ ، وظهر في قلبي في مقابل كل شك ألف محبة . واليوم ذهبنا لزيارة الشيخ فقال : أدخل ياخليل الله عند حبيب الله ؛ فأوضح أنه بفراسته وكرامته مطلع على مارأيت في نومي أمس. ولما نهض الاستاذ الامام أخذت أنظر خلفه وأنا أقول لنفسي: إذا كان الشيخ في منزلة حبيب الله، وأنا في منزلة خليل الله ، فماذا تكون منزلة الاستاذ الامام ؟ فوضع الشيخ فمه على أذني وقال: إنه في منزلة كليم الله. فتعجبت من قول الشيخ، ومن أشراف خاطره على ضماير عباد الله سبحانه وتعالى ، وأحنيت رأسي وقبلت فخذ الشيخ . فقلت لوالدي : كيف يمكن معرفة حال هذه المنازل ؟ . فروى لي والدي هذا الحديث الذي ورد باسناد صادق عن الرسول صلى الله عليه وسلم: « علماء امتي كأنبياء بني إسرائيل » . وبعد ذلك كنت أذهب دائما مع والدي للسلام على الشيخ .

حكاية :

روى عن عميد خراسان أنه قال : إن سبب حبي للشيخ أبي سعيد وأبنائه مبعثه أني عندما ماجئت إلى نيسابور لأول مرة ، كنت فارسا أدعى محمد الحاجب. وكنت كلما مررت بباب زاوية الشيخ عند الفجر ، ورأيت الشيخ بها أصبح ذلك اليوم مباركا . وذات ليلة قلت لنفسي: غدا أذهب للسلام على الشيخ ، وأحمل له معي شيئا . وأعددت ألف درهم من الدراهم التي كان الواحد منها في ذلك الوقت يساوي تسعة عشر،أي أن الثلاثين منها تساويء دينارا. ولففت الالف درهم

فى لفافة من الورق ،حتى إذا ما جاء الصباح، ذهبت لتحية الشيخ ، ووضعت النقود أمامه . وكنت وعندئذ وحيدا بالمنزل، ولم أطلع أحدا على ذلك. ثم عدت وفكرت فى نفسى أن هذا المبلغ كثير وتكفى خمسمائة درهم . (ص ٩٧) فقسمت النقود إلى نصفين ،ووضعت خمسمائة درهم خلف الوسادة ، وحملت الخمسمائة الأخرى إلى الشيخ ، وسلمت عليه ، وأعطيتها لحسن بن المؤدب . فقال حسن للشيخ بصوت منخفض : لقد أحضر الحاجب محمد بعض النقود . فقال الشيخ : باركه الله ، ولكنه لم يحضر المبلغ تاما ، فقد ترك النصف خلف الوسادة. إن حسنا مدين بألف درهم ، فليعطها له حتى يطمئن. قال العميد : عندما سمعت هذا دهشت ، وأرسلت خادما فأحضر بقية النقود ، وأعطاها لحسن . ثم قلت للشيخ. أيها الشيخ ، تقبلنى . فأخذ الشيخ بيدى وقال : لقد تقبلناك ، فاذهب مصحوبا بالسلامة . قال العميد : بعد ذلك لم أتعرض لأذى ، وسلمت من كل مكروه ، وكنت إذا بذلت شيئا بذلته عن طيب خاطر . ولم أمس بسوء بعد ذلك ، وكان شأنى فى ارتفاع دائما . وحين غادرت الشيخ أتبعنى بنظرة قائلا : ما أكثر المهام التى تقع على عاتق هذا الرجل .

حكاية :

قال أبو سعيد الخشاب الذى كان خادم الشيخ الخاص إن الشيخ قدس الله روحه العزيز خرج يوما من خانقاه محلة عدنى كويان ليذهب إلى الحمام . وكان عميد خراسان يسير ممتطيا جواده ، ولم يكن قد أصبح عميدا بعد ، بل كان حاجبا يدعى محمد الحاجب . ولما وقعت عينه على الشيخ ، ترجل عن جواده

وسلم وقال للشيخ : هل تأذن لى فى أن أقول شيئا ؟ . فقال له الشيخ : تكلم . فقال العميد : أريد أن يمنحنى الشيخ مكانا من قلبه . فقال الشيخ: قد منحناك. فعظمه العميد ومضى . وذهب الشيخ إلى الحمام وهو يقص على هذا الحديث . ولم أستطع أن أمنع نفسى فقلت : أيها الشيخ ، كيف تحدث إليك ذلك الرجل هكذا وأجبته إلى طلبه ، وأى مكان يكون له ؟ . فقال : إن له مع الله سرا ، فلاعجب أن يجد مايريد . ومنذ ذلك الوقت أخذ شأنه يرتفع حتى أصبح بعد أمد قصير عميدا لخراسان . وقال السيد الشيخ أبو الفتح : كنت أقف يوما بين يدى الشيخ، (ص ٩٨) وكان عميد خراسان فى ذلك الوقت أحمد الدهستانى ، وكان له حاجب يدعى محمدا . فحضرا يوما لزيارة الشيخ. وتقدم الحاجب محمد ، وكان شابا جميلا ، ودخل وأدى التحية ، فقال له الشيخ : أدخل ياعميد خراسان . فقال الحاجب محمد : هاك عميد خراسان يدخل ، وكان أحمد الدهستانى يسير خلفه ، فقال الشيخ: إنه ليس عميد خراسان ، بل انت . إنه كلب وستمزقه الكلاب ، ولم يحفل الشيخ بالعميد احمد الدهستانى. وماهى إلا ايام حتى قتل احمد الدهستانى، ومزق إربا ، واصبح الحاجب محمد عميدا لخرسان . وظل ستين عاما يأخذ خراج خراسان ، ويدير أمورها بكفاءة ، وكان يباهى بذلك دائما ويقول: لقد نصبنى الشيخ أبو سعيد عميدا لخراسان .

حكاية :

قال السيد أبو الفتح بن عباس : ذهبت مع والدى إلى اصفهان عند نظام الملك ، رحمة الله عليه ، وعندما دخلنا عليه دعا له والدى ، فقال نظام الملك : أيها

السيد الامام ، لقد وجدت ماوجدت بفضل الشيخ أبى سعيد . فقال له والدى : كيف ؟ فقال : ذات يوم كنت أركب جوادى فى نيسابور ذاهبا إلى محلة عدنى كويان ، فلحق بى رجل وقال لى : أنهم ينادونك . فقلت : من الذى ينادينى ؟ فقال : هم ينادونك هنا . فسرت ودخلت إلى الخانقاه فرأيت الشيخ أبا السعيد فسألنى عن حالى ورحب بى ، وكنت قد ذهبت عند الشيخ قبل ذلك — كما فى الحكاية التى ورد ذكرها فى موضعها — وأمسك بيدى وقال لى: سوف تكون رجلا عظيما . فأديت له التحية ورجعت . وفى اليوم التالى ذهبت إلى مجلس الشيخ ، وكان هناك حجر متوار عند الباب فجلست عليه بحيث لم يكن الشيخ يرانى ، وأخذ الشيخ يتحدث ، وعندما أنهى المجلس قال : إن على حسن دينا . وكنت ألبس حزاما كعادة الشباب الأرعن ، (ص ٩٩) فحللت الحزام وأعطيته له . فقال الشيخ لحسن : أحضر هذا الحزام . فقدم حسن الحزام للشيخ ، فأخذه ووضع أصبعه فى حلقته وأداره عدة مرات وقال : لن يمضى وقت طويل حتى يعقدوا أمامك أربعة آلاف حزام من الذهب . واليوم استعرضت أربعة آلاف رجل فى خدمتى يرتدون أحزمة ذهبية ، فكل ما ادركته إنما هو من بركات الشيخ أبى سعيد .

حكاية :

كان فى مرو شيخ يقال له محمد الختنى ، وكان واحدا من شيوخ ماوراء النهر ، وعندما إعتزم بغراخان قتل صوفية ما وراء النهر ، جاءت جماعة من شيوخهم واختفوا فى مرو وكان محمد الختنى هذا من بين هؤلاء . ولم يكن قد رأى شيخنا ، إذ أنه كان فى نيسابور حين جاء الختنى إلى مرو . وكان فى مرو إمام يدعى أبا بكر الخطيب من تلاميذ الإمام القفال ، وكان قد رأى الشيخ

عنده . وفى يوم اعتزم أبو بكر الذهاب إلى نيسابور فى مهمة ، فجاءه محمد االختنى هذا وقال له : سمعت أنك تقصد نيسابور ، ولى حاجة هناك . فقال له أبو بكر : ماهى ؟ . قال : أريد أن تسأل الشيخ أبا سعيد هـذا السؤال دون أن يعلم أننى طلبت إليك ذلك أو تحدثه عنى . وهو : هل تمحى الآثار ؟ . قال أبو بـكر : فقلت له لا أستطيع أن أتذكر هذا ، فاكتبه لى . فكتبه وأعطانى الورقة . وذهبت إلى نيسابور ، ونزلت فى رباط القوافل ، فرأيت اثنين من الصوفية يدخلان من الباب فى الحال ويسألان : من السيد أبو بكر الخطيب ؟ قلت : أنا . فاقتربا منى وقالا : إن الشيخ أباسعيد يقرئك السلام ويقول لك إننا غير مطمئنين لنزولك فى رباط القوافل وينبغى أن تحضر إلينا . فقلت لهما : انتظرا حتى أذهب إلى الحمام (ص ١٠٠) واغتسل ثم أحضر . وتحيرت من ذلك السلام وتلك الرسالة ، إذ اننى كنت أعلم علم اليقين أنه لا يمكن أن يكون أحد قط قد اخبره بقدمى بهذه السرعة ، وإنما أدرك ذلك بفراسته وكرامته . وذهبت إلى الحمام سريعا واغتسلت . وعندما خرجت من الحمام رأيت الدرويشين يقفان على بابه ومعهما العود وماء الورد . وذهبت فى صحبتهما إلى الشيخ ، ولما وقع نظره على قال :

بيت من الشعر العربى

أهلا بسعدى والرسول وحبذا   وجه الرسول لحب وجه المرسل

فسلمت عليه ، فرد السلام وقال : إذا كانت رسالة شيخك خفيفة عليك فإن كلامه عزيز لدينا ، ومنذ غادرت مرو ونحن نعد المنازل واحدا واحدا . قال أبو بـكر الخطيب : فشعرت بالانهيار ، ثم قال الشيخ : هات ماعندك لنرى

ماذا قال ذلك الشيخ . قال أبو بكر الخطيب : لقد نسيت كل العلوم فى تلك اللحظة لهيبة الشيخ ، وقلت له : ايها الشيخ ، انني لا أتذكر شيئا وقد كتبتها على ورقة ، وهى فى الثوب الذى كنت ارتديه اثناء السفر . فقال الشيخ : الم تستطع ان تحفظ سؤال الشيخ ؟ . فازداد شعورى بالانهيار . وقال الشيخ : إذا قلت لك السؤال هل تتذكره ؟ . قلت : الأمر للشيخ . قال انه : هل يمكن ان تمحى الآثار ؟ قلت : هو كذلك . فقال الشيخ : إذا اجبتك الآن على هذا السؤال وجب عليك ان تقفل راجعا ، فاذهب لما جئت من أجله وعندما تحين عودتك سأنبئك بالجواب . قال أبو بكر الخطيب : وكنت اختلف إلى الشيخ كل ليلة طوال أقامتى فى نيسابور ، وكان الشيخ يحتفى بى كثيرا ويكرمنى . وعند العودة ذهبت إلى الشيخ وقلت له : أجبنى على سؤال الشيخ . فقال : قل له : « لاتبقى ولاتذر » إن العين لاتبقى فكيف يبقى الأثر؟ . قال أبو بكر الخطيب فأحنيت رأسى وقلت : فليتفضل الشيخ بايضاح ذلك . فقال الشيخ : أنه لايتأتى فى بيان عالم (ص ١٠١) . . فاحفظ هذا الشعر :

« رباعية »

لقد بكت عيناى وأصبح جسدى كله دموعا
وفى عشقك ينبغى أن تكون الحياة بغير جسد
لم يبق منى أثر . . فماذا يكون عشقك هذا ؟
ومادمت أنا المعشوق ، فمن يكون العاشق ؟

فقلت فليتفضل الشيخ بكتابة هذا . فأمر حسن بن المؤدب فكتبه وأعطاه

لى . وعندما وصلت إلى مرو حضر محمد الختنى فقلت له : لقد أرسلتنى إلى سلطان وضعت جميع أسرار العالم أمامه على طبق. وحدثته بكل ماجرى ،وأعطيته الورقة، وعندما قرأها صرخ وسقط مغشيا عليه ، فحملناه من ذلك المكان إلى منزله بمعونة رجاين ، ثم توفى رحمة الله عليه بعد أسبوع من ذلك .

حكاية :

روى أنه عند ما كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز فى نيسابور ، كان هناك أمام من أصحاب أبى عبد الله الكرام يدعى أبو الحسين التونى ، ينكر شيخنا ، وبلغ من أنكاره له أنه كان يلعنه إذا ذكر أمامه ، ولم يذهب إلى محلة عدنى كويان حيث توجد زاوية الشيخ طوال أقامة الشيخ فى نيسابور. وذات يوم قال الشيخ : أعدوا الجواد لنذهب لزيارة أبى الحسين التونى. فاعترض الصوفية والمريدون اعتراضا شديدا وقالوا : أيذهب لزيارة رجل لا يمكن الحديث عنه أمامه ، وإذا سمع اسمه لعنه؟. وركب الشيخ ،وذهب المريدون فى صحبته.وفى الطريق خرج رافضى من منزله ورأى الشيخ مع الصوفية فأخذ يلعنه . وأراد الصوفية أن يسيئوا إليه ، فقال لهم الشيخ: هونوا عليكم فربما رحمه الله بسبب هذه اللعنة . فقال الجميع : كيف يرحم الله شخصا يلعن مثلك ؟ . فقال الشيخ : معاذا الله ، إنه لا يلعنى ؛ وإنما يظن أننى (ص ١٠٢) على باطل وهو على حق ؛ فهو يلعن ذالك الباطل من أجل الله . وكان الرجل واقفا يسمع كلام الشيخ ، فسقط فى الحال على أقدام الشيخ وقال له : أيها الشيخ ، لقد تبت وأنت على حق وأنا على باطل ، فأعرض على الإسلام لأسلم من جديد . فقال الشيخ للمريدين : أرأيتم أى أثر

يكون لعنة تلعنونها من أجل الله ؟ . وعندما اقتربوا أرسل حسن بن المؤدب درويشا قبلهم ليخبر الإمام أبا الحسن أن الشيخ قادم لتحيته . فأبلغ الدرويش أبا الحسن ذلك ، فلعن الشيخ وقال : ماذا يريد منا ؟ ينبغى أن يذهب إلى كنيسة المسيحيين . فلما سمع الدرويش ذلك عاد إلى حسن وأخبره بماحدث . وتصادف أن كان اليوم يوم أحد ، وكان الشيخ قد علم بماحدث بنفسه ، وسأل حسن : ماذا حدث ؟ فأعاد عليه حسن ماسمعه . فقال الشيخ . لننفذ الآن ما أمر به الشيخ . واتجه إلى كنيسة المسيحيين وقال : بسم الله الرحمن الرحيم ، لننفذ الآن مايأمر به الشيخ . وعندما وصل إلى الكنيسة كان المسيحيون قد اجتمعوا وأخذوا فى الصلاة . ولما رأوا الشيخ تجمعوا حوله ، وأخذوا ينظرون إليه ليروا لأى أمر أتى. وكانوا قد اصطفوا أمام المحراب، وعلقوا صورة عيسى ومريم على الحائط ، واتجهوا إليهما وأخذوا يسجدون لهما . فنظر الشيخ إلى تلك الصورة وقال : « أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ » ، إذا كان محمد ودين محمد حقا فاسجدا لله فى هذه اللحظة. ولما قال الشيخ هذا وقعت الصورتان على الأرض فى الحال بحيث كان وجهاهما إلى الكعبة .وعندما رأى المسيحيون ذلك صرخوا ، وخلع أربعون منهم الزنار ، وأسلموا (ص ١٠٣) ،واغتسلوا ، ولبسوا المرقعات. فالتفت الشيخ إلى جماعة الصوفية وقال : كل من يسير وفق اشارة الشيوخ يكون هكذا ، وهذا كله ببركة اشارة ذلك الشيخ . وأبلغوا أبا الحسين التونى بماحدث للشيخ وماقاله ، فتملكه حال وقال : أحضروا المحفة وضعونى فيها ، واحملونى إلى خانقاة الشيخ أبى سعيد . فأجلسوه فى المحفة : ولما وصل إلى خانقاة الشيخ قال : أخرجونى من المحفة ، فأخرجوه منها ،ودخل من باب الخانقاه متكئا على الاكتاف

وثنو يصيح ويصرخ حتى وصل إلى منصـة الشيخ ، وسقط أمام الشيخ. وظهرت الأحوال للجميع، ومزق أبو الحسين ثوبه ، وصفح الشيخ والصوفية عنه ،واستغفر عن أفعاله ، وأصبح من مريدى الشيخ .

حـكاية :

روى أنه عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز فى نيسـابور ، كانت جماعة من الدراويش يمرون بالسوق يوما ، وكان القوالون قد حضروا من طوس وأقاموا السماع هناك ، فلما عاد الدراويش إلى الخـانقاه قالوا للشيخ : لقد وصل القوالون من طوس، وهم يقيمون السماع فى السوق، ونريد الاستماع إليهم. فقال الشيخ لحسن بن المؤدب: اذهب إلى سوق نيسابور ،وانظر من أجمل وجها هناك ،وقل له: لقد وصل المقرئون من طوس، ويريد الصوفية أن يستمعوا إليهم ، فهيء لهم الليلة أسباب الطعام والراحة . فخرج حسن وطاف بسوق نيسابور ، ثم رجع إلى الشيخ وقال له : لقد طفت جميع نيسابور فلم أر من هو أجمل وجها من الشيخ . ولمـا سمع الشيخ هذا القول ، (ص ١٠٤) رفع عباءة من خلفه وقال له : أحمل هـذه إلى حانوت ابى جعفرنا وقل له : يقول الشيخ أعطنا خمسين دينارا لنهيء بها طعاما الليلة حتى يستريح مقرئو طوس، ويتفرغوا للمجاهدة ، ويطمئن قلبك من أجلهم. قال حسن : فذهبت إلى حانوت أبى جعفر وفق إشـارة الشيخ وحدثته بالأمر . فقال أبو جعفر : هل تعطى دليلا على أنه جرى على لسان الشيخ قوله « أبو جعفرنا » ؟ فقلت له : سوف أكون مسئولا على ذلك يوم القيامة . فأخرج خمسين دينـارا ولفها فى ورقة وأعطاها لى . ثم أعطانى عباءة الشيخ قائلا : ردها له . ولمـا ذهبت ووضعت ما أعطاه لى أمام الشيخ ، دخل أبو جعفر فى أثرى وأحضر خمسين دينارا

أخرى،ومن خلفه غلام يحمل طعاما مغطى، ووضعها أمام الشيخ وقال : ان ما بعثته مع حسن كان حسب ما أشرت به ، وما أحضرته الآن تعبير عن شكرى لقولك « أبوجعفرنا » ؛ فسوف تكون تلك الكلمة شفيعى يوم القيامة .

حكاية :

وأيضاً عندما كان الشيخ أبوسعيد فى نيسابور ، كان حسن بن المؤدب خادم الشيخ الخاص قد اقترض مالا وأنفقه على الدراويش، وأخذ يؤجل قضاءه، والغرماء يطالبون به . وفى يوم حضر الجميع إلى باب زاوية الشيخ ، فقال الشيخ لحسن: قل لهم ليدخلوا. فأدخلهم حسن . وعندما دخلوا ، حيوا الشيخ . ومر صبى على باب الخانقاه وهو ينادى على « ناطف » فقال الشيخ : أحضر ذلك البائع . فأحضره حسن . وقال له الشيخ: زن كل مالديك. فوزنه،ووضعه أمام الدراويش ،فأكلوه. وقال الصبى: أريد الثمن. فقال الشيخ : سوف يأتى. ومرت ساعة ، وطالب الصبى بالثمن مرة أخرى ،فأجابه الشيخ بنفس الجواب . (ص ١٠٥) فقال الصبى : إن أستاذى يضربنى من أجله ، قال هذا وأجهش بالبكاء . وفى الحال دخل رجل من باب الخانقاه ، ووضع صرة من الذهب أمام الشيخ ،وقال له: لقد أرسلنى فلان إليك ، وهو يرجو أن تذكره بدعائك . فقال الشيخ لحسن : خذه ، وأعط لكل ذى دين دينه. فأخذ حسن الذهب ،وأعطى الجميع نقودهم، كما أعطى لذلك الغلام ثمن الناطف ، دون أن يبقى شيء أويلزم شيء . وقال الشيخ : لقد جاء هذا المال من أجل دموع ذلك الغلام .

حكاية :

قال حسن بن المؤدب : كان للشيخ محب فى نيسابور اسمه أبوعمرو حسكو، وكان رجلا موسرا ، يعمل بالتجارة فى نيسابور . وذات يوم دعانى وقال لى: لقد أصبحت مريدا للشيخ بكل كيانى ، وإننى أرجو منك أن ترجع إلى فى كل مايلزم الشيخ ، ولاتخش مهما كان كثيرا . قال حسن : وفى يوم من الأيام أرسلنى الشيخ إليه سبع مرات لقضاء أمور مختلفة ، فأداها جميعها . وفى المرة الثامنة ، وكانت الشمس تميل إلى الغروب ، قال لى الشيخ: ياحسن ، اذهب إلى أبى عمرو، واحضر ماء ورد وكافورا وعودا. فذهبت وأنا خجل من الذهاب إليه مرة أخرى ؛ لأنه كان على وشك أن يغلق حانوته . ووقعت عينه على من بعيد فقال: ياحسن ، ماذا حل بك حتى وقفت متردداً هكذا ؟ فقلت له : أيها الأستاذ ، أناخجل لكثرة ماجئت إليك اليوم . فقال : ماذا يريد الشيخ ؟ إننى فى خدمته . فقلت إنه يريد ماء ورد وكافورا وعودا . ففتح الحانوت ، وأعطانى ماطلبت وقال لى : مادمت تخجل من الرجوع إلى فى مثل هذه الأشياء التافهة ، فإننى سأهبك غدا رباطا وحماما بألف دينار، حتى تستطيع أن تنفق من ريعهما، وتشترى منى ماهو أعظم من ذلك. قال حسن: فسررت ، وقلت لنفسى: لقد تخلصت من ذل السؤال . وعدت إلى الشيخ فى سرور بالغ وقد أحضرت العود وماء الورد. فنظر الشيخ (ص ١٠٦) إلى مستنكرا وقال: ياحسن ، أخرج وطهر باطنك من حب الدنيا حتى أتركك تجالس الصوفية . قال حسن : فخرجت ووقفت على باب الخانقاه حاسر الرأس ، عارى القدمين ، وبكيت كثيرا ، ومرغت وجهى فى التراب ، ورجعت. ولم يقل الشيخ لى شيئا فى تلك الليلة . وفى اليوم التالى خرج إلى المجلس ، وكان قد تعود أن يلتفت

أثناء حديثه إلى ابى عمرو حسكو ، فلم ينظر إليه فى هذا اليوم .

ولما فرغ الشيخ من المجلس جاء أبوعمرو حسكو إلىّ وقال: ياحسن ماذا حدث حتى أن الشيخ لم ينظر إلى اليوم ؟ قلت لا أعلم ، وحدثته بما جرى بالأمس . فذهب أبوعمرو إلى منصة الشيخ وقبلها وقال له : ياعزيز الدهر... إن حياتى رهن لفتة منك،وأنت لم تنظر إلى اليوم قط !. ماذا حدث منى لأستغفر وأطلب المعذرة عنه ؟. فقال له الشيخ : لقد أنزلت صقر عزتنا من أعلى عليين إلى أسفل سافلين وقيدته بألف دينار . وإذا كنت تريد أن يصفو قلبنا لك فادفع الألف دينار لترى كم تساوى فى ميزان همتنا . فذهب أبوعمرو ،وأحضر صرتين فى كل واحدة خمسمائة دينار نيسابورى ،ووضعها أمام الشيخ. فقال الشيخ: ياحسن ، ارفع هذه، واشتر بقرا وخرافا،وأقرى البقر، وزعفر الخراف وعطرها، وأحضر كثيرا من شراب اللوز ، وأشعل الشمع فى النهار ، وأحضر كثيرا من العود وماء الورد ، وهيء المائدة غدا فى « بوشنك » ، وهى قرية جميلة جدا بجوار نيسابور، وناد فى المدينة أن كل من يريد طعاما بدون منّة فى الدنيا ، أو أذى فى الآخرة فليأت . قال حسن : فأعددت هذا كله ، وبعثت مناديا فى المدينة ،فجاء أكثر من ألفى شخص إلى بوشنك.. وجاء الشيخ ومعه جماعة الصوفية ، وأجلس الخواص والعوام على المائدة ، (ص ١٠٧) وأخذ يرش عليهم ماء الورد بيده المباركة ، ويحرق العود والناس يتناولون الطعام . وحدث أحد منكرى الشيخ نفسه قائلا: ماهذا الإسراف الذى يفعله هذا الرجل ؟ ، وإشعال الشمعة فى النهار إسراف ولاشك ، فمر الشيخ من بين الناس جميعا، ووقف أمام ذلك الرجل وقال له: أيها الرجل، انزع الانكار والتحكم من صدرك ، فان كل ماتفعله من أجل الله لايكون إسرافا ؛ أما إذا

أنفقت درهما واحدا من أجل نفسك ، فإن هذا هو الإسراف. فسقط الرجل على أقدام الشيخ ، وأصبح من مريديه ، وجعل كل أمواله تحت تصرف الشيخ . قال حسن : وعندما فرغوا من الطعام، ونفدت الأموال ، رفعت الموائد ، وعدت إلى المدينة. ولما جاء الليل وآوى الشيخ إلى فراشه ، نادانى قائلا: ياحسن ، أنظر ماذا بقى بالخزانة فأنا لا أستطيع النوم . فبحثت فى الخزانة فلم أجد شيئا ، فعدت إليه وقلت : لا أجد شيئا قط . فقال: ابحث جيدا . فبحثت مرة ثانية فلم أجد شيئا ، وقلت : أيها الشيخ ، إننى لا أجد شيئا . ثم بحثت مرة أخرى ، فوجدت رغيفا، فحملته إليه . فقال لى : اذهب واخرجه لكى ننام . فأخرجته ونام الشيخ .

وهكذا كان شأن الشيوخ جميعا يخرجون كل مايأتيهم من رزق فى نفس اليوم ، دون أن يبقوا منه قليلا أو كثيرا للغد ، وفقا لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم الذى ذهب إلى زاوية بلال الحبشى رضى الله عنه ، فرأى نصف رغيف جاف على كوز مكسور ، فقال له : يابلال ، ماهذا ؟ فقال : يارسول الله ، لقد كان رغيفا جافا أفطرت بنصفه أمس ، وأبقيت النصف الآخر لهذه الليلة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنفق يابلال ولاتخشى من ذى العرش إقلالا »

حكاية :

وأيضاً عندما كان الشيخ فى نيسابور كان كثير من المريدين يجيئون إليه ، ومنهم المهذب وغير المهذب . وكان أحد المريدين قد تاب (ص ١٠٧) وأخذ يختلف إلى الخانقاه دائما. وكان له حذاء دق فيه قضبانا من الحديد ، بحيث أنه كلما دخل إلى الخانقاه ، أحدث الحذاء صوتا يتألم منه الدراويش . فدعا الشيخ ذلك

الدرويش وقال له : ينبغى أن تذهب إلى « درمون » (وهو واد يقع بين جبلى طوس ونيسابور وعلى الطريق بينهما ، وهناك نهر ينبع من هـذا الوادى ويصب فى نهر نيسابور) ، وعنـدما تصل إلى ذلك الوادى وتسير قليـلا تجد حجرا ، فينبغى أن تصلى عليه ركعتين ،وتنتظر هناك حتى يأتى إليك صديق من أصدقائنا، فتبلغه سلامنا . وذكر الشيخ لذلك الدرويش كلاما كثيرا قائلا : قله له لأنه صديق عزيز علينا، وقد عاشرنا سبع سنوات . فسار ذلك الدرويش بشوق كبير ، وأخذ يفـكر طوال الطريق قائلا لنفسه : أنا ذاهب لزيارة ولى من أوليـاء الله ، إلى واحد من الرجال الأربعين الذين هم مدار العـالم ، وقوام أمر بنى آدم ، وقد يقع نظره المبارك على ، فتنصلح أمور دينى ودنياى ببركته . وعندما وصل إلى ذلك المـكان الذى مر ذكره، توقف برهة ، ثم ظهرت أصوات طرقات شديدة اهتز لها الجبل. ونظر الدرويش مرة أخرى، فرأى حية سوداء هائلة، لا مثيل لها فى الضخامة، حتى لقد امتلأ بها الفراغ بين الجبلين. فلما وقع عليها نظر ذلك الدرويش، لم يبق فيه روح، ووهنت أطرافه، بحيث لم يعد يستطيع الحركة مهما حاول. وجاءت الحية، (ص ١٠٩) واقتربت من ذلك الحجر ،ووضعت رأسها عليه ، وتوقفت . وعندما تمالك الدرويش نفسه ، ورأى الحية قد وضعت رأسها على الحجر فى تواضع ولم تتحرك ، قال لفرط ذهوله وخوفه : لقد بعث لك الشيخ بسلامه . فمرغت الحيـة وجهها فى التراب ، وأظهرت تواضعهـا . ولمـا رأى الدرويش ذلك ، أدرك أن الشيخ كان يقصدها برسالته فأبلغها ماقاله الشـيخ ، فازداد تواضعهـا وعندما أتم الدرويش كلامه ، تراجعت الحية. ولمـا غابت عن نظره، نزل من الجبل وسار قليلا، ثم جلس، وأخذ حجرا وانتزع القضبان الحديدية من حذائه ، وسار فى

هدوء حتى وصل إلى الخانقاه . ولما دخلها لم يشعر به أحد ، وألقى التحية فى صوت خافت سمعه الدراويش بصعوبة . وعندما رأى الصوفية تغير حاله أرادوا أن يعرفوا أى شيخ هذا الذى تركت صحبته لنصف يوم فى نفس ذلك الدرويش من الأثر مالم يتحقق له بالرياضة والمجاهدة سنين طويلة ، فسألوه : من ذلك الذى بعثك الشيخ إليه ؟ فذكر لهم القصة. فتعجب الجميع ، وسألوا الشيخ عن ذلك. فقال الشيخ : لقد رافقتنا هذه الحية سبع سنوات ، وكان كل منا يرتاح إلى الآخر .

وقصارى القول أنه لم ير أحد من ذلك الدرويش حركة غليظة بعد ذلك اليوم ولم يسمع منه صوتا عاليا ، ولم يبق فيه شىء من هذا ، وأصبح مؤدبا مهذبا بلفتة واحدة من الشيخ .

حكاية :

قال الأستاذ عبد الرحمن مقرىء شيخنا إن الشيخ كان يتحدث يوما فى مجلس فى نيسابور ، وكان فى المجلس رجل علوى ، فقال لنفسه : نحن نملك النسبه وهذا الشيخ يملك العزة والدولة . فالتفت الشيخ إلى ذلك العلوى فى الحال ، وقال له : أيها السيد ، يلزم أفضل من هذا وذاك . ثم التفت إلى الجمع وقال . اتعلمون ماذا يقول هذا السيد ؟ إنه يقول .نحن نملك النسب ، وهنا توجد الدوله والعزة . إعلموا أن كل ما أدركه محمد عليه السلام إنما أدركه بالنسبة لا بالنسب ، أما نحن فقد أسلمنا إليه أنفسنا فى النسبة ، والآن لا نقنع بذلك ، فلاجرم أن جعل الله لنا نصيبا من تلك الدولة والعزة التى كانت الذلك العظيم ، وأوضح أن الطريق إلى حضرتنا يكون بالنسبة لا بالنسب .

حكاية .

قال جدى شيخ الإسلام أبو سعيد رحمة الله عليه ان الشيخ أبا سعيد كان يتحدث يوما فى مجلس فى نيسابور، وكان فى ذلك المجلس عالم فاضل، فأخذ يفكر فى نفسه قائلا: إن هذا الكلام الذى يقوله الشيخ لا يوجد فى اسباع القرآن السبعة. فالتفت الشيخ إلى ذلك العالم فى الحال وقال له : ايها العالم ، ان هذا الكلام الذى نقوله فى السبع الثامن . فقال العالم : أى سبع ثامن ايها الشيخ ؟ . فقال الشيخ : السبع السابع هو : « يا ايها الرسول بلغ ما انزل إليك » ، والسبع الثامن هو: «فأوحى إلى عبده ما أوحى». أتظنون أن كلام الله عز وجل محدود ومعدود؟ إن كلام الله ليس له نهاية ، لأن المنزل منه على محمد هو هذه الاسباع السبعة ، اما الذى يوصله إلى قلوب عباده ، فإنه لا يدركه عد ولا حصر ، كما أنه لا ينقطع ابدا ، ففى كل لحظة يصل منه رسول إلى قلوب العباد ، كقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قال الشيخ :

(ص ١١١)

« بيت »

—أيها الحبيب، انت راحتى فى المعاينة لا فى الخبر،

ومتى كانت المعاينة ، فبم يفيد الخبر ؟ .

ثم قال: ورد فى الخبر أن اللوح المحفوظ من الاتساع بحيث لا يستطيع الجواد العربى أن يصل من احد اطرافه إلى الآخر فى أربعة آلاف عام ، وأدق من شعرة الشارب ، وفيه نبأ جميع الخلق من لدن آدم إلى يوم القيامة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكاية :

وايضا عند ما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز فى نيسابور ، كان له كثير من المنكرين أحدهم القاضى صاعد الذى مر ذكره . ورغم أنه لم يكن ينكر الشيخ علانية ، فقد كان بينه وبين نفسه لايخرج عن اصحاب الرأى الذين ينكرون كرامة الأولياء ، بل انه كان زعيمهم فى هذا . وذات يوم قالوا للقاضى صاعد إن أباسعيد يقول إذا احل لجميع الناس الدماء ، فإننا لا نأكل إلا الحلال . فقال القاضى صاعد: سوف اختبر هذا الرجل اليوم. وأمر باحضار حملين ممتلئين متشابهين،ودفعوا ثمن احدهما من مال حلال،وثمن الآخر من مال حرام. وزينوهما على صورة واحدة،وقاموا بشيهما حتى صارا فى لون واحد،ووضعوهما على طبقين متشابهين. وقال القاضى ــ لخدمه ــ سأذهب لتحية الشيخ،وبعد ساعة من وصولى احضروا هذين الحملين خلفى، وضعوهما أمام الشيخ أبى سعيد لأرى هل يفرق بكرامته بين الحلال والحرام أم لا . وحمل الخدم الحملين وساروا بهما ، وعندما وصلوا إلى مفترق الطريق،خرج عليهم غلمان سكارى من الأتراك،وضربوا خدم القاضى ،وسلبوا الحمل الحرام . وبعد ذلك دخل غلمان القاضى من باب الخانقاه ،(ص ١١٢) وأحضروا حملا واحدا ، ووضعوه أمام الشيخ . فنظر القاضى إليهم غاضبا . وعندئذ التفت إليه الشيخ وقال: أيها القاضى ، الميتة للكلاب والكلاب الميتة ، والطعام الحرام للحرام، والحلال للحلال ، فلاتغضب. فتخلى القاضى عن إنكاره للشيخ ، وانتزع الإنكار من قلبه ، وأخذ يعتذر ، وعاد إلى الاعتقاد فى الشيخ .

حكاية :

روى أن تاجرا فى نيسابور أحضر للشيخ حزمة من العود وألف دينار

نيسابورى . فامر الشيخ حسن بن المؤدب أن يعد وليمة ، وأن ينفق عليها الألف دينار كعادته . ثم وضعوا موقدا وقال لهم الشيخ ضعوا العود فيه حتى يكون لجيراننا نصيب من رائحته الطيبة . وأمرهم أن يوقدوا كثيرا من الشموع فى النهار . وكان هناك محتسب جبار متشدد فى ذلك العهد ، ينكر الشيخ والصوفية . فدخل من باب الخانقاه وقال للشيخ : ماهـذا الذى تفعله ؟ ليس من الصواب إيقاد الشموع فى النهار وإطلاق البخور . إن أحداً لم يفعل هذا من قبل . فقال الشيخ: لم نكن نعرف أن هـذا خطأ ، فاذهب واطفىء الشموع . فتقدم المحتسب نحوها ليطفئها ، ونفخ فيها ، فهبت النار فى وجهه وشعره وملابسه ، وكاد يحترق . فقال الشيخ :

« بيت »

— من أراد ليطفىء شمعا أوقده الله ، احترق به .

فندم المحتسب على قوله وتاب .

حكاية :

(ص ۱۱۳) كان فى نيسابور درويش يحب الدنيا ، ويفرط فى جمع المال والادخار . وذات ليلة دخل لص منزله ، وسرق كل مافيه ، ماعدا المرقع الذى كانت فيه نقوده . وفى اليوم التالى ذهب الدرويش إلى مجلس الشيوخ حزينا منهارا ، ولم يكن قد أخبر أحدا بذلك ، فالتفت إليه الشيخ أثناء حديثه وقال له :

« بيت »

— أجل أيها الحبيب ، لقد زرت بيتك بالأمس ،
قلت « لص » ، لم يكن لصا ، بل كان أنا !!

فصرخ الدرويش، وتقدم إلى الشيخ ، ووضع أمامه ماتبقى من النقود، فقال له الشيخ : هكذا ينبغى أن يكون كل شىء للجميع .

حكاية :

كان الشيخ أبو القاسم الروباهى من كبار الصوفية فى نيسابور ، وزعيما لعشرة من مشاهير الصوفية من مريدى الأستاذ الإمام أبى القاسم القشيرى . وعندما وصل الشيخ إلى نيسابور، حضر هؤلاء العشرة إلى مجلسه ، وانخرطوا فى خدمته وأصبحوا من مريديه .

قال أبو القاسم الروباهى : لقد ظللت أمداً طويلا أطلب من الله سبحانه وتعالى أن يبين لى درجة الشيخ أبى سعيد ، وأخذت أتضرع من أجل هذا ليال عديدة ،حتى رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم فى نومى ذات ليلة ، وفى أصبعه خاتم به فص من الفيروز، وقال لى: أتريد أن تعرف درجة الشيخ أبى سعيد ؟ قلت: نعم يارسول الله . فأرانى أصبعه وقال: إنه كالفص من الخاتم . فارتعدت واستيقظت من النوم . وفى اليوم التالى (ص ١١٤) جلست فى مجلس الشيخ ، فالتفت إلى وقال : كيف كان الحديث عن ذلك الخاتم ؟ ولما سمعت قوله ، سقطت على أقدامه قدس الله روحه العزيز .

حكاية :

رأيت بخط السيد أبى البركات مكتوبا جاء فيه : سمعت عن السيد اسماعيل ابن عياس أنه قال: كان أبو عثمان الحيرى من مشايخ نيسابور يقيم فى محلة « ملقاباد » ، وكان مريدا لشيخنا، فأعد للشيخ مجلسا فى زاويته بملقاباد ، وطلب إليه أن يتحدث فيه مرة كل أسبوع، فأجابه الشيخ إلى طلبه. وقال أبو عثمان الحيرى

رأيت في منامي ذات ليلة أن الشيخ يتحدث في زاويتي ، وكان صاحب الشرع المصطفى صلوات الله وسلامه عليه جالسا على الجانب الآخر من المنبر ، ولم يكن الشيخ يلتفت إليه . وجال بخاطري إنه لأمر عجيب ألا ينظر الشيخ إلى صاحب الشرع ، فالتفت إلى الشيخ في الحال وقال لي : « ليس هذا وقت النظر إلى الأغيار ، هذا وقت الكشف والمكاشفة » .

ولما اختتم الشيخ المجلس التفت إلى صاحب الشرع وقال : « ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك » وصلى الله على محمد وآله أجمعين . ثم مسح وجهه بيديه ونزل عن المنبر . فاستيقظت وبقيت حائرا .

حكاية :

قال أبو بكر محمد بن أحمد الواعظ السرخسي : بعد وفاة الشيخ أبي سعيد قدس الله روحه العزيز ، نظمت قصيدة في تلك الحادثة الكبيرة ، وقلت فيها هذين البيتين :

— من قال بأن لله مكانا ،
فبسببك التبس عليه الأمر ، إذ رآك في مكان مكين .
— ومن أجل الناس أظهرك الحق في مكان ،
لأنهم لا يستطيعون أن يتصوروا ماوراء إدراكهم .

(ص ١١٥) وعندما أنشدت هذه القصيدة على ضريحه المقدس في حفل من أبنائه ومريديه ، قال الشيخ عبد الصمد بن الحسين الصوفي السرخسي ، وكان من خاصة مريدي الشيخ وأصحاب عشرته : هذان البيتان صدق . فاستمع إلى هذه الحكاية . ثم قال على قبره الطاهر في حضور الجميع : كنت في خدمة الشيخ في نيسابور ، وذات ليلة رأيت الشيخ في نومي جالسا في مكان لم يكن من عادته

الجلوس فيه . وعندما قلت له : ماهذا أيها الشيخ ، لماذا لم تجلس فى مكانك .
قال لى : أنا فى مكانى . فقلت مرة أخرى : لماذا لم تجلس فى مكانك أيها الشيخ ،
لعله خير ؟. فقال الشيخ: ليس لى مكان ، لاتحت ولا فوق، ولا عن يمين أوشمال،
ولا فى أى جهة من الجهات ، ولكننا نتخذ مكانا من أجل الناس لتقضى
حوائجهم وتصلح أمورهم . فاستيقظت من نومى مشغولا بذلك . وفى الفجر كنت
فى مجلس الشيخ ، وعندما خرج من صومعته وجلس على المنبر كعادته، أطرق لحظة،
ثم رفع رأسه وقال : تعالى ياعبد الصمد وقص الرؤيا التى رأيتنا فيها بالأمس .
فعجبت لأننى لم أكن قد ذكرت هذه الرؤيا لأحد . وأدنيت فمى من أذن الشيخ
وأخذت أقصها ، وأنا أحاول ألا يسمعنى أحد . ولم أكد أبدأ حتى صاح الشيخ :
ارفع صوتك ليسمع الناس ،إننا نجلس هنا من أجلهم وإلا لما كان لنا مكان .
وظهرت على الجميع أحوال . والآن ورد هذان البيتان على لسانك بعد وفاته
(ص ١١٦)

حكاية :

قال حسن بن المؤدب : وقفت يوما بين يدى الشيخ فى نيسابور ، بعد أن
فرغ من المجلس وتفرق الناس . وكانت قد تجمعت على قروض كثيرة ، وكنت
لذلك مهموما ،إذ كانوا يطالبوننى بها ، ولم أجد سبيلا لأدائها . وكنت فى أمس
الحاجة لأن يطرق الشيخ هذا الموضوع،ولكنه لم يفعل . وأشار الشيخ إلى قائلا :
انظر خلفك ، فلما نظرت رأيت سيدة عجوزاً تدخل من باب الخانقاه . وتقدمت
إليها ، فأعطتنى صرة من الذهب وقالت لى : احمل هذه المائة دينار إلى الشيخ ،
واطلب إليه أن يذكرنا بدعائه . فأخذتها مسروراً ، وقلت لنفسى الآن أوفى
الدين. وحملتها ووضعتها أمام الشيخ،فقال لى: لاتضعها هنا ، بل احملها واذهب بها

إلى مقابر الحيرة، وهناك تجد أربع قباب نصف محطمة، وشيخا نائما فى ذلك المكان، فأبلغه سلامنا، وأعطه صرة الذهب، وقل له عندما تصلك هذه تعال إلينا لنعطيك غيرها .

قال حسن : وذهبت فرأيت شيخا ضعيفا نائما، وقد توسد طنبورا . فأيقظته، وأبلغته سلام الشيخ ، وأعطيته الذهب . فصرخ الرجل قائلا : قدنى إلى الشيخ . فسألته عن حاله فقال: أنا رجل مهنتى كما ترى نفخ الطنبور . وفى شبابى كنت محبوبا من الناس جميعا ، ولم يكن يجتمع فى هذه المدينه اثنان إلا وكنت ثالثهما . وكان لى تلاميذ كثيرون ، وعندما تقدمت بى السن انفضوا من حولى ، ولم يعد هناك من يدعونى. والآن وبعد أن ضاقت فى وجهى سبل العيش، طردتنى زوجى وأبنائى قائلين إننا لا نستطيع الاحتفاظ بك، فدعنا لله. ولم أعرف لى مكانا، فجئت إلى هذه المقبرة، (ص ١١٧) وجعلت أبكى فى ألم، وناجيت الله تعالى قائلا : يا إلهى! إننى لا أجيد حرفة، ولا أملك شبابا ولا قوة ، وقد طردنى الجميع ، واليوم طردتنى زوجى وأبنائى أيضا ، والآن بقيت أنا وأنت ، وسوف أطربك ليلا لتمنحنى القوت فى الصباح. وأخذت أنفخ فى الطنبور وأنا أبكى، حتى عجزت عند الفجر ، فاستسلمت للنوم حتى هذه الساعة التى أيقظتنى فيها .

قال حسن : فقدته إلى الشيخ، وكان لا يزال جالسا فى المكان الذى تركته فيه، فسقط ذلك الرجل على أقدام الشيخ، وتاب. وقال له الشيخ : أيها الرجل ، إن تأوهاتك فى المقبرة لم تذهب سدى، فامض وغن لله أيضاً، وكل من هذه النقود . ثم التفت إلى وقال: ياحسن ، إن كل من لم يخطىء فى حق الله يتحقق له ما يطلب، وسوف يتحقق طلبك أنت أيضا .

قال حسن : وعندما فرغ الشيخ من المجلس فى اليوم التالى ، دخل رجل

وأعطانى مائتى دينار لأحملها إلى الشيخ. ولما قدمتها له، قال لى: اقض بها دينك، فأنفقتها فى هذا الأمر .

حكاية :

وأيضاً قال حسن بن المؤدب : فى وقت من الأوقات ، تراكمت على ديون كثيرة فى نيسابور ، كنت قد استدنتها من أجل الصوفية . وأخذت أصبر لأرى مايأمر به الشيخ . وذات يوم أدى الشيخ صلاة الفجر وقال لى: ياحسن ، احضر لى دواة وقطعة من الورق . قلت الله أكبر، وأحضرت الدواة والورقة ، ووضعتهما أمام الشيخ فكتب :

« بيت »

— تريد أن تذهب إلى مرو وإلى هراة ،

وحيثما تذهب ستجد بقرتين وحمارا .

وقال لى : خذ هذه الورقة ، واخرج من باب الخانقاه ، وقف على اليمين ، وأعطها لمن يتقدم إليك. قال حسن : وعندما خرجت تقدم إلى شاب ، فسلمت عليه (ص ١١٨) وأبلغته تحية الشيخ ، وأعطيته الورقة . فقبلها وقربها من عينه ، وكان الظلام حالكا فلم يستطع القراءة ، فذهبنا إلى باب الحمام ، ودخل الشاب الحمام ، وقرأ الورقة ، فإذا بها عن حاله. فقال لى : قدنى إلى الشيخ. فقدته إليه ، فسلم عليه ، ووضع أمامه مائة دينار ذهبى، ونافجة من المسك ، وحزمة من العود. فقال له الشيخ : اطمئن فسوف يتحقق مقصودك هنا. وخرج الشاب وقال لى: تعال معى. فذهبت معه إلى رباط القوافل ، فأعطانى مائة دينار أخرى ، وقال لى : وف بها ديون الشيخ ، وإذا تحقق مقصودى هنا، فسوف أعطيك مائة أخرى. فسألته عن أمره ، فقال : كان لى منذ ثلاث سنوات شريكان ، أحدهما فى « بلغار » ، والآخر

« نهرواله » . وقد جاءنى بالأمس رسول من مرو يخبرنى أن أحد شريكى جاء إليها ، فعزمت على السفر إلى مرو ، وفى الليل جاء آخر وأخبرنى أن الشريك الثانى قد وصل إلى هراة . وأخذت أفكر طوال الليل : هل أذهب إلى هراة أو الى مرو ؟ . وفى السحر خطر لى أن أذهب إلى الشيخ عند الفجر ، وأحمل إليه مائة دينار ،ومقدارا من العطر الزكى ، وأسأله هل أذهب الى مرو أو إلى هراة ؟ ثم أعمل بمشورته . وقد جئت فى الفجر ، فاستقبلتنى وأعطيتنى تلك الورقة. والآن قال لى الشيخ إن مقصودى سيتحقق هنا . وسوف انتظر لأرى ماذا يحدث . قال حسن وفى الظهر رأيت ذلك الشاب فقال لى: لقد وصل شريكى الذى كان قد جاء إلى هراة.وفى العصر خرجت إلى السوق فرأيته مرة أخرى ،وأسرع نحوى قائلا: لقد وصل شريكى الآخر من مرو، وكنت قادما فى طلبك. لقد تم مرادى هنا كما قال الشيخ . ثم أعطانى مائة دينار أخرى . فعدت إلى الشيخ فقال لى : وف الديون بهذه الثلاثمائة دينار ، ولا تشك بعد الآن ، (ص ١١٩) لأن ما يأكله هؤلاء القوم لا يرقى إليه شك ، فالحق تعالى هو الذى يقضى دينهم .

حكاية :

قال حسن بن المؤدب: مضت أيام لم يحضروا خلالها لحما إلى الخانقاه ، لاننى لم أكن أملك ثمنها ، وكان القصابون يطالبوننى بثمن ما كنت قد أخذت من اللحم . وذات يوم كان الشيخ يتحدث فى المجلس فقال لى : انهض ياحسن ، واذهب إلى ذلك الشاب — وأشار بأصبعه إلى رجل — وقل له أعطنى ذلك الدينار المعقود فى سلسلتك ، فهو يساوى أكثر من دينار.فذهبت إلى ذلك الشاب ،وقلت له : أيها الشاب ، لقد قال الشيخ أعط ذلك الدينار الذى فى سلسلتك

للدراويش فهو يساوى أكثر من دينار . ولما سمع الشاب ذلك بكى ، وفتح الحلقة ،وأعطانى الدينار . فأحضرته إلى الشيخ،فقال لى: اذهب إلى سوق الحدادين، وهناك تجد قصابا علق حملا رضيعا مزينا ، فاشتره منه ،واذهبا معا إلى « بشوله »، وألق بذلك الحمل فى الحفرة ،لتأكله حيوانات تلك المقبرة . فذهبت وأنا أنكر هذا طوال الطريق، لأنه مضت عدة أيام لم يدخل اللحم فيها الخانقاه ، على حين يبعث الشيخ بالحمل إلى الكلاب. وعندما ذهبت إلى ذلك المكان،رأيت ماذكره الشيخ . واشتريت ذلك الحمل ، وأعطيت القصاب الدينار ،وأخذته معى ،وألقيت بالحمل إلى الكلاب . وقف الناس ينظرون إلى عملى هذا فى استنكار . وانفجر القصاب باكيا ،وقال لى: قدنى إلى الشيخ.فقدته إليه ،فسقط على أقدامه تائبا. وقال الشيخ: ياحسن، منذ أربعة شهور وهذا الشاب يتجشم المتاعب فى تربية هذا الحمل ، وأمس مات الحمل، فأسف على القائه . ونحن نخشى أن تصل تلك الميتة إلى افواه الناس ،فيأكل منها مسلم . (ص ١٢٠) وقد حقق هذا الرجل غرضه ، وتمتعت الحيوانات أيضا بأكل الدسم . فلماذا تشك أنت ؟ إن هؤلاء الدراويش أطهار لايأكلون إلا الطاهر . فنهض ذلك الشاب وقال للشيخ : لدى كبش حلال غير مطهى، وقدوهبته للصوفية. فقال الشيخ: كان ينبغى هذا لكى تنعم الكلاب بأكل الدهن ، ويصل ذلك الرجل إلى غرضه ، وتحصل أنت على لحم حلال .

حكاية :

عندما كان الشيخ أبو سعيد فى نيسابور ، كان مؤذن مسجد المطرز يقرأ القرآن على المئذنة ذات ليلة. وكان فى ناحية المسجد رجل تركى مريض ،فاستطاب صوت المؤذن ،وتأثر به حتى بكى. ولما طلعت الشمس ،أرسل شخصا واستدعى

المؤذن وقال له : هل كنت تقرأ القرآن على هذه المئذنة أمس؟ . قال نعم . فقال له اقرأه مرة أخرى . فقرأ المؤذن خمس آيات ، وأعطاه التركى دينارا . وأخذ المؤذن الدينار ،وخرج وجاء إلى مجلس الشيخ ، وكان الشيخ يتحدث . وفى أثناء الحديث دخل اثنان من رعاة الكلاب،وطلبا من الشيخ احسانا . فالتفت الشيخ إلى المؤذن وقال له : أعط ذلك الدينار الذى أخذته من التركى إلى هذين الرجلين . وقال المؤذن لنفسه : لقد أعطانى التركى الدينار على انفراد، ولم يكن هناك أحد معنا ، فكيف عرف الشيخ ذلك ؟ فقال الشيخ : لاتفكر كثيرا لأن ماء الحمام يليق المومس . فسر المؤذن ، وأعطاهما الدينار .

حكاية :

قال حسن بن المؤدب : دعانى الشيخ يوما وقال لى : اخرج من الباب ، (ص ١٢١) واتجه يمينا ،ومد يدك لكل من يأتى أمامك قائلا: ضع كل ماتملك هنا. فخرجت وفق أشارة الشيخ ،ورأيت وثنيا،فذهبت إليه ، ومددت يدى. فقال الوثنى : سأسلم أولا ، فقدنى إلى الشيخ . فقدته إليه ، فقال له : أيها الشيخ ، أعرض على الإسلام . ثم أسلم ، وسلم كل مايملك للشيخ .

حكاية :

ذات يوم فى نيسابور ، استدعى الشيخ قدس الله روحه العزيز حسن بن المؤدب وقال له : ينبغى أن تذهب إلى الشحنة ، وتطلب إليه أن يعد مائدة للدراويش . وكان شحنة المدينة منكرا للصوفية . قال حسن : فذهبت إليه، وأخذت أقول لنفسى طوال الطريق إنه ليس بنيسابور من هو أكثر منه ظلما، وأشد انكارا للشيخ، فكيف يتحقق هذا؟. وعندما ذهبت إليه ،رأيته يضرب رجلا

بالعصا ، والناس ينظرون إليه من بعيد . وبقيت حائرا . وفجأة وقعت عين الشحنة على فقال: ماذا يفعل ذلك الصوفى هناك ؟. وجاء شخص وسألنى لماذا تقف هنا؟. فاقتربت من الشحنة ، وابلغته سلام الشيخ ، وقلت له : إن الشيخ يأمرك أن تقيم مأدبة للصوفية . فأخذ يسخر منى ، ثم رفع يده، وأخذ كيسا من الفضة ، وألقاه إلى قائلا : لعل الشيخ يريد أن يقيم مأدبة بمال حرام ، قل لشيخك إننى أخذت هذه النقود من هذا الرجل بعد ضربه بالعصا. فحملت النقود،وذهبت إلى الشيخ، ووضعتها بين يديه، فقال الشيخ : خذها (ص ١٢٢) لتهيء بها المأدبة . وعندما حان الموعد ،وضعت المائدة.فمد الشيخ يده، وأخذ يتناول الطعام والجميع شاركونه وهم مستنكرون . وفى اليوم التالى كان الشيخ يتحدث فى المجلس ، فنهض شاب وجاء بين يدى الشيخ ،وبكى،وقبل أقدامه وقال له : سامحنى لانى خنتك ، وقد نلت جزاء خيانتى . فقال الشيخ : أى خيانة حدثت ؟ يجب أن تحدث الدراويش بها . فقال الرجل : دعانى والدى عند وفاته ، وأعطانى كيسين من النقود قائلا : أعط هذه النقودللشيخ بعد وفاتى، لينفقها على الدراويش.فلم أنفذ وصيته،وقلت لأن أنفقها على نفسى أولى من أن أعطيها للشيخ ،لانها ميراث حلال لى . وقد قبض على الشحنة بتهمة الكذب،وعاقبنى،وضربنى مائة عصا،وأخذ منى الكيس. وكنت هناك عندما جاء خادمك وأبلغه رسالتك، وأعطاه الشحنة النقود،فهذه النقود مال حلال لك ، وها أنا قد أحضرت الكيس الثانى . ووضع الكيس أمام الشيخ قائلا : سامحنى على مافعلت . فأجابه الشيخ : اطمئن أيها الشاب ، فقد وصل إلينا مالنا ، ووصل إليك مالك ، فانصرف . ثم التفت الشيخ إلى الدراويش وقال : إن كل مايصل إلى هذه الجماعة لايكون إلا حلالا . وبلغ الخبر الشحنة ، فجاء

إلى الشيخ فى الحال ،وتاب وأقلع عن الظلم، وأصبح من مريدى الشيخ،والمعتقدين فى هذه الطائفة ، وبذلك تخلص الناس من ظلمه .

حكاية :

(ص ١٢٣) روى أنه عندما كان الشيخ فى نيسابور قال رجلان معروفان أحدهما للآخر : ينبغى أن نمتحن الشيخ ، لنرى هل يدرك بكرامته ماسنقوم به أم لا ؟ . وقالا : لنذهب إليه ،ونأخذ منه شيئا ،ونغريه ونرى ماذا يقول فى ذلك. ولفقا حكاية ، وجاءا إلى الشيخ وقالا له : هناك بجوارنا فتاة يتيمة ، وقد عقدنا قرانها على رجل ،وطلبنا لوازمها من جميع الناس. واليوم تم جهازها ، وسنزفها الليلة إلى زوجها، ونريد أن نقودها إلى منزل زوجها بنور الشيخ ، حتى تكون أيامهما مباركة . فدعا الشيخ حسن بن المؤدب وقال له : ياحسن ، أحضر شمعتين كبيرتين وأعطهما لهما ،لأنهما أعدا مفرمة كبيرة . ولما سمع الرجلان هذا الكلام ، سقطا على الأرض ، وقبلا قدمى الشيخ ، وتابا وأصبحا من ملازمى خدمته .

حكاية :

روى أن الشيخ مرض يوما فأحضروا طبيبا لعلاجه . وكان الطبيب مجوسيا. وعندما تقدم إلى الشيخ ،وأراد أن يجس نبضه،قال الشيخ: ياحسن ، أحضر مقص الأظافر، وقلم أظافره وقص شاربه،ولفهما فى ورقة ،وأعطها له،لأنه ليس من عادتهم أن يتخلصوا من هذه الاشياء . وأحضر ماء ليغسل يديه . وأخذ الطبيب ينظر فى حيرة ،ولم يجرؤ على مخالفة الشيخ. قال حسن: وعندما نفذت أوامر الشيخ ، وضع الطبيب يده على يد الشيخ ، فقلب الشيخ يده ، وأمسك بيد الطبيب واحتفظ بها بعض الوقت،ثم تركها.ونهض الطبيب ليخرج ،ولما وصل إلى باب الخانقاه، أخذ

ينظر خلفه . فصاح فيه الشيخ : لماذا تنظر خلفك هكذا ؟ ألم نتركك لتذهب ؟ فرجع المجوسى ، وأسلم على يد الشيخ ، وأسلم معه جميع أقاربه .

حكاية :

(ص ١٢٤) كان الشيخ أبو صالح الدندانى مريدا خاصا للشيخ ، يقدم له الخلال، ويحلق له شاربه . وقد قال أحد الدراويش للشيخ ابى صالح هذا : علمنى الحلاقة . فضحك أبو صالح وقال له : أيها الدرويش ، يلزم لك علم سبعين عالم لكى تتعلم كيف تحلق لصوفى . إن هذا العمل ليس سهلا . وقد قال الشيخ أبو صالح : لم يكن قد تبقى للشيخ فى أواخر أيامه إلا سن واحدة ، وعندما كان يفرغ من الطعام كل ليلة ، كان يأخذ منى عودا من الخلال، ويحركه حول السن . وعندما يغسل يديه يخلله بالماء . وذات ليلة عندما أخذ الشيخ الخلال ، جال بخاطرى ، كما هى عادة البشر فى الاعتراض على الآخرين ، أنه ليس للشيخ أسنان، وهو فى غير حاجة إلى الخلال ، فلماذا ياخذه منى كل ليلة ؟ . فرفع الشيخ رأسه ، ونظر إلى وقال: عملا بالسنة ، وطلبا للرحمة ، لأن الرسول يقول: رحم الله المخللين من أمتى فى الوضوء وفى الطعام » . فاستولى على الخجل وبكيت .

حكاية :

روى أنه عندما كان الشيخ أبو سعيد فى نيسابور ، أرسل السيد « عليك » الذى كان مريدا للشيخ وأثيرا لديه ، ومعه السيد حسن بن المؤدب ، لأداء مهمة فى ميهنة . قال السيد عليك: عندما وصلنا إلى نوقان ،قال لى حسن : تعال لنذهب لرؤية السيد المظفر ، وكان رجلا عظيما . فقلت له : لقد أرسلنا الشيخ إلى ميهنه ، فلن نذهب إلى مكان آخر . وألح على حسن دون جدوى . وذهبنا إلى ميهنه

وأنجزنا المهمة التى أمرنا بها الشيخ . وفى طريق عودتنا ، وصلنا إلى نوقان ، فقال حسن : سأذهب إلى السيد المظفر، فينبغى أن توافق ، وإلا ذهبت وحدى . فوافقت . ولما جلسنا إلى السيد الامام المظفر (ص ١٢٥!) بدأ الحديث . وكان حسن يصغى إليه وقلبه يميل إلى البقاء عنده. وأتم السيد الامام المظفر الحديث ، ثم أخذ فى حديث آخر . ودار بخلد حسن أن يبقى هناك . ولما أكمل السيد الامام المظفر حديثه قلت له : لقد انتهيت من حيث بدأ شيخنا فخجل السيد الإمام المظفر ورجع إلى نفسه . ونهضنا وخرجنا من عنده . وقال حسن : أى خاطر ذلك الذى طرأ لى .. ! ولكنك لم تكد تقول ذلك الكلام حتى تخلصت منه ، وأدركت خطئى . ثم عدنا إلى نيسابور ، وذهبنا إلى الخانقاه ، فلما رآنا الشيخ ، التفت إلى حسن بن المؤدب وقال له : لو لم يقحم « عليك » ذلك الرجل لملأ جعبتك بالاحاديث . فسقط حسن على الأرض واستغفر .

حكاية :

عندما كان الشيخ فى نيسابور ، مرض السيد أبو منصور الورقانى وزير السلطان طغرل . ولما ساءت حاله، دعا الشيخ أبا سعيد والاستاذ الامام أباالقاسم القشيرى وقال لهما : لقد أحببتكما ، وانفقت الكثير من مالى من أجلكما ، وقد استدعيتكما الآن لأمر وهو : أن تحضرا جنازتى ، وتقيما على قبرى ، حتى أخرج بما لكما من قوة من عهدة السؤال . فعاهده كلاهما على ذلك . وعندما لحق برحمة الله تعالى ، ذهب الشيخ والاستاذ الامام للوفاء بهذا العهد . ولما وصلا إلى المقابر ، لم يكن القبر قد تم بناؤه بعد . فقال الاستاذ الامام للشيخ : إن القبر لم يتم بعد ، والشمس شديدة الحرارة ، فانتظر حتى أرد الناس. فألقى الشيخ سجادته فوق القبر وجلس . وعندما استكمل القبر، ودفنوا السيد أبا منصور ، وأغلقوا القبر . نهض

الشيخ وقال : لقد تم كل شىء ، ثم مضى . ولما لحق به الأستاذ الامام سأله : ماذا فعلت بالوصية التى أوصى بها ؟ . فأجاب الشيخ : (ص ١٢٦) لم تكن هناك حاجة لشىء . وسمع الناس ذلك ، فتساءلوا عن تلك الوصية . فقال الاستاذ الامام : كيف تمت أيها الشيخ ؟. فقال الشيخ : لقد جاء الرسولان ليسألا ، فقال أحدهما للآخر : ألا ترى من الذى يجلس على قبره ؟ ثم انصرفا . فانصرفت أنا أيضا .

حكاية :

كان إبراهيم ينال، الأخ الاصغر للسلطان، شحنة على نيسابور ، وكان ظالما طاغية . وكان أهل نيسابور يطلبون من الشيخ الدعاء عليه ، فلم يفعل ، وكان يقول:سوف يصبح رجلا طيبا . وفى يوم من أيام الجمعة ، كان الشيخ يتحدث فى المجلس ،فجاء إبراهيم ينال إلى مجلس الشيخ، وبكى كثيرا . وحين انتهى المجلس جاء أمام منبر الشيخ ووقف . فقال له الشيخ : ماذا تريد ؟ . فقال إبراهيم : أريد أن تتقبلنى . فقال الشيخ : لا أستطيع . فقال : إننى فى حاجة إلى ذلك . فقال الشيخ : لا أستطيع . فكرر ذلك للمرة الثالثة . فنظر إليه الشيخ فى حدة وقال : ستزول عنك النعمة . فقال : ليكن . فقال الشيخ : سوف تقتل . قال : ليكن . قال الشيخ : لن تكون أميرا . قال : ليكن . فقال الشيخ : أحضروا الدواة وورقة . فأحضروهما. فكتب الشيخ — هذه العبارة — « إبراهيم مِنّا ، كتبه فضل الله » . فأخذ إبراهيم ينال الورقة وقبلها ، ووضعها فى حافظته وخرج. وذهب فى نفس الليلة إلى العراق ،وجلس على العرش فى همدان ،وأعلن عصيانه . فذهب إليه السلطان طغرل ،وحاربه وأسره. فأرسل إليه رسالة قال فيها : إننى أعلم أنك سوف تقتلنى ، ولى حاجة عندك وهى أنه عندما تفعل ذلك ، ستجد ورقة

بخط أبي سعيد في حافظتي ، وأرجو أن تضع هذه الورقة في يدي عندما أدفن ، فلقد تنبأ لي الشيخ بذلك ، وسوف تكون هذه الورقة شفيعي .

حكاية :

(ص ١٢٧) روى أن الشيخ كان قادما من مكان في نيسابور مع جماعة من الصوفية . ووصل كعادته إلى رأس محلة عدني كوبان . وكان هناك قصاب على رأس الحي ، فلما اقترب منه الشيخ والصوفيه ، قال لأمه وزوجه : ها كم جماعة من المخرفين ، انظروا إلى رؤوسهم ورقابهم، أنها تشبه ذيول الحيوانات. وقال كثيراً من السباب القبيح بصوت منخفض لم يسمعه مخلوق . وأدرك الشيخ هذا بفراسته ، فقال : ياحسن ، احضر ذلك القصاب . فذهب حسن إليه وقال له : إن الشيخ يدعوك . فخاف الرجل وجاء وهو يرتعد . وأرسل الشيخ صوفيا إلى حسن ، وقال: اذهب به إلى الحمام . فذهب به حسن ، وعاد إلى الشيخ ، فقال له : اذهب إلى السوق ، واشتر كرباسا رقيقا ، وزوجا من الأحذية ، وعمامة من الكتان الطبرى ، واذهب بها إلى الحمام . وخذ معك اثنين من الصوفية ، ليدلكا هذا الرجل . فأرسل حسن اثنين من الصوفية إلى الحمام لخدمته ، وذهب سريعا إلى السوق ، وأحضر ما أمر به الشيخ . وقال الشيخ للصوفية : خيطوا ثوبا وسترة على عجل . فلما خاطوها ، قال الشيخ لحسن : اذهب وألبسها لذلك الرجل ، واعطه مائة دينار ، وقل له : أعد ما كنت تقول ، وحين تنفد نقودك تعال إلينا لنعطيك غيرها . فذهب حسن ونفذ أوامر الشيخ . فبكى القصاب ، ووقف نفسه على خدمة الشيخ ، وصار من مريديه .

حـكاية :

قال : العالم أبو بكر الشوكانى إن والده العالم محمد قال : عندما كنت أطلب العلم فى نيسابور كان الشيخ قدس الله روحه العزيز بها . (ص ١٢٨) وكنت إذا مافرغت من الدرس كل يوم ،ذهبت إلى خدمة الشيخ ، ومكثت عنده حتى أؤدى صلاة العصر ، ثم أعود إلى المدرسة. وبقيت هكذا حتى جئت الشيخ يوما ، فرفع طرف السجادة ،وأخرج من تحتها قبضة من الزبيب وقال لى : لقد جاء رزق الى الصوفية ففرقوه ، واحتفظنا لك بنصيبك منه ، لكل واحد سبع ، سبع ، سبع . وكان لى زميل واحد فى المدرسة ،ولكن الشيخ قال سبع ثلاث مرات. وقدمت تحيتى للشيخ وانصرفت . وفى الطريق عددت الزبيب فوجدته ثلاث سبعات . وعندما وصلت إلى المدرسة ، كان قد حضر من العراق شقيق لزميلى ، وجلس فى حجرتى . فسلمت عليه ، وسألته عن حاله ، وقسمت الزبيب ، فأخذ كل منا سبع حبات كما قال الشيخ .

حـكاية :

قال السيد الإمام أبو على الفارمدى قدس الله روحه العزيز : كنت فى بداية شبابى طالب علم فى مدرسة « سراجان » فى نيسابور . ومضت مدة ، وذاع فى المدينة خبر فحواه أن شيخا جاء من ميهنه ،وهو يعقد المجالس ويتحدث فيها ،وقد ظهرت كراماته بين الناس ، واعتقد فيه أهل نيسابور ، وأئمة المذاهب . فذهبت لأراه . وعندما وقعت عينى على جماله ،أصبحت له عاشقا ،وزادت محبة هذه الطائفة فى قلبى . وكنت أترقب طوال اليوم حتى يخرج الشيخ إلى المجالس لأراه . وجعلت أختلف إلى مجالسه متخفيا ، ولم يقع فى نفسى أن الشيخ يعرفنى ،حتى جاء يوم كنت أجلس فيه فى حجرتى بالمدرسة ،فأحسست بشوق شديد لرؤية الشيخ. ولم يكن من عادة

الشيخ أن يخرج فى ذلك الوقت ، فأردت أن أصبر فلم أستطع . ونهضت وخرجت، ولما وصلت إلى مفترق الطرق،رأيت الشيخ (ص ١٢٩) يسير مع جمع كبير،فسرت خلفهم دون وعى . وكانوا يصحبون الشيخ إلى وليمة . وعندما وصلوا إلى قصر المضيف ،دخل الشيخ ،ودخل الجميع معه. فدخلت أنا أيضاً،وجلست فى ركن بحيث لم يرنى الشيخ. وعندما انشغلوا بالسماع ،انتشى الشيخ ،وظهر عليه الوجد، ومزق ثوبه . وحين انتهى السماع، تناول الشيخ الثوب،ومزقه أمام الجميع،وفصل كُمًّا وشريطا ونادى قائلا : يا أبا على الطوسى ، أين أنت ؟ . فلم أجب ،وقلت لنفسى إن الشيخ لا يعرفنى، ولم يرنى ، وربما كان من مريديه من يدعى «أبو على الطوسى». ونادى الشيخ مرة أخرى ، فلم أجب أيضا . وقال الجميع: لعل الشيخ يقصدك بهذا القول. فنهضت وتقدمت إليه ،فأعطانى الكم والشريط ،وقال لى:أنت منا بمثابة هذا الكم والشريط من الثوب . فأخذت الكم وقبلته ، وجعلت أذهب دائماً إلى خدمة الشيخ ،وأجد توفيقا كبيرا . وعندما رحل الشيخ عن نيسابور، ذهبت إلى الأستاذ أبى القاسم القشيرى وحدثته بحالى فقال لى : اذهب يا بنى واطلب العلم . فانشغلت بتحصيل العلم نحوا من ثلاث سنوات ،حتى جاء يوم أخرجت فيه القلم من المحبرة، فوجدته أبيضا . ثم تكرر هذا ثلاث مرات ،فنهضت وذهبت إلى الأستاذ الإمام وحدثته بالامر ، فقال لى : مادام العلم قد كف يده عنك ، فكف يدك عنه ، واذهب واشتغل بالمعاملة. فذهبت وأخذت متاعى من المدرسة، وذهبت إلى الخانقاه، واشتغلت بخدمة الأستاذ الامام . وذات يوم ذهب الأستاذ الإمام إلى الحمام وحده ، فذهبت وصببت عدة أباريق (ص١٣٠) من الماء فى الحمام. وخرج الأستاذ الإمام وصلى وقال : من الذى صب الماء فى الحمام ؟ . فقلت لنفسى ربما كان

ماصنعته مجافيا للأدب ، فالتزمت الصمت. فقال ذلك مرة أخرى ، فلم أجب أيضاً. وعندما سأل المرة الثالثة قلت: أنا . فقال: يا أبا على ، إن ما لم يدركه أبو القاسم فى سبعين سنة أدركته أنت بدلو من الماء . وبقيت فى خدمته أمدا مشغولا بالمجاهدة . وذات يوم ظهرت لى حال تحيرت فى أمرها ،فأخبرته بها ، فقال لى : يا أبا على ، إن سلوكى ليس أعلى من هذا ، وكل ماهو أعلى من ذلك لا أستطيع معرفته. فقلت لنفسى أنا فى حاجة إلى من يرشدنى إلى الطريق، ويرفعنى إلى مقام أعلى من هذا . وأخذت تلك الحال فى الازدياد . وكنت قد سمعت بأبى القاسم الجرجانى،فنهضت وتوجهت إليه فى طوس . ولم أكن أعرف مكانه . ولما وصلت إلى المدينة، سألت عنه ،فقيل إنه يجلس فى مسجد بمحلة « رودبار » بين مريديه ، فذهبت إلى ذلك المسجد . وكان الشيخ أبو القاسم جالسا هناك ، فصليت ركعتين وتقدمت إليه ،وكان قد أحنى رأسه ، فرفعها وقال: تعال يا أبا على ، ماذا بك ؟. فسلمت عليه ، وأخبرته بما حدث لى. فقال : باركك الله ، ولتبدأ من الآن ، وإذا وجدت التربية الواجبة وصلت إلى مقام عظيم.فقلت لنفسى: هذا شيخى ، وأقمت فى خدمته .وبعد أمد طويل ،أقبل علىّ الشيخ أبو القاسم، وعقد لى عهده ، وأخذ شأنى بعد ذلك فى الارتفاع .

ورغم أن هذا الشرح بعيد عن غرض الكتاب ، فقصدنا هو حادثته مع الشيخ أبى سعيد وقصة إعطائه الخرقة ، لكن مادام قد خاض فى ذكر بداية حاله فلم نشأ أن نترك ذلك الحديث .

قال السيد الإمام أبو على الفارمدى : عندما كنت لدى الشيخ أبى القاسم (ص ١٣١) اشتغلت بالرياضة والمجاهدة ، ولم يكن الشيخ أبو القاسم قد أجاز لى

عقد المجالس، وبعد أمد وصل الشيخ أبو سعيد إلى طوس، وذهبت إليه فقال لى : يا أباعلى ، سوف يأذنون لك بالحديث سريعا مثل الببغاء . ولم يمض وقت طويل حتى أذن لى الشيخ أبوالقاسم بعقد المجالس ،وما لبثت حتى أجدت الحديث فى زمن وجيز .

حكاية :

قال السيد الإمام أبو نصر العياضى السرخسى : كنت فى نيسابور لتعلم الفقه ، واحتملت المتاعب مدة فى طاب العلم على يد السيد الإمام أبى محمد الجوينى ، وأجدت الخلاف ومذهب التعليق . وسمعت أن الشيخ أبا سعيد جاء من «ميهنه» ، ويعقد المجالس ، فذهبت إلى مجلسه على سبيل المشاهدة والاختبار . ولما وقع عليه بصرى ،تعجبت لهيبته ولباقته. وعندما أخذ فى الحديث ، أثر فىّ كلامه حتى أننى قلت لنفسى: ليس لى حيلة فى الله وطريق الله الذى يتحدث عنه هذا الرجل ،رغم كل مابلغت من علم . وعلىّ أيضاً أن أسلك هذا الطريق . وعندما طاف بنفسى هذا الخاطر، قال الشيخ على المنبر : يجب البدء . فعجبت لكلام الشيخ ، وتساءلت لم قال ذلك ، وظننته من قبيل المصادفة . وعندما انشغل الشيخ بالحديث مرة أخرى ،جال هذا الخاطر بنفسى ثانية ، فقال الشيخ : لاينبغى تأجيل هذا الأمر . فلما تكرر هذا، أدركت أنه من كرامات الشيخ ، وزال الشك . (ص ١٣٢) وحينما أنهى الشيخ المجلس ،ونهضت وذهبت إلى المدرسة لأحضر أمتعتى ،وأنقطع لخدمة الشيخ ، ذهب رجل إلى السيد محمد الجوينى، وأخبره بالأمر، فجاء إلىّ فى الحال وقال: إلى أين تذهب ؟. فحدثته بالأمر . فقال لى: إننى لا أمنعك عن خدمة الشيخ ، ولكنك ذهبت إلى مجاسه ، ورأيت مبلغ اطلاعه وهيبته ، وحسن حديثه

وكراماته، وسوف ترى أكثر من ذلك حينا تزداد به علما. وإذا كنت تظن أنك سوف تستطيع أن تكون أباسعيد آخر فأنت مخطىء، لأنك لاتعرف ماقام به من رياضة ومجاهدة . ونحن نعلم ماذا صنع حتى أدرك هذه الدرجة ؛ ولو أن مائة رجل قاموا بما قام به من الرياضة والمجاهدة ، ما أعطاهم الله ما أعطاه . وستترك علمك طمعا فى هذا ، وسوف تفقد علمك دون أن تدرك منزلته. فلما تمعنت قوله، رأيت أن الأمر كما يقول . وظللت على اعتقادى فى الشيخ ،وواصلت تحصيل العلم ، وكنت أذهب إلى خدمة الشيخ ، وأفيد منه، وكان الشيخ يكرمنى كثيرا .

حكاية :

قال الأستاذ إسماعيل الصابونى: كان النوم قد استولى على ذات ليلة ، ولما حان وقت النهوض لأقضى ورداً تعودت أداءه ، أحسست بتراخ . وكنت قد وضعت كوزا بجوار الفراش ، فأوقعه قط . وتحيرت ، وتراخيت مرة أخرى ، ثم استغرقت عينى فى النوم . وسقط حجر من السطح على (طشت) كان فى وسط الدار ، ففزع أهل بيتى وصاحوا : لص. فاستيقظت ، ثم أخذت فى قراءة الورد . وفى اليوم التالى ذهبت إلى مجلس الشيخ ، فالتفت الشيخ إلى أثناء الحديث (ص ١٣٣) وقال : عندما ينام المرء طوال الليل ، ويتأخر فى النهوض ، يسلط قط على فأر ليسقط كوز الماء ، حتى يذهب عنه النوم. ويؤمر بإلقاء حجر فى وسط داره، فيقال لص ؛ إنه لم يكن لصاً ؛ بل كان رسولنا إليك ، ليوقظك من النوم ، حتى تتحدث إلينا ساعة .

« بيت »

— أيها الحبيب ذو الوجه الجميل ، لقد كنت فوق سطحك بالأمس ،
فقلت « لص » ، إنه لم يكن لصاً ، بل كنت أنا .

ولما قال الشيخ هذا الكلام بكيت ،وأدركت أن الشيخ لايغفل عنا فى أى حال من الأحوال .

حكاية :

قال السيد الشيخ أبوالفتح إن الشيخ موسى حدثه بأن الشيخ أبا سعيد قال له يوما فى نيسابور : تقدم وصل ركعتين لنقتدى بك ، واقرأ كل حمد فى القرآن . ولما انتهينا من الصلاة قال الشيخ : ياموسى لقد كنت عاجزاً عن شكر الله فقمت عنى بذلك ، أحسن الله إليك .

حكاية :

قال أبوبكر مكرم : كان فى نيسابور حاكم يحاسب الشيخ دائما . وذات يوم أحضروا للشيخ سفطا من العود ،وألف دينار . فقال الشيخ لحسن : أعد بعض الـ «زيره با»[1] والحلوى، وضع سفط العود فى النار دفعة واحدة، حتى يصل نصيب من رائحته الطيبة إلى جيراننا أيضا . وأعدوا وليمة فاخرة . وأقبل هذا الحاكم ليحاسب الشيخ وقال له : هل ترى أى إسراف يكون هذا فى مثل هذا الوقت من الضيق والشدة ؟. وأخذ يلومه (ص ١٣٤) ويزجره ، فلم يجبه الشيخ. وغضب الصوفية لذلك . ورفع الشيخ رأسه ونظر إليه ، وقال له : ادخل . فدخل الحاكم خطوتين . فقال الشيخ : تقدم أكثر . فتقدم خطوتين أخريين وبقى هكذا . ثم رجع فى عسر، وجلس فى مسجد بجوار الخانقاه . فأرسل إليه الشيخ درويشا ليقوم بمساعدته ، وظل مريضا هكذا لمدة عامين ونصف ثم توفى بعد ذلك . ومن هنا قال العلماء والعظماء إنه لاينبغى الجرأة والتطاول على الشيخ والصوفية ، ولاينبغى الذهاب إليهم إلا فى الوقت المحدد، وفى أدب واحترام،إذ أنهم تتملكهم أحوال

---

(١) نوع من الطعام .

فإذا كانوا فى حال من القبض ونظروا إلى أحد فى قسوة،حل به الدمار والعياذبالله.

حكاية :

قال السيد إسماعيل بن مكرم : كنت أسير فى طريق نيسابور يوما. وكان الشيخ أبو سعيد يتقدمنى ،فسلمت عليه ،ورد على رداً طيباً. وأخذت أسير خلفه وأنا أنظر إلى أقدامه وركابه ، وقلت لنفسى ليت الشيخ يأذن لى فأقبل قدمه . فأمسك الشيخ بعنان جواده حتى وصلت إليه ، وأخرج قدمه من الركاب ، وقربها منى ، فقبلتها . ثم ساق جواده وذهب .

حكاية :

ذكر رشيد الطائفة عبد الجليل أنه كان بنيسابور رجل صوفى ، محب للشيخ، لايملك من متاع الدنيا سوى كرمة . وجاء يوما ليدعو الشيخ والصوفية ليأكلوا من كرمته، فاعتذر الشيخ بأنه لايستطيع . وكرر الطالب عدة مرات فلم يجبه الشيخ. وبعد إلحاح شديد ،ركب الشيخ إليه ومعه الصوفية. ولم يكن لدى الرجل سوى قليل من الكرم، والصوفية كثير ، فأكلوا العنب كله. وأخفى الدرويش عنقودين من العنب فى سجادة ، (١٣٥) ووضعها فى الكرمة بحيث لم يظهر منهما شىء . وعندما أتى الدراويش على العنب كله ، نظر الرجل إلى الكرمة فلم يجد شيئا. وقال له واحد من الدراويش : بارك الله لك . فقال لنفسه لقد مضت بركةهذا العام . وحين انصرف الشيخ، ورأى الرجل الكرمة خالية ، غادرها وأغلق الباب ساخطا، ولم يعد إليها طيلة ذلك الشتاء ، ولم يذهب أيضاً إلى مجلس الشيخ . وفى السنة التالية عندما حل موعد إعداد الكرم ، وأخذ الناس يصلحون كرماتهم ، أحس

الرجل بالخطأ ،وقال لنفسه: يجب أن أعمر الكرمة،ومادمت ساخطا عليها فلن يتحقق غرضي ، وإذا كنت قد أذنبت فقد أذنبت في حق نفسي . ثم نهض وذهب إلى الكرمة ،وأخذ يطوف بها ،فرأى سجادة جديدة في ركن من أركانها،ولما فتش فيها، رأى عنقودين طازجين من العنب أوراقهما خضراء .فسر بهما كثيرا ، وقال لنفسه :سأحمل هذا العنب إلى السلطان لينعم علي وعلى أطفالي . ثم وضع العنب في (طبق)وحمله إلى السلطان سوري.فسر به السلطان، وأمر بأن يملأ له الطبق ذهبا . ففرح الرجل ، وأدرك أن ذلك كان بسبب مقدم الشيخ المبارك إلى كرمته ، فذهب إليه ليستغفره عما كان قد تملكه من السخط . ولما وقع نظر الشيخ عليه قال له : لو لم يأكل السلطان سوري من كرمك ، لفاتك خير كثير. فسقط ذلك الدرويش على أقدام الشيخ ، وتاب عما مضى ، وعاد إلى محبته للشيخ .(ص ١٣٦)

حكاية :

عندما كان الشيخ في نيسابور،وكان يقيم تلك الولائم الفاخرة ، جاء مقرىء دعي وقال له : أيها الشيخ، أريد أن أعتكف معك أربعين يوما . ولم يكن ذلك المسكين قد علم بما زاوله الشيخ من الرياضه في البداية ، وكان يظن أن الشيخ قد عاش على هذا النحو طيلة عمره، فقال لنفسه: فلأجبر الشيخ على الجوع، وأفضحه أمام الناس، وأصل أنا إلى القمة . وعندما قال الدعي هذا الكلام للشيخ، قال له الشيخ : بارك الله ، وألقى سجادته.وألقى ذلك الدعي سجادته بجوار الشيخ ،وجلس الاثنان. وكان ذلك الدعي يأكل قليلا ، كما هو شأن المعتكفين ، أما الشيخ فلم يكن يأكل قليلا أو كثيرا، وكان يقيم الولائم الفاخرة في مقره. وبينما كان الشيخ يزداد نضارة وصحة كان ذلك الدعي يزداد كل يوم ضعفا ونحولا ، وكان يرى تلك الولائم الشهية

فينطوى على نفسه . وأخذ يؤدى الصلاة فى جهد لما اعتراه من الضعف ، وندم على هذا التحدى ،وأدرك أنه لم يكن يعرف شيئا . وعندما تمت الأربعون يوما قال له الشيخ : لقـد نفذت لك رغبتك ، والآن يجب أن تفعل ماأقول . فقال الدعى : الأمر للشيخ. فقال الشيخ: نأكل أربعين يوما، ولا نذهب إلى دورة المياة . واتفقا على هذا . وأمر الشيخ بأن يحضروا طعاما شهيا ، وأخذا يأكلان . وأقبل الدعى على الطعام بجوع أربعين يوما ،واستوفى نصيبه منه. ومرت ساعة ، وشعر بحاجته إلى الذهاب إلى دورة المياه ، وكان الشيخ ينظر إليه فى سكون . ولم يستطع الصبر أكثر من ساعة ، فسقط على أقدام الشيخ تائبـا عن كل مافعل . فقال الشيخ : بسم الله ، اذهب الآن إلى دورة المياه ،وافعل ماتريد ، (ص ١٣٧) واجلس معى حتى ننفذ ما اتفقنا عليه. وجلس الدعى مع الشيخ أربعين يوما كاملة ،وكان يذهب إلى دورة المياه كلما أراد ، ولم يذهب الشيخ إليهـا أربعين يوما كاملة ، وكان يأكل ويرقص ويقيم السماع كعادته. ولما شاهد الدعى تلك الحال ، استغفر لما صدر عنه ، وأصبح مريداً للشيخ .

حـــكاية :

كان فى نيسابور محتسب من أصحاب أبى عبد الله الـكرام،وكان منكراً للشيخ. وذات يوم أخذ عدة أثواب ليعطيها للغاسل ليغسلها. وفى الطريق مر بمجلس الشيخ، وكان الشيخ يتحدث ،فقال المحتسب لنفسه: سوف أعود الآن ، وأقول له مايجب أن يقال لهؤلاء. وذهب وأعطى الأثواب للغاسل، وأعطاه درهما. فقال له الغاسل: اعطنى أكثر ،لأن هذا ثمن الغاسول والصابون ، وقد تنازلت عن أجر الغسل . فلكمه المحتسب عدة لـكمات، فبكى الرجل ، ورجع المحتسب . وتصادف أن الشيخ

كان لايزال يتحدث، فدخل من باب خانقاه الشيخ وقال له: أيها الشيخ ، إلى متى النفاق والتظاهر بالورع ؟. فقال الشيخ : ماذا يجب أن نفعل ياسيدى المحتسب؟ فقال : يجب ألا تتحدث فى المجلس ، وألا تقول الشعر. فقال الشيخ : أننا سنفعل ماتريد، ولكن يجب ألا يفعل السيد المحتسب أيضا مافعل وقت الفجر، فيأخذ الملابس، ويحملها إلى الغاسل، ويعطيه درهما ،فيقول له أعطنى ثمن الغاسول والصابون كاملا فقد تنازلت عن الأجر ، فيلكمه حتى يتألم ذلك الشيخ . إذا كان يلزمك غسل ملابسك فأحضرها، وأعطها لحسن ليغسلها ويعطرها ويبعث بها إليك، حتى لايتألم منك مسلم ،ولاتقترف معصية . وعندما سمع المحتسب هذا الكلام خجل ، وسقط على أقدام الشيخ ، وتاب عن إنكاره وشكه .

حكاية :

(ص ١٣٨) قال السيد أبو الفتوح العياضى: سمعت من السيد حسين بن عباد الويشى قوله : كنت فى مجلس الشيخ فى نيسابور، وكان الشيخ يتحدث، وفكرت فى والدتى وبلدى سرخس . وفى الحال التفت إلى الشيخ وقال:

بيت من الشعر العربى

لتعجلى على أم عليك حفية　　　تنوح وتبكى من فراقك دائبا

فخرجت من المجلس،وتوجهت إلى سرخس ، فوجدت والدتى فى مرض الوفاة ووصلت وأدركتها ، وتوفيت فى اليوم التالى . وأدركت أن هذا كان السبب فى قول الشيخ « لتعجل » .

حكاية :

كان الشيخ يتحدث يوما فى مجلس فى نيسابور، وكان فى المجلس تاجر، كان قد فكر فى نفسه أن يقود الشيخ إلى منزله، ويقدم إليه شيئا من الحلوى « والزيره با » . وفى أثناء المجلس التفت الشيخ إلى هذا التاجر وقال له : أيها الرجل أعط الحلوى و« الزيره با » التى أعددتها لنا إلى حمال، ومره أن يسير بها فى الطريق، ويضعها حيث يدركه التعب. فذهب الرجل، وأعطى الحمال وعاء الحلوى، وظل يسير حتى أدرك الحمال التعب. وكان ذلك أمام باب منزل، فاتجه إليه وطرق الباب. فخرج شيخ وقال له: إذا كان معك «زيره با» وحلوى بالسكر فادخل. فقال التاجر إن هذا لمن أعجب كرامات الشيخ . ثم سأله : كيف عرفت ان معى « زيره با » وحلوى ؟. فقال الشيخ : مضت عدة أيام لم نجد فيها طعاما، ودعا طفل لنا فى المهد قائلا : يا إلهى امنح أبى وأمى وإخوتى « زيره با » وحلوى بالسكر، فاستجيب دعاؤه . وقد عرف الشيخ أبو سعيد بذلك فأرسلها لنا .

حكاية :

(ص ١٣٩) قال الشيخ أبو الحسن السنجارى : سمعت الشيخ أبا مسلم الفارسى يقول: عندما توفى الشيخ عبد الرحمن السلمى فى نيسابور، ذهبت إلى ميهنه لزيارة الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير قدس الله روحه العزيز وأرواحهم، وكان ذلك فى بداية أمره . ولما وصلت ميهنه، ذهبت إلى الشيخ فى المسجد، وكان الشيخ هناك، فأكرمنى، وقال لأحد الدراويش : أنظر هل يوجد شىء ليأكله ؟. فذهب الدرويش وعاد يقول : لم أجد شيئا . فقال الشيخ : يافقير ما أفقرك . وأقمت عنده يوما، ولما عزمت على العودة، طلبت من الشيخ

أن يكتب لى شيئا بخطه المبارك ، ووضعت أمامه ورقة ، فكتب بخطه :

« بيتان من الشعر العربى »

تقشع غيم الهجر عن قمر الحب وأشرق نور الصبح فى ظلمة العتب

وجاء نسيم الاعتذار مخففا فصادفه حسن القبول من القلب

فأخذت الورقة وودعت الشيخ . وعندما كنت أتأهب للعودة قال الشيخ : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ». ورجعت وجئت إلى فارس، ومرت على هذا مدة طويلة . وفى وقت من الأوقات ذهب درويش من أصحابنا يدعى محمد بن كوهيان لزيارة الشيخ أبى سعيد فى خراسان، فقلت له: عندما تصل إلى الشيخ ، بلغه سلامى ،وقل له : « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » . وذهب ذلك الدرويش،وزار الشيخ. وعندما رجع قال لى: عندما وصلت إلى نيسابور كان الشيخ أبو سعيد هناك ، ولما ذهبت للسلام عليه وقلت: « السلام عليكم » قال : وعليك السلام ، « وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون » .

حكاية :

قال الأستاذ الإمام إسماعيل الصابونى : عندما كان الشيخ فى نيسابور كنت ذاهبا لزيارته يوما ، وفى الطريق سألت نفسى : ما تلك الأخبار التى كنت قد قرأتها مع الشيخ عند أبى على زاهر فى سرخس ؟ (ص ١٤٠) وفى أى جزء هى ؟ وأخذت أفكر فى هذا. ولما دخلت على الشيخ وسلمت ، نهض وضمنى إلى صدره . ثم جلست فقال : يا أستاذ ، ما الخبر الأول من الجزء الأول من تلك الأخبار التى سمعناها عند أبى على زاهر فى سرخس ؟ فقلت :لا أدرى مادمت لم أطلع

على هذا الجزء، فقال الشيخ : أول حديث هو «حب الدنيا رأس كل خطيئة » . ثم قال الشيخ : ما الحديث الثانى ؟ قلت : لا أذكر . فقال: الحديث الثانى هو « دع مايريبك إلى ما لايريبك » . ثم قال: ما الثالث ؟ قلت : لا أذكر . قال الشيخ : الحديث الثالث هو « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئا لغد » .

قال الأستاذ اسماعيل الصابونى : عندما قال الشيخ هذه الأحاديث تذكرت أنها كذلك كما قال ، وعرفت أن تلك الخواطر التى طافت بنفسى فى الطريق قد أظهرها لى الشيخ بكرامته كأنما يقول : هذا هو ما كنت تفكر فيه وأنت قادم إلينا . وأيقنت أن الشيخ يقف على أسرارنا تماما .

حكاية :

قال الشيخ اسماعيل الساوى : جاء الشيخ إلى نيسابور، وكنت أحضر مجالسه دائما ، وكان يردد فيها كثيرا من الشعر ، وطالما أنكرت عليه هذا . وذات يوم نظر إلى الشيخ أثناء المجلس وقال : أنا أقول لك هذه : « قد عشقنا وكلنا يفنى » فزال عنى ذلك الانكار . وفى اليوم التالى ذهبت إلى مجلس الشيخ ،وكان المقرىء يقرأ :« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » ، وردد الشيخ هذه الكلمة « ما كنت تدرى » ، فتملكنى حال بسبب هذا، وهممت بالاعتراض عليه ،ولكننى منعت نفسى. (ص ١٤١) ولما عدت إلى المنزل انتابتنى حمى،فقلت لنفسى: سأبعث بشىء للشيخ. ولما فارقتنى الحمى فى اليوم التالى، ندمت على هذا الخاطر. وبعد أن مضت عدة أيام ،ذهبت إلى مجلس الشيخ ومعى غطاء قد أخفيته . وفى المجلس طلب أحد الدراويش ثوبا ، فنظر الشيخ إلىّ وقال : الحمد لله ، إذ اصطحبت معك هذا الغطاء للدرويش ، ولن تندم على ذلك

كما ندمت فى ذلك اليوم . فتملكتنى الحيرة ، وأعطيت الغطاء وجميع ملابسى للدرويش .

حكاية :

وأيضاً حدث عندما كان الشيخ فى نيسابور ، أن كان جمع من الصوفية يسيرون بصحبته ، وكان اليوم سبتا . وكان هناك رجل يهودى يسير إلى الكنيسة ، وقد ارتدى طيلسانا وملابس حسنة ، فرأى الشيخ من بعيد يسير مع الجماعة . ووهب الله تعالى لليهودى البصيرة ليرى عزة الشيخ وذل نفسه ، ففر من أمام الشيخ لفرط خجله . وسار الشيخ خلف اليهودى ، وظل يتبعه حتى بلغ اليهودى جبلا ، ولم يجد طريقا ، فاضطر للتوقف . ولحق به الشيخ ، ووضع يده المباركة على مفرقه وقال :

« بيت »

— يجب على الراعى ألا يشكو من برودة الجو ،

إذا أراد أن تطيب له الغربة والسير فى الليل .

أيها المسكين ، أطال الله بقاءك ، كيف أنت بدونه ، وكيف ستكون؟ وعندما قال الشيخ هذا ورجع ، صرخ اليهودى ، وأخذ يجرى خلفه وهو يقول : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله » ولما أدرك الشيخ سقط على أقدامه ، وجاء معه إلى الخانقاه ، وأصبح من مريديه .

حكاية :

(ص ١٤٢) روى أنه عندما كان الشيخ أبو سعيد فى نيسابور ، كان كثير من اليهود والمسيحيين يسلمون على يده ، كما كان كثيرون يسلمون أيضاً على يد

أئمة نيسابور ، وخاصة الشيخ محمد الجوينى الذى كان شيخ ذلك العهد . وكان له وكيل يهودى ، طالما عرض عليه الإسلام ، فلم يستجب . وذات يوم قال له : إذا أسلمت أعطيتك ثلث مالى . فقال اليهودى : لا أبيع دينى بالدنيا . وألح عليه فى ذلك قائلا : إذا أسلمت أعطيتك نصف مالى . فقال : لا أبيع دينى بالدنيا . وفى المرة الثالثة قال له : إذا أسلمت أعطيتك ثلثى مالى . فلم يقبل أيضا . فيئس الشيخ أبو محمد الجوينى منه. وتصادف أن مر يوما بمحلة عدنى كوبان ، وكان هذا الوكيل فى صحبته . وكان الشيخ أبوسعيد يتحدث فى المجلس فى ذلك اليوم ، فدخل الشيخ أبو محمد إلى المجلس .وقال الوكيل اليهودى لنفسه : فلأدخل أنا أيضا إلى المجلس ، وأسمع كلام هذا الرجل ، وأرى ماذا يقول حتى جعل الناس يتزاحمون هكذا للاستماع إليه ، وأعرف سر مايلقاه من قبول لدى الناس . ولايبدو علىّ مايجعل الشيخ يظن أنى يهودى.وعندما دخل أبو محمد ، دخل الوكيل خلفه ، وجلس مختفيا خلف حجر . ولما بدأ الشيخ فى الحديث التفت إلى ذلك الحجر الذى يجلس الوكيل خلفه وقال : أيها الرجل اليهودى ، اخرج من خلف الحجر . ولم يستطع اليهودى أن يمنع نفسه من الاستجابة إليه ، فنهض دون وعى ، وتقدم إلى الشيخ ، فقال له : قل (ص ١٤٣) أيها اليهودى . فقال الرجل ماذا أقول ؟. قال الشيخ قل هذا :

« بيت »

– كنت وثنيا وأصبحت الآن مسلما ،
وكنت سيء العهد وأصبحت عبداً طائعا.

فقال اليهودى هذا البيت . ثم قال له الشيخ : اذهب إلى السيد الإمام أبى محمد

ليعلمك الإسلام ، وقل له إنك لم تعرف أن الأمور موقوفه على أوقاتها فإذا دخل الوقت لايحتاج إلى ثلث المال ولا إلى نصفه ولا إلى ثلثيه ، لأن الأمور متوقفة على الوقت ، فإذا ماحان الوقت لايلزم إعطاء ثلث المال أو نصفه أو ثلثيه . فسر الشيخ أبو محمد وتاب عن تلك الرغبة .

حكاية :

كان أبو نصر الشيرواني رجلا ثريا من مشاهير التجار في نيسابور ، يملك أموالا طائلة . وعندما ارتفع شأن شيخنا أبي سعيد قدس الله روحه العزيز في نيسابور ، وأصبح جميع أهلها يعتقدون فيه ، صار أبو نصر أيضا من جملة المعتقدين في الشيخ ، وأخذ يدعو إلى الاعتقاد فيه . وكلما ذهب إلى الشيخ ورأى كراماته الظاهرة ازداد اعتقادا . وذات يوم ذهب الشيخ مع جماعة الصوفية إلى الحمام في محلة عدني كوبان ، وكان من عادته أن يتردد كثيرا على ذلك الحمام ، وفي ذلك اليوم كان يرتدي عباءة صوفية ، وقد عقد على رأسه عمامة فخمة أحضرها له أحد المريدين . ولما دخل الحمام كان هناك حلاق . وأسرع صاحب الحمام ، وأحضر للشيخ إزارا نظيفا ، وقدم له خدماته ، وأظهر كثيرا من التواضع ، وجلس على قدميه حتى خرج الشيخ من الحمام . وعندما رأى الحلاق ماقدم صاحب الحمام للشيخ من تقدير وتبجيل ، ورأى الجميع يشاركون صاحب الحمام ذلك ، سأل صاحب الحمام ، (ص ١٥٤) بعد أن نزل الشيخ مع الصوفية إلى الحمام : من هذا الرجل الذي كان يتزين ؟ . فقال صاحب الحمام : إنه الشيخ أبو سعيد شيخ الصوفية ، وصاحب الكرامات العظيم . وكان الحلاق من أولئك الذين ينكرون هذه الطائفة فقال :

إذا كان حقاً من أصحاب الكرامات فليعطني هـذه العباءة الصوفية التي يلبسها ، وهذه العمامة ،لأني تقدمت إلى عروس ،وهم يريدون مني الصداق وأسباب العرس ليزوجوها لي،وأنا لا أملك شيئا. ومضت ساعة ، وحان الوقت لـكي يحلق الشيخ شعره ، وأقبل الحلاق لذلك . فقال له الشيخ : أيها الفتى خذ عني هـذه الأشياء الثلاث ، أولا : عندما تحلق لشخص أغسل يدك وسترتك ، ثانيا : عندما تحلق الشعر ابدأ من اليمين ، ثالثا : أن ترفع الشعر والقذارة التي وقعت على السترة حتى لاتقع عليها عين شخص . فنفذ الحلاق جميع أوامر الشيخ . ولمـا فرغ الشيخ من الحلاقة قال لحسن بن المؤدب : أعط تلك العباءة الصوفية والعمامة لهذا الفتى حتى يتأهب للزفاف . فسقط الشاب على أقدام الشيخ وبكى كثيرا

قال حسن بن المؤدب : فتقدمت وأعطيته العباءة وأنا أفـكر في أن الشيخ لايملك ثيابا غيرها ، وأنه قد خلعها على الحلاق وسيبقى عاريا في الحمام . وعندما أعطيته العباءة عدت إلى الحمام وأنا مشغول حائر . وقال الشيخ ،يا حسن لن نقول لك حتى يقال لنـا ، فسر واذهب إلى باب الحمام،فإن أبانصرالشيرواني في انتظارك قال حسن: فخرجت ورأيت أبا نصر الشيرواني على باب الحمام، وقد لف ثوبانظيفا في سجادة صلاة ،وسألني : ياحسن ، هل الشيخ في الحمام ؟. قلت: نعم ،وقد أعطى ملابسه (ص ١٤٥) للحلاق وبقي عاريا هناك . فقال أبو نصر: سبحان الله ، لقد كنت أقرأ القرآن هذه الساعة فاستولى عليّ النوم ،فرأيت في نومي شخصا اقترب مني وقال لي : انهض لأن الشيخ في الحمام، وقد منح ثيابه لشخص ، وبقي عاريا ، فاذهب واحمل إليه ثوبا. ولما استيقظت قلت إن هذا لايمـكن أن يكون إلا وهما، وعدت إلى قراءة القرآن . واستولى علي النوم مرة أخرى ، ورأيت نفس الشخص

وقال لى نفس الكلام ، فلم أصدق مرة أخرى. ثم غلبنى النوم ،فسحبت الوسادة ونمت ثانية. ولما استولى على النوم، جاء الشخص نفسه وصاح فى قائلا : ياأبانصر أنت تدعى محبة الشيخ وأقول لك ثلاث مرات احمل ثوبا إليه لأنه عار فى الحمام فتتغافل ؟ إنك إذا توانيت حل بك الدمار . فقفزت من شدة الخوف وأعددت الثوب وأحضرته . وجلس أبو نصر على باب الحمـام ، ودخلت أنا وكان الشيخ يتوضأ ، فأتم وضوءه، فتقدمت لمساعدته،وخرج الشيخ من الحمام ولبس الثوب .وكان أبو نصر يحمل ألف دينار ذهبى،فقال له الشيخ: ينبغى أن تعطى هذه النقود لصاحب الحمام ، ولا يجب أن تقل عن هذا لأن صبيه سيتزوج ، كما أن الاستاذ سيعد الحلوى أيضا . فأعطينا النقود لصاحب الحمام. وسار الشيخ وفى صحبته أبو نصر حتى جاء إلى الخانقاه، ووقف أبو نصر نفسه لخدمة الشـيخ، وأنفق كل مايملك من مال وعقار فى سبيله، وظل فى خدمته طيلة إقامته فى نيسابور. ولما رحل الشيخ عنها إلى ميهنه أعطى جبته الصوفية الخضراء للشـيخ أبى نصر الشيروانى(ص ١٤٦) وقال له : ينبغى أن تـكون خليفة لى ، وأن تدق علمى فى ذلك المـكان . فذهب أبو نصر إلى شروان وفق إشارة الشيخ،وبنى زاوية لاتزال قائمه إلى اليوم،وتعرف باسمه ،ووضع خرقة الشيخ فى تلك الزاوية ،وأصبح شيخا وزعيما لصوفية تلك الولاية . ولاتزال خرقة الشيخ باقية فى تلك الزاوية ، وعندما يخرج الناس من المسجد يدخلون إلى الزاوية لزيارة تلك الخرقة. وعندما يظهر قحط أو وباء ،يخرج الأولياء تلك الخرقة إلى الصحراء، ويقومون بالدعاء ، فيكشف الله سبحانه وتعالى بلطفه وعنايته وبركة الشيخ ذلك البلاء عنهم . ويسمى أهل الولاية تلك الخرقة « الترياق الأكبر ». وقد أقيمت فى تلك الولاية أربعمائة زاوية معروفة بفضل بركة الشيخ قدس الله روحه العزيز .

حكاية :

جمعت هذه الحكاية بروايات كثيرة صادقه ، فقد رواها البعض عن السيد أبى طاهر الخاتونى ، والبعض عن السيد حسن بن المؤدب ، وآخرون عن السيد أبى الفتح رحمة الله عليهم ، وهى أنهم كانوا يقيمون السماع يوما فى خانقاه الشيخ فى نيسابور ، وظهر حال للسيد أبى طاهر أثناء السماع ،فتقدم إلى الشيخ ملبيا ،وأحرم للحج. وعندما فرغوا من السماع ،عزم السيد أبو طاهر على السفر إلى الحجاز، وطلب الإذن من الشيخ . فقال الشيخ للجماعة : سنرافقه نحن أيضا . وقال العلماء والمشايخ وماحاجة الشيخ إلى هذا؟ فقال الشيخ: للسعى إلى تلك الجهة .(ص ١٤٧) وصاحب الشيخ كثير من الصوفية . وعندما خرجوا من نيسابور ، قال الشيخ : لو لم نسر ما استطاع أولئك الأعزاء تحمل ذلك الألم . ونظر الجميع إلى بعضهم متسائلين لمن يقول هذا الكلام . ولما وصلوا إلى الحى والمقر ،أخبر رجل الشيخ أبا الحسن الخرقانى قدس الله روحه العزيز أن الشيخ أبا سعيد فى طريقه إليه وسوف يصل غدا ، فسر كثيرا . وكان للشيخ أبى الحسن ولد اسمه أحمد ، يعزه كثيرا . وكان أحمد هذا قد طلب يد فتاة ، وتحدد موعد الزفاف فى الليلة التى يصل فيها الشيخ إلى خرقان. وفجأة قتل أحمد ،وفصلت رأسه عن جسده ،ووضعت على باب صومعة أبيه. وعندما حان وقت الصلاة ،خرج الشيخ أبو الحسن من الصومعة ،فعثرت قدمه برأس ولده . فنادى ابنه ليحضر مصباحا . فأحضرت زوجته المصباح . ورأى الوالد رأس ولده فقال: ياروح أبيك !.. ماذا فعلت !.. وماذا لم تفعل !!؟. وفى الحال أحضر بعض الناس،فغسلوا أحمد، وكفنوه ،وتركوه حتى يصل الشيخ. وتأخر الشيخ . وعند الضحى رأى الشيخ أبو الحسن درويشا قادما فسأله عن الشيخ ، ولماذا

تأخر ؟. فقال الدرويش انهم تأخروا لأنهم ضلوا الطريق أمس وإلا لوصلوا فى نفس الليلة. فصاح فيه الشيخ أبوالحسن قائلا : صه ، إنهم لايضلون الطريق ، بل كانت هناك بقعة محرومة من السعادة ، ظمأى إلى أقدامهم ،فتضرعت إلى الله أن ابعث إلىّ بأقدام الحبيب ،حتى أفخر بذلك غدا على جميع البقاع. فحقق الله سبحانه وتعالى مطالب تلك البقعة، وأرسل الأعزة ليمسكوا بعنان ذلك العظيم ، ويقودونه (ص ١٤٨) إلى تلك البقعة، لينعموا عليها بحضوره ،وفصلوا رأس ابننا عن جسده فى غيبته . وعنـدما سمع الدرويش ذلك ، عاد وأخبر الشيخ بالأمر . فقال الشيخ « الله أكبر » . وأدرك الدراويش أن ما تفوه به الشيخ على باب نيسابور ، كان إشارة إلى هذه الحادثة .

ولما وصل الشيخ إلى خرقان ، وذهب إلى الخانقاه ، كان هناك مسجد ، وكان الشيخ أبو الحسن فيه ، فنهض وتقدم لملاقاة الشيخ فى منتصف المسجد ، وتعانقا . وقال الشيخ أبو الحسن : لقد كان يلزم لذلك الجرح مثل هذا البلسم ، وكانت روح أحمد تليق قربانا لهـذا المقدم . ثم أمسك الشيخ أبوالحسن بيد الشيخ ليجلس مكانه، فلم يفعل. وجلسا كلاهما فى وسط المسجد. وتحدث الشيخ أبو الحسن إلى الشيخ ، وقرأ المقرئون القرآن ، وبكى الجميع وصرخوا . ثم أعطى أبوالحسن الخرقانى خرقته للمقرئين ، وقال : لقد حان وقت الصلاة ، والأحبة فى انتظار . فأخرجوا النعش،وصلوا عليه،ودفنوا أحمد ،وظهرت الأحوال فى المقبرة . واختلف الصوفية الغرباء مع المقرئين قائلين لقـد أعطانا الخرقة لنمزقها . وأخبر خادم الشيخ أبى الحسن سيده بذلك فقال : سلموا لهم هذه الخرقة وسأعطيكم خرقة أخرى .

وأعدوا مكانا للشيخ أبى سعيد ليختلى فيه. وأخذ الشيخ أبوالحسن يوصى أهل بيته واحدا واحدا (ص ١٤٩) ويقول لهم : إن هـذا الرجل معشوق الحضرة

الإلهية، ومطلع على الصدور، فاحترسوا حتى لا تحدثوا فضيحة. وظل الشيخ أبو سعيد فى هذه المرة ثلاثة أيام عند الشيخ أبى الحسن لم يعقد خلالها مجلسا قط. وكان أبو الحسن يعرض عليه أن يتحدث فيقول له: لقد أُحضرنا لنسمع فتحدث أنت. وقال أبو الحسن للشيخ: أنت من أحتاج إليه. ولقد طلبت من الله تعالى أن ابعث إلىّ واحداً من أحبائك، حتى أفضى إليه بأسرارك. ولما كنت شيخاً ضعيفاً لا أستطيع القدوم إليك، وكنت أنت قوياً عزيزاً، فقد أرسلوك إلينا، ولم يتركوك تذهب إلى مكة، فأنت أعز من أن يبعثوا بك إلى هناك، وأحضروا لك الكعبة هنا لكى تطوف بها.

وكانت أم أبى طاهر ترافق الشيخ فى هذا السفر، وقد ذكرت أن الشيخ أبا الحسن كان يأتى كل صباح إلى باب المنزل، ويسلم عليها، ويقول لها: خذى حذرك فأنت تتحدثين إلى من اختاره الحق، لم تبق هنا بشرية ولا نفس، هنا الحق، هنا الحق. وكان يأتى فى منتصف النهار إلى خلوة الشيخ، ويرفع الستار ويقول: هل تأذن لى بالدخول؟. فكان الشيخ أبو سعيد يقول له ادخل. وكان أبو الحسن يقسم على الشيخ أن يظل كما هو، ثم يدخل ويجلس على ركبتيه بين يديه، ويقول له: إنى أشعر بآلام يعجز الأنبياء عن تحملها، وإذا أطلقت نفسا واحدا منها، لما استطاعت السماء والأرض أن تحتمله. ثم يضع رأسه على وسادة أبى سعيد ويقول كلاما خافتا ويبكيان معا. وكان الشيخ أبو الحسن يضع يده تحت ثوب الشيخ ثم يضعها على صدره وهو يقول: اننى أنزل يدى بما بقى من نور.

(ص ١٥٠) وذات يوم جاء قاضى تلك الناحية لتعزية الشيخ أبى الحسن، وكان الشيخ أبو سعيد هناك فقال: فلأذهب وأسلم عليه. وقال له الشيخ أبو الحسن

اذهب وكن على حذر . فذهب القاضى، وسلم على الشيخ،ورآه جالسا بين أربع وسائد مثل السلطان ،وقد جلس درويش عند قدميه واحتضنهما ، وأخذ يدلكهما. فقال القاضى لنفسه : أين يوجد الفقر هنا ؟ وكيف يمكن أن يكون هذا الرجل من الفقراء مع مثل هذه النعم ؟ إنه ملك وليس بصوفى أو درويش . وعندما جال هذا الخاطر فى نفسه ،رفع الشيخ رأسه عن الوسادة وقال : أيها الفاضل ، من كان فى مشاهدة الحق هل يقع عليه اسم الفقر ؟ . فصرخ القاضى صرخة ، وفقد الوعى ، فأخرجوه . وقال له أبو الحسن : لقد قلت لك احذر لأنك لن تقوى على نظرته . فقال الرجل : لقد تبت ، ثم فقد الوعى مرة أخرى ، وظل هكذا يوما وليلة . وبعد ذلك دخل الشيخ أبو الحسن على الشيخ أبى سعيد وقال له : أيها الشيخ ، لقد نظرت إلى القاضى نظرة هيبة ،فانظر إليه نظرة رحمة حتى يفيق. فأجابه الشيخ إلى طلبه ، وتلطف إلى القاضى قبل أن ينصرف .

وقال الشيخ أبو الحسن للشيخ: إننا نرى الكعبة تطوف حولك كل ليلة،ولست فى حاجة إلى الذهاب إليها ، فعدلأنك أحضرت لكى تدركنا . ولقد حججت الآن وعبرت بادية هموم أبى الحسن ، وسمعت تلبية ضراعته ، وذهبت إلى عرفات ورأيت رجم نفسه ، وقدم أبو الحسن القربان لجمالك ، وصليت على يوسفه ، وسمعت تأوهات أحزان المحترقين ، فعد لأنك لو لم تفعل ذلك لما بقى أبو الحسن ، فأنت معشوق العالم . وقال الشيخ : سنذهب إلى بسطام ونقوم بالزيارة ثم نعود . فقال أبو الحسن : لقد قمت بالحج ، وسوف تقوم بالعمرة . (ص ١٥١)

وذهب أبو سعيد بعد ثلاثة أيام إلى بسطام . وعندما وصل إليها وجد مرتفعا يمكن رؤية قبر بايزيد البسطامى قدس الله روحه العزيز من فوقه . ولما وقعت عين الشيخ على القبر توقف ، وطأطأ رأسه ساعة ، ثم رفعها

وقال : كل من فقد شيئا يعطى له هنا . ثم زار بسطام . ويقول حسن بن المؤدب: عندما وقف الشيخ على قبر بايزيد كنت واقفا خلفه ، فطأطأ رأسه ساعة أمام القبر ثم رفعها وقال : هنا مكان الأطهار لا مكان الأشرار .

وأقام الشيخ فى بسطام يوما وليلة ، ورجع من هناك إلى دامغان ، وظل فيها ثلاثة أيام ، ثم أخذوا أهبة الطريق . وكان فى خدمة الشيخ مائة رجل أقاموا فى رباط حتى رحلوا عن هذه الناحية ، كما كان معه أيضاً كثير من الشيوخ . وبعد أن قضوا صلاة العصر ، أقاموا السماع حتى الليل ، وكان القوال ينشد هذه الرباعية :

لقد انبعث صوت ، تأمله . . إنه صوت حبيبى
فأنا أعرف من الذى يتألم لألمى
ها هو وعلى وجهه ثلاثمائة وردة حمراء
وسوف أقطفها لأن قطاف الورد صناعتى

وكان للشيخ جوادان يركب أحدهما ويحمل متاعه على الآخر ، فأرسل للقوال يقول له لك أحد الجوادين . وعندما أدوا صلاة العشاء طلب الشيخ الجواد وقال للسيد أبى طاهر : ادع الصوفيـة إلى « صلوة » ، وهى قرية بجوار خراسان . وركب الشيخ وقال للصوفيه : اتبعونا غدا . وذهب هو وحسن بن المؤدب فى صحبته (ص ١٥٢) ومعهما صاحب الركاب ودرويشان . ولما وصلوا إلى بوابة المدينة وجدوها مغلقة . وكان المفتاح فى قصر أمير المدينة ، وقال لهم الحارس يلزم جواز المرور وإحضار المفتاح من قصر الأمير . ولم يكد الشيخ يسمع ذلك حتى صاح فى حسن بن المؤدب قائلا: إنزع القفل . ونزع حسن القفل ، فسقط طرفه ، وفتحت البوابة، وخرجوا . ولما وصلوا إلى الصحراء، كان القمر لا يزال مختفيا، والظلام سائدا.

قال حسن بن المؤدب : وكان الخوف يملأ قلبي فقال الشيخ : ياحسن ، قل شيئا فقلت هذه الأبيات :

« شعر عربى »

وعد البدر لى بالزيارة ليلا   فإذا ما وفى قضيت نذورى

قلت ياسيدى ولم تؤثر الليـ   ـل على بهجة النهار المنير

قال لا أستطيع تغيير رسمى   هكذا الرسم فى طلوع البدور

فاندمج الشيخ فى السماع ،وأخذ يصرخ حتى مضت ساعة من الليل ، ثم هدأ، وطاب الطعام. لم يكن معنا شيء . وبدت قلعة من بعيد فقلت : لأذهب وأحضر بعض الطعام . وذهبت وطرقت باب القلعة. وجاء رجل إلى السوروقال:ماذاتريد؟ فقلت:هل من طعام ؟ فربط ثلاثة أرغفة فى شال عمامة وأدلاها، فأخذتها وأسرعت حتى لحقت بالشيخ ،فقال: ماذا أحضرت؟ فقلت : أحضرت هذا ، وكسرت رغيفا وأعطيته كسرة منه ،فأخذ لقمات ثلاث وأكلها وقال : دع الباقى لك . وعندما بلغ الليل منتصفه قال: لننم ساعة . فقلت : الأمر للشيخ .

وانتحينا ناحية من الطريق(ص ١٥٣) ونزل الشيخ عن جواده.ولم يكن مع أحدناسجادةصلاةلينام عليها،فسحبناغطاءالسرج، وألقيناه على الأرض،فوضع الشيخ كتفه عليه ،ووضع رأسه على حجرى ، وقدمه على ذيل الدرويش ، واستراح بعض الوقت. ثم طلع النهارفذهبنا إلى قرية ونزلنا فى قصر كبيرها . وقال الشيخ:قل لكبير القرية سيصل ضيوف الليلة . وحانت صلاة العشاء ، ووصل الدراويش.وكان كبير القرية قد أعدلهم وليمة فاخرة ،وأمضوا الليلة فى ذلك المكان .ولم يقل الشيخ شيئا سوى هذه العبارة: «لقد تعبتم وتألمتم» . وفى اليوم التالى أدوا الصلاة ، وفرغوا من

الأوراد ، ثم طلعت الشمس ، فجلس الشيخ والجميع بين يديه ، والتفت إلى السيد أبي طاهر وقال له: لقد جئنا معك حتى هنا ، وقد تم مرادنا ، وان نسعى أبعد من هذا ، فما رغبتك؟. قال السيد أبو طاهر: مادام مراد الشيخ قد تم فقد تم مرادى أيضا.

وأخذ الشيخ يسأل الجماعة واحدا واحدا قائلا: من يريد الذهاب من هنا؟ ومن يريد العودة معنا ؟. ولم يكن هناك حرج على أحد فكان كل واحد يقول مايريد . ثم قال الشيخ لمن أراد الذهاب إلى مكة : البسوا نعال مرتفعة ، وأعد لهم معدات الطريق ، وسيرهم مسرورين .

ودعا الشيخ كبير القرية وقال له: نريد مكانا طيبا . وكان له بستان جميل فأقام فيه مأدبة دعا إليها الشيخ والصوفيه ، وأمضوا اليوم هناك فى بهجة ، وفى اليوم التالى رحلوا عنه . واجتازوا قريتين يقال لهما « ارزيان » و « نوشاد » ليصلوا إلى صحراء « سبزوار » لأن الشيخ كان قد اعتزم ألا يعرج على « بسطام » و « خرقان » فى عودته . وعند القرية الثانية استأجروا الدواب ، ودفعوا بعض الأجر ، وأعدوا معدات السفر على أنهم سوف يقضون أربعة أيام أو خمسة فى الصحراء ، (ص ١٥٤) وكان مع الشيخ جمع كبير .

وعلم الشيخ أبو الحسن بعودة الشيخ ، ولما كان يخشى ألا يمر بخرقان ، فقد أرسل إليه ثلاثة من الدراويش ، وصلوا هذه القرية عند صلاة العشاء .

وكان الإتفاق قد تم على أن تأتى الدواب فى وقت السحر ، ويسيروا إلى الصحراء ، ونام الدراويش جميعا على هذه النية . وفى الليل ، سمع حسن طرقا منخفضا . وفتح الباب ، فرأى الدراويش الثلاثة ، فرحب بهم وأجلسهم . وسأل الشيخ : من الطارق ؟ فأجاب حسن: دراويش خرقان . فقال : ماذا يقولون ؟ قال حسن : لم أسألهم . فقال الشيخ: أحضر ضوءا . فأشعل حسن شمعة ووضعها أمام الشيخ

وقال له الشيخ : ادعهم . فتقدم الدراويش وسلموا عليه ، وأبلغوه سلام الشيخ أبي الحسن . فقال الشيخ : وعليه منا السلام ، ثم قال : بم يأمر الشيخ ؟. قالوا : لقد أقسم أنك لن تسافر حتى تراه .فقال الشيخ أبو سعيد : سأنفذ أمره . ثم قال لحسن : أعطهم شيئا ليأكلوا فقدجاءوا من بعيد ، وبعث باثنين منهم ليطمئنا الشيخ ، واستبق واحد ليذهب معنا .وإذا حضر أصحاب الدواب فى الليل،فاعتذر لهم وأعطهم الأجولة. فقال حسن :لقد جاءوا ، وأعطيتهم الأجولة،ولم أطاب منهم الأجر، وتركت لهم نفقات الطريق فى الأجولة ؛ لأن الشيخ لم يأمرنى بشىء فى هذا الأمر . وكان الصوفية يجهلون ماحدث ، ويظنون أنهم سائرون إلى الصحراء فى اليوم التالى .

وتوجه الشيخ إلى بسطام وخرقان ، وجاء فارس فاضل من بسطام ، فركب الشيخ معه. وكان مسرورا جداً فى ذلك اليوم، وأخذ ينشد الشعر العربى . وقد ذكر ذلك الفارس أنه قد جرى على لسان الشيخ فى ذلك اليوم(ص ١٥٥) أكثر من ألفى بيت .

وفى الطريق تشاجر الدراويش مع حسن وقالوا له : هل تركت لاصحاب الدواب الأجر أيضاً ؟. فقال حسن: نعم ، لأن الشيخ لم يأمرنى بشىء فى هذا الأمر. وظلوا يجادلون فى هذا حتى مر بهم الشيخ ،فسألهم: ماذا حدث؟ . فقال حسن: إن الدراويش يقولون لماذا اعتذرت إلى أصحاب الدواب مادمت قد تركت لهم الأجر والنفقات. فقال لهم الشيخ: كان يجب الاعتذار إليهم،لأن الله تعالى كان قد أظهر لهم فضلا ولكن هذا الفضل لم يتم، إذ كانوا يريدون أن يصحبوكم،ويسيرون معكم، فلما لم تتم لهم هذه النعمة ،أصبح كل ماسوى ذلك لاقيمة له ، فكان لابد من الاعتذار إليهم. وكان الشيخ مسروراً جداً طوال اليوم الذى توجه فيه إلى بسطام وقال : « كل من أضاع وقته فى القدوم إلى هذا المكان وأراد به وجه الله فإن الله تعالى يثيبه

عليه . وزار الشيخ بسطام ، ثم توجه إلى خرقان ، وأقام عند أبي الحسن يومين أو ثلاثة . وذات مرة سأل الشيخ أبو الحسن الشيخ أباسعيد : هل هنـاك عروس لولايتـكم ؟. فقال الشيخ : نعم ، وهناك كثير من النظارة لهـذه العروس لأنهـا أطهر عروس ، ولـكن بين هؤلاء النظـارة عرش يتجلى فيـه واحد فقط . وصرخ الشيخ أبو الحسن وقال: لقد كان كسرى يرى جميع أحواله فى كأس الوهم.

وذات يوم كان الشيخ أبو الحسن والشيخ أبو سعيد قد جلسا معـا ومعهما جماعة من العظماء فالتفت إليهم الشيخ أبو الحسن وقال : فى يوم القيامة يحضرون جميع العظماء ،ويضعون لـكل واحد مقعدا تحت العرش،(ص ١٥٦) ويسمع نداء ينقل للناس كلام الله سبحانه وتعالى . ويضعون مقعداً للشيخ أبى سعيد حتى يسمع الله ، ويتحدث إليه دون واسطة .

وبعد أن مضت ثلاثة أيام طلب الشيخ أبو سعيد الإذن بالرحيل فى اليوم الرابع ، فقال الشيخ أبو الحسن : اذهبوا من طريق « جناشك » لأن هذا الطريق به بعض القرى ، فيـكون ذلك أيسر على الدراويش . وبعث ثلاثين درويشا ليقوموا بخدمة الشيخ حتى يصل إلى نيسابور ، وليحدثوه عن أحوال الشيخ فى كل منزل . وخرج الناس وأبناء الشيخ أبو الحسن دفعـة واحدة لتوديع الشيخ . وفى وقت الوداع قال الشيخ أبو الحسن للشيخ أبى سعيـد : إن طريقك على البسط والفتح ، وطريقى على القبض والحزن ، فاهنأ الآن وعش سعيدا، ولنحتمل نحن الآلام والهموم ،فـكل منا يقوم بمهمته. ثم أرسل الشيخ أبو الحسن من الرجال بقـدر مايستطيع فى صحبة الشيخ ، ليعودوا إليه بأخباره فى كل منزل ينزل به حتى « جاجرم » .

وفى اليوم التالى لرحيل الشيخ، كانوا ينظفون المكان فى زاوية أبى الحسن ،

ويرفعون الأغطية ، فوجدوا فى المكان الذى كانت به زاوية حسن بن المؤدب ورقة مطوية تحت الفراش ،وفيها شىء . فحملوها إلى الشيخ أبى الحسن قائلين : لقد وجدنا هذه فى ذلك المكان . فسألهم : ماذابها ؟ قالوا: لا نعرف . فقال لهم انظروا إليه . فوجدوه ذهبا . فسألهم : فى زاوية من وجد هذا ؟. قالوا : فى زاوية حسن بن المؤدب خادم الشيخ أبى سعيد . فقال: زنوه ، فلما وزنوه وجدوه عشرين دينارا . فقال لهم ، قدروه جيداً لنعرف مقدار الدين . فوزنوه ثانية فوجدوه عشرين دينارا . فقال الشيخ أبو الحسن : لننفقه فإن ماله مالنا، ومالنا ما له .

ورأى أبو سعيد قرية فى الطريق، فنزلوا بها. وذهب الشيخ إلى الحمام ، وكان من عادته عندما يذهب (ص ١٥٧) إلى الحمام أن يأمر للحارس بشىء ، وكان حسن يحتفظ معه ببعض النقود لهذا الأمر . ولما أراد إعداد النقود ، لم يجد تلك الورقة التى تركها فى خرقان ، فاستولى عليه الاضطراب . ولما رأى الشيخ ذلك سأله عما حدث ، فأخبره بالأمر . فقال الشيخ : حيثما أنفق هذا المال فقد أنفق من أجلنا . وفى اليوم التالى وصل الخبر من خرقان عما وجدوه هناك،وماقاله الشيخ أبو الحسن بشأن ذلك، فقال الشيخ أبو سعيد: إن الأمر كما يقول الشيخ أبو الحسن .

وظل مريدو الشيخ أبى الحسن فى خدمة الشيخ أبى سعيد حتى جاجرم كما أمرهم شيخهم . ولما وصلوا إليها أعادهم الشيخ أبو سعيد وقال لهم:سنذهب من هنا إلى نيسابور ، فبلغوا سلامنا للشيخ ، واطلبوا إليه أن يذكرنا .

وعندما وصل الشيخ أبو سعيد إلى ولاية «كورونى» صادفتهم قرية ، فأرادت الجماعة أن ينزلوا بها ، فسأل الشيخ: ما اسم هذه القرية ؟. قيل : « كلف » . فقال الشيخ : لا ينبغى النزول بها . ثم ذهبوا إلى قرية أخرى فتسأل الشيخ عن اسمها فقالوا : « دريتد » فقال: لا ينبغى النزول بها . ووصلوا إلى قرية ثالثة فسأل الشيخ

ماذا يسمون هذه القرية؟. قيل: « خداشاد » [1]، فقال: ينبغى أن يكون المولى مسرورا، ونزلوا فى ذلك المكان . وكانت هناك خانقاه خالية ، فتقدم خادمها واستقبلهم كما هى العادة، وقام على خدمتهم،وذبح لهم الخراف،وقال: سأشوى لكم الكبد أولا حتى ينضج الطعام. وأعدت المائدة . وقال الشيخ: ينبغى أ كل الكبد أولا . (ص ١٥٨) وعندما قال الشيخ هذا الكلام ، عظمه الخادموقال:أبقى الله الشيخ ، فلقد قطعت القلب مع الكبد . فسر الشيخ وقال: إذا قطع القلب يكون طيبا ، فأبو سعيد يطلب القلب . وأمضوا اليوم هناك ، وفى اليوم التالى قصدوا نيسابور .

وعندما وصلوا نيسابور ، كان بعض الصوفية يقولون : منذ رحل الشيخ إلى خرقان انقطعت أحاديثه ومقالاته وأحواله .

وكانوا يقولون ذلك الكلام ، لأنه عندما ذهب الشيخ إلى خرقان لم يتحدث قط، بسبب أن الشيخ أبا الحسن كان قد قال له : أنت من احتاج إليه ، وقد دعوت الله تعالى أن ابعث إلىّ واحدا من أحبابك أحدثه بأسرارك ، فلما بعث شيخنا لهذا الأمر ، تخلى عن الحديث. والدليل على هذا أنه حينما وجد الشيخ أبو الحسن ، كان شيخنا يرفض الحديث ، ويقول له : تحدث أنت ، فقد أحضرنا لنستمع .

ولما لم يكن الدراويش مطلعين على هذا الأمر ، فقد كانوا يقولون هكذا . ولما علم الشيخ بمقالة الدراويش قال : « اشتاقت تلك التربة إلينا ، فلما التقينا فنينا فى تلك التربة » . وقد قال الشيخ هذا القول رداً على ذلك الاعتراض.وفى الحقيقة أنه عندما تتأمل هذا القول يتضح لنا ذلك .

هذا ما وصلنا عن ذهاب الشيخ إلىخرقان ، وعودته إلى مدينة نيسابور .

---

(١) « سرور المولى »

حـكاية :

قال السيد الشيخ أبو الفتح رحمة الله عليه إن مجيء الشيخ من نيسابور إلى ميهنه آخر مرة ، كان بسبب أن اثنين من مريديه اختصما . (ص ١٥٩) وكان من عادة الشيخ أن يصمت إذا تشاجر اثنان، حتى يخرجنا مايصدر بهما، ثم يتحدث ويصلح بينهما ، ويتم الصلح بما يقول .

وكان أبناء الشيخ وأحفاده جميعا معه في نيسابور منـذ أمد بعيد . وكانوا يبدون الرغبة في الذهاب إلى ميهنه . فلما وقع النزاع بين الدرويشين، واصلح الشيخ بينهما ،قال لأبي طاهر : انهض وهيء شئون الصغار لنذهب إلى ميهنه ، فقد ضاق صدري . فنهض أبو طاهر واقترض قرضا كبيرا ،وهيأ جميع الأمور،وأعد أربعين حمارا وأربعين رحلا لاربعين درويش ، بحيث يتعهد كل درويش رحلا ، ويحافظ عليه . وكلف ثمانيـة من الدراويش باستطلاع الطريق . وأمدهم أهل نيسابور بالـكثير ، طامعين في أن يتمتعوا برؤية الشيخ أكثر بعد أن يذهب ابناؤه ، وتقل مشاغله .

وفي اليوم الذي سير الشيخ فيه أبناءه ، ركب هو جوادا ،ووضع على ظهره عباءة، وفوق رأسه مزدوجة ، وتقدمهم إلى بوابة « شوخنان » ، ووقف هناك حتى مرت جميع الركائب أمامه واحدة بعد الآخرى. وأخذ يسأل عن صاحب كل رحل، ويوصيه بالحذر، حتى استعرضهم جميعا.وكان آخر شخص مر أمامه هو السيد أبو الفتح .

قال السيد أبو الفتح : كنت حينئذ في الثامنة عشر ، وجئت بين يدى الشيخ فسألني : أين دابتك ؟(ص ١٦٠)فقلت سأذهب مترجلا . فقال الشيخ: بلغ سلامنا لو الدتك، وقل لها أكرمي الاولاد ، وسوف نـكون معـكم بعد أربعين يوما إن شاء الله . فقبلت أقدام الشيخ ومضيت . قال السيد أبو الفتح : لقد شهدت بنفسي

هذا الجزء من القصة حتى هذه المرحلة . ولما جاء الشيخ إلى ميهنه ، سمعت بقيتها من خواص خدمه .وقال السيد أبو الفتح : لم يأت معنا والدى السيد أبو طاهر ، ورجع مع الشيخ من مكان الوداع ، وذهبا إلى مدينة نيسابور .

وعندما وصل الشيخ إلى الخانقاه ، لم يتحدث فى المجلس فى ذلك اليوم ؛ لأن الوقت لم يكن مناسبا . وفى اليوم التالى أخذ مكانه فى المجلس ،وكان من عادة أبناء الشيخ أن يجلسوا على يمينه فوق المنبر ، كما كان من عادة الشيخ أن يخرج من زوايته مع طلوع الشمس . وفى هذا اليوم خرج الشيخ ، ووقعت عينه على مكان أبنائه فقال : أبناؤنا ، أكبادنا، لا أستطيع النظر إلى مكانهم خاليا منهم . وكان أبو طاهر قد اقترض قرضا، فقال له الشيخ : يجب أن تعمل على رد القرض لنلحق بهم.وعندما تفوه الشيخ بهذا ،ضاق صدر المريدين ،وكذلك أهل نيسابور، إذ كانوا لا يودون فراق الشيخ . وبعد ذلك قضى الدين،وأخذوا أهبة الطريق،ودفع الشيخ القروض فى الموعد الذى كان قد حدده من قبل ، واستقامت الأمور .

وعندما هيأ الشيخ جميع الامتعة ، واستقر عزمه على الذهاب ، جاء عظماء نيسابور وأئمتها ودراويشها ليتوسلوا إليه أن يبقى بينهم دون جدوى .

ولما آن موعد الرحيل ، أقبل الشيخ محمد الجوينى والاستاذ (ص ١٦١) الامام اسماعيل الصابونى للشفاعة. ووصل الاثنان إلى باب الخانقاه، وأخذ كل منهما يطلب إلى الآخر أن يتقدم أولا ، وفى النهاية أمسكا ببعضهما ودخلا معا. وكان الشيخ قد جلس فى مواجهة الباب، ولما دخلا وسلما عليه، أجلس أحدهما عن يمينه، والآخر عن يساره،وقرب الثلاثة رؤوسهم بعضها إلى بعض،وأسروا بينهم بعض الحديث. ولم يعرف أحد قط ماذا دار بينهم ، وتحدثا كثيرا، وتشفعا كثيرا لعل الشيخ يعدل عن رأيه ويؤجل السفر، فلم يقبل الشيخ . وبعد أن طال

الحديث قال الشيخ : حقا إن هنا كثيرين يحتاجون إلينا، وهناك أيضا كثيرون، وقد سلمت نفسي هنا حتى فاضت اليد بالخير .فقالا : أيها الشيخ إن ميهنه قرية صغيرة جدا ، وقد قصرنا فى حقك . فقال الشيخ : أنا الذى قصرت فى حقكما ، فخجلا،وأدركا أن الشيخ لايريد البقاء، فودعاه ورجعا .وانجز الشيخ أعماله وذهب.

وكان بجوار الخانقاه دكان،وعندما كانوا يهيئون جواد الشيخ،خرج ووقف على باب الخانقاه ، وقال للدراويش : لقد تركنا هذه البقعة كما وجدناها ،ولم نفعل بها شيئا قط . ثم قال هذا البيت :

— جلس طائر على رأس جبل ثم طار ،
فماذا زاد على الجبل أو نقص منه ؟ !

فقال جميع المريدين : لقد ازدانت هذه البقعة بجمالك ، ووجد الجميع الراحة فى ظلالك،فعين واحدا يتولى أمر الخانقاه ،ليجد الغريب الراحة بها . فقال: افتحوا الخانقاه،وأعدوا كل شيء ، ومن أتاه رزق منكم فليحمله معه . أنا لم اترك لكم شيئا معلوما ، والله تعالى يرزقكم بكل ماتحتاجون إليه .

وكان الأمر كما قال الشيخ، فلم يكن لهذه الخانقاه رزق معلوم قط . ومع ذلك فقد كان روادها أكثر دائما من الخانقاهات (ص ١٦٢)الأخرى فى نيسابور، وكانت عامرة دائما ، وأكثر بركة وفتوحا من جميع الخانقاهات ، بفضل انفاس الشيخ وهمته المباركة . وظلت هكذا حتى غزا الغز مدينة نيسابور فخربوها .

وعندما ساق الشيخ جواده، وسار مسافة ، قال لدرويش كان يسير فى ركابه :

هناك هيكل فوق الخانقاه فعد وألق به بعيداً . وسمع جميع أئمة نيسابور وشيوخها — الذين كانوا فى وداع الشيخ — منه هذا البيت :

— إن المكان الذى أراك فيه ،
أذهب إليـــه واعتكف بـه .

ثم ودع الشيخ الجميع، وسار صوب « عقبة رشك » . وعثر جواده فى حطام صندوق،فضغطت فخذ الشيخ تحت كتف الجواد وجرح. ففرشواله ثوبا ، وأناموه عليه ، وأمسك أربعة افراد بأطراف الثوب ،وانزلوا الشيخ إلى عقبه ، ووضعوه فى هذا المنزل الوعر . وكان احد الدراويش قادما من مدينة طوس ، فلما رآه الشيخ استدعاه وسأله : من أين جئت ؟ . فقال : من طوس . فقال الشيخ : وإلى اين تذهب ؟ . قال : إلى نيسابور . فقال له : اذهب إلى زاوية الصوفية ؛ وبلغ الدراويش سلامنا ، فقد الحوا علينا كثيرا بالبقاء ، وقل لهم إن الجواد قد عثر فى الطريق ولكنه لم يسقطنا ، وأنتم سوف تنسبون إلينا الكرامات . وحملوا الشيخ من عقبة إلىطوس على الايدى أيضا ،لأنه لم يكن يستطيع ركوب الجواد . وكان الأستاذ أبو بكر من ولاة الأمر فى طوس ، فقال لأهل قرية يقال لها « رفيقان » : سأعفيكم من الخراج هذا العام لتصنعوا محفة للشيخ تحمله إلى ميهنه . وصنعوا المحفة ، وحملوا الشيخ فيها إلى ميهنه ، وظل مريضا عدة أيام ثم تماثل للشفاء .

حكاية :

(ص ١٦٣) حكى عن أبى الفضل محمد بن احمد النوقانى أنه قال : كان

الشيخ أبو سعيد قادما من نيسابور إلى ميهنه . وعندما بلغنا الجبل ، كان فى صحبتنا رجل فقال لنفسه : ماهؤلاء الناس الذين يأكلون الكعك والحلوى والأطعمة الطيبة ويزعمون أنهم صوفية . فاطلع الشيخ بكرامته على سر ذلك الرجل. ولكيلا يحدث له شر بسبب ما أضمر فى نفسه من اعتقاد فى حق هذه الطائفة ، أو يتطرق الخلل إلى دينه ، دعاه الشيخ وقال له : اذهب خلف هذا الجبل وزودنا بالأخبار . فنهض الرجل ،وذهب إلى حيث أشار الشيخ، فرأى حية ضخمة ، فخاف وفر عائدا إلى الشيخ ،فسأله: ماذا رأيت ؟. فحدثه الرجل بما رأى . فقال الشيخ : لقد كانت هذه الحية رفيقة لنا سنين طويلة . فخجل الرجل وسقط على أقدام الشيخ ، وتاب عن ذلك القول .

حكاية :

روى أنه عندما كان الشيخ أبو سعيد قادما من نيسابور إلى ميهنه ،نزل بمنزل فى الطريق،وتناول الدراويش شيئا من الطعام ،وناموا . وعندما حان وقت الصلاة، وأذن المؤذن، توضأ الدراويش، وأدوا السنة . وأقام المؤذن الصلاة، فوقف الجميع وانتظموا فى الصفوف،ماعدا درويش كان لايزال نائماً بسبب مشقة الطريق . ولما استيقظ، كان الجميع قد شرعوا فى صلاة الفرض ، فمنعه الخجل من أن يقوم وظل نائما ، وانتظر حتى يتفرق الجمع. وكان هناك لص قد دخل ليسرق شيئا ، ولما رأى الدراويش قد انشغلوا فى الصلاة، وابتعدوا عن أمتعتهم ، ورأى الملابس ملقاة، تقدم (ص ١٦٤) ليسرق منها شيئا . ولما توسط الأمتعة ، كان ذلك الدرويش مستيقظا،فرفع حجرا وقذفه به.فأدرك اللص أن شخصا يراه ،وفر هاربا ، ولم يستطع

أن يسرق شيئا . وكان الجميع يجهلون هذا الأمر ، لأن ظهورهم كانت للأمتعة أثناء الصلاة . وعندما سلموا ،ورأوا الدرويش نائمـاً ،أنـكروا عليه ذلك قائلين: انظروا إلى هذا الذى لم يؤد الصلاة . فقال الشيخ : كان يجب ألا يصلى حتى يحرس ملابسكم إلى أن تنتهى الصلاة . ولم يفهموا قول الشيخ . ولـما اقتربوا من الأمتعه ، واطلعوا على حقيقة الأمر ، أدركوا أن الشيخ قد قال ماقال عن طريق كرامته ، أى أنه كان يقول لهم : لو لم يظل ذلك الدرويش نائمـا لسرق اللص الملابس ، وبقى الجميع دون ثياب . فتابوا عن ذلك الانـكار .

حـكاية :

روى عن جدى شيخ الإسلام أبى سعيد رحمة الله عليه أنه قال : كان الشيخ أبوسعيد يتحدث يوما فى المجلس فقال خلال حديثه « العلماء ورثة الأنبيـاء » وسوف أقول لـكم كلاما بحكم هذا الخبر . ثم قال : فى هذه الساعة يأتى إلى ميهنه رجل يحبـه الله ورسوله ، ويحب الله ورسوله . أى أن كلام المصطفى صلوات الله وسـلامه عليه الذى قاله فى حق أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنـه سنقوله نحن أيضاً بحكم ميراث النبوة . ومرت ساعة وقال الشيخ : يا أباطاهرأنت خادم للدراويش فقم واستقبل يحيانا . فقام السيد أبو طاهر وقام معـه جماعة من الدراويش،وذهبوا للاستقبال . وأقبل درويش من نهاية الحى ، يرتدى ثيابا ملوثة ممزقة . ويحمل على كتفه قربة وكوزا . وكان الشيخ جالسـاً على المنبر . ولـما رأى «يحيى»الوافد من ماوراء النهر الشيخ ، جعل يحييه حتى وصل إلى دكان على باب روضته المقدسة . وكان منبر الشيخ على هذا الدكان ، فلما وصل إليه (ص ١٦٥)

دعاه الشيخ للجلوس ، فجلس.وأخذ الدراويش وجميع أهل المجلس ينظرون إليه فى ذهول . وعندما أنهى الشيخ المجلس قال : ينبغى أن يغتسل . فقادوا يحيى إلى شاطىء النهر ليغتسل ، وأمر الشيخ بإحضار ثوب ليلبسه ، واقام لدى الشيخ ثلاثة أيام . وكان يجلس بين يديه كل يوم، والشيخ ينظر إليه أثناء الحديث ، ويقول كلاما آخر،ويحيى يقوم بتحيته . وفى اليوم الرابع نهض وقال للشيخ : أيها الشيخ إننى أفكر فى المسير ، يعنى الحج ، فقال له الشيخ : على بركة الله ، أبلغ سلامنا لتلك الحضرة . فحيى الشيخ ، ومضى وهو يتراجع إلى الخلف ، حتى لم يعد يرى الشيخ ، فاستقام فى السير.وأشار الشيخ للجميع ولأبنائه أن يخرجوا لوداعه، ففعلوا. وقال السيد أبو بكر المؤدب الذى كان يؤدب أبناء الشيخ ، لقد قال لى الشيخ : إصحب الأبناء ، واجتهد أن تسير معه وتنال تلك السعادة.فأسرعت ولحقت به ، وسرت معه ، وكنت آخر من ودعه ، ثم رجعت . وفى السنة التالية فى نفس الفصل،وفى نفس الموعد،قال الشيخ أثناء المجلس : انهضوا واستقبلوا يحيانا . فخرج السيد أبو طاهر مع الجميع إلى البوابة للاستقبال،فرأوا يحيى آتيا،وعلى كتفه نفس القربة والكوز . وعند ما رأى أبناء الشيخ حياهم ، وجعل يحيى حتى مثل بين يدى الشيخ . وكان الشيخ على منبره فوق الدكان ، فقبل يد الشيخ، وقبل الشيخ رأسه . ولما جلس قال الشيخ : يايحيى ، لايمكن التخلى عن فتوح تلك الحضرة، فحدث الجماعة عنها،وأفدهم . فرفع يحيى رأسه وقال (ص ١٦٦) أيها الشيخ : لقد ذهبنا وسمعنا ورأينا ووجدنا ولم يكن الحبيب هناك . فصرخ الشيخ وقال: قل هذا مرة أخرى . ففعل . وصرخ الشيخ ثانية ، وقال : قل مرة أخرى . فقال يحيى مرة ثالثة . فصرخ الشيخ ثم التفت إلى الجماعة وقال: ليس هناك صدق أعظم من صدق

هذا الرجل فاستمعوا إليه . ثم قال : يايحي لاينبغى أن يكون هذا الفتوح دون شكر ، فليكن شغلنا أن نشكر هذه الليلة ، فأعدوا الزبيب والجزر المقلى وحلوى من الفانيذ المزعفر . فنهض حسن بن المؤدب والسيد أبو طاهر ويحي ثلاثتهم وساروا وهم يفكرون فى أنه من المتعذر أن تتوفر مثل هذه الأشياء بميهنه ، وهناك مايزيد على المائة شخص . قال حسن: عندما وصلنا إلى بداية السوق ، كان هناك شخص يقول لآخر : هاك خادم الشيخ والصوفية الذين تبحث عنهم . فتقدم شاب وسلم علينا ، وقال : كنا قادمين من بوشنج هراة مع قافلة كبيرة، فسطا علينا اصوص ، ونذرت أن أعطى صوفية ميهنه حملا من الزبيب إذا نجوت من أيديهم، فتعالوا وخذوه . فذهبنا معه . وجاء رجل آخر وسلم علينا ، وقال : لقد نذرت أنا أيضا أن أعطى خمسة دنانير ذهبية . فأخذنا الزبيب والفانيذ والذهب ورجعنا . وقابلنا السيد حموية رئيس ميهنه ، وكان مريدا للشيخ ، فسألنا . من أين أتيتم ؟ . فحدثناه بقصة الشكر . فأعطانا هو الآخر مائتى مَنّ (١) من الخبز . وعدنا إلى الشيخ بعد ساعة ، وهيأنا المأدبة وفق ما أشار به ، وعم السرور الجميع . وأقام يحي هناك ثلاثة أيام ، ثم رجع إلى ماوراء النهر .

حكاية :

(ص ١٦٧) كان الشيخ عمرو البشخوانى رجلا عظيما ، على جانب كبير من الفضل ، وقد جاور فى مكة ثلاثين عاما .

قال : طبقا للخبر الذى يقول : « اليد اليمنى لا عالى البدن واليد اليسرى لاسافل البدن » لم تصل يدى اليمنى تحت السرة طيلة ثلاثين عاما ، ولم تصل

(١) وزن يساوى ثلاثة كيلو جرامات .

يدى اليسرى أعلى السرة إلا لسنة . وله أعمال فيها احتياط أمثالها كثيرة .

قال : عندما وصلت شهرة الشيخ أبي سعيد من خراسان إلى مكه ، قال أهل الحرم من المشايخ : ما أحوجنا إلى شخص يخبرنا بأحواله، لنعرف أى رجل هو . ثم قالوا: ينبغى لهذا الأمر رجل ناضج، عالم،متصوف،من ذوى الأحوال. واتفق الجميع على الشيخ أبي عمرو ،ثم طلبوا منه الذهاب إلى ميهنه ،واستطلاع الاخبار عن أحوال الشيخ .

فسار الشيخ أبو عمرو حتى وصل إلى مدينة طوس ،ثم غادرها إلى ميهنه ، وكان قد اغتسل سبع مرات ؛ فقد كان يغتسل من كل خاطر دنيوى يطوف بقلبه . ولما اقترب من ميهنه،كان الوقت ظهرا ،وقد أذن للصلاة . وأدت الجماعة السنة ، وكان المؤذن ينتظر إشارة الشيخ ليقيم الصلاة . وقال الشيخ للمؤذن : هناك شخص قادم فانتظر لنعرف من أين ، وإلى أين ، وليدرك صلاة الجماعة .

وكان الشيخ عمروقد خلع نعليه حين صار على بعد فرسخ من ميهنه. فقال الشيخ لأبنائه : اخلعوا نعالكم ، واذهبوا لتستقبلوا شخصا لم يصل إلى ميهنه من هو أعز منه . فخرج الدراويش وأبناء الشيخ لاستقباله .

ودخل الشيخ أبو عمرو ، وصلى السنة ، وحيى الشيخ ،وقضيت الصلاة جماعة . واختلى الشيخ به ثلاثة أيام وليالى ، وتحدثا كثيرا . وبعد ذلك (ص ١٦٨) استأذن الشيخ أبو عمرو فى العودة، فقال له الشيخ: ينبغى أن تذهب إلى بشخوان ، وتكون نائبا لنا فى هذه الولاية. فرجع أبو عمرو إلى بشخوان عملا بإشارة الشيخ. وعندما حان وقت الوداع ،أعطاه الشيخ ثلاثا من الخلال،كان قد قلمها بنفسه، وقال له : إذا أرادوا أن يبتاعوا منك واحدا من هذه الخلال الثلاث بعشرة دنانير فلا تبعه ، وإذا طلبوه بعشرين دينار فلاا تبعه أيضا ، وإذا أرادوه بثلاثين دينارا ،

وهنا أمسك الشيخ . وودع الشيخ أبو عمرو الشيخ أبا سعيد ورحل . ولما وصل بشخوان نزل فى الخانقاه — وحيث توجد الآن خانقاته كانت هناك حجرة جعلوها خانقاها — وتقرب إليه أهل بشخوان ونسا . وكان يقيم فى كل خميس خاتمة فى هذه الخانقاه ، وكان مريدوه وأهل القرية يتجمعوا هناك ، كما كان جميع المعارف من القرى القريبة من بشخوان يظهرون له محبتهم. وقد ألفوا حين تنتهى الخاتمة ، أن يطلب أبو عمرو كوزا من الماء ، ويغسل فيه واحدا من الخلال التى أعطاها له الشيخ. وكانوا يحملون ذلك الماء إلى مرضى الولاية ،فيمن الله تعالى عليهم بالشفاء ببركة هذين الشيخين .

وفى ذلك الحين كان فى بشخوان رئيس مصاب بمرض القولون . وذات ليلة آلم ذلك الداء رئيس بشخوان ولم يهدأ الالم ، فجاء شخص إلى الشيخ أبى عمرو وقال له : يقال إن لديك خلالا تغسله ، فيجد المرضى فى مائة الشفاء، فاعطنى قليلا منه لاحمله إلى الرئيس . فبعث إليه الشيخ أبو عمر بقدر من الماء، ولما شربه وجد الشفاء. وفى اليوم التالى ذهب الرئيس إلى الشيخ أبى عمرو وقال له : من المعروف أن لديك ثلاثا من الخلال (ص ١٦٩) فبعنى واحدا . فقال الشيخ : بكم تشتريه ؟ . فقال الرئيس : بعشرة دنانير . فاجاب : إنه يساوى أكثر. فقال: بعشرين ديناراً. فقال لا أبيع. فقال: بثلاثين ديناراً. فقال إنه يساوى أكثر . فصمت رئيس ميهنه ولم يزد على ذلك . فقال الشيخ أبو عمرو : لقد توقف شيخنا ابو سعيد عند هذا. وأخذ منه الثلاثين دينارا ، وهدم تلك الحجرة، وبنى بذلك المبلغ الخانقاه الموجودة الآن . وظل الرئيس يحتفظ بالخلال طيلة حياته. ولما أشرف على الوفاة ،أوصى بأن يكسروا ذلك الخلال ،ويضعوه فى فمه ويدفنوه به . أما الخلالان الآخران اللذان كانا فى حيازة الشيخ ابى عمرو فقد

أوصى عند وفاته بأن يدفنوهما معه ، فدفنا مع الشيخ أبى عمرو فى قبره المبارك تنفيذا لوصيته .

حكاية :

كان السيد أبو القاسم الزراد من مريدى الشيخ ، وقد قام بكثير من الاسفار والرياضات . قال : خرجنا من الكوفة قاصدين الحجاز مع جماعة من الصوفية . وعندما خرجنا قال البعض : نسير على التجرد . وقال البعض الآخر : نسير على التوكل . وقلت لنفسى : يا أبا القاسم كن يقظا وسر كما تريد . وعزمت على ان ارجع كل خطوة لأخطوها على اليقظة ، وتركت البادية على هذا العزم . ولما عدت، قضيت الليل واقفا فى مسجد الشيخ،وكنت أؤدى الصلاة خلفه ، بحيث اضع وجهى وراء قدميه. وحينما اقبل الليل، توضأت ، فألفيت نورا فى باطنى ، وسررت لذلك سرورا عظيما . وفى وقت السحر توضأت مرة ثانية ، وتضاعف ذلك النور ، فازددت سرورا، وقلت لنفسى : لقد وجدت ما كنت أبحث عنه . وعند الفجر خرج الشيخ من الخانقاه ،فتقدمت إليه على نية (ص ١٧٠ ان أحدثه بما حدث لى فى الفجر ،فقال : هل تقول أم نقول نحن ؟ . قلت : ليتفضل الشيخ فقال : ليس ذلك الشيء هو الذى يرون به الطريق ، إنما هو من بركة الوضوء ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « الوضوء على الوضوء نور » فذلك هو نور الوضوء فلا تغتر. فعدت إلى وعي ، وتبت عن ذلك التفكير .

حكاية :

عندما خرج آل سلجوق من نور بخارى،وجاءوا إلى خراسان ، واستقروا فى باورد وميهنه، تجمع حولهم كثير من الناس، واستولوا على اكثر خراسان، بسبب

غفلة مسعود، سلطان ذلك العهد، عن الملك، وانشغاله بالملذات والمفاسد.

وتلك قصة مشهورة، وليس غرضنا ذكرها، وإنما الغرض هو ذكر شيخنا، لأن في شرح هذه القصة طولا للكتاب، وبعداً عن الغرض.

وأرسل السلطان مسعود إليهم رسولا يتهددهم، فكتبوا له رسالة يقولون فيها إن الأمر لله وهو يفعل ما يريد. وعرف الشيخ ذلك بكرامته. ولما جاء الاخوان جفرى وطغرل لزيارة الشيخ فى ميهنه، وكان جالسا مع جماعة من الصوفية فى روضته، تقدما إلى منبره، وسلما عليه، وقبلا يده، ووقفا بين يديه. فأحنى الشيخ رأسه إلى الأمام لحظة ثم رفعها وقال لجفرى: لقد منحناك ملك خراسان، ومنحنا طغرل ملك العراق. فحياه الاثنان ورجعا. وبعد ذلك قاد السلطان مسعود جيشه وذهب لقتالهما. وحين وصل إلى ميهنه، أقام على باب القلعة. وذهب الشيخ والناس (ص ١٧١) إلى القلعة. وكان فى ميهنه خلق كثير بحيث علق البائع أربعين ميزانا فى رباط القوافل. كما كان بالقلعة واحد وأربعون رجلا من مهرة الرماة الذين يصيبون الهدف دائما، ولا يخطئون قط، فأهلكوا وجرحوا كثيرا مشاهير جيش السلطان.

قال حسن بن المؤدب: ذات ليلة بعد أن أدينا صلاه العشاء، قال لى الشيخ: اذهب إلى « بادنه »، وهى قرية صغيرة على بعد فرسخين من ميهنه، وبلغ سلامنا إلى السيدة العجوز « فلانة »، وقل لها ابعثى بذلك القدر من الزيت الذى تحتفظين به لنا.

قال حسن: فأنزلونى عن حائط القلعة بحبل، وتسللت من بين — العدو — بحيث لم يرنى أحد. وذهبت إلى بادنه، وأحضرت الزيت. وفى وقت السحر عدت إلى أسفل القلعة، ورفعونى إليها بحبل، وذهبت بالزيت إلى الشيخ. وصلى الشيخ الفجر

ثم خرج وجلس على مقعد ،وأمر بأن توضع المواقد فى وسط القلعة. ووضعت الآنية فوقها ،وصبوا فى كل أناء جزءا من الزيت . وأخذ الزيت يغلى دون أن يعرف أحد ما غرض الشيخ من ذلك.وظل القتال مستمرا، ثم عرض الصلح ، وقبله الفريقان. وخرج رئيس ميهنه من القلعة ، فأنعم عليه السلطان . ثم دخل الرئيس ، وأخرج الرماة الواحد والاربعين من القلعة ، وأصدر السلطان أمره بقطع اليد اليمنى لكل منهم . فكانوا يتقدمون ، ويضعون أيديهم المقطوعة فى الزيت المغلى ، والشيخ يبكى ويقول : لقد قطع مسعود يد ملكه . وبعد أن أصدر السلطان أمره بهذا العقاب رحل إلى مرو . وعلم آل سلجوق بمجيئه إليها ، فذهبوا إلى هناك ، (ص ١٧٢) وقاتلوه وانتصروا عليه ، وبذلك انتقل الملك من أسرة مسعود إلى آل سلجوق . وجلس جغرى على العرش فى خراسان ، وملك طغرل العراق على نحو ماقال الشيخ .

وقد جرى على لسان الشيخ فى مجلس من المجالس قوله : جاء الأمير طغرل إلى ميهنه يوما ، ونزل فى هذه الصحراء . وكانت وسادته سرج جواده،وفراشه لبد السرج . وأرسل شخصا إلى هذه القرية يقول: نحن أناس غرباء ، وقد نزلنا ضيوفا عليكم فى هذا المكان ،فابعثوا إلينا ببعض الدقيق. ولما أحضروا له الدقيق ، أخذه وذهب إلى سرخس . وكان فى سرخس جماعة من أتباعه فقال لهم : نأخذ منكم أولا ،فكان ينزل كل من يتقدم إليه، ويستولى على جواده . وقد انقاد له الآخرون .

وفى ذلك الوقت بعث إليه سورى برسالة يقول فيها : ماهذا الذى تفعلون ؟ إنكم بذلك تضطرونا للحضور ، والقبض عليكم . فأرسلوا إليه رسولا يقول له:

ليس الأمر لنا أو لكم ، إنما الأمر لله عز وجل ، وسوف يكون ما أراد الله . فقلنا : سوف يكون لهذا الرجل العزة فى الدنيا . والآن تم له الأمر واستولى على جميع خراسان .

حكاية :

قال حسن بن المؤدب : كان الشيخ يسوق جواده يوما فى أحد الطرق ، وكنت أسير ممسكا بركابه كعادتى ، فسمعت الشيخ يقول لنفسه بصوت منخفض: إننى شيخ ضعيف ، ولا قدرة لى ، فاشملنى بفضلك ، واعف عنى. ولم يكد الشيخ يقول هذا حتى عثر جواده ، ووقع عن الجواد ، ولكنه لم يصب (ص ١٧٢) بأذى . فقال : الحمد لله اننا سقطنا خلف الجواد . قال حسن : أدركت حينئذ أن الشيخ كان يتضرع إلى الله من أجل هذا ، لأنه كان قد توقع هذا البلاء قبل أن يحدث ، فأخذ يتضرع حتى سهل الأمر ، ومر بسلام .

حكاية :

قال جدى شيخ الإسلام أبو سعيد : سمعت والدى السيد الشيخ أباطاهر يقول: كان لأمى خال مسن فى ميهنه يدعى « شبوبى » وكان شيخا معمرا ، قصير القامة ، كثيف اللحية ، فقيرا ، يعول كثيرا من الأولاد ، ومشغولا دائما بكسب قوته ، ولم يكن يترك مجلس الشيخ قط. وكان شيخنا كثير التألم والبكاء . وذات يوم اعتراه حال فى مجلس الشيخ . ولما أنهى الشيخ المجلس ، وانصرف الناس ، جلس فى وسط المكان كصيد علق من حلقه . فقال له الشيخ أبو سعيد : أيها الشيخ ، ماذا ألم بك ؟. فقال : لا أعرف . فقال الشيخ : ينبغى أن تعرف . وفى اليوم التالى قال الشيخ : اربطوا وسط الشيخ شبوبى ، وارفعوا أكمامه ، وأعطوه

جاروفا ليكنس المسجد وينظفه . وأخذ شبوبي الجاروف ، وذهب إلى المسجد .
وكان رئيس ميهنه السيد حمويه عند الشيخ ، قال : لقد خطر لى أنه لو فعل هذا
العمل شاب لكان أكثر لياقة . وأدرك الشيخ ذلك بفراسته فقال لى : أيها
السيد ، إن هذا الشيخ يرغب فى أن يكون صوفيا ، وإذا لم يسلك الطريق فلن
يصل إلى مقصوده . فبكى شبوبي وقال: أيها الشيخ، انني رجل مسن ضعيف كثير
الأولاد فارحمنى . فأحنى الشيخ رأسه (ص ١٧٤) ثم رفعها بعد برهة وقال:
اترك ذلك الجاروف فقد تم الأمر . وقال والدى السيد أبو طاهر: وفى وقت الظهر
أرادوا حمل قمح الصوفية إلى الطاحون ، ولم يكن الأمر مستتبا فى ذلك الوقت؛
إذ كانت فتنة التركان فى بدايتها ، فسألت الشيخ : من الذى أبعث به إلى
الطاحون ؟ . فقال الشيخ شبوبي . فبعثت به مع عدد من الدراويش . ولما ذهبوا
إلى الطاحون ، وأخذوا يطحنون القمح ، جاء التركان إليها ، وطرقوا الباب ، فلم
يفتحوا لهم. ووقف الشيخ شبوبى خلف الباب ، وأغلقه بظهره. فأطلق أحد التركان
سهمه ، فاخترق الباب ، ودخل فى ظهر الشيخ، وخرج من صدره، فاستشهد فى الحال.
وحملوه على حمار، وأحضروه الى ميهنه ، ووضعوه على باب منزل الشيخ أبى سعيد.
ولما رأى الشيخ لحيته البيضاء وقد تخضبت بالدماء ، بكى وأخذ يقول: «فمنهم من
قضى نحبه ومنهم من ينتظر » ثم أقبل على جنازته . وفى اليوم التالى عقد الشيخ
مجلسا على قبر شبوبى .

قال رئيس ميهنة السيد حمويه : لقد خطر لى أثناء مجالس الشيخ ، لماذا
كان مقتل هذا الشيخ؟ . فأدرك الشيخ أبو سعيد ذلك بكرامته، والتفت إلىّ وقال
أيها السيد :

« رباعية »

لماذا تجيل النظر فى الميدان
وفيه جراح الفيلة وأنفاس الأفاعى
وكل من ينزل إليه يسلم القلب والروح
فماذا يريد الأعزل من الطواف بقصر السلطان

وصلى الله على محمد وآله أجمعين . ثم مسح وجهه بيديه ونزل عن المنبر .

حكاية :

روى أنه كان فى ما وراء النهر جماعة من الصوفية والشيوخ العظام ، يعقدون المجالس دائما ، ويقولون أقوالا طيبة فى الطريقة . وكان لهم مقدم (ص ١٧٥) له كثير من المريدين ، لكل مريد منهم محب من أهل الدنيا ، وقد أعد لهم جميعا مكانا فى قصره . وقد اعتادوا حين يؤدون صلاة العشاء ، ويفرغون من الأوراد، أن يجلسوا على السجاجيد،ويقضون الليل فى التفكير حتى يطلع النهار. وعندما ينتهون من صلاة الفجر، كان الشيخ يبدأ الحديث، ويجيب على كل مشكل ، أو خاطر خطر لهم فى تلك الليلة ، ويقول ماينبغى قوله.وكان خادم ذلك الجمع رجلا يدعى عمران ، وكان سالكا متحمسا . وذات ليلة أخذ عمران يقول لنفسه: إنه لأمر عجيب حقا ، إذا طلبته يقول :أيها الوضيع إلى أين تسرع ؟ أتظن انك تلحق بى ؟ .وإذا لم أطلبه يقول : « وسارعوا » . وإذا طلبت غيره يقول : « مشرك » . وإذا تحولت عنه يقول: « مرتد ». وامضى الليل فى هذا التفكير حتى طلع النهار.وفى الفجر بدأ الشيخ الحديث ،وأجاب على مشاكل المريدين، ولما وصل

إلى عمران، نهض وعرض مشكلته فقال: تراءى لشخص طلب، فقضى عمره فى الطلب تارة، وفى المجاهدة تارة، وأفنى أكثر عمره فى الخدمة، ولم يظهر لذلك الطلب الذى لاح له مكان أو معنى، فما سبب ذلك؟. فأطرق الشيخ ولم يعرف جوابا لذلك المشكل. وفكر كثيرا، وفى النهاية رفع رأسه وقال: ياعمران، انتظر حتى يوم الجمعة عندما يحضر الشيوخ، (ص ١٧٦) فيتحدث كل منهم فى هذا الأمر، فربما يتضح الجواب. وفى يوم الجمعة اجتمع شيوخ الولاية، وعرض عمران عليهم ذلك المشكل. وقال كل شيخ قولا، ولكن الجواب لم يتضح، ولم يجد السائل شفاءه، وتضاربت جميع الأقوال. وانتهى اليوم ولم يجب أحد على سؤال عمران، وصمت جميع الشيوخ. وصرخ السائل قائلا: لقد أفنيت عمرى فى هذا الجنون، واليوم رأيت عظماء طريقكم، فمزقت حجبى، وأظهرت دائى، لأعرف طبيب طريقكم، فتركتمونى لهذا الداء، وقد تمزق حجابى. فتعالى الصياح من الجميع، وأمضوا تلك الليلة وهم جالسون يفكرون فى ذلك الأمر، وظلوا فى حيرة حتى الصباح. ولما طلع النهار، قال كل شخص ماتراءى له فى تلك الليلة، فلم يجد السائل الشفاء أيضاً، ولم يتضح أى حل. وقال كبيرهم: ليس لدينا دواء لهذا الداء، إن دواءه عند رجل ظهر فى خراسان يدعى الشيخ أباسعيد بن أبى الخير، فاذهب إلى هناك، واطلب شفاء ذلك الداء، ولن نتفرق حتى يصلنا جواب المشكل. فنهض عمران، واتجه إلى الطريق، وأخذ يسير دون وعى، حتى أنه لم يفكر فى طعام. ولم تقبل تلك الجماعة الصادقه الطلب أن ينشغلوا بشىء، مالم يرتفع ذلك المشكل من الطريق. وعندما وصل عمران إلى ميهنه، كان الوقت صباحا، وكان الشيخ يتحدث فى المجلس. فلما اقترب عمران، ورآه الشيخ، رفع رأسه وقال من أعماقه: ادخل ياعمران

فقد جلسنا اليوم من أجلك . فحياه عمران ووقف بعيدا . وقال الشيخ : أدخل ياعمران فقد جئت من مكان بعيد . فتقدم عمران إلى الشيخ ، فقال له : أيها الدرويش ، ليست جميع الأحوال متشابهة ، فأنت إما أن تطلبه أو تطلب منه . وقد طلب منه أكثر من مائة وعشرين ألفا من الرسل ، ولو لم يأت محمد إلى الدنيا لما طلبه أحد . لقد كان محمد أول طالب له ،والله تعالى (ص ١٧٧)شكره فى ذلك المعنى فقال: « مازاغ البصر وماطغى » فإذا طلبته ، فالطالب رد ، والسبيل سد ، والمطلوب بلاحد . وإذا طلبت منه ، فلايتم لك مامضى حتى تقول كلامه،وتجلس مع أحبائه ، وتسرع إلى تلبية ندائه . وقد ترك الآخرين فى غفلة ، وتركك على بابه . وجعل الآخرين ينشغلون بطلب الغير ، وجعلك مشغولا به وبأحبائه . فقال عمران : أيها الشيخ ، أليس هو الكريم ؟. فقال الشيخ : إنه الكريم الذى يعطى قبل السؤال ، ويعفو قبل الاعتذار . عد ياعمران فإن الجماعة فى انتظارك . فحياه عمران ورجع . وسأل سائل الشيخ : وماحالنا نحن المذنبين ؟ . فقال الشيخ : أيها الشاب ، إن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله وملائكته يترحمون على المقرين على أنفسهم بالذنوب » . وأخذ عمران يسير حتى وصل إلى الشيوخ،فوجدهم قد جلسوا على حالهم فى انتظاره. فأخبرهم بما كان من الشيخ ، فاستمعوا إليه،ونهضوا وتوجهوا صوب ميهنه ،وسجدوا على الأرض تعظيما للشيخ .

حكاية :

روى أن درويشا خرج من العراق وجاء إلى الشيخ . ولما وصل ميهنه كان

الشيخ فى قرية « بادنه » على بعد فرسخين من ميهنـه . فلم ينتظر الدرويش فى ميهنه وتوجه إلى بادنه . ولما مثل بين يدى الشيخ ، قبل قدميه ، وسار فى ركابه . وفى الطريق سـأل : أيها الشيخ ، ماحق الشيخ على المريد ، وماحق المريد على الشيخ ؟. فلم يجبه الشيخ فى تلك الساعة . وعندما وصلوا ميهنه ، وخرج الشيخ فى اليوم التـالى ليتحدث فى المجلس ، قال لذلك الدرويش : ينبغى أن تسير الآن (ص ١٧٨) إلىغزنين ، وتذهب إلى فلان ، وتطلب منه مائة دينار ذهبى ، ومنين من العود ، من أجل الصوفية. فنهض الدرويش فى الحال ،واتجه إلى الطريق، وأبلغ رسالة الشيخ ، وأخذ المائة دينار والعود ورجع . ولما وصل إلى مدينة هراة، ذهب مع درويش هروى إلى الحمام . وكان فى الحمام غـلام جميـل ، فتطلع إليه ذلك الدرويش ، وأخبر الهروى بالأمر. فقال الهروى: يلزمنا شيء لنحضره إلى المنزل ونختلى به . فأعطاه الدرويش دينارين . ورتب الهروى الأمر ، وأحضر الغلام . وجاء الدرويش، وأكلوا شيئا واختليا به. وعند ما أراد الدرويش أن يقصد الغلام، رأى الشيخ أباسعيد يدخل من الزاوية،ويصيح فيه،فصرخ الدرويش، وفقد الوعى. وعندما عاد إلى رشده ، نهض وتوجه إلى ميهنه . ولـما وصل إليها ، كان الشيخ يتحدث فى المجلس. فأسرع الدرويش إليه ، ولـما رآه الشيخ قال له : حق الشيخ على المريد هو أن تذهب إلى غزنين متى أشار إليك بذلك ، لصالح الدراويش . وحق المريدعلى الشيخ هو أنه إذا وقعت فى خطأ فى الطريق ، منعك عما لا يليق . فخجل الدرويش واستغفر .

حكاية :

قال السيد «عليك» : كنت فى نيسابور، واشتقت لرؤية الشيخ ، فأسرعت بالخروج منها ، وسرت حتى أتيت ميهنه فى يوم وليلة . وعندما اقتربت من المدينة رغبت فى أن أتوضأ ، وأذهب إليها بوضوئى . ولما وصلت إلى نهر بجوار ميهنه ، رأيت درويشاً مقبلا . ولم أكد (ص ١٧٩) أنزع نعلى حتى قال لى الدرويش : إن الشيخ يطلب منك أن تحضر هكذا . قال السيد عليك : فذهبت إلى الشيخ عارى القدمين ، وكان قد جلس على دكان فى الروضه ، فقال : أحضروا مقعدا حتى يضع نعله المنزع فوقه. فأحضروا مقعدا، ووضعوه أمام الشيخ،ووضعوا النعل فوقه . وقال الشيخ: أحضروه. فحملوه إليه. وقبل الشيخ النعل ،ووضعه فوق رأسه،وأمسك به، ومسح وجهه فيه وقال : كل من يخطو خطوة فى هذا الطريق يكون عظيما . ثم قال : لقد أحضرناك قبل أن تفكر فى الحضور إلينا .

حكاية :

روى أن الشيخ أبا سعيد كان يعظ فى المجلس يوما . وحضر أحد الادعياء إلى المجلس، وجلس خلف حجر،وأخذ ينظر إلى الشيخ . ورآه جالسا على المنبر بين أربع وسائد ، وقد بدت كراماته واضحة للعيان .وأخذ الدعى يشاهد حال الشيخ فى الخفاء ، وينكر عليه ذلك . فالتفت الشيخ إليه قال : أيها الرجل الذى يجلس خلف الحجر ، انزع الانكار من قلبك وتقدم إلينا . فخرج الرجل من خلف الحجر وهو يصيح قائلا: أى اله هذا. فرد عليه الشيخ قائلا : لاتخطىء ، بل قل : أى انقياد هذا . فصرخ الناس جميعا ، وتاب الرجل ، وأصبح من مريدى الشيخ .

حكاية :

قال السيد أبو الفتح: عندما قمت بخدمه الشيخ ، وكنت أشاهد حاله ، وأسمع عن الرياضات التى مارسها ، وأتصور أن هـذه الحال ثمرة لتلك المجاهدات ، فكرت فى أن أمارس الرياضة فى الخفاء . وقلت لنفسى : فلا مارس الاحتياط فى اللقمة أولا ، لأن الحق سبحانه وتعالى (ص ١٨٠) قال للرسل : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات وأعملوا صالحا » ، ولما كان العمل الصالح نتيجة للقمة الحلال،فإن من صالحى أن آكل من كسب يدى، ولا آكل من طعام الصوفية. ولم أكن أعرف طريقا للكسب ، أو أجيد عملا . وكان بجوار الشيخ رجل طحان يدعى « ميره » . فذهبت إليه فى الخفاء ،وتعلمت منه نسج المكاتل. وفى ظهر كل يوم ، عندما كان الشيخ يخلد إلى الراحة وقت القيلولة، وينام الصوفية أيضا ، كنت أخرج فى الخفاء إلى الصحراء ،وأحضر مقدارا من الخوص، وأقوم بنسجه ، وأبيعه وأشترى بثمنه شعيرا، أطحنه على الرحى ، وأصنع منه خبزا. وأخذت أصوم دائما، وعند الافطار أجلس على المائدة مع الصوفية ، وأخرج رغيف الشعير من كمى ، وآكل منه فى الخفاء ، وأنا أحاول دائما أن أبتعد عن مكان الشيخ على المائدة ، حتى لا يطلع على هذه الحال . وأخذت أكثر من الوضوء والصلاة ، وأنا أظن أنه لا يوجد شخص قط يطلع على سرى هذا . ولم يحدثنى الشيخ فى هذا الأمر قط ، حتى جاء الوقت الذى ترك فيه الشيخ ميهنه إلى نيسابور .وحين وصل إلى طوس ، كان بها سيد يقال له السيد «أبو طالب الجعفرى» يحبه الشيخ كثيرا ، ولا يتناول طعامه إلا معه . وعندما غادر الشيخ طوس إلى نوقان وفى رفقته السيد أبو طالب،

حدث أن كانا جالسين يوما على المنبر يتناولان الطعام ، وكان فى طوس زاهد ، فلما سمع بمقدم الشيخ إلى نوقان ذهب لتحيته . ولما دخل عليه وحياه ، أجابه الشيخ دون أن يلتفت إليه . فتألم الزاهد كثيرا لأنه أهين أمام الناس ، وخرج حزينا من عند الشيخ . فقال السيد أبو طالب للشيخ : أيها الشيخ ، إنك لم تلتفت إلى زاهدنا . فقال الشيخ (ص ١٨١) لاحاجة بنا إلى زاهد ، لاحاجة بنا إلى زاهد. ثم قال : ياسيد ، لاتتحدث إلى القراء لأنهم غمازون ، والله لايأخذ الناس بأقوالهم ، ولكنه لايتركهم بأقوالهم . ومن ناحية أخرى فإن هؤلاء القوم يسيئون إلى الناس . ثم التفت إلى وقال : إذا ذهبت إلى الآخرة فلا تقل انى مريد شيخى ، لأنك تسير فى طريق الزهد ،وتعمل عملا دون متابعة الشيخ . قال السيد ابو الفتح : عندما تفوه الشيخ بهذا سقطت على الأرض مغشيا على من هول ذلك الكلام ، واخذت استغفر الشيخ حتى سامحنى وقال لى : ارجع عن ذلك . فقلت: رجعت. وسألنى الجميع عما حدث ، فقصصت عليهم قصتى. وتعجبوا كثيرا، إذ أن أحدا قط لم يقف على تلك الحال ، باستثناء الشيخ الذى ادركها عن طريق كرامته .

حكاية :

كان السيد ابو القاسم الحكيم رجلا عظيما فى سرخس ، محترما من الجميع ، له كثير من المريدين . وعندما وصل صيت الشيخ إلى مدينة سرخس ، أراد أهلها أن يتعرفوا مكانة الشيخ . وكانوا قد جلسوا يوما ، واخذوا يتحدثون عنه ، فقال واحد منهم إنه رجل عظيم ، وقال آخر إنه يملك دارا خلف الجبل — أى أنه

قروى والقروبون ليس لهم شأن . وكان يحيى التركى رجلا عظيما فقال : ليس لكم ان تتحدثوا عنه دون علم ، وسوف اذهب إلى ميهنه لأراه ، واعرف أى رجل هو . ثم توجه إلى ميهنه . وخرجت الجماعة لوداعه وقالوا له : تأمله جيدا لتعرف اى رجل هذا الذى يصل صيته إلينا دائما . وجاء يحيى إلى ميهنه ، ولما وصل إليها كان الوقت فجرا،وكان الشيخ على المنبر. فلما دخل يحيى من باب المسجد، ووقع عليه نظر الشيخ،قال له : مرحبا يايحيى، هل جئت لترانا ؟ (ص ١٨٢)ينبغى عليك الآن أن تتأملنا جيدا ، ماذا قال لك دراويشك فى تلك الساعة التى اتيت إلينا فيها؟. قال يحيى:ليقل الشيخ . فقال الشيخ:لقد قالوا لك تبين اى رجل هو. ثم قال الشيخ: اذهب وقل لهم انى رايت رجلا ليس لحافظته قفل، وليس فى خلقه غرور. فصرخ يحيى وغاب عن الوعى . وعند ما عاد إلى رشده، نهض مسرورا ، وذهب إلى أبى القاسم ، وذكر تلك الحال للجماعة ، فسروا جميعا ، وتوجهوا إلى ميهنه ، وانخرطوا فى خدمة الشيخ .

حكاية :

روى أن الشيخ قصد مدينة مرو . وكان السيد على الخباز خادم الصوفية هناك ،وكان الشيخ أبو على سياه شيخ الجماعة . وعندما سمعا بوصول الشيخ قال احدهما للآخر: سيصل ذلك الطائر ويلتقط الحبة من امامى وامامك . وتحدثا ساعة ثم قالا : يجب اعداد الترتيبات اللازمة ،والذهاب لاستقباله. وهيأ الشيخ أبو على من الترتيبات مايليق لتعظيم الشيخ ،لدرجة أنه اشترى من أجل كلاب البلد حمارين ممتلئين وذبحهما . ولما سأله الخادم لماذا ذبحت الحمارين ؟ قال : عندما يحضر

مثل ذلك العظيم ، فلا أقل من أن تنعم كلاب البلد أيضا . ثم خرجا لاستقبال الشيخ. وكان الشيخ يرغب فى أن ينزل فى رباط عبد الله مبارك، فقال الشيخ أبو على سياه : نحن نخدم فى كل سنة ألف بومة على أمل أن ينزل لدينا صقر ، والآن نزل ذلك الصقر فلن ندعه ينزل فى مكان آخر . وقال الشيخ : المروءة واجبة ، (ص ١٨٣) والكل صقور ، ولا يوجد بوم . فقال الشيخ أبو على : لو لم يبين الشيخ لنا خطأنا لحل بنا الدمار . ودخل الشيخ المدينة ،ونزل فى الخانقاه، ثم صعد على المنبر، ووقف الشيوخ بين يديه ، بينما اصطف الشباب أيضا . وبدأ الشيخ الحديث، وشعر السيد على الخباز بالغيرة . ثم دخل أبو على سياه ، ونظر إلى رجاله ، ورأى شيخنا واقفا على المنبر فى عظمة وهيبة، فقال لنفسه: لو رآه الناس على هذه الحال ، وسمعوا كلامه، لذهبت ولايتنا، وانفض عنا أهل مرو. فالتفت الشيخ إليه فى الحال وقال له : أيها السيد ، أخرج إلى هذا السوق ، فهم يطهون هناك «شاباطياً» طيبا ، فاحضر واحدا طيبا مثل وجهك . فخرج على الخباز سريعا وأحضر الشاباطى. فأخذه الشيخ، والتفت إلى الشيخ أبى على سياه وقال له: لقد بعنا لك مدينة مرو وولايتها بهذا الشاباطى، ومنحناه لك أيضا. وأعطاه الشاباطى ، وخرج فى الحال، ولم ينتظر قط . وألحوا عليه كثيرا لينتظر فترة ،إذ كانوا يعدون المائدة ،فلم يقبل. وذهب إلى رباط عبد الله مبارك . ووضع السيد على الخباز المائدة فى الصحراء ، ولما فرغوا من الطعام ، رجع الشيخ إلى ميهنه .

حكاية :

قال والدى — والد المؤلف — نور الدين بن المنور : سمعت من السيد أبى

الفتح أن الشيخ أبا سعيد كان يعظ يوما فوق دكان الروضة . وفى أثناء الحديث قال : يهب نسيم من الخلد الاعلى،ولا يكون ذلك إلا فى أقدام الدراويش. وانشغل بالحديث . ثم قال مرة أخرى : يهب نسيم من الخلد الاعلى ولا يمكن أن يكون ذلك إلا فى أقدام الدراويش . (ص ١٨٤) ثم قال ذلك للمرة الثالثة . فنهض السيد حسن بن المؤدب وجماعة من الصوفية؛ لانهم أدركوا أن هناك دراويشا على وشك الوصول . وأخذوا يسيرون حتى وصلوا مدخل القرية . وكان الشيخ قد أشار عليهم أن يتجهوا إلى اليمين ، فساروا وفق إشارة الشيخ ، فوجدوا الدراويش قادمين من ناحية مرو. وعندما رآهم الصوفية ،عانقوهم وعادوا معهم. ولما وصلوا إلى مكان الشيخ ، قال لحسن: أحضر نعالهم . فأحضر حسن النعال إلى الشيخ،فأخذها ووضعها على رأسه وقال :

« بيت »

هذه هى التى ينبغى أن يحملها الإنسان ويضعها على رأسه ،
وهذه هى التى تجعل الكبير أمامها صغيرا .

وصلى الله على محمد وآله أجمعين . ومسح وجهه بيديه ،وختم المجلس. وانطلق الصياح من الناس .

حكاية :

قال السيد أبو بكر المؤدب : كنت فى خدمة الشيخ فى ميهنه . وفى يوم من أيام الربيع،سقط مطر كثير وسيل قوى. وعندما حدث هذا،خرج شيخنا وقت العصر وقال : يجب أن نصلى صلاة الاستسقاء . وخرج إلى الصحراء ، وسرت

مع الشيخ حتى شاطىء النهر . وقال الشيخ : إنزلوا إلى الماء . فقفز الجميع فى الماء . وبقيت واقفا لخدمة الشيخ ، ومعى ملابس نظيفة ، وأخذت أنظر إليه . وفى أثناء ذلك،جاء حسن بن المؤدب من خلفى،ووضع رأسه بين ساقى ،وحملنى حتى شاطىء النهر ،وألقانى فى المـاء . وتجاوز عمق المـاء رأسى ، ولم أكن أعرف السباحة . وحمل الماء عما متى ونعلى،وبلل جميع ثيابى،(ص ١٨٥)وفقدت الوعى ، ولم أشعر بنفسى أو بالدنيا . وأخرجونى من الماء وخفضوا رأسى ، فخرج الماء من حلقى .وقال الشيخ : تنبغى صلاة الجنازة . فأحضرونى ، ووضعونى أمام الشيخ . وأخفى الشيخ وجهى بسجادة،وأصطفت الجماعة،وكبر الشيخ على أربع تكبيرات،وصلى صلاة الجنازة . ثم جلس عند رأسى ،ورفع طرف السجادة عن وجهى ،وقال : يا أبا بكر ، قم بعد الموت وتحدث. وعندما قال هذا نهض،وأركبوه حمارا. وذهبت معه وحول وسطى مئزر ، وتركت الجمع فى ذلك المـكان . وذهب الشيخ إلى الدار،ولم يخرج للمائدة فى تلك الليلة. وفى اليوم التالى،جلس على المنبر ليتحدث.وقبل أن يبدأ الحديث، قال لحسن بن المؤدب : انهض. فنهض حسن . وقال له الشيخ : ينبغى أن تذهب إلى بلخ ،فتذهب فى اثنى عشر يوما،وتعود فى اثنى عشر يوما،وتظل فى بلخ يوما واحدا، فتعود إلى هنا بعد خمسة وعشرين يوما. وسوف يأتى أبو عمرو خشكويه من نيسابور إلى بلخ ، فبلغه سلامنا ، وقل له: نريد ثلاثة أمنان من العود ، وقرضا قدره مائة دينار من أجل الصوفية ، وخذها وأحضرها إلينا . فذهب حسن بن المؤدب . وعندما وصل « زردك » ، وكان ذلك فى وقت غارة التركمان، فقبضوا على حسن ،وضربوه ،وهزأوا به، وقالوا له أنت جاسوس، وقيدوه بالاغلال يوما

وليلة ،وصلبوه. قال حسن :وقد أحدثت على نفسى بسبب البرد والعناء ، وتضرعت إلى الشيخ فى منتصف الليل وقلت : أيها الشيخ ، انقذنى . فلما قلت هذا ، خرج قائد التركمان من الدار فى الحال ، وفك القيد عن يدى ، وبعث بى إلى خيمة ،وأحضروا لى ماء ساخنا لاغتسل ، وبعثوا إلى بثيابى لارتديها . (ص١٨٦) وقادنى القائد إلى خيمته ، وقال لى: أيها الجاسوس ، عند من تعمل ؟. فقلت : أنا تلميذ لزاهد ميهنه الشيخ أبى سعيد . فقال لى : صفة . فوصفت له الشيخ . فقال القائد : إن هذا الشيخ كما وصفت ،لانى رأيته فى نومى الآن ، وقد سحب سيفه ، وقال لى : اترك هذا الرجل وإلا أهلكتك . فخفت وخلصتك ، فاذهب حيثما تريد . فذهبت إلى بلخ ، وكان أبو عمرو خشكويه قد ذهب إلى غزنين ، فرجعت إلى ميهنه بعد الخمسة والعشرين يوما التى أشار إليها الشيخ . وكان الوقت فجرا ،والشيخ على المنبر ، فقال للجماعة : لقد جاء حسن ، فاخرجوا لاستقباله . واستقبلنى أبناء الشيخ وجماعة المتصوفة فى الصحراء. وجئت بين يدى الشيخ، فقال لى : مرحبا ياحسن ، هل تقول أم نقول نحن ؟ . قلت : ليتفضل الشيخ . فقال : لقد كنا نعرف أنك لن ترى أبا عمرو ، ولكنك ذهبت ، وقبض عليك التركمان فى الطريق ،وقيدوك ،وتألمت،ولجأت إلينا فخلصناك. ثم ذهبت إلى بلخ ، ولم تر أبا عمرو. قال حسن : فقلت أيها الشيخ ، مادمت قد عرفت أن هذا سوف يحدث، فلماذا أردت لى أن أتألم ؟ . فقال الشيخ : ياحسن ، إننا لم نستطع أن نترفق بذلك الذى ألقى أبا بكر فى الماء فى ذلك اليوم ، فكانت تلزم عصا التركمان لتعاقبه . قال حسن : وقد كانت كل هذه التعبئة من أجلى .

حكاية :

روى أن الشيخ أباسعيد ذهب فى وقت من الأوقات إلى سرخس ، ونزل فى خانقاه الشيخ أبى الفضل حسن . وكان خادم الخانقـاه فى ذلك الوقت يسمى أبا الحسن (ص ١٨٧ ، ولم يكن للخانقاه رزق معين . قال الخادم : قلت لنفسى أيجىء شخص بهذه المرتبة ، وجمع بهذه الكثرة،وليس لدى شىء أطعمهم أياه !. وعندما جالت هذه الأفكار بخاطرى ، دعانى الشيخ وقال لى : يا أبا الحسن ، اذهب إلى حانوت فلان الصراف فى السوق، وقل له إن أبا سعيد يقول لك أرسل ثلاثين دينارا . فذهبت إلى الصراف ، وقلت له إن الشيخ يطلب ثلاثين دينارا. وعندما سمع الصراف ذلك ، أعطانى فى الحال ثلاثين دينارا نيسابوريا ، وأمرنى بالعودة . وفى اليوم التالى قال لى الشيخ : ياأباالحسن ، إذهب إلى الصراف ، وخذ منه ثلاثين دينارا أخرى ،وأنفقها . ففعلت . وفى اليوم الثـالث قال لى : اذهب إلى الصراف ، وخذ منه ثلاثين دينـارا وحدها ، وعشرة دنانير وحدها ، وأنفق الثلاثين دينارا ، واستأجر بالعشرة دنانير حماراً حتى نيسـابور . فذهبت إلى الصراف وقلت له : أعطنى ثلاثين دينارا وحدها ، وعشرة دنانير وحدها . فقال الصراف : ماهذا ؟ إنك لم تقل مثل هذا القول كل يوم . فقلت له : إن الشيخ ذاهب إلى نيسابور ، وإذا كنت ستطلب النقود منى غدا ، فانهض واطلبها من الشيخ الآن قبل أن يرحل . فجـاء الصراف معى إلى الشيخ ، وكان الصوفية قد أعدوا الركائب وربطوا الأحمال ، ووقف الصراف أمام الشيخ ، فلم يقل له الشيخ شيئا ، وركب حصانه وسار . وأخذ الصراف يسير خلفه حتى بوابة المدينة . فلما خرج الشيخ من البوابة ضاق قلب الصراف . وعندما وصلوا إلى طريق نيسابور

رأيت قافلة قادمة منها، وكان هناك رجل يسير أمام القافلة ، فلما اقترب من الجماعة حياهم ،وسأل : من هـذا ؟. فقالوا له إنه الشيخ أبوسعيد بن أبى الخير . فتقدم الرجل إلى الشيخ، وحياه.(ص ١٨٨) فرد الشيخ تحيته ، وقال له على الفور: أعط تلك المائة دينار ، إلى الصراف . فأخرج الرجل صرة من الذهب ، وأعطى الصراف المائة دينار ، فأخذها . وقال له الشيخ : هل وصلتك نقودك ؟ قال : أجل . فقال له الشيخ : اذهب . فقال الصراف : إننى لن أتحول عنك حتى تتقبلنى . فقال له الشيخ : لقـد تقبلتك . وانصلح أمر الصراف . ورجعنا من صحبة الشيخ .

حـكاية :

كان القاضى سيف من جماعة القضاة والأئمة الـكبار فى سرخس ، ينـكر جميع أصحاب الرأى،والصوفية،والشيخ أبا سعيد إنكارا شديدا . وكان قاضيـاً لولاية سرخس ، يتمتع بمكانة كبيرة، وهيبة تامة ،عندما كان شيخنا بهذه المدينة. وقد عرض أموالا كثيرة على بعض الناس ، ليقوم أحدهم بالقضـاء على الشيخ ، ولـكن واحدا منهم لم يجرؤ على التفـكير فى هذا الأمر. وكان الشيخ يجهل ذلك. وقبل رجل هذا العمل يوما ، فأعطاه القاضى مبلغـا من النقود . وفى يوم من الأيام قرروا إهلاك الشيخ ، وكان يعقد مجلسا فى ذلك اليوم ، كما كان هذا اليوم نفسه موعد انعقاد مجلس القاضى . وأخذوا ينادون من فوق المـآذن أن القاضى سيف سيعقد مجلساً فى المـكان الفلانى فأحضروا . ولـما سمع الشيخ صوت المنادى قال : توضأوا لنصلى على القاضى صلاة الجنازة . فتعجب الناس لأن القاضى سيف فى صحة جيدة، وسوف يتحدث فى المجلس ، بينما الشيخ يقول توضأوا لنصلى عليه

صلاة الجنازة. وبعد أن قال الشيخ هذا ، استمر فى الحديث . وفى ذلك الوقت كان القاضى سيف يغتسل فى الحمام ليذهب للحديث فى مجلسه . وقبل ذلك بعدة أيام (ص ١٨٩) كان أحد المزارعين قد أقسم يمينا بالطلاق وخالفه ، فأصدر القاضى حكمه بالتفرقة بينه وبين زوجه ، وحبسه فترة ، وأخذ منه النفقة، ومؤخر الصداق، وأمر بجلده . وكان المزارع قد أتى إلى المدينة، وأحضر منجلا لحداد، فسنه له ،وأخذه وسار عائداً إلى قريته . ورأى القاضى خارجا من الحمام بمفرده ، ولما كان قلبه مملوءا بالحقد على القاضى ،فقد ضربه بالمنجل،وطعنه فى بطنه طعنة تمزقت لها أحشاؤه، وهلك فى الحال . وانطلق الصياح معلناً قتل القاضى ، وكان الشيخ لا يزال يعظ فى المجلس ، فتعجب الناس كثيرا لما سبق من قول الشيخ . وقال الشيخ : يا إلهى !. لقد حكم علينا ، فمن كان هو بالنسبة لنا ؟. وحكمنا عليه فمن كان هو بالنسبة لله ! ؟.

حكاية :

قال الشيخ عمر الشوكانى إن السيد محمد والد الإمام مالك الشوكانى كان يملك أيام شبابه قباء وقلنسوة . وذات يوم كان الشيخ أبو سعيد جالسا ، فمر عليه مرتديا القباء والقلنسوة. ورآه الشيخ فقال : إن ذلك الشاب وديعة فى هذا القباء. فأخبروه بذلك ، فقال : إن الأمر كما ذكر الشيخ ، فمنذ أمد بعيد وهذا الأمر يُلح على ويؤلمنى. ولم يمض وقت كثير حتى تاب،وحول قصره الكبير إلى خانقاه، وأنفق أموالا كثيرة فى سبيل الصوفية والشيخ . واستضاف فى خانقاته فى شوكان أربعين صوفيا ينفق عليهم من ماله . كما شيد القبة العالية والمنارة الموجودتين فى المسجد الجامع فى شوكان ، وملأ مخزنا فوق قصره بالقمح ، وأخذ يخرج منه على

نواحى البناء والتعمير . وكان يقول لنفسه إن هذا القمح لن يكفى لهذه الأمور .
وتمت العمارتان والقمح لازال باقيا . فتعجب كثيرا (ص ١٩٠) لأنه كان على
يقين من أن ما أخرجه منه أضعاف ما كان قد اختزنه . وبعث برجل إلى المخزن
وقال له : اخرج القمح الذى بالمخزن لنعرف مقداره . فذهب الرجل إلى المخزن ،
وكان فيه قمح كثير ، فازدادت دهشته لأن القمح الموجود به أكثر مما كان قد
اختزنه من قبل ، علما بأنه أخرج من أجل العمارة كميات كبيرة .وأخذالرجل يخرج
القمح ، فنفذ صبره وسأله : مامقدار ماتبقى من القمح فى المخزن ؟ . فقال الرجل:
ياسيدى ، لايزال المخزن مملوءا بالقمح . ولم يستطع — السيد محمد — إخفاء
هذه الكرامة. وكان قد عين مؤدبا لتعليم أولاده ،فذهب إلىذلك المؤدب ، وهو
المقرىء عبد الملك بن شادان من أهل طوس ، وحدثه بالأمر . فبكى المؤدب
وقال له : إن هذا ليس بالأمر الغريب ؛ فهو من كرامة ذلك الشيخ الذى أصبحت
مريدا له ،وأرشدك إلى هذا الطريق، وأمرك بهذه الخدمة. ولوأنك لم تقللى هذا
الأمر، ولم تخبر به أحدا، لبقى مافى المخزن حتىيوم القيامة، مهما أخرجت منهأنت
وأولادك ، بفضل بركة الشيخ ، ونظره الطاهر قدس الله روحه العزيز .

حكاية :

سمعت أيضاً من الشيخ عمر الشوكانى أن الشيخ كان ذاهبا يوما إلى مدينة
طوس عن طريق « سرداوه » ، لينزل بقرية « رفيقان » . وأرسل درويشا قبله
ليخبر أهل القرية بقدومه ، وليرى ما إذا كان بها خانقاه يمكن أن ينزل بها .
ولما وصل الدرويش لم يجد هناك خانقاه ؛إذ كان جميع أهل القرية من قاطعى الطريق.
وكان فى تلك القرية معلم صالح ، أدى فريضة الحج ، ينفق من النقود التى يتقاضاها

من الصبية لقــاء تعليمهم . وعندما علم المعلم بوصول الشيخ ، تقدم لخدمته ، وأرجع معه الدرويش وقال له : إن جميع الناس هنامفسدون ، من قاطعى الطريق ،ولا توجد خانقاه ، (ص ١٩١) وأموال أهل القرية جميعا حرام. وأنا الرجل الوحيد الصالح فى قريتى ، ومالى حلال . ولن تجد شخصاً آخر يملك درهما واحدا حلالا ، أو فيه نفحة من صلاح . ولما خرجا إلى الصحراء، وقطعا مرحلة طيبه،لحقا بالشيخ . فقال له المعلم : ياسيدى الشيخ ، لقد جئت لأننى سمعت بوصولك سالمــا ، والناس فى هذه القرية لصوص مفسدون ، وليس فى القرية جميعها درهم واحد حلال إلاأموالى التى آخذها من تعليم القرآن للصبية . وليس بالقرية خانقاه ، ولن تجد فيها شخصا صالحا سواى، فأنا رجل صالح ،أديت فريضة الحج . وأريد الآن أن ينزل الشيخ فى منزلى . فقال له الشيخ : سأنزل فى دار رئيس القرية . فقال المعلم : إنه هو نفسه أسوأ من الجميع . كما أنه يشرب الخمر دائما ، ولا يوجد فى منزله فراش طاهر يمكن أن يجلس الشيخ عليه . فلم يهتم الشيخ بذلك . ورجع المعلم ، وقال لرئيس القرية إن الشيخ قادم ،وسوف ينزل بدارك. وعندما سمع الرئيس هذا، أمر بأن يجمعوا فراش المنزل ويطهروه . وأخذ يفــكر فى أنه لايملك شيئا حلالا ليقدمه للشيخ . وكانت له أم عجوز فسألته : ماذا دهاك حتى أنك مهموم هكذا ؟. فقال لهــا : إن الشيخ أبا سعيد قادم من ميهنه ،وسيحل ضيفا على، ويشرفنى مثل هذا العظيم. وكلما فــكرت فى جميع ممتلــكاتى ، لاأجد بينها شيئا واحدا حلالا ، لاقيم له به مأدبة . وأنا مهموم حائر لهذا السبب. وكانت والدته سيدة صالحة، فخلعت من يدها سوارين، ووضعتهما أمام ولدها وقالت له : خذ هذه فهى (ص ١٩٢) ميراث حلال لى عن والدتى، وقد ورثتها هى أيضاً عن والدتها . وسوف يأتى الشيخ إلى منزلك بفضل هذه

اللقمة الحلال . فأخذها الرئيس ، وقد أثرت فيه كلمات والدته ، وأنفقها على ضيافة الشيخ والصوفية. ولما رأى الشيخ وسمع كلامه ،تاب على يديه، كما تاب أكثر أهل القرية . وكان الرئيس يضع فى حسابه أن ينفق على الصوفية من ثمن السوارين بحيث لا يحتاج لشيء أو يتبقى شيء . وعندما نفد المال ، عزم الشيخ على الرحيل، وأمر بإعداد جواده. وألح عليه الرئيس أن يبقى يومين أو ثلاث ، فلم يقبل ورحل. وبعد مضى فترة اشترى نظام الملك قرية رفيقان وأوقفها على أبناء الأستاذ أبى أحمد الذين كانوا أحفاد الشيخ من ناحية أمهم . وهكذا بقيت القرية ببركة لفظ الشيخ

حكاية :

سمعت أيضاً من السيد عمر الشوكانى أنه كان فى قرية « ازجاه » درويش يدعى حمزة يعمل فى صناعة السكاكين . وكان مريدا للشيخ أبى سعيد ، ورجلا طيبا للغاية ، وعاشقا محترقا باكيا ، وسالكا متحمسا . وكان فى كل يوم يعقد فيه الشيخ مجلسا، يخرج من ازجاه فى وقت السحر، بحيث يصل إلى المجلس فى الوقت الذى يخرج فيه الشيخ من صومعته ليعظ . وإذا ما أنهى الشيخ وعظه ، عاد إلى قريته . ولم يكن يترك مجلسا قط من مجالس الشيخ . وكان رجلا كثير الأولاد ، رقيق الحال، يعطف عليه الشيخ . وفى يوم من الأيام كان قادما إلى مجلس الشيخ فى ميهنه ومعه دينار ذهبى ربطه فى رباط. ولما وصل إلى مشارف ميهنه قال لنفسه: لو أننى حملت هذا الدينار معى ،وطلب شخص من الشيخ شيئا ، فسيعرف الشيخ أننى (ص ١٩٣) احمل ذهبا . ثم قال: من الأفضل لك ياحمزة أن تخفيه خلف الحائط . وأخفى الدينار ، وذهب إلى مجالس الشيخ . وعندما وصل الشيخ إلى

منتصف الحديث، التفت إليه وقال: ياحمزة ،انهض وارفع الدينار الذى أخفيتـه خلف الحائط ،لأن هناك لصا يسرقه . فنهض حمزة ، وذهب إلى المكان الذى أخفى فيه الدينار ، فوجد رجلا يحفر الأرض ، وقد أوشك أن يسرق الدينـار . فتقدم حمزة ،وأخذ الدينار، وجاء به إلى الشيخ، ووضعه أمامه . وبعد هذا لم يعد قادرا على البعد عن الشيخ ، فحمل أمتعته وأولاده، وجاء إلى ميهنه ، وظل فى خدمة الشيخ طيلة حياته . ولما توفى الشيخ ،رجع إلى ازجاه ،وقبره بها ، وهو قبر عظيم مبـارك .

حـكاية :

كان نظام الملك رحمة الله عليه قد شيد خانقاه فى أصفهان. وعين الامير سيد ابن محمد ، وكان علويا فاضلا ، خادما لهـا . وكانت العادة المتبعة أن يجتمع العلماء والصوفية وأصحاب الحـاجات وأرباب الإدارات من جميع الأطراف فى تلك الخانقاه كل عام. وعندما يأتى شهر رجب، يستدعى نظام الملك سيد بن محمد هذا ، ليعرض عليه حاجة كل فرد ، ويأمر لـكل منهم بما يليق له من عطاء أو صلة أو ادرار . ثم يعود الجميع إلى منازلهم ، وقد قضوا حوائجهم ، ويأخذون فى الدعاء له بالخير . وفى سنة من السنين جاء شهر رجب ، ولم يحقق شخص مقصوده. وانتهى شهر شعبان ،ولم يقض نظام الملك حاجة أحد . وأقبل شهر رمضان أيضا، ولم يستدع نظام الملك واحدا من هؤلاء الجمع ،ولم يتـكلم فى شأنهم . وأخذ الجميع يتحدثون فى هذا الأمر ، (ص ١٩٤) ويقول كل منهم قولا . وقالت جماعة إن نظام الملك ملّ هذا ، وقالت جماعة أخرى ربما أوقع شخص بنـا عنده . ولـما

انتهى شهر رمضان ،وشوهد هلال شوال ، أرسل نظام الملك فى تلك الليلة رجلا إلى سيد بن محمد وقال له : عند ما تنتهى من العشاء ، احضر إلينا عشرة أشخاص من كبار الصوفية والأئمة ، لأن هناك أقوالا وأمورا نريد أن نتحدث فيها .

قال سيد بن محمد: وحين فرغنا من العشاء ، أخذت عشرة أشخاص من الشيوخ، وذهبت إلى نظام الملك ،وأنا أفكر فيما عساه قد حدث. ولما دخلت عليه ، وجدته جالسا فى المحراب، وقد أوقد شموعا أمامه . وسلمت عليه ،فرحب بى كثيرا وقال : اعلموا أننى كنت مشغولا فى أوائل شبابى بطلب العلم ، ولم أوفق فى هذا الأمر على نحو ما كنت أرجو ، فقلت لوالدى : ينبغى أن تبعث بى إلى مرو لأتمكن من الدراسة هناك . فقبل والدى،وأرسل معى غلاما وحمارا،وقال لى: عندما تصل إلى ازجاه ، اطلب من رؤساء القوافل أن يتريثوا يوما من أجلك . واذهب إلى الشيخ أبى سعيد فى ميهنه ، وقدم له الطاعة ، واصغ لما يقول لك ، وتذكره ، وسر على نحو مايأمرك به ، وأطلب منه أن يدعو لك . وعندما وصلت القافلة إلى ازجاه طلبت إليهم التوقف يوما حتى اذهب وأحيي الشيخ ، فأجابونى إلى طلبى.ووصلت إلى مشارف ميهنه عند الفجر . ولما وقعت عينى عليها رأيت الصحراء كلها زرقاء من كثرة الصوفية ذوى الاردية الزرقاء الذين خرجوا إلى الصحراء ، وانتشروا فى كل مكان . وتعجبت ،وتساءلت ماذا عساه حدث حتى خرج كل هؤلاء الناس وانتشروا هكذا فى كل مكان ؟. وعندما وصلت ،ووقعت عيونهم على ، نهضوا (ص ١٩٥) وتقدموا إلى ، وأخذوا يسلمون على واحدا واحدا ، ويعانقونى . وسألتهم : ماذا حدث ؟ ولأى سبب خرجتم ؟ . فقالوا : أبشر ، فعندما أدينا صلاة الفجر قال لنا الشيخ : كل من يريد أن يرى شابا سوف تدين له الدنيا

وينال ثواب الآخرة .فليخرج ويستقبله فى طريق ازجاه . فخرجنا جميعا لتحتيك . فتأثرت لهذا القول ، وبكيت ، وسرت مع الجمع حتى وصلت إلى الشيخ . وقادونى إليه على هذا النحو ، فعظمته .وسلمت عليه .وقبلت يده . فنظر إلى وقال: مرحبا، بارك الله فيك يابنى ، سوف تسلم إليك سيادة الدنيا ، فاعمل فإن العمل يطلبك . ولن يعود عليك شىء من هذا الطريق الذى تسير فيه ، ولكن سرعان مايحقق طلبة العلم منك الكثير. ثم قال: هل تعاهدنى على أن تعز هذه الطائفة ؟. فعاهدته على النحو الذى جرى به لفظه المبارك ، أن أكون ترابا لإقدامهم . وأحنى الشيخ رأسه وأنا واقف بين يديه فى احترام ، ثم رفعها وقال لى : ألا تزال واقفا يابنى؟ . قلت ياسيدى الشيخ ، أريد أن أسأل سؤالا . قال : سل. قلت : ياسيدى الشيخ ، هل يوجد لهذا الأمر دليل حتى أعمل على تداركه ؟ . قال الشيخ : أجل فالوقت الذى ينالون فيه مطالبهم منك يكون نهاية عمرك . ثم بكى نظام الملك وقال : أيها الاعزاء ، لقد كان حسن — يقصد نفسه — يعتزم كل يوم منذ أول شهر رمضان أن يحقق مقاصدالجميع ،ويمنحهم الارادات والمعاشات المقررة فى كل عام ، ولكن الله سبحانه وتعالى لم يمنحنى التوفيق . والآن مضت ثلاثة أيام لم أنهض فيها من هذا المكان ، وأخذت أتعبد وأتضرع إلى الله كل ليلة حتى الصباح،وأطلب منه تعالى أن يهبنى (ص ١٩٦) التوفيق مرة أخرى ، حتى أقضى حاجات الجميع ، وأنا أعلم أن هذا نهاية عمرى ، على نحو ماذكرالشيخ بلفظه المبارك . والآن عندماتؤدون صلاة العيد فى الغد ، عليك ياسيد بن محمد أن تأخذ الجميع إلى الخزانة ، وتعرض حاجة كل فرد ، حتى يتحقق للجميع رغباتهم ، وتجدد رسائل الادرار إلى الديوان، فلم يبق لحسن من العمر ما يكفي لأن يصل كل شخص

إلى بلده . قال سيد بن محمد : وفى اليوم التالى أدينا صلاة العيد. ورحل السلطان ، وبقى نظام الملك وأخذت النقود من الخزانة ، وجددت رسائل الارادات . وفى اليوم الرابع ، رحل نظام الملك خلف السلطان . وعندما وصل إلى نهاوند اغتاله الملاحده خذ لهم الله ، وبقى الجميع محرومون من شفقته رحمة الله عليه .

حكاية :

قال السيد أبو على الفارمدى قدس الله روحه العزيز : عندماذهبت إلىخدمة الشيخ أبى القاسم الجرجانى ،وأمرنى بالرياضات المختلفة ، وأصبحت مهذبا مؤدبا ، أمرنى أن أذهب إلى أبى بكر بن عبدالله الدراوردى ، وبعث بنا نحن الاثنين إلى الشيخ أبى سعيد فى ميهنه . ولما وصلنا إليها ، وأدينا السنن والفرائض ، ذهبنا إلى الشيخ. فأمر حسن بن المؤدب أن يحضر ازارا ،وأعطاه لى، وأمرنى الشيخ بتنظيف الغبار عن الحائط بهذا الازار. وأمر أبا بكر بن عبدالله بتنظيف أحذية الدراويش. وبعد أن أقمنا عنده ثلاثة أيام نؤدى هذه الخدمة ، أمرنا فى اليوم الرابع بالعودة إلى خدمة الشيخ أبى القاسم . وذهبنا إلى الشيخ أبى القاسم . ومضت مدة على هذا النحو ، ومات كل من الشيخين. (ص ١٩٧) وانكشف لى الأمر ، والتف حولى المريدون ، وصادفت قبولا عظيما ، وذاع صيتى وشهرتى فى العالم . ولم يحدث هذا بالنسبة للشيخ أبى بكر ، فلم تنتشر شهرته بين الناس بهذا القدر، ولم يسر ذكره . وذات يوم قال الشيخ أبو عبدالله : لقد أمر الشيخ أبوسعيد الشيخ أبا على بازالة الغبارعن الجدار بالازار، ليزيل طوال عمره بازار الكلام غبار المعصية عن جدران قلوب عباد الله ، وأمرنى بتنظيف أحذية الدراويش، لاظل طيلة عمرى فى المؤخرة ، لايعرفني أحد ، أو يذكرنى أحد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكاية :

كان الأمير مسعود من الأمراء والسلاطين الكبار . ولم يكن هناك من حكام الاطراف من هو أعظم منه . وذات يوم احتاج الشيخ إلى قرض من المال للانفاق على الدراويش . فأرسل حسن بن المؤدب إلى — الأمير مسعود — يقول له : إرع الدراويش بشيء من المال . ولما ذهب حسن إليه وأبلغه رسالة الشيخ ، لاطفه كثيرا وقال له : سوف أريح قلب الشيخ من هذه الناحية . ولما ذهب إليه حسن مرة أخرى قال إنه سوف يدفع . وذهب إليه عدة مرات ، فكان يكرر الوعد ، حتى تجاوز الأمر الحد . فكتب الشيخ هذا البيت على ورقة ، وأعطاها لحسن ليوصلها إلى مسعود :

« بيت »

إذا لم تنفذ ما وعدتنا به ،
فلن تنجو من يدنا ولو كنت أسدا .

وسلم حسن الورقة إلى مسعود . فلما قرأها غضب وقال : ماهذا ؟ . وطرد حسن من أمامه،وأعاده خائبا . وجاء حسن إلى الشيخ،وذكر له ماسمع . وكان من عادة مسعود أن يقتنى كلابا غورية ، تمزق كل من تمسك به فى الحال . وكانوا يقيدونها فى النهار ، (ص ١٩٨) ويتركونها حول خيمته فى الليل . ولم يكن أحد يجرؤ على الاقتراب من الخيمة . وحين رجع حسن إلى الشيخ غاضبا ، وذكر له تلك الحكاية ، لم يقل الشيخ شيئا . وفى تلك الليلة ، خطر لمسعود أن يتجول حول خيام خدمه وحشمه،جريا على عادة الملوك،ليرى ماذا يقولون،وماذا يفعلون

ونهض فى منتصف الليل ،وارتدى قميصا.وأسدل شعره حتى لايعرفه أحد. وكان جميع خواصه وغلمانه وحراسه قد ناموا . فخرج من الخيمة . ولما سار عدة خطوات،رأته الكلاب ولم تعرفه،فجرت خلفه.وصاح فتنبه .غلمانه ، وخرجوا من هنا وهناك . ولما اقتربوا منه ، كانت الكلاب قد مزقته وقضت عليه .

حكاية :

روى الشيخ عبد الصمد بن محمد الصوفى السرخسى مريد الشيخ الخاص هذه الحكاية فقال : كنت قد غبت عن مجلس الشيخ مدة ، وأسفت على مافاتنى من الفوائد . وعندما وصلت إلى ميهنه ، كان الشيخ يتحدث فى أحد المجالس ، فلما وقع بصره علىّ قال : ياعبد الصمد لاتأسف فلو أنك غبت عنا عشر سنوات فإننا لانقول إلا كلمة واحدة . وتلك الكلمة يمكن كتابتها على هذا الظفر — وأشار إلى الأصبع الأكبر من اليد اليمنى — وهى : « ذبح النفس وإلا فلا » . وعندما قال الشيخ هذه الكلمة ، صرخت وغبت عن الوعى .

حكاية :

روى أنه جاء وقت فى ميهنه لم يتناول الصوفية لحما لعدة أيام . ولم يكن حسن يستطيع إحضاره ،لأن جميع القصابين كانوا يطالبونه بأثمان لحومهم . وذات يوم نهض الشيخ ،وسار الجميع فى رفقته حتى (ص١٨٩) خرج من البوابة المؤدية إلى طريق مرو ، وأصبح على هضبةزعقل بصحراء مرو. (وقد سبق ذكرها من قبل ، فعندما كانت تعترى الشيخ حال من القبض كان يذهب إلى ذلك المكان) .
ولما اعتلى الشيخ الهضبة،وقف وتريث برهة.وظهر غزال فى الصحراء ، وظل يتقدم حتى اقترب من الشيخ ، وسقط على الأرض. فامتلأت عينى الشيخ بالدمع ، وأخذ

يردد : لاينبغى !. لاينبغى ! ، والغزال يتمرغ فى التراب . والتفت الشيخ إلى الصوفية وقال لهم : هل تعرفون ماذا يقول هـذا الغزال ؟ . إنه يقول : أتيت لتجعلنى فدية للدراويش ، فتسعد قلوبهم . وأنا أقول له لاينبغى ذلك ، لأن لك صغارا ، وهو يلح . ثم بـكى الشيخ والصوفية ،وارتفع صياحهم،وظهرت الأحوال. وظل الغزال يتمرغ فى التراب. فأرسله الشيخ إلى حانوت القصاب ، قائلا لحسن: قل له يذبحه بسكين حاد ، ويسمى عليه ليتم المراد للصوفية هذه الليلة. وذهب حسن وفق إشارة الشيخ ، وأعد الأمر ، وتمتع الدراويش بلحم ذلك الغزال .

حـــكاية :

قال السيد أبوعلى الفاردمدى : فى وقت من الأوقات خرجت من طوس إلى ميهنه مع جمع كبير فى رفقـة الشيخ أبى سعيد . وفى الطريق وصلنـا إلى جبل . وتقدمت إلينا حية كبيرة ،فخفنا وهربنا . وتوقف الشيخ على صهوة جواده ، وعندما اقتربت الحية منه ،ترجل . وأخذت الحيـة تتمرغ فى التراب بين يديه ، وكنت أقرب الجميع إلى الشيخ . ومرت فترة ثم قال لهـا الشيخ : لقد تجشمت المتاعب فعودى . وعادت الحية واتجهت إلى الجبل . وتقدم الجميع إلى الشيخ وسألوه قائلين:

ماهذا أيها الشيخ؟ (ص ٢٠٠) فقال الشيخ : لقد رافق أحدنا الآخر عدة سنوات فى هذا الجبل،ورأى كل منا كثيرا من الفتح على يد الآخر . والآن عرفت أننى أمر من هنا ، فجاءت وجددت العهد « حسن العهد من الإيمان » . ثم قال الشيخ : كل من لديه خلق يتحقق له كل شىء بالخلق ، مثل إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، فقد كان طريقه الخلق ، فلاجرم أن ارتدت النار عنه بالخلق .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكاية :

كان الشيخ يتحدث يوماً فى أحد المجالس ، فنهض درويش وطلب مناً من اللحم . وكان فى مجلس الشيخ رجل تركى ، فقال أنا أعطيه له. وعندما أنهى الشيخ المجلس ،تقدم الدرويش إلى الشيخ وعظمه ،فقال له الشيخ: أيها الدرويش ، ماذا ستفعل باللحم ؟. فقال: سأصنع منه حساء (شوربة) [1] فقال الشيخ : لماذا قلت : (شوربه) فأشعلت الفتنة فى نفسك ! . وبعد ذلك أعطاه التركى اللحم ، فحمله الدرويش إلى منزله. ورأى رجلا غريبا يجلس مع زوجته ،ففقد صوابه ، ولم يستطع أن يتمالك نفسه ، واستل سكينا ، وقتل الرجل والمرأة فى الحال ، وترك اللحم، وفر هاربا .

حكاية :

رأيت مكتوبا بخط الإمام مالك رحمة الله عليه . جاء فيه : اعترت سيدة حال فى مجلس الشيخ ، فألقت بنفسها من سطح مرتفع.وأشار الشيخ ،فبقيت معلقة فى الهواء . ومدت النسوة أيديهن وجذبنها إلى السطح ، ونظرن فوجدن أن ذيلها تعلق فى مسمار صغير .

حكاية :

رأيت بخط أشرف بن أبى اليمان رحمة الله عليه أنه كان هناك صديقان من منكرى الشيخ ، أحدهما خياط والآخر نساج . وكانا عندما يلتقيان ، يقولان إن أمر (ص ٢٠١) هذا الشيخ لايعتمد على أصل. وذات يوم قال أحدهما للآخر: إن هذا الرجل يدعى الكرامة ، فلنذهب إليه نحن الاثنين ، فإذا عرف عمل كل منا

(١) « شرر » فتنه » اضطراب

عرفنا أنه على حق ، وأن مايفعله يعتمد على أصل . ثم ذهبا إلى الشيخ . وعندما وقع بصره عليهما قال :

« بيت »

لقد كتب القدر على هذين الرجلين ،
أن يكون أحدهما خياطا والآخر نساجا

ثم أشار إلى الخياط قائلا : هذا لايخيط إلا قباء الملوك ، وأشار إلى النساج وقال : وهذا لاينسج إلا « الكليم » الأسود . وعندما سمع الرجلان ذلك تملكهما الخجل ، وتابا عن انكارهما .

حكاية :

قال السيد عماد الدين محمد بن العباس رحمه الله : كنت فى السابعة من عمرى عندما سمعت والدى يقول : قالت السيدة « ماهك » ابنة السيد حمويه رئيس ميهنه : كان الشيخ أبوسعيد يتحدث يوما فى مجلس ميهنه . وكان فى ذلك اليوم يرتدى عباءة حمراء وعمامة بيضاء ، وقد احمر وجهه وهو يتحدث . فأخذت أنظر إليه وأنا أقول لنفسى إن الله سبحانه وتعالى لم يخلق فى الدنيا شخصا مثل الشيخ . وعندما جال هذا بخاطرى، التفت الشيخ إلىّ وقال: تنبهى لما تفكرين فيه، وإذا أردت أن تعرفى فانظرى لترى ، وأشار إلى تلك الشجرة التى تقع على باب روضته المقدسة . فنظرت ورأيت شابا يقف تحت الشجرة ، أسودا ، ضامرا ، هزيلا على عكس صورة الشيخ . وكان ينظر إلى الشيخ جيداً ، وينصت إلى أقواله ، فنظرت إليه وأنا أقول لنفسى : أى مكانة لهذا الشاب حتى يشير الشيخ إليه ؟ . وأخذت

أفكر فى هذا . فقال الشيخ : تنبهى وعودى إلى رشدك . فتنبهت . وقال الشيخ : إن ذلك الذى ترينه شعرة واحدة منه أعز على الله من الدنيا والآخرة ، فلا يغرنك اللون .

حكاية :

قال السيد الإمام عماد الدين محمد أيضاً : فى يوم من الأيام كان الشيخ أبوسعيد يتحدث فى مجلس . فدخل السيد الإمام حسن السمرقندى ، وسمع كلام الشيخ ، وقال لنفسه : أى كلام هذا الذى يقوله الشيخ ؟ . فالتفت الشيخ إليه فى الحال وقال : لقد قرأت الصحيح خمس عشرة مرة ، فما هو آخر خبر قرأته فى الصحيح ؟ . وكان السيد الإمام حسن قد قرأ الصحيح خمس عشرة مرة ، ولكنه رغم إطالة التفكير ، عجز عن أن يتذكر ذلك الخبر . فقال الشيخ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان، حبيبتان إلى الرحمن « سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم »، فخجل السيد الإمام ، وانهارت كبرياؤه. وعندماخرج قال : لقد حفظت الصحيح خمس عشرة مرة ، وقرأته مرارا ، ولكننى حاولت كثيراً فلم أستطع أن أتذكر هذا الخبر .

حكاية :

قال السيد عماد الدين محمد أيضا : سمعت جدى الأستاذ أبابكر النوقانى يقول فى يوم من الأيام كان الشيخ أبوسعيد والسيد حمويه وأنا جالسين فى مسجد الشيخ فى ميهنه . فدخل شاب من الأتراك وسأل : من كبير ميهنه ؟. فأشار الشيخ إلى السيد حمويه ، فقال له الشاب : اعرض علىّ الإسلام . فقال السيد حمويه

للشيخ : اعرض عليه الاسلام . وقلت أنا : لاتتمهلوا وحرروه من قيده . فقال لى الشيخ : اعرض عليه الإسلام أنت . فعرضته عليه،وأسلم الشاب . وسألته ماذاحدث لك ؟ . فقال : لقد كنا أخوين ذاهبين إلى تاجر فى طبرستان ، ورأيت فى نومى هاتفا يقول لى : انهض واذهب إلى ميهنـه ، وأسلم على يد كبيرها . فاستيقظت وأخذت أفكر فى هذا الكلام . وراق الإسلام لقلبي ،(ص ٢٠٣) وظهرلى أن ذلك الحلم كان حقيقة ، فقلت لأخى : أنت أدرى بالمال . وتركت الجميع وسرت وجئت إليكم ، وأسلمت على هذا النحو . فالتفت الشيخ إلىّ وقال : لقد حسبتنا فى عداد العلماء ، وغرامة ذلك أن تعلمه قدرا من القرآن لتصح صلاته . فعلمت الشاب حتى سورة « الضحى » . ولما عاد السيد حمويه إلى منزله ، أرسل كل ما كان يلبسه من الملابس ، من عمامة ودراعة وقميص وإزار وحزام وحذاء وجورب ،إلى الشيخ قائلا : انفق هذه من أجل تطهير الشاب . وأمر الشيخ حسن بن المؤدب ببيعها ، وإقامة مأدبة للدراويش،وطهروا ذلك الشاب ، وأصبح من خيرة الرجال.

حكاية :

قال السيد عبد الكريم خادم الشيخ الخاص . كان أحد الدراويش قد استوقفنى لأكتب له بعض حكايات الشيخ .. فأقبل شخص وقال لى: إن الشيخ يدعوك . فذهبت إليه . ولما اقتربت منه سألنى : ماذا كنت تفعل ؟. فقلت : لقد طلب منى أحد الدراويش بعض حكايات الشيخ ،فكنت أكتبها له. فقال الشيخ: ياعبد الكريم ، لاتكن كاتبا للحكايات ، ولكن كن بحيث يحكون الحكايات عنك .

وفى هذا الكلام عدة فوائد ، أولا : أن الشيخ أدرك بفراسته ماذا كان

يفعل السيد عبد الكريم . ثانياً : كيف يكون تأديبه له . ثالثا : أنه لم يرغب فى أن يكتب حكايات كراماته فيحملونها إلى أطراف العالم ويصبح مشهوراً على نحو ماذكرت فى بداية الكتاب من أن الشيوخ كانوا يخفون أحوالهم .

حكاية :

كان فى قرية ازجاه درويش يدعى حمزة السكان . وكان مريداً للشيخ ، يحضر إلى ميهنه فى كل يوم يعقد فيه الشيخ مجلسا ، ثم يعود عندما ينهى الشيخ المجلس ، ماعدا يوم الخميس ، إذ كان عندما ينتهى المجلس يظل فى ميهنه حتى يوم الجمعة ويمضى اليوم فى خدمة الشيخ ، ويعود بعد أن يؤدى الشيخ صلاة (ص٢٠٤) الجمعة ، وكان حمزة هذا رجلا طيبا ، حييا ، وإن كان يبدو جبانا . وفى ذلك الوقت كان لجماعة الصوفية زاوية فى مسجد دار الشيخ ، يقيمون بها.وذات يوم جاء حمزة هذا عند الظهر ،ودخل المسجد ، وأحدث ضجة، وفتح باب المسجد فى خشونة كبيرة ،بحيث تألم الدراويش جميعا واضطربوا. وكان الشيخ قد اطلع على هذا الأمر ، فخرج من صومعته ، ولم يكن من عادته أن يخرج فى مثل هذا الوقت، وشمل الاضطراب الجميع ، وشكوا حمزة إلى الشيخ قائلين إنه تسبب فى إقلاقهم . فأمرهم الشيخ باستدعائه . وكان قد ذهب إلى السوق ، فذهبوا إليه وأحضروه . وقال له الشيخ : ياحمزة ، إن الدراويش يشكون منك ، فأنت تبدد أوقاتهم ، ولا تتمسك بالعقل . فبم تجيب ؟. فقال حمزة : أيها الشيخ ، ماداموا لا يستطيعون تحمل متاعب حمزة فلينزعوا ثياب الحمالين ، لأن ثياب الحمالين هذه إنما هى من أجل من يتحملون . فتملكت الشيخ حال من البسط ، وصرخ قائلا : قل ذلك ثانية ياحمزة . فكرر حمزة قوله. فصاح الشيخ مرة أخرى وقال : قل مرة أخرى

فقال حمزة .وصرخ الشيخ ،وأمر بإحضار السكر . فأحضر حسن طبقا من السكر ووضعه أمام الشيخ، فأخذ ينثره بيده المباركة على رأس حمزة،وهو يصيح قائلا: « من لم يطق احتمال الأذى فعليه أن ينزع ثوب الحمالين » .

حكاية :

روى أنه عندما جاء الشيخ أبوسعيد قدس الله روحه العزيز إلى ناحية « باورد » أراد أن يمر من هناك . وكان فى باورد لص قد تاب ، فجاء إلى الشيخ وقال له : أيها الشيخ : ماذا يحدث لو أنك أقمت فى باورد بضعة أيام ؛ ليطمئن الناس إليك . فقبل الشيخ ، وأقام هناك ثلاثة أيام(ص٢٠٥). وكان هذا العريف يعطى حسن دينارا كل يوم ويقول له أنفقه على طعام الدراويش . وكان حسن ينفق الدينار والدراويش يعترضون على ذلك ، ويقول كل منهم قولا، ويتساءلون أهو مال حلال ؟. وكان الشيخ كعادته لايقول شيئا . وبعد مضى ثلاثة أيام عزم الشيخ على الرحيل وقال أمام الجميع : أين العريف؟ نادوه . ففعلوا . وعندمادخل الرجل سأله الشيخ : من أين كانت النقود التى انفقتها على طعام الدروايش ؟ . فأجاب : كان قد بقى لى من ميراث جدتى قلادة بها ثلاث حبات من الذهب ، وقد وصلت إلى عن طريق الميراث الحلال . وكنت اتفق كل يوم حبة من هذه الحبات . وقد نفذت الحبات اليوم ، وعزم الشيخ على الرحيل . ولما سمع الناس كلامه ، زال شكهم ، وازداد اعتقادهم فى الشيخ .

حكاية :

كان للسيد الإمام أبىعاصم العياضى ولدان . فقال له أخوه أبو نصر العياضى

أرسلهما إلى الشيخ — يقصد أبا سعيد — لينا لابركته ،ويدعو لهما . فذهبا إليه .
ولما اقتربا من الشيخ ، ووقع بصره عليهما ،قال من بعيد: « وصل،وفهمت،أنبتهما
الله نباتا حسنا » .

* * *

اعلم أن حكايات كرامات الشيخ أكثر من أن (ص ٢٠٦) يحتملها هذا
الكتاب . ولما كنا قد اشترطنا على أنفسنا الإيجاز والاختصار ، فقد اقتصرنا
على هذا القدر ،بعد أن بذلنا فى تصحيح الأسانيد وصدق الرواية أقصى مايمكن
أن نبذله من الجهود ، وقمنا بأدق الاحتياط والاستقصاء . وكل مايذكر أكثر
من هذا ،يخرج بنا عن حد الاختصار ،وينتهى إلى السأم والملل.وإذا طالع شخص
عشر هذا المقدار ، طلباً للفائدة ، فسوف يتم مقصوده .

أسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق فى الاستماع إلى الحق ، وأن يكرمنا
بالصدق ، وأن يبقى بركة أنفاس ذلك العظيم وأوقاته وأحواله حتى قيام الساعة ،
بحق محمد وعترته الطاهرين .



الفصل الثانى

فى الحكايات التى تتأتى منها فائدة ، وبعض حكايات الشيوخ التى جرت على لفظ الشيخ المبارك من أجل الفائدة

حكاية :

روى أن الشيخ أباسعيد قدس الله روحه العزيز كان فى دورة المياه يوما . وعندما كان مشغولا بالاستبراء، دعا حسن بن المؤدب ،وقال له: تعال ، واخلع عنى هذا الثوب ، وهيء بعض الحلوى للدراويش. فذهب حسن وفق إشارة الشيخ، وقال له : أيها الشيخ ، ماذا كان يحدث لو أنك تريثت حتى تفرغ من الوضوء ؟. فقال الشيخ : لايجب أن يقطع الشيطان الطريق .

وقد أظهر الشيخ له بهذه المسألة الدقيقة أنه إذا خطر له خاطر من عند الله بعمل شيء فإنه ينبغى التعجيل فيه .

ولاتغتر بحياتك، لأن المشايخ الكبار، مع ماتهيأ لهم من الكشف ، والأنبياء مع كمال أحوالهم، لم يكونوا فى مأمن من مكر الشيطان . قال تعالى: « وماأرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته » .

حكاية :

كان فى عهد الشيخ قدس الله روحه العزيز درويش يقوم بكل المهام الخشنة ، وأينما وجد عمل شاق قام به . وفى وقت من الأوقات كان يزيل الوحل ، وكانت يداه ورجلاه ملوثة به ، فخرج من عمله على هذا الحال،وجاء إلى الشيخ ، وقال له: أيها الشيخ ، إننى لا أستطيع أن أقوم بكل هذه الأعمال الشاقة من أجل الله ، (ص ٢٠٨) وإنما أطمع فى أن يثنى الشيخ علىّ ، ويشجعنى بثنائه. فسر الشيخ من صدق الدرويش وقال له : سأفعل هكذا . وبعد ذلك أخذ الشيخ كلما رأى الدرويش يقوم بعمل أثنى عليه. وكان — الدرويش— يسر بذلك الثناء ، ويستمد منه القوة .

حكاية :

عندما كان الشيخ فى طوس ، كان قد جلس يوما مع السيد الإمام أبى الحسن الرواق ،وأخذا يتحدثان. وكانت هناك مشكلة اعترضت الشيخ ، فتحدثا فيها، حتى حل إشكال الشيخ . وقال الشيخ : إن الله يهيىء لنا الأمور . ثم قال : « الحمد لله رب العالمين » . وسأله السيد أبو الحسن الرواقى: أيها الشيخ ، إذن فهو الله الذى يهيىء أمورنا ؟. فقال الشيخ : لا ولكن تدخلوا فى أعمالكم ، وقولوا لقد فعلت كذا ، وسأفعل كذا، وينبغى أن أفعل كذا ، والله يهيىء لكم الأمر . قولوا هانحن أولاء ، وإن كان لادخل لنا فى عملنا .

حكاية :

كان السيد الإمام المظفر حمدان يقول فى نوقان يوما : أنا والشيخ أبوسعيد مثل مكيال من الذرة ، الشيخ أبوسعيد حبة منه ، والباقى أنا. وكان أحد مريدى

الشيخ أبي سعيد فى ذلك المكان ، فلما سمع هذا القول ، أخذه الحماس ، ونهض وأسرع إلى الشيخ ،وأخبره بما سمع من السيد الإمام المظفر. فقال له الشيخ: اذهب وقل للسيد الإمام المظفر إنه هو تلك الحبة أيضاً ، أما أنا فاست شيئا .

حكاية :

كان الشيخ أبوسعيد قدس الله روحه العزيز فى طوس ، وعندما عزم على الرحيل ،خرج معه الأستاذ أبوبكر لوداعه . وحاول الشيخ كثيرا أن يعيده ، فلم يستجب له . وقال له الشيخ : يجب أن تعود.فقال الأستاذ:أيها الشيخ ، لن أعود دون أن (ص ٢٠٩) تدلني على الطريق. فقال الشيخ: انهض من طريق التدبير ، واجلس فى طريق التقدير :

حكاية :

توفى للشيخ ابن صغير ، وكان الشيخ يحبه كثيرا . وعندما حملوه إلى المقبرة، وضعه الشيخ فى القبر بيده . ولما خرج من القبر ، انهمر الدمع من عينيه ، وأخذ يقول لنفسه هذا الشعر بصوت منخفض :

(شعر)

— ينبغى أن ترى الشر وتتخيله خيرا ،
وأن تتجرع السم وتتخيسله شهداً .
— ولقد صنعت لجاما ، ولم أكن أعرف،
انه سوف يصبح أقوى بالجذب.

ثم توفى للشيخ ابن صغير آخر فقال : لقد طلب منا أهل الجنة تذكارا ، فأرسلنا لهم نفحتين من عطرنا حتى نصل .

حكاية :

عندما كان الشيخ فى نيسابور ، قال يوماً : ينبغى إعداد الجواد ، فأعد . وخرج الشيخ ، وفى رفقته عدد كبير من الصوفية، ووصلوا إلى قرية على باب نيسابور. وسأل الشيخ : ماذا يسمون هذه القرية ؟ قالوا «باب الحبيب» . فنزل الشيخ بها، وأمضى اليوم فيها مع الجماعة . وفى اليوم التالى سأله الصوفية : أيها الشيخ : هل نرحل ؟. فقال : إن الشخص يسير طويلا ليصل إلى باب الحبيب ، ومادمنا قد وصلنا إلى هنا فإلى أين نذهب ؟. وأقام فى ذلك المكان أربعين يوما ، وظهرت كثير من الكرامات ، وتاب أكثر أهل القرية على يد الشيخ ، وأصبحوا من مريديه ، وجاءوا إلى نيسابور فى رفقته .

حكاية :

كان الشيخ أبوسعيد قد احتجم يوما، فقال لحسن: ياحسن ، كيف ترانى ؟. فقال حسن هذا البيت :

— عندما يحتجم الناس تسيل منهم الدماء ،
وعندما تحتجم أنت يسيل منك العشق .

وقال الشيخ للفصاد : امسك يدى واربطها . وربطوا يد الشيخ ولم تنزف ثانية .

حكاية :

كان الشيخ أبوسعيد يتحدث يوما فى مجلس ، فدخل السيد أبوعلى بن سينا من باب الخانقاه . ولم يكن أحدهما قد رأى الآخر قبل هذا (ص ٢١٠) ولو أنه حدثت بينهما مكاتبات . وعندما دخل أبوعلى من الباب، التفت إليه

الشيخ وقال: لقد جاء حكيم. ودخل السيد أبو على وجلس، واستمر الشيخ فى الحديث، وأنهى المجلس، وذهب إلى المنزل. وذهب معه أبو على بن سينا، وأغلقا الباب عليهما، واختليا معا ثلاثة أيام وليال، وتحدثا أحاديث لم يعرفها أحد، ولم يدخل عليهما إلا من سمحا له، ولم يخرجا إلا لصلاة الجماعة.

وبعد ثلاثة أيام رحل السيد أبو على بن سينا. وسأله تلاميذه: كيف وجدت الشيخ؟. فقال: إنه يرى كل ما أعرف. وسأل مريدو الشيخ الشيخ قائلين: أيها الشيخ: كيف وجدت أنا على؟. فقال: إنه يعرف كل ما أرى.

وقد مال أبو على إلى شيخنا، وكان يأتى إليه كثيرا، ويرى كراماته. وذات يوم دخل من باب دار الشيخ، وكان الشيخ قد أمر بإعداد الجواد لزيارة « اندرزن » وهو موضع بجوار نيسابور، يقع على الجبل، حيث كان يوجد غار إبراهيم وصومعته، فقال الشيخ: إننا نعتزم القيام بزيارة. فقال أبو على: سنسير فى صحبتك. وسارا ومعهما جمع كبير من الصوفية، ومريدى الشيخ، وتلاميذ أبى على. ووجدا فى الطريق الذى كانا يسيران فيه نايا ملقى على الأرض فقال الشيخ: ارفعوا هذا الناى. فرفعوه، وأعطوه له. وأمسك الشيخ بالناى، ووصلوا إلى مكان به حجر صلد، فوضع الشيخ الناى على ذلك الحجر، وثبته فيه. وعندما رأى أبو على ذلك، سقط على أقدام الشيخ ولم يعلم أحد. ماذا كان يجول بضمير أبى على حتى أبدى له الشيخ هذه الكرامة. (ص ٢١١).

أما السيد أبو على فقد أصبح مريداً للشيخ هكذا، بحيث لم تكن تمضى أيام قلائل حتى يأتى لزيارته. وبعد ذلك كان يورد فى كل كتاب يؤلفه فى علم الحكمة فصلا وافيا فى إثبات كرامات الأولياء، وحالات المتصوفة. وألف، كما هو معروف، مؤلفات منفردة فى بيان مراتبهم، وكيفية سلوك جادة الطريقة والحقيقة.

حكاية :

عندما أصبح السيد حسن بن المؤدب مريدا للشيخ وانقطع لخدمته في نيسابور ، بذل كل ما كان يملك من مال في سبيل الشيخ . وكلفه الشيخ بخدمة الدراويش ، وأخذ يتعهد بالتربية ، ويأمره بممارسة الرياضة ، ويحثه على تأدية شروط هذا الطريق . وفي ذلك الوقت كان قد بقي في باطن السيد حسن شيء من حب السيادة. وذات يوم ناداه الشيخ وقال له : ياحسن ، ينبغي أن تأخذ مخلاة ، وتذهب إلى سوق الكرمانيين ، وتشتري ماتجده من الكرش والكبد ، وتضعه في المخلاة. وتحمله على ظهرك ، وتحضره إلى الخانقاه .

وأخذ حسن المخلاة ، وذهب وفق إشارة الشيخ ، وكان هذا الأمر شديدا عليه ، وذهب مضطرا إلى سوق الكرمانيين ، واشترى كل ماوجد من الكرش والكبد ، ووضعها في المخلاة، وحملها على ظهره ، وأخذت الدماء والأقذار تسيل عليه. وكان يشعر بالخجل من أن يراه على هذه الحال الناس الذين كانوا يرونه إلى عهد قريب بالملابس الفاخرة ؛ فقد كان من الصعب عليه أن يتخلى عن سيادته .

وهذه طبيعة الناس جميعا ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « إن آخر مايخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة » . وكان هدف الشيخ من هذا الأمر أن يخرج من رأسه ما بقي من السيادة وحب الجاه.

ولما حمل حسن المخلاة، وأحضرها على هذا النحو من (ص٢١٢) سوق الكرمانيين إلى خانقاه الشيخ في محلة عدني كوبان ـ وكانت في النصف الأيمن لسوق نيسابور ـ ودخل من باب الخانقاه ، ووقف أمام الشيخ ؛ أمره الشيخ بأن يحملها إلى بوابة الحيرة، ويغسلها ، ويطهرها ، ويعيدها . وكانت ـ بوابة الحيرة ـ في النصف الأيسر لسوق المدينة . وذهب حسن إلى بوابة الحيرة على هذا النحو ونظف تلك

الأجزاء وأعادها . ولما دخل الخانقاه ، لم يكن قد بقى فيه من السيادة وحسب الجاه شيء . فدخل على الشيخ حرا مسرورا . فقال له الشيخ ينبغى الآن أن تحمل هذه إلى المطبخ، لتكون طعاما للصوفية الليلة. فحملها حسن، وأعد كل شيء ، وانهمك الطباخ فى إعدادها . وأدرك الشيخ أن حسن تحمل مشقة كبيرة فى تلك الرياضة ، فناداه وقال له : ينبغى لك الآن أن تغتسل ، وترتدى ملابس نظيفة كعادتك ، وتذهب إلى سوق الكرمانيين ، ثم تذهب من هناك إلى بوابة الحيرة ، وتسأل جميع من بالسوق عما إذا كانوا قد رأوا شخصا يحمل مخلاة على ظهره . فذهب حسن وفق إشارة الشيخ ، وأخذ يسأل كل حانوت فى السوق من أوله إلى آخره . ولم يقل له أحد لقد رأيت هذا الشخص ، أو لقد كان ذلك الشخص أنت . ولما رجع حسن عند الشيخ قال له : ياحسن ، إنك أنت الذى كنت ترى نفسك ؛ وإلا لما كانت لأحد القدرة على رؤيتك . ونفسك هى التى كنت تضعها فى عينيك ، ويجب عليك أن تقهرها وتسحقها سحقا، لأنك لن تتخلص منها مالم تحطمها . وعليك أن تشغلها بالله ، فلم تعد لها طاقة على نفسها ، أو على الناس. وعندما شاهد حسن تلك الحال ، تخلص من قيد الظن وحب السيادة ، وتحرر من هذا كله. وقام الطاهى بطهى الكرش والكبد . وأعدت المائدة فى تلك الليلة ، وجلس عليها الشيخ والصوفية . وقال الشيخ : أيها الأصدقاء ، كلوا فأنتم اليوم تأكلون سيادة حسن .

حكاية :

(ص ٢١٣) جاء شخص إلى الشيخ يوما وقال له : أيها الشيخ ، لقد جئت لتطلعنى على شيء من أسرار الله . فقال له الشيخ : عد غداً . فرجع الرجل . وفى

ذلك اليوم كان الشيخ قد أمر فأمسكوا فأرا، ووضعوه فى صندوق صغير،وأحكموا غطاءه . ولما عاد الرجل فى اليوم التالى قال : أيها الشيخ ، حدثنى بما وعدتنى به . فأمر الشيخ بأن يعطوه ذلك الصندوق ، وقال له: حذار ،ولاتفتح هذاالصندوق . فأخذ الرجل الصندوق ،وعاد إلى منزله . وتملكته الرغبة فى أن يعرف أى سر فى هذا الصندوق ؟. ومهما حاول أن يمنع نفسه لم يستطع الصبر. وفتح غطاء الصندوق فقفز الفأر وهرب . وجاء الرجل إلى الشيخ وقال له : إيها الشيخ ، لقد طلبت منك سراً من أسرار الله تعالى فاعطيتنى فأرا. فقال الشيخ: أيها الدرويش ،لقد أعطيتك فأر فلم تستطع أن تخفيه ، فكيف تخفى سر الله الذى أحدثك به ؟.

حكاية :

كان الشيخ قدس الله روحه العزيز يدعو كل مريد أن يؤهل ليكون من جملة تلاميذه ويقول له : افعل ثلاثة أمور ، الأول : حافظ على كل مايحضره هذا السيد إلى الدار من الغلة واللوازم ،ولاتتصرف فيها على نحو ماتفعله النساء مع الغزال والنساج دون أمر أزواجهن؛ لأن البركة تزول بسبب ذاك. والثانى : لاتترك بيت العنكبوت فى الدار،لأن الشيطان يستوطن فيه ، وجلساؤنا ليسوا من جلساء الشيطان. والثالث : كل طعام تنوى طهيه ، وكل شىء تضعه فى القدر ، سواء كان من اللحم أوالحبوب، اغسله أولا بالماء ثم ضعه . وتذكر هذه الأمور الثلاثة لكى توفق.

حكاية :

فى وقت من الأوقات كان الشيخ يتوضأ . وأرسل درويشا ليحضر الماء ، فتأخر الدرويش. وأخذت جماعة الدراويش يعترضون على ذلك التأخير وينكرونه

(ص٢١٤) قائلين : إن الطريق قريب فلماذا تأخر ؟. وكان الشيخ يرى شكهم ، فلما رجع الدرويش قال لهم : إن الماء الذى يلزم لوضوئى لم يكن قد خرج بعد من العين ، وكان هـذا الدرويش ينتظر خروجه ، فلما خرج ، أخذه وأحضره ، فلا تشكوا .

حكاية :

كان السيد الإمام أبو بكر الصابونى زميلا للشيخ فى مدرسة مرو . وعندما بلغ الشيخ تلك الدرجة التى بلغها ، جاءه السيد الإمام أبو بكر وقال له : أيها الشيخ، لقد كنا زميلين فى مدرسة واحدة ، وتعلمنا معا ، فأوصلك الله تعالى إلى هذه الدرجة العظيمة ، وبقيت أنا هكذا فى العلم ، فما سبب ذلك؟. فقال الشيخ : هل تذكر اليوم «الفلانى» الذى أملى علينا فيه الاستاذ ذلك الحديث «من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » وكتبناه نحن الأثنين ، ماذا صنعت به عندما ذهبت إلى المنزل ؟ . فقال : حفظته وانشغلت بأمر آخر . فقال الشيخ : إننى لم أفعل هـذا ، فعندما ذهبت إلى المنزل ، انتزعت من أمامى كل ما لى منه بد، وأبعدته عن فكرى ، أما ما لم يكن منه بد ، فقد أخذت به ، وأسلمت فكرى إليه . وذلك هو ما أمر به الحق ؛ فقد ورد فى الخبر « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون . أنا بدك اللازم فالزم بدك . لا إله إلا الله فاتخذه وكيلا » .

حكاية :

سئل الشيخ : من أظرف شخص فى سرخس ؟ . فقال : أظرف شخص فى مدينتكم هو لقمان . فقالوا : أيها الشيخ ، لا يوجد فى مدينتنا من هو أكثر منه

اضطرابا وقذارة . فقال الشيخ : لقد أخطأتم، إن الظريف يكون طاهرا. والطاهر هو الشيء الذى لاصلة بينه وبين أى شيء آخر . ولايوجد من هو أكثر انقطاعا ولا طهارة من لقمان (ص٢١٥) لأنه ليس لهعلاقة بشيء قط .

حكاية :

قيل للشيخ: إن فلانا يسير على الماء.فقال:هذا أمر سهل ،فالخطاف والصعوة يسيران أيضا على الماء . وقيل له : إن فلانا يطير فى الهواء. فقال: إن الغراب والبعوضةبطيران أيضا فى الهواء. وقيل له : إن فلانا ينتقل من المشرق إلى المغرب فى لحظة واحدة . فقال: إن الشيطان أيضا ينتقل من المشرق إلى المغرب فى لحظة واحدة ،ومثل هذه الأشياء لاقيمة لها. إنما الرجل(الذى يكون جديرا بهذاالأسم) هو الذىيعيش بينالناس،ويقوم وينام ويتعامل معهم ،ويختلطبهم، ولا يغفل لحظة واحدة عن ذكر الله .

حكاية :

فى يوم من الأيام كان المؤذن يؤذن لصلاة الفجر ويدعو للصلاة، وقد أوشك الوقت أن ينتهى والشيخ لم يخرج من داره،وذهب المؤذن إلى باب الشيخ،وأذّن عدة مرات حتى إنتهى الوقت . فخرج الشيخ ، وأقام المؤذن الصلاة ، وقضيت الصلاة . وجلس الشيخ ، وسأله الشيوخ والدراويش قائلين : أيها الشيخ ، ماذا حدث حتى أنك خرجت متأخرا اليوم ؟ فقال الشيخ : لقد أمسكت الدنيا بأذيالى وأخذت تقول لى إن لكل شيء نصيبا منك ،وينبغى أن يكون لى أنا أيضا نصيب . واجتهدت كثيرا فى الخلاص منها والحث عليها فلم تتركنى . وعندما أوشك وقت الصلاة أن ينتهى،شغلتها بمفضل حتى تترك أذيالى. وبعد ذلك أقبلت الدنيا على السيد مفضل وأولاده ، ولم يكن لأحد من أبناء الشيخ نصيب من الدنيا

سوى الكفاف ، باستثناء أبناء السيد المفضل ، فقد كانوا جميعا ذوى مال وثروة .
وكان أكثر أبناء الشيخ إهتماما بالدنيا هم أبناء السيد مفضل .

حكاية :

(ص ٢١٦) ذهب الشيخ أبو سعيد إلى طوس مرة ، فطلب أهلها منه أن يعظ ،فأجابهم إلى طلبهم. وفى وقت الفجر، وضعوا منصة فى خانقاة لأستاذ ، وأخذ الناس يتوافدون ويجلسون. وعندما إعتلى الشيخ المنصة ، وقرأ المقرئون القرآن ، تكاثر الناس بحيث لم يعد هناك مكان لأحد ، فنهض المعرف وقال : غفر الله لكل من يتحرك من مكانه خطوة . فقال الشيخ : « وصلى الله على محمد وآله أجمعين ». ومسح وجهه بيديه وقال : لقد قال كل ما كنت أرغب قوله ، وماقاله جميع الرسل ، فقد قال «غفر الله لكل شخص يتحرك من مكانه خطوة». ونزل الشيخ عن المنصة ، ولم يقل أكثر من هذا فى ذلك اليوم .

حكاية :

قال الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز : لقد تكلم مائة من الشيوخ فى التصوف،فقال أولهم ماقاله آخرهم. وإذا كانت العبارات قد إختلفت،إلا أن المعنى واحد . وهو. «التصوف ترك التكلف ». وليس هناك تكلف أكثر من نفسك ، فعند ماتنشغل بنفسك تعجز عنه .

وقال الشيخ : قال الشيوخ والمرشدون : كل مايليق للناس لايليق لله ، وكل مايليق لله لايليق للناس .

وكان الشيخ يقرأ القرآن يوما فلما إنتهى الوقت ، أخذ يقرأ كل آية من آيات الرحمة، ويترك كل آية من آيات العذاب . فقال له شخص : أيها الشيخ ، ليس هذا نظام القرآن . فقال الشيخ :

(شعر)

– أعطنى الخمر أيها الساقى ، وأنت أيها المطرب اعزف على العود ،
كى أشرب الخمر اليوم فقد حان وقت الطرب والسرور .
– ولقد تهيأت لنا الخمر والمال والحسان الجميلات ،
ولا توجد هنا آلام ولا احزان ، وإذا وجدت فهى من نصيب الأعداء .

ثم قال : إن البشرى والمغفرة كلها من نصيبى ، أما العذاب فمن نصيبهم .
فماذا أصنع والعيب عيبهم وظهر الشك على أحد الدراويش ، فقال الشيخ : «ذلك رغم أنف أبى الدرداء » . وقد ردد الشيخ هذا القول كثيرا .

* قال الشيخ : قال الشيخ أبو بكر الواسطى : (ص ٢١٧) « تعلق الخلق بالخالق كتعلق المسجون بالمسجون » .

* وقال الشيخ: طلب سائل من شيخ أن يعظه ، فقال له : كل شىء من العلا إلى الثرى ذرة فى قدرته ، وكل علم لا يصل إلى ذرة من وجود الله ، والكلام فى الشىء الذى هو ليس بشىء محال ، لأن العبارة لا تصل اليه .

* قال الشيخ : وقيل لذلك الشيخ مرة أخرى : حدثنا . فقال: «ماسوى الله فليس له حقيقة فماذا نُكَلِّمُ » .

* قال الشيخ : قال سهل بن عبد الله : قبيح لمن يلبس الخرقة وهم الأرزاق فى قلبه . فهو لا يعرف أن « أرزاق العباد على الله لا يقوم بها إلا فضله » .

* قال الشيخ: كنت عند أبى العباس القصاب فى طبرستان ، وكان كلما جاء إليه الدراويش وطلبوا إليه أن يتمنى لكل منهم أمنية يقول : ياالهى ... يلزم لكل شخص أمنية ، وليس لى أمنية . ولكل شخص وجود، ولا يلزم لى وجود ، وإنما يلزم لى الفناء .

حكاية :

كان الشيخ أبو سعيد يتحدث يوما فى مجلس فى نيسابور ، وعندما إندمج فى الحديث ، قال فى وسط كلامه : « ليس فى الجبة سوى الله » . وأشار بأصبعه إلى الجبة التى كان يرتديها ، فخرج أصبعه منها حيث مس صدره المبارك . وقد حدث ذلك فى حضور كثير من الشيوخ مثل أبى محمد الجوينى ، والأستاذ الأمام أبى القاسم القشيرى ، والأستاذ إسماعيل الصابونى ،وكثير من كبار الشيوخ الآخرين. ولم يعترض واحد منهم على هذا القول ، وتملك الجميع حال من الوجد،حتى أنهم غابوا عن أنفسهم.وخلع جميع الشيوخ الخرق مثل الشيخ،ووضعوها فى وسط المكان . وعندما أنهى الشيخ حديثه ،ونزل عن المنبر،مزقوا جبة الشيخ ، وخرق (ص٢١٧) جميع الشيوخ . واتفق الشيوخ جميعا على ألا يمزقوا مقدار الذراع من الكرباس الذى يحمل علامة أصبع الشيخ ، وأن يحتفظوا به ؛ لكى يزوروه فى كل وقت يفدون فيه على هذا المكان ، أويرحلون عنه .

وبقى ذلك — الذراع — فى حوزة السيد الشيخ أبى الفتح وأبنائه . وكان الناس الذين يجيئون إلى ميهنه من جميع أنحاء العالم لزيارة الشيخ ، عندما ينتهون من زيارة قبره المقدس ، يزورون تلك القطعة مع غيرها من آثار الشيخ ، ويرون أثر ذلك الأصبع . وقد ظلت فى مكانها حتى فترة غارة الغز ، ثم ضاعت مع الآثار المباركة الآخرى .

حكاية :

كان فى نيسابور درويش يقال له «حمزة التراب» لكثرة تواضعه .وذات يوم كتب رقعة إلى الشيخ، ووقعها ، لشدة تواضعه بكلمة:« تراب القدم » . فكتب الشيخ هذا البيت على ظهر الرقعة وأرسلها إليه :

« بيت »

— إذا كنت قد صرت ترابا ، فقد أصبحت ترابا لترابك ،
وعندما أصبحت ترابا لترابك ، أصبحت نظيفا طاهرا .

وقد ذكر جدى ـ جد المؤلف ـ شيخ الإسلام السيد أبو سعيد أن بعض الناس يعتقدون أن الأشعار التى جرت على لسان الشيخ من قوله ، ولكن الأمر ليس كذلك ، لأنه كان مستغرقا هكذا فى الله ، بحيث لم تكن له قدرة على قول الشعر ، إلا هذا البيت الذى كتبه على ظهر رقعة حمزة ، وهذه الرباعية الأخرى التى قالها الشيخ :

« رباعية »

أيها الحبيب ، لاتوجد فى أرض خاوران
شوكة واحدة ليس لها علاقة بى وبعهدى
وإذا كانت لى مائة ألف روح ، لما أصابنى العار
لو بذلتها جميعها من أجل لطفك ورقتك

أما الاشعار الآخرى كلها ، فقد كانت مما حفظه الشيخ عن المشايخ .

حكاية :

(ص٢١٩) قال الشيخ : سمعت هذا البيت من أبى القاسم يشرياسين فقد قال لى يوما : يا أبا سعيد :

« بيت »

— ينبغى للمريد أن يكون ضاحكا وقلبه يحترق ،
وليس مثل هذا الرجل كثير .

* كان الشيخ مسترسلا فى الحديث يوما وقد جلس إليه كثير من الشيوخ والصوفية فبكى واحد من القوم بصوت مرتفع حتى تألم الجميع كثيرا لبكائه . فنظر الشيخ إلى ذلك الرجل نظرة قاسية وقال له : « إن شئت أن تقول كما قلت فاقعد كما قعدت ، فان من ثبت نبت ومن صبر ظفر » . ثم قال : «سمعت أن عقبة بن عامر قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا تم فجور العبد ملك عينيه فبكى بهما ماشاء » . ثم قال :

(شعر)

لوأن دونك بحر الصين معترضا .·. لخلت ذلك سرابا ذاهب الأثر
ولو دعيستو فيما بيننا سقر .·. لهون الشوق خوض النار فى السقر

* وقال شيخنا أيضا : دخل رجل على الشيخ أبى الفضل حسن يوما وقال له : أيها الشيخ ، رأيتك فى نومى أمس ميتا ، ومحمولا على نعش . فقال الشيخ أبو الفضل : لقد رأيت هذا الحلم لنفسك ، فهم لايموتون أبدا « فمن عاش لله لايموت أبدا » .

حكاية :

روى أن درويشا كان يتوضأ يوما ، فدخل الشيخ إلى دورة المياه . وكان الدرويش يغسل يده ويقول « اللهم أعطنى كتابى بيمينى » . فقال له الشيخ : لتصنع به ماذا أيها الدرويش ؟ وماذا ستقرأ فى ذلك الكتاب ؟ لاينبغى أن تقول مثل هذا القول ، فليس لك قدرة عليه . فقال الدرويش : وماذا أقول إذن أيها الشيخ ؟ فقال له : قل « اللهم اغفر وارحم ولاتسأل » .

حكاية :

(ص٢٢٠) كان «بابا حسن» إمام الشيخ فى الصلاة ، وقد كان أمام الصوفية

على عهد الشيخ . وذات يوم كان يؤدى صلاة الفجر ، ولما قرأ القنوت قال : « تباركت ربنا وتعاليت ، اللهم صلى على محمد » ثم سجد . وعندما فرغ من الصلاة قال له أبو سعيد : لماذا لم تصل على آل محمد ولم تقل « اللهم صلى على محمد وآل محمد ؟ ». فقال بابا حسن : ياشيخ ، إن الصوفية يختلفون فى هل تجوز الصلوات على آل محمد فى التشهد والقنوت أم لا . ولم أقل ذلك احتياطا من أجل ذلك الخلاف . فقال الشيخ : إنى لا أسير فى موكب لا يكون فيه آل محمد .

حكاية :

عندما كان الشيخ فى نيسابور ، وقد أنكره الناس فى جميع الجهات ، كان الأستاذ الإمام أيضا من أولئك المنكرين . فلما جاء إلى مجلس الشيخ ، زال عنه ذلك الإنكار ، وإن كان يراوده أحيانا ، نتيجة لضعف الطبيعة البشرية. وفى يوم من الأيام كان الأستاذ الإمام يرافق الشيخ والصوفية إلى أحد الأحياء . وجاء كلب غريب إلى ذلك الحى ، فنبحت كلاب الحى دفعة واحدة ، وهجمت على الكلب ، وجرحته ، وأخرجته من الحى . فسحب الشيخ عنان جواده وقال: إن أبا سعيد غريب فى هذه المدينة ، فلا يليق أن يصنع معه ماصنع مع الكلب . فزال الإنكار والشك عن الأستاذ الإمام ،وصفت نفسه تماما .

حكاية :

كان السيد عبد الكريم خادم الشيخ الخاص من أهل نيسابور. قال : كنت صغيرا عندما أحضرنى أبى لخدمة الشيخ أبى سعيد . فلما عاد والدى ، وقفت بين يدى الشيخ ، وقع بصره على قشة ملقاة فى الرواق ، (ص ٢٢١) فأشار الشيخ إلىّ أن أحضرها . فحملتها إليه . فقال لى : بم تسمى هذه فى لغتكم ؟ . قلت :

قشة . فقال : إعلم أن الدنيا والآخرة قشة فى هذا الطريق ، إذا لم ترفعها عنه فلن تصل إلى مقصودك ؛ لأن سيد العالم عليه السلام قال : « أدناها أماطة الأذى عن الطريق » . ثم قال : كل شىء لا يكون لله يكون حقيرا ، وكل شخص لا يكون لله يكون وضيعا . وحيثما يكون وجودك تكون النار ، وحيثما تفنى تكون الجنة .

حكاية :

كان مريد من مريدى الشيخ قادما من العراق إلى ميهنه لزيارة الشيخ . وكان قد أحضر له ملابس ثمينة ، وأخذ يقول لنفسه طوال الطريق : إنى أحمل هذه الملابس الجميلة اللطيفة للشيخ ، وسوف يسر الشيخ سرورا عظيما بهذه التحف. ولما أصبح على بعد فرسخ من ميهنه ، قال الشيخ : أعدوا الجواد. فأعدوه وركب الشيخ ،وسار الجميع فى صحبته حتى وصلوا إلى الصحراء . فتزايدت آمال الدرويش، وظن أن الشيخ خرج لإستقبا له من أجل تلك الملابس ، وإزداد حب الدنيا فى قلبه نتيجة لهذا الظن . وأقبل على الشيخ ، وقبل أقدامه . وقال له الشيخ : هات الثياب التى أحضرتها من أجلنا . فأحضرها الدرويش فى الحال . وأمر الشيخ بتمزيق الثياب جميعها ، وعلقوا على كل شوكة قطعة منها . فلما رأى الدرويش ذلك تأثر كثيرا وانهار .

وقد أراد الشيخ بهذه الحركة أن يظهر للدرويش أن الدنيا لا قيمة لها عنده ، وأن ما كان يرجوه من وراء هذه الملابس إنما كان كله حبا فى الدنيا ، ولا يليق لهذه الطائفة التهالك على الدنيا ، (ص ٢٢٢) ولا النظر إلى العقبى . وبعد ذلك زهد الدرويش فى الدنيا ، ولما بلغ ميهنه أقام على خدمة الشيخ . وتعهده الشيخ برعايته ، وأصبح من أعزة هذه الطائفة .

حكاية :

وصل درويش إلى ميهنه يوما وأسرع إلى الشيخ وقال له : أيها الشيخ ، لقد سافرت كثيرا ، وتحملت المشقة ، ولم استرح أو أرى الراحة قط . فقال له الشيخ : لاعجب فى ذلك ، فقد كنت تبحث فى هذا السفرعن رغائبك. ولو أنك تسافر، وتخليت عن وجودك لحظة ، لاسترحت ، واستراح بك الآخرون. فوجود المرء سجنه ، وإذا خرج من هذا السجن استراح .

حكاية :

كان هناك سيد فى طوس يقال له السيدحمزة يملك قصرا على بوابه «رودبار». وكان الشيخ يحبه كثيرا ، كما كان هو أيضا مريدا للشيخ . وكلما ذهب الشيخ إلى طوس ،دعاه السيد حمزه إلى قصره . وكان الشيخ يجيب دعوته ، إذ كانت له منزلة كبيرة عنده .

وفى وقت من الأوقات وصل الشيخ إلى مدينه طوس ، وطلب السيد حمزة ، فقيل له إنك لن تستطيع رؤيته ، لأنه مشغول منذ أربعين يوما فى الفساد ، و ادمان الخمر ، والسكر مع غلمانه وجواريه ، وقد جلسوا جميعا عراة مخمورين . فقال الشيخ : عجبا ،لايجب أن يقل الاثم فى مثل هذا القصر عن ذلك. ولم يقل أكثر من هذا ، ولم يعترض عليه أى اعتراض .

وعند ماأخبروا السيد حمزة بوصول الشيخ ، أمر بالكف عن اللهو فى الحال ، وذهب فى اليوم التالى إلى الشيخ . وشمله الشيخ برعايته كعادته ، ولم يحدثه عن ذلك الأمر ، ولم ينقص من تقديره له شيئا .

حكاية :

عند ما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز فى نيسابور ، كان الشيخ أبو

عبد الله باكو يقيم في خانقاة الشيخ أبي عبد الرحمن السلمى ، وكان قد أصبح شيخا لها من بعده . (ص ٢٢٣) وقد تعود أبو عبد الله هذا أن يسأل الشيخ في كل وقت سؤالا على سبيل الجدل . وكان الشيخ يجيبه عليه . وذات يوم سأل الشيخ قائلا : أيها الشيخ ، إنى أرى منك عدة أشياء لم أرها من شيوخي .

أولا : أنك تدع الشبان يجلسون فى مواجهة الشيوخ . وتضع الأقل مرتبة فى فى نفس مستوى الأعلى مرتبة فى جميع الأشياء ، ولا تقيم أى تفرقة بينهما .

وثانيا : أنك تسمح للشبان بالرقص فى السماع .

وثالثا : إذا خلع درويش خرقته فإنك تشير باعادتها إليه وتقول : « الفقير أولى بخرقته » . ولم يكن شيوخنا يفعلون ذلك .

فقال الشيخ : ألا يوجد شيء آخر ؟. فأجاب بالنفى . فقال له الشيخ :

أما بالنسبة للأقل مرتبة والأعلى مرتبة ، فان أى واحد منهم لايعتبر فى نظرى أقل مرتبة ، ذلك أنه عندما يضع قدمه فى الطريق ، فرغم أنه قد يكون شابا ، فإن الشيوخ يجب أن يضعوا فى اعتبارهم أنه من الممكن أن يتلقى فى يوم واحد مالم يتلقوه فى سبعين عاما . ولا يمكن لإنسان يؤمن بهذه العقيدة أن ينظر إلى أى شخص على أنه أقل مرتبة .

وأما عن رقص الشبان فى السماع ، فإن الشبان لاتخلو أنفسهم من الشهوة ، ويغلب عليهم هوى النفس . ومن المؤكد أن الشهوة تتملك جميع الأطراف ، فاذا ماصفقوا تبددت الشهوة من أيديهم ، وإذا مارقصوا قلت الشهوة من أرجلهم . وعندما تنقص الشهوة من أطرافهم على هذا النحو ، فانهم يستطيعون أن يصونوا أنفسهم من الكبائر الأخرى . ولكن عندما تتجمع الشهوات ، والعياذ بالله ،

فانهم يعجزون عن صيانة أنفسهم من الوقوع الكبائر . فالأولى أن يبددوا نيران تلك الشهوة فى السماع أكثر منه فى أى شىء آخر .

وأما بالنسبة للخرقة التى يخلعها الدرويش ، فإن التخلى عنها يتعلق بكل جماعة الدراويش ، ويكون موضع اهتمامهم . فاذا لم يكن فى متناول أيديهم خرقة أخرى ، فانهم يلبسونه خرقته ثانية ؛ لأنهم بذلك يخففون عن عقولهم حمل التفكير فيها ، فيسترد الدرويش خرقته ، ويكون ذلك من (ص ٢٢٤) أيدى جميع الدراويش . ولكن هذه الخرقة لاتكون نفس الخرقة التى خلعها .

قال الشيخ أبو عبدالله : لو لم أكن رأيت الشيخ ، لما رأيت صوفيا حقيقيا » .

حكاية :

وفى هذا الوقت أيضا ، كان الشيخ أبو عبد الله باكو يجلس يوما فى مجلس الشيخ ، وقد نسى نفسه ، ووضع قدما على قدم مثل السادة . فرآه الشيخ ، وكان يتحدث فى ذلك الوقت مع شخص فى وداعة ولطف . فدعا له ذلك الشخص قائلا : جعل الله الجنة زادك . فقال الشيخ : لاتلزم لنا الجنة مع حفنة من العرج والمفلوجين والفقراء ، فهناك لا يوجد سوى المكفوفين والضعفاء ، وإنما تلزم لنا الجحيم ؛ ففيها يكون جمشيد ونمرود وفرعون وهامان وهذا السيد ، وأشار إلى أبى عبدالله ، وأنا ، وأشار إلى نفسه . فخجل الشيخ أبوعبدالله ، وثاب إلى رشده ، وأدرك أنه أساء الأدب ، وتاب ، وأقبل على الشيخ يطلب المعذرة . ولم يجلس هكذا مرة أخرى .

حكاية :

كان الشيخ « حبى » خياط الشيخ الخاص . وفى يوم من الأيام كان يخيط

ثوبا للشيخ . وفى وقت القيلولة ، وكان الشيخ قد استلقى على فراشه ووقف إلى جواره السيد عبد الكريم خادمه الخاص وفى يده مروحة يروح بها عليه ، دخل الشيخ حبى ، وفى يده ثوب الشيخ . فقال له السيد عبدالكريم ، أى وقت هذا؟. فقال الشيخ حبى ؟ أينما تكون أكون . فوضع السيد عبد الكريم المروحة من يده ، وصفعه عدة مرات . فلما بلغ سبع صفعات قال له الشيخ : كفى . فخرج الشيخ حبى وشكا إلى السيد النجار .

ولما خرج الشيخ لصلاة العصر (ص ٢٢٥) قال له السيد النجار : ماقول الشيخ فى أن يتطاول الشبان على الشيوخ ؟. فأجاب الشيخ : لقد كانت يد السيد عبد الكريم يدى . فلم يقل أحد شيئا بعد ذلك .

حكاية :

كان الشيخ يعظ فى نيسابور يوما ، وكان الشيخ أبو القاسم القشيرى حاضراً. وفى نفس اليوم كان له نزاع على طاحون فى قرية « حسين آباد » ، إذ ادعاها أحد القرويين لنفسه . وأخذ المقرىء يقرأ هذه الآية فى مجلس الشيخ : « لمن الملك اليوم » فقال له الشيخ : هل تقول لى ؟ قل للأستاذ الإمام ؛ لأنه يقول إن طاحون حسين آباد ملكى .

حكاية :

وروى أن الشيخ كان يسير يوما إلى حى من الأحياء فى نيسابور ، ومعه جمع كبير . فألقت سيدة بعض القاذورات من السطح ، ووقع جزء منها على ثوب الشيخ . ولم يتأثر الشيخ من ذلك ، بينما غضب الجميع وأرادوا أن يفعلوا شيئا مع

صاحب الدار . فقال لهم الشيخ : أهدأوا ، إن الشخص الذى يستحق نار الجحيم ، يقنعون منه بالقاذورات ، فمن الواجب أن نشكر الله كثيراً . فهدأ الجميع ولم يؤذوا أحدا ، وبكوا كثيراً .

حكاية :

روى أن الشيخ ذهب إلى منزله يوما ، فرأى السيدة فاطمة ابنة السيد أبى طاهر وحفيدة الشيخ ، وكانت تعلق خيطا على مغزل . وكان طرف الخيط قد ضاع منها . فقال لها الشيخ : يافاطمة ، إذا ضاع طرف الخيط منك مرة أخرى فاقرئى هذه الآية حتى تجدينه . «ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا » (ص ٢٢٦) وقرأت السيدة فاطمة هذه الآية ، فوجدت طرف الخيط .

حكاية :

روى أن الشيخ كان يسير يوما فى نيسابور ممتطيا جواده ، فبلغ باب الكنيسة . وتصادف أن كان اليوم يوم الأحد ، وكان المسيحيون قد تجمعوا فى الكنيسة . فقال الصوفية : أيها الشيخ ، من الواجب أن نراهم . فترجل الشيخ عن جواده . ولما دخل الكنيسة ، تقدم المسيحيون إليه وعظموه ، ووقفوا أمامه فى احترام وتجلت الأحوال .

وكان المقرئون فى صحبة الشيخ ، فقال أحد المسيحيين : هل يسمح الشيخ بأن يقرأوا آية . فقال الشيخ حسنا . وقرأ المقرؤن بعض الآيات ، وغمرت النشوة الجميع وبكوا . ونهض الشيخ وخرج . فقال له شخص: لو أن الشيخ أشار إليهم ، لحلوا الزنار جميعا. فقال الشيخ : إننى لم أعقده لهم حتى أحله .

حكاية :

كان الشيخ يعظ يوما فى مجلس فى نيسابور ، فقال فى وسط حديثه : لقد امتلأت الخانقاه من أعلاها إلى أسفلها بالجواهر . فلم لاتجمعونها؟ . فتلفت الناس ، ظانين أن هناك جواهر يأخذونها ، فلم يروا شيئاً . وقالوا : أيها الشيخ ، إننا لا نرى جواهر . فقال الشيخ : إنها الطاعة ، إنها الطاعة .

حكاية :

عندما كان السيد أبو طاهر ابن الشيخ الأكبر صغيرا ، أحضر الصبية فى المدرسة لوحه إلى منزل الشيخ كعادتهم . فتقدم السيد حسن — بن المؤدب — إلى الشيخ وقال له : لقد أحضر الصبية لوح السيد أبى طاهر . فقال الشيخ : إلى أى سورة وصل ؟ . فقال حسن : إلى سورة « لم يكن » . فقال الشيخ : ضع فاكهة أمام الصغار . (ص ٢٢٧) فوضع حسن الفاكهة . وسألهم الشيخ : من كبيركم فى المدرسة ؟ فأشاروا إلى واحد . فاستدعاه الشيخ وقال له : قل للاستاذ لاترسل للصغير لوحا بسورة « لم يكن » مرة ثانية . أما اللوح الذى تبعثه، فابعثه بسورة « ألم نشرح » .

حكاية :

كانت هناك سيدة عجوز تملك حجرة بجوار خانقاة الشيخ . وكانت تدق دائماً فى «هاون» فارغ دون حاجة ، لتقلق الدراويش . وكان الدراويش يشكون إلى الشيخ ، ولكنه لم يكن يقول شيئا . وذات يوم خرجت السيدة العجوز ، فقال الدراويش : فلنذهب وننزع سقف حجرتها ، حتى تنشغل بذلك ، ولاتزعجنا . ولم يقل الشيخ شيئاً . وذهبوا وانتزعوا سقف الحجرة . وجاءت السيدة العجوز ،

ورأت سقف الحجرة مفتوحا . فقالت : يا أسفا على رجل بهذا الكبر ، وعتاب بهذا الصغر .

حكاية :

روى أن الشيخ ذهب يوما إلى حمام نيسابور . وذهب السيد الإمام أبو محمد الجوينى للسلام على الشيخ ، فقيل له إنه ذهب إلى الحمام ، فذهب هو أيضا إليه . ولما دخل ، سأله الشيخ : هل هذا الحمام جيد ؟ . فقال أبو محمد : نعم . فسأله الشيخ : ماسبب جودته ؟ . فقال : لأن الشيخ فيه . فقال الشيخ : ينبغى أفضل من هذا . فقال : فليتفضل الشيخ بقوله . فقال الشيخ : لأنه ليس معك سوى ازار واحد ، وسطل واحد ، وتلك أيضا ليست ملكك .

حكاية :

قال السيد الشيخ أبو الفتح رحمة الله عليه : فى وقت من الأوقات جاء جمع من العراق ، وأحضروا للشيخ رداء صوفيا جميلا مزركشا . وعندما قدموه للشيخ لبسه . وكان هناك قط تعود أن يطوف حول الشيخ ، فتعلق بذلك المرقع ، وتبول عليه . فقال الشيخ : لقد قررت أن أرتدى رداء الصوفية ، (ص ٢٢٨) وأكون صوفياً ساعة ، فتبول القط على صوفيتى . فخذوا هذا الرداء ، وأعطوه للسيد أبى الفتح ، لأنه صوفى . فخلعوا الرداء عن الشيخ ، وأعطوه للسيد أبى الفتح . وكان يروى هذا دائما على سبيل التفاخر .

حكاية :

سمعت من كثير من الشيوخ ، ذوى السيرة الحسنة ، أنه عندما كان الشيخ

أبو سعيد قدس الله روحه العزيز فى نيسابور ، أصبح جميع أصحاب الفرق وأئمة المذاهب من مريديه ، وتبدل أنكارهم له اعتقادا . وكان القاضي أبو بكر الحيرى — الذى كان يعتبرون الأئمة الكبار ، وواحدا من أربعة من الشيوخ فى نيسابور يحملون اسم أبا بكر ، وكل من يستعين بهم فى الدعاء إلى الله ، يحقق الله تعالى حاجته — قد أقام وليمة ، ودعا إليها جميع أئمة الفرق ، كما دعا الشيخ . وعندما اجتمع جميع الأئمة والكبار ، شرعوا يتحدثون فى مسألة ، جريا على عادة الفضلاء . وانتهى بهم الحديث إلى التفضيل بين المذاهب ، وأخذ كل شخص من فحول أئمة المذاهب يؤكد مذهبه. وأخذت كل طائفة تتمسك بدليل على أحقية مذهبها ، وبطلان المذاهب الأخرى ، حتى طال الحديث ، ولم يصلوا إلى مخلص .

واتفق الكبار والأئمة على أن يحتكموا إلى القرآن المجيد ، والكتاب الكريم. ووفقا للنص « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ، امسكوا بالمصحف ليقترعوا على رأى كل مذهب ، لأن كل ما يظهر من الكتاب العزيز ، يكون فى منزلة الوحى ، ولا يستطيع أى شخص أن يطعن فيه .

وأحضروا المصحف متفقين ، وطلبوا من أبى بكر أن يمسك به . فقال : إنه مصحفى ، وربما يظن شخص أننى أعرف الأوراق . فأخذوا يشيرون إلى كل شخص ، حتى اتفقوا فى النهاية على إعطائه لأبى سعيد. وقالوا إنه رجل من الأولياء، وعندما يجتمع إعجاز القرآن مع كرامته ، سوف يظهر الحق من فحوى الكتاب المجيد ، من محكمات الآيات ، لا من المتشابهات (ص ٢٢٩) التى تحتاج إلى تأويل. وسلموا المصحف للشيخ ، فأخذه وقال : بسم الله الرحمن الرحيم . لنرى هل المذهب الشافعى مصيب ، وهل هو حق ؟ . وقال : السطر السابع من الصفحة اليمنى .وفتح

المصحف وأراه للجميع . وكانت أول كلمة فى السطر السابع هى : « ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق » . وعندما قرأ هذه الآية ، تعجب الجميع من إعجاز القرآن ، وقالوا : لقد تم كل شيء الآن ، وسنقتصر على هذا . ولم يستفتوا القرآن على المذاهب الأخرى .

وفى هذه الحكاية عدة فوائد :

أولا : أن تعلم أن المذهب الشافعى حق بحكم نص القرآن المجيد . وليس معنى هذا أن المذاهب الأخرى باطلة . كلا وحاشا .

ثانيا : أن تعلم أنه عندما تواجه مشكلة دينية ، وتريد أن تعرف أحد أمرين : أيهما حق يليق أن تعمل به ، وأيهما باطل يليق أن تتركه ؛ فمن الجائز أن تفتح القرآن على هذه النية . فقد أجمع أئمة المذاهب ، وكبار رجال الدين ، وأئمة المتصوفة فى هذا المحفل ، واتفقوا على هذا الحكم ، مثل السيد الإمام أبى محمد الجوينى ، وابنه إمام الحرمين ، والقاضى صاعد ، وعلى الصندلى ، وأبى بكر إسحاق ، والأستاذ إسماعيل الصابونى ، والأستاذ الإمام إبى القاسم القشيرى ، وفحول الأئمة الآخرين ، وكبار رجال الدين الذين يطول ذكرهم ، وكان كل منهم قدوة الدنيا فى مذهبه . ولم يعترض واحد منهم على هذا ، ولم يقل إنه غير لائق .

ثالثاً : إنه يجب فى جميع الأمور البدء من ناحية اليمين ، وخصوصاً فى أمور الدين ، وفقاً لما جاء فى الخبر عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه .

رابعاً : أن الاختيار أفضل وفقا للحديث الذى يقول : « إن الله تعالى وتر يحب الوتر » .

وكل حكاية من الحكايات التى ذكرت ، والتى سوف تذكر ، تتضمن كثيراً من الفوائد ، ولكن إذا خضنا فى شرح كل واحدة منها ، لأدى ذلك إلى التطويل والسأم ، والحر تكفيه الإشارة .

حكاية :

روى أنه عندما كان الشيخ قادما من نيسابور إلى ميهنه ، خرج من طوس، وأخذ يسير منفردا ، حتى وصل إلى بوابة « نوبار » ، والصوفية يسيرون من خلفه . (ص ٢٣٠) وكان هذا فى أوائل عهد التركمان ، ولم تكن خراسان آمنة فى ذلك الوقت . فلحق به أربعة أوخمسة أفراد منهم ، وأرادوا أن ينتزعوا جواده. فقال لهم الشيخ : من أنتم ، وماذا تريدون ؟ . فقالوا له : انزل . فقال الشيخ : لقد اركبنى أربعة أشخاص على الحصان ، فاصبروا حتى أنزل وخذوه . ولم يكد يتم قوله ، حتى وصل الصوفية فقال لهم الشيخ : انزلونى وأعطوهم الحصان . فقال الدراويش إننا كثرة ، وان نعطيهم شيئاً . فقال الشيخ : لا يليق هذا ، فقد وعدتهم به ، فأعطوه لهم . ونفذوا ما أشار به الشيخ . وأخذ التركمان الحصان وذهبوا .

ونزل الشيخ مع الصوفيه فى أحدى القرى . وعند العصر ، أقبل جمع من التركمان ،وإعادوا الجواد ومعه حصانا جيدا آخر، وأعتذروا للشيخ كثيرا قائلين: أيها الشيخ إن هؤلاء الشبان لم يعرفوك فسامحهم ، ولم يقبل الشيخ الحصانين ، وقال لهم : كل ما أنزل عنه لاأركبه ثانية . ولما قال الشيخ هذا ، تاب التركمان ، وحلوا شعورهم ، وذهبوا جميعا للحج فى تلك السنة ، بفضل بركة الشيخ .

حكاية :

عند ما كان الشيخ فى نيسابور، كانت هناك سيدة عجوز ، تقيم فى حجره

فوق خانقاه الشيخ .وكانت ترى الشيخ دائما ، وتذهب إلى مجلس أبى القاسم القشيرى ،ولاتحضر مجلس الشيخ ، أو تستمع إلى حديثه . قالوا لها: أيتها العجوز، إنك ترين الشيخ كل يوم ، وتشاهدين كراماته ، ولاتحضرين إلى مجلسه قط ، وتذهبين إلى مجالس الأستاذ الإمام ، فهل ترين هناك شيئا لاترينه هنا ؟ وكيف يحدث هذا ؟ . فبكت العجوز فى ألم وقالت: ماذا أصنع (ص٢٣١) إنهذا ليس فى يدى ، فقد دلونى على الأستاذ الإمام ،ولم يدلونى على الشيخ .

حكاية :

روى أن الشيخ كان يعظ فى نيسابور يوما ،وقد أمسك فى يده عمامة، وقال فى وسط حديثه : تلزم ثلاثمائة دينار نيسابورى ، وهذه العمامة لمن يقرض حسن ثلاثمائة دينار . فصاحت سيدة عجوز قائلة: أنا أعطيها له. فقالوا لها: أيتهاالعجوز ، إنها ثلاثمائة دينار ذهبى، فمن أين تحضرينها ؟.فقالت : أنا أعرف ذلك ، فعندما قال الشيخ هذا القول ، حسبت ما كنت قد حملته معى من منزل والدى إلى منزل زوجى ،وماأعطانيه زوجى ، فوجدته ثلاثمائة دينار ، ولقد وهبتها لما أراد الشيخ. فقال لها الشيخ : بارك الله فيك . وأمر حسن بن المؤدب باعطاء العمامة لتلك العجوز قائلا : سلها أى دعاء تريد أن أدعوه لها ؟ . فسألها حسن . فقالت : الدعاء بسلامة القلب . فأبلغ حسن رغبتها إلى الشيخ ، فضحك وقال لها : ياسليمة القلب ، لماذا لم تطلبى جاها وضياعا وعقارا ؟ لقد حصلت على السعادة التى ركعنا من أجلها سبعين عاما ولم تصلنا نفحة منها .

حكاية :

كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز قد جلس يوما فى خانقاه ،

وكان سيد نيسابور الأجل قد جاء لتحيته ،وجلس خلفه .فدخل الشيخ أبو العباس الشقانى فأجلسة الشيخ أمام السيد الأجل . فتألم السيد لذلك ، وساوره الشك. فالتفت إليه الشيخ وقال :أيها السيد، إن الذين يحبونك يحبونك من أجل المصطفى، والذين يحبون هؤلاء يحبونهم من أجل الله .

حكاية :

روى أن الشيخ كان يسيريوما فى سوق نيسابور وفى رفقته جمع من الصوفيه، فنزلوا إلى السوق . وكانت هناك جماعة من الشبان يسيرون عراة،وقد تمنطق كل منهم بحزام من الجلد ، وحملوا شخصا على رقابهم . فلما بلغوا (ص٢٣٢) الشيخ سأل : من هذا ؟ . فقيل له : إنه أمير المقامرين . فسأله الشيخ : بم نلت هذه الامارة ؟ . فقال : باللعب المستقيم النظيف . وعندما سمع الشيخ ذلك صرخ قائلا : العب لعبا مستقيما ، والعب لعبا نظيفا ، وكن أميراً .

حكاية :

كان السيدعلى الطرسوسى مريدا للشيخ ، ورفيقا له على المائدة، وكان الشيخ يعلمه آداب الأكل وسننه . وذات ليلة كان السيد على يشرب كأسا ، فقال له الشيخ : ماهذا ، إن قاع الكأس يكاد يسقط من شرهك . وعندما أعدت المائدة فى الليلة التالية ، جلس السيد على فى مكان آخر . فلما جاء الشيخ قال: إننى لا أرى السيد على . فقيل له : إنه فى نهاية المائدة أيها الشيخ . فقال له الشيخ:لإن أحتملك أفضل من أن أحتمل الآخرين .

حكاية :

قال السيد الشيخ أبو الفتح . لما جاء السيد السنكانى إلى الشيخ ، كان شابا

ظريفا يرتدى ملابس حسنة . وحدث أن كانوا يرافقون الشيخ إلى وليمة ، وكان من عادة الشيخ أن يسير خلف الجماعة . وأخذ السنكانى يسير أمام الشيخ ، وينظر إلى نفسه معجبا . فقال له الشيخ : لاتسر فى الأمام . فسار خلف الشيخ . وعندما ساروا عدة خطوات ، قال له الشيخ : لاتسر فى الخلف . فسار على يمين الشيخ . وعندما ساروا عدة خطوات ، قال له الشيخ : لاتسر على اليمين . فسار على يسار الشيخ فقال له : أيها السيد لاتسر على اليسار . فتضايق السنكانى وقال : أيها الشيخ ، أين أسير ، ؟ . فقال له : اترك نفسك ، واستقم فى السير . ثم قال الشيخ هـذا البيت :

— ما شأنك بالتصوف مادمت تهتم بنفسك
وماء الحياة هـذا فى غنى عن البشر

فصرخ السيد السنكانى ، وسقط على أقدام الشيخ ، ولبى وسافر إلى الحجاز ، وأصبح من الرجال الصالحين .

حكاية :

قال السيد الشيخ أبو الفتح : كان الشيخ قدس الله روحه العزيز قد جاء من نيسابور إلى ميهنه ، ومعه عدد كبير من الدراويش . وفى اليوم التالى أخـذ يعظ على منصة روضته ، ، وجلس إليه كثير من الناس ، وغمرت النشوة الجميع . وعندئذ (ص ٢٣٣) علا صياح السكارى وضوضاؤهم ؛ فقد كان فى جوار الشيخ رجل يسمى « أحمد أبو شره » ، يقضى الليل فى بيته مع اللصوص ، حيث ينشغلون بالباطل ، وتناول الخمر حتى مطلع الفجر . وكانوا يحدثون ضجة عظيمة . فتضايق الصوفية ، وعامة الناس منهم ، وسرى فيهم الحماس فقالوا : انذهب ونهدم المنزل

على رؤوسهم . فقال لهم الشيخ : سبحان الله ، لقد انشغلوا بالباطل حتى أنهم لايحسون بحقكم ، وانتم رغم أنكم ترون الحق بهذا الوضوح ؛ فإنه لا يشغلكم حتى لاتحسون بباطلهم . فصرخ الناس وبكوا ، ووعدوا بترك هذا الأمر . وانقضى ذلك اليوم ولم يقل الشيخ شيئاً .

قال السيد أبو الفتح : وفى اليوم التالى كنت واقفا بين يدى الشيخ ، فمر أحمد أبو شره خجلا على الشيخ . ولم يقل له الشيخ شيئاً ، حتى اقترب منه . فقال له الشيخ : السلام عليكم ، إننا لم نتخاصم ،وأنت لنا نعم الجار ، وقد أوصى الرسول عليه السلام فى حق الجار . فإذا إعترضتك مشكلة ،فاشركنا فيها حتى نساعدك .فلما قال الشيخ ذلك ، نظر أحمد إلى الأرض ، وقال : أيها الشيخ ، إننى أعاهدك على ألا أفعل هذا قط ، وقد تبت عنه . وأصبح بعد ذلك مريدا للشيخ .

ولم يمض وقت طويل حتى أحس الشيخ بدنو أجله ، وأخذ يوصى كل شخص بوصيته ، فنهض أحمد هذا وقال له : أيها الشيخ ، إننى شيخ ، ولم أر ضياء المعرفة بعد ، وأنت ترحل الآن ، ماذا أصنع ؟ . فأجابه الشيخ : اطمئن فإن الشخص الذى يسقط عليه ضوء هذا الشمع ، أقل مايفعله الله معه أنه يرحمه .

قال السيد الشيخ أبو الفتح أيضاً إن الشيخ قدس الله روحه العزيز كان يذهب إلى الحمام فى يوم الأربعاء . وكان الشيخ أبو محمد الجوينى رحمة الله عليه يأتى إلى الخانقاه ، ويذهب منها إلى الحمام . وذات يوم كان الشيخ قد ذهب مع أبى محمد الجوينى إلى الحمام ، فقال له الشيخ : ما سبب هذه الراحة التى يشعر بها الناس من الحمام؟فقال: إن الإنسان يكون متعباً منهوكا ، فيصب الماء الساخن على نفسه فيستريح . فقال الشيخ : هناك ماهو أفضل من هذا . (ص ٢٣٤) فقال

الشيخ أبو محمد : إن الناس يكونون قذرين طوال الأسبوع ، ويطول شعرهم ، ولا يحلقونه ، فيحلقون ، وينظفون أنفسهم ، ويصبحون أكثر خفة ، فيستريحون. فقال الشيخ : هناك ماهو أفضل من هذا . فقال الشيخ أبو محمد : ماذا يرى الشيخ فقال الشيخ : أرى أنه إذا اجتمع إثنان متخاصمان ، فإنهما يجدان الراحة ثانية . فبكى الشيخ أبو محمد رحمة الله عليه وقال : أيها الشيخ ، إن مايتأتى لك من العلم لا يتأتى لأى شخص آخر .

حكاية :

كان الشيخ يتحدث فى المجلس يوما ، وكان أحد أبناء الشيخ أبى الحسن الخرقانى حاضرا ، فقال الشيخ فى وسط الحديث : إن الأشخاص الذين نجوا من أنفسهم منذ عهد النبوة إلى يومنا هذا قد بلغوا عقدا ، وإذا أردتم فإننى أعدهم . وإذا كان هناك شخص قد تطهر من نفسه ؛ فإنه يكون والد هذا السيد ، وأشار إلى ابن الشيخ أبى الحسن الخرقانى ، ثم قال الشيخ : لقد ذكر الشيخ أبو الحسن الخرقانى قدس الله روحه العزيز أن علماء الأمة قد اتفقوا على أنه يجب معرفة الله جل جلاله بالعقل ، ولما نظر أبو الحسن بالعقل ، رأى نفسه أعمى فى هذا الطريق. لأنه مالم يمنحه الله البصيرة ويرشده إلى الطريق ؛ فإنه لا يرى ولا يعلم. ولقد ساعدنا كثيرا من الناس ، وقدناهم من غرور العقل إلى الطريق .

حكاية :

قال والدى — والد المؤلف — نور الدين بن المنور رحمة الله عليه إن الشيخ أبا سعيد كان ذاهبا إلى مكان فى نيسابور ، فوصل إلى حى الحرب . ورأى الحوانيت مرتبة ، ومملوءة بالفاكهة الناضجة ، والمكان أكثر زينة من جميع

الأمـكنة فى سوق نيسابور. وحين وصل الشيخ إلى ذلك الحى ، وسأل عن أسمه ، قيل له « حى الحرب » . فقال الشيخ : تعجبا . . إذا كان الشخص يرى مثـل هـذا فى حى الحرب ، فماذا يمـكن أن يرى فى حى الصلح ؟ .

روى والدى رحمة الله عليه أيضاً أن الشيخ قدس الله روحه العزيز أراد أن يعظ يوما . وعندما خرج وجلس على المنبر ، وقرأ المقرؤن القرآن ، سأل النـاس أسئلة كثيرة مختلفة . وكان هناك جمع كبير ، وسأل كل سؤالا (ص ٢٣٥) من نوع مختلف . وأخذ الشيخ ينظر إليهم فى صمت حتى سألوا كثيرا . وفى النهاية قال الشيخ هذا البيت :

ــ لو أننى زيار صاحب السلطان فى بلاد الختن ،

لـكفانى أن أكون صديق باورد ونسا وطوس .

وصلى الله على محمدوآله أجمعين . ومسح وجهه بيده ، ونزل عن المنبر، ولم يقل أكثر من هذا فى ذلك اليوم .

وقال والدى أيضـاً : فى بداية عهد الشيخ بالتصوف ، وكان أهل ميهنـه لايزالون ينـكرونه ، أحضر السيد حمويه رئيس ميهنه رجلا فاضلا من سرخس متعصبا ضد الشيخ ، لـكى يتحدث إلى الناس ، ويصدر فتواه . وجاء هذا الفاضل إلى مجلس الشيخ يوما . وسأل شخص الشيخ : إلى أى حد يمـكن التسامح فى الصلاة بثوب ملوث بدم البرغوث ؟ . فقال الشيخ : إن إمام دم البرغوث هو هذا السيد الإمام ، وأشار إلى ذلك الفاضل ، ثم قال : سله عن هذه المسألة ، وسله عنا .

حـــكاية :

روى أن الشيخ كان يرسل حسن بن المؤدب إلى السيد حمويه كل يوم من

أيام الجمعة ، ليستفسر عنه ، ويعطيه رسالة ، ويتحدث إليه. وكان السيد حمويه يسر بذلك ، ويفاخر به. وفي يوم من أيام الجمعة في فصل الشتاء كان الجو باردا جدا ، والشيخ مشغولا في أمر ، فدعا حسن وقال له : إذهب إلى السيد حمويه ، وسلم عليه ، وقل له إن الجو بارد اليوم . ولم يدع السؤال عنه في هذا اليوم بمثل هذا القول ، حتى لا يتأثر ويقول إن الشيخ لم يذكرنا في البرد .

حكاية :

كان الشيخ يتحدث في أحد المجالس يوما ، فقال في وسط حديثه : سوف يأتي يوم لايستطيع فيه شخص أن يقيم في مكان سنة واحدة ، ولايستريح في صومعة خمسة أيام ، ولايبقى في مسجد يوما واحدا .

وقال الشيخ أيضاً (ص ٢٣٦) : ذهب شاب إلى شيخ وقال له : أيها الشيخ ، عظني. فاحنى الشيخ رأسه ساعة ثم قال: أيها الشاب ، هل تنتظر جوابي؟ . قال نعم . فقال الشيخ : كل ماسوى الله جل جلاله لايستحق الكلام ، وكل مايتعلق بالله عز وجل لاتحويه العبارة « إن الله تعالى أجل من أن يوصف بوصف أو يذكر بذكر » .

حكاية :

عندما كان الشيخ أبو سعيد في نيسابور ، حملت جماعة إلى خانقاه الشيخ ذات ليلة صندوقا به طعام . وكانت هذه الخانقاه بجوار السيد الأجل حسن . ولما اندمجوا في السماع ، وتملك الوجد الصوفية ، وأخذوا يرقصون ، تبدد نوم السيد حسن بسبب رقص الصوفية . فسأل خدمه : ماهذا ؟ . فقالوا : لقد جاء

إلى الشيخ أبي سعيد فى هذه الخانقاه صندوق به طعام ، فأقاموا به وليمة ، والصوفية يرقصون . وكان السيد الأجل ينكر الصوفية ، فقال : أصعدوا إلى السطح ، وأهدموا الخانقاه على رؤوسهم . فصعد خدم السيد الأجل إلى سطح الخانقاه ، وانتزعوا سقفها . وأخذوا يلقون الأحجار إلى الخانقاه . فاضطرب الدراويش . وسأل الشيخ عما حدث . فقالوا : إن رجال السيد الأجل يقذفون الأحجار إلى الخانقاه . فقال الشيخ : أحضروا ماقذفوه . فوضعوا جميع الأحجار فى طبق ، وقدموه للشيخ . فأخذ يمسك بالأحجار واحدة واحده ويقبلها ويضعها على عينيه وهو يقول : كل ماجرى على الرسول عليه السلام عزيز وطيب ، ويجب تحمله بالقلب والروح . ولم يحدث ضرر كبير ، لأن هذا التقصير من جانبنا ، إذ كيف ارّقنا نوم ذلك العزيز . يجب أن نذهب إلى خانقاة محلة عدنى كوبان . ونهض فى الحال وركب الجواد . (ص ٢٣٧) وسار صوفية الخانقاتين فى رفقته ، وأخذ القوالون ينشدون فى الطريق ، حتى وصلوا إلى الخانقاه . وانقضت تلك الليلة فى نشوة السماع .

وعندما عاد خدم السيد الأجل إلى القصر باكين متألمين ، ظن أن الصوفية ضربوا رجاله . فسألهم ماذا حدث لكم حتى تبكون هكذا ؟ . فقصوا عليه ماحدث بالتفصيل . فلما سمع السيد ذلك ، ندم على ما أشار به وسأل : ماذاحدث فى النهاية ؟ . قالوا : لقد رحلوا جميعاً . فتألم السيد الأجل ، وبكى ، وزال عنه كل شك فى الصوفية ، وأخذ يؤنب نفسه طوال الليل .

وفى اليوم التالى نهض عند الفجر ، وأمر بإعداد جواده ، وركبه ليذهب للاعتذار للشيخ . وكان الشيخ قد ركب فى نفس الوقت ذاهبا مع الصوفية للاعتذار

للسيد ، فتقابلا عند مفترق طريق نيسابور ، واحتضن كل منهما الآخر ، وسأله عن حاله ، وأخذا يعتذران لبعضهما ، ويطالب كل منهما من الآخر أن يعود ، حتى قال السيد الأجل : إذا كان الشيخ قد قبل عذرى ، فليعد حتى أذهب وأعتذر إليه . فأجابه الشيخ : الأمر لك . ورجعا كلاهما إلى الخانقاه . واعتذر كل من هذين العظيمين إلى الآخر كثيراً ، وصفت نفوس الجميع وقال السيد الأجل : إذا كان الشيخ قد عفا عنى فليحضر إلى منزلى الليلة . وذهب الشيخ فى تلك الليلة إلى قصر السيد الأجل ، (ص ٢٣٨) وأعد السيد وليمة فاخرة ، وتمتع أهل الخانقاتين بتلك الليلة فى القصر . وظهر إعزاز السيد الأجل الكبير للشيخ ، وأصبح من مريديه ، بحيث أنفق من أجله ثلاثين ألف درهم خلال المدة التى قضاها الشيخ فى نيسابور .

حكاية :

روى أن درويشا نهض فى مجلس الشيخ ، وقص قصة طويلة . فقال له الشيخ : اجلس أيها الرجل لأعلمك كيف تتحدث . فجلس الرجل . وقال له الشيخ : ماذا تريد من هذه القصة الطويلة ؟ عندما تريد أن تسأل شيئاً فقل هكذا : إن الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، وأنا فى حاجة إلى الشىء الفلانى . فقال الرجل سأفعل هكذا ، هل تأذن لى بأن أقول ذلك ثانية ، لأرى هل تعلمت أم لا ؟ . فقال له الشيخ : قل . فقال الرجل : الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، وأنا فى حاجة إلى عباءة الشيخ . فقال الشيخ : بارك الله لك فيها ، وخلع العباءة وسلمها إليه . ولما أنهى الشيخ المجلس ، ذهب مريدو الشيخ إلى الرجل ، وطلبوا منه أن يبيعهم العباءة بمائة درهم فلم يقبل . وأخذوا يزيدونها حتى بلغت ألفا ، فباعها . وأحضروها

للشيخ فلم يقبلها . وأعادها إلى ذلك الدرويش ، وترك له النقود ، وأصبح الدرويش من خواص المريدين .

حكاية :

كان الشيخ يعظ في ميهنه يوما ، وكان حمزة صانع السكاكين ، وأحد مريدي الشيخ، وموضع حبه الكثير ، يقطن قرية أزجاه . وكان في كل يوم تكون فيه نوبة الشيخ في الوعظ ، يخرج من أزجاه في وقت معين ، بحيث يصل إلى ميهنه في الميعاد الذي يخرج فيه الشيخ من زوايته ، ويجلس في مكانه . وفي هذا اليوم تأخر حمزة أكثر من المعتاد . (ص ٢٣٩) وأخذ الشيخ يسأل عنه ، لأنه كان درويشا حقا ، وسالكا متحمسا . في أثناء الحديث وصل حمزة ، فالتفت الشيخ إليه وقال : ادخل يا حمزة ثم قال هذه الرباعية :

لقد جعلت من وجوه الجميع زينة للمنزل
وفاضت وجوهنا بحرارة خمرك
وزدت سرورنا إلى ستة أمثاله
أسعد الله حياتك فقد أسعدتنا

فصرخ الجميع ، وبدت لهم الأحوال .

حكاية :

في يوم من الأيام اعترت الشيخ حال من القبض ، فخرج من ميهنه إلى سرخس كعادته . ولما وصل إلى « دستجرد » ، رأى لقمان السرخس ، فسأله : إلى أين تذهب يا أبا سعيد؟ فقال إنني ذاهب إلى سرخس ، لأنني منقبض القلب. فقال له : عندما تصل إلى سرخس بلغ سلامي إلى سيدها .

حكاية :

قال الشيخ أبو سعيد : كنت عند الشيخ أبى الفضل فى سرخس ، فدخل شخص وقال له : لقد ألم بلقمان مرض ، وعجز عن السير ، وقال لى احملنى إلى رباط « يورجا » . وقد مضت ثلاثة أيام مقذ نقل إلى هناك لم يتكلم خلالها قط . واليوم قال لى : قل للشيخ أبى الفضل إن لقمان ذاهب فهل تريد شيئاً ؟ . وعندما سمع الشيخ أبو الفضل ذلك قال : سنذهب إلى هناك ، ونهض . وذهبنا جميعاً . وعندما رآه لقمان ابتسم ، فجلس الشيخ أبو الفضل عند رأسه وأخذ لقمان ينظر إليه ، وزفر حارة ، ولم يحرك شفتيه . فقال واحد من الجمع : لا إله إلا الله . فابتسم لقمان وقال : أيها الشاب ، لقد دفعنا الخراج وأخذنا الصك وبقينا على التوحيد . فقال الدرويش : ينبغى أن تتذكر نفسك أخيراً . فقال لقمان : هل تأمرنى بالعربدة وأنا على أعتابه ؟ . فسر الشيخ أبو الفضل وقال: إنه يقول الصدق.

ومات — لقمان — بعد ساعة ، وهو ينظر إلى الشيخ ، ولم يطرأ على نظره أى تغيير . واختلط الأمر على الناس ، فقال بعضهم إنه (ص ٢٤٠) مات، وقال البعض الآخر إنه لم يمت لأن بصره لازال صحيحا . وقال الشيخ أبو الفضل : لقد مات ، ولكنه لن يغلق عينيه مادمنا جالسين ؛ لأن الأحبة لا يغلقون عيونهم عن الأحبة . ثم نهض الشيخ أبو الفضل ، وأغلق لقمان عينيه .

حكاية :

روى أنه عندما وصل الشيخ أبو سعيد إلى « قاين » أقاموا له عدة ولائم . وفى أحد الأيام كانوا قد أقاموا وليمة للشيخ ، فلما حضر ، أرسلوا شخصا لاستدعاء السيد أبى سعيد الحداد ، وكان من عظماء العصر ، فقال : لقد مضت أربعون

ماما أكلت فيها من طعامى ، ولم أتناول خلالها طعام أحد قط . فأبلغوا الشيخ ذلك . فقال : منذ خمسين عاما وأنا لم آكل من طعامى ، ولا من طعام شخص آخر ، وكل ما أكلته كان من طعام الحق ، وعرفت أنه له .

حكاية :

وحدث أيضا عندما كان الشيخ فى قاين أن كان فيها أمام عظيم يقال له محمد القاينى ، وكان يزور الشيخ دائماً ، ويذهب معه إلى الولائم . وذات يوم دعى الشيخ إلى وليمة ، فذهب فى رفقته . وظلوا يقيمون السماع والرقص حتى أذن المؤذن للصلاة ، فقال الإمام محمد : الصلاة ، الصلاة . فقال الشيخ : إننا فى صلاة ، وظل يرقص . فخرج — الإمام محمد — من بين الجميع ، وأدى الصلاة ، ثم عاد إليهم . ولما فرغوا من السماع ، التفت الشيخ إلى جماعة الصوفية وقال : لايوجد فى الدنيا من مشرقها إلى مغربها رجل أعظم وأفضل من هذا الرجل ، ولكنه لاعلاقه بالتصوف .

حكاية :

روى أنه اجتمع يوما عند الشيخ فى نيسابور جماعة من كبار الصوفية ، مثل أبي محمد الجوينى ، والأستاذ إسماعيل الصابونى ، والأستاذ أبى القاسم القشيرى ، وأخذوا يتساءلون عن الورد الذى يقرأه كل منهم فى الليل . ولما جاء دور الشيخ سألوه :(ص ٢٤١) ماوردك ؟. فقال: إنىأقول كل ليلة : يارب ، هبللدراويش شيئاً يأكلونه فى الغد. فنظر كل منهم إلى الآخر ، وقالوا : أيها الشيخ ، أى ورد هذا ؟ . فقال الشيخ : إن المصطفى عليه السلام قال : « ان الله تعالى فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه » . فاعترفوا بأن ورد الشيخ أتم من أورادهم .

وفى هـذه الحـكايه مغزى أراد الشيخ به أن يقول لهم إنـكم تقرأون الأوراد ، وتصلون من أجل ثواب الآخرة ، وطلب المنزلة ، وهـذا من أجل أنفسكم . وإذا كنتم تريدون الخير ، لطلبتموه أيضا من أجل معاصريكم . وجميع أورادى ودعواتى موقوفة على طلب الخير للغير ، وهذا أتم .

وقد وجد مثل هذا فى أقوال أحد كبار الشيوخ ، فقد كان يقول فى مناجاته: اللهم اجعل أعضائى وجوارحى فى يوم القيامة من الـكثره بحيث تملأ طبقات الجحيم السبع فلايبقى فيها مكان لأحد . واجعل كل عذاب سوف تعذبه لعبادك جميعاً من نصيب نفسى، حتى أخذ حقى منها ، وأراها كما أريد ، وينجو العباد من العقاب.

حـكاية :

قال إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى : قال لى والدى الشيخ أبو محمد الجوينى يوما : انهض واذهب إلى الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، واحفظ كل ما يقوله لك ، لتذكره لى . فذهبت إلى الشيخ وسلمت عليه . فسألنى عن الأحوال ،وقال لى : ماذا تتعلم ؟. قلت . الجدل . فقال الشيخ : لاينبغى الجدل ، لاينبغى الجدل. فعدت إلى والدى ، وحدثته بما ذكره الشيخ . فقال والدى : لاتتعلم الجدل بعـد اليوم ، وتعلم الفقه وعلم المذاهب. فسرت وفق هذه الإشارة ، حتى وصل علمى إلى هذه الدرجة ، ببركة انظارهما .

حـكاية :

روى أن الشيخ كان يسير إلى مدينة هراة ، وفى رفقته جمع كبير من الصوفية والمقرئين . ولما وصل إلى قرية « ريكا » ، وهى قرية على بعد فرسخين من المدينة ، كان بها رجل (ص ٢٤٢) يدعى الشيخ أبا العباس الريكانى ، له أخ

كبير من خيرة رجال عصره ، وكانا متلازمين دائما، ويملكان كعادة أهل هراة جوسقا، ويقيمان فيه . وقد اعتادا دعوة كل من يصل إلى القرية من الصوفية لينزل ضيفا عليهما ، ويؤديا له شروط الضيافة . وكانا ينكران السماع .

ولما وصل الشيخ إلى القرية ، أنزلاه فى الجوسق ، وأعدا له ما تيسر من الطعام . ولما فرغوا من الأكل قال الشيخ : انشدوا شعرا . فقال الشيخ أبو العباس : إننا لم نعتد ذلك . فقال الشيخ للقوال : تعال وانشدنا شيئاً . فأنشد القوال بعض الشعر ، فتملكت الشيخ حال ، ونهض ، وأخذ يرقص ، والجميع يشاركونه واظهر الشيخ أبو العباس استنكاره لذلك ، فأمسك الشيخ بيده ، وجذبه إليه ليرقص معه . وأخذ يجذب نفسه منه ، فقال له الشيخ : انظر ، فنظر إلى الصحراء فى الخارج ، فرأى جميع الجبال والأشجار والمبانى ترقص مع الشيخ، فاندمج أبو العباس مع الشيخ فى الرقص دون وعى ، وأمسك بيد أخيه قائلا له : تعـ ل ، فلا طاقة لنا على مقاومة هذا الرجل . ورقص الأخوان كلاهما ، وتخليا عن إنكارهما ، وأظهرا الرغبة فى السماع بعد ذلك .

وأمضى الشيخ اليوم فى ذلك المكان . وفى اليوم التالى ذهب إلى مدينة هراة . ولما بلغ بوابة المدينة قال : لقد دخل الإسلام هذه المدينة ، لكن الكفر لم يخرج منها . وعندما دخل الشيخ المدينة، ذهب إلى الخانقاه التى يقيم فيها خاله . وتقدم خال الشيخ من فوق الخانقاه ، ورأى كل منهما الآخر . ولم يفه الشيخ بشىء قط ، ورجع من ذلك المكان ، وذهب إلى قصر قاضى هراة (ص ٢٣٣) وجلس دون حجاب . وأخبروا القاضى بحضور الشيخ ، فجرى إليه عارى القدمين، وجلس أمامه على ركبتيه ، وقال له : أيها الشيخ ، عظنى . فقال الشيخ :« حب

الدنيا رأس كل خطيئة ». ولم يقل أكثر من هذا ونهض . وتوسل إليه القاضى أن يبقى ساعة فلم يقبل .

وفى الطريق، تقدم شخص من أهل هراة إلى الشيخ ،وأمسك بعنان جواده، وأخذ يسير معه . وسأله أثناء السير قائلا : أيها الشيخ ،مارأيك فى الآية التى تقول «الرحمن على العرش إستوى » . فأجاب الشيخ : لدينا فى ميهنه نسوة من العجائز يقلن إن الله موجود،وليس هناك عرش . وأخذ الشيخ يسير حتى خرج من البوابة ، ووصل إلى مكان فيه بئر كبيرة ، وقد إعتادوا أن يسموها بئر يعقوب . وكان هناك رجل قد وقف على حافة البئر ، فأخذ يصيح قائلا : تعالى ياجوهر . فاطلت من القصر سيدة عجوز ، سوداء اللون ، مجدرة الوجه، كبيرة الإسنان ، قبيحة الشكل .ورأى الشيخ وجماعة الصوفية تلك المرأة . فقال الشيخ : لايوجد لمثل هذا البحر أفضل من هذا الجوهر

وأتجه الشيخ إلى البوابة التى يسمونها باب السرة . ولما وصل اليها ، كان عندها رجل قال كلمة تألم منها الشيخ . وأشار الشيخ إلى أنة لايوجد على تلك البوابة قبة كما هو الحال فى البوابات الأخرى . ثم خرج الشيخ من بوابة المدينة. وكان كثير من الناس قد خرجوا لوداعه ورؤيته ، فالتفت الشيخ خلفة وقال : «ياأهل هراة ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» . ولم يقل الشيخ أكثر من هذا ، وسار ، ولم يبق فى هراة ساعة واحدة .

حكاية :

(ص ٢٤٤) روى عن عدة أشخاص من العظماء وأبناء الشيخ أبى عبد الله الأنصارى أن شيخ الإسلام أبا عبدالله الأنصارى قال : أردت فى أوائل شبابى

أن أكون صوفيا. وتمنيت أن ييسر الله لى هذا الأمر. وأخذت أمارس الرياضات، وأقوم بخدمة شيوخ الطريقه ، وعظماء الدين . وكنت أستعين بالدعاء ، لكننى رغم هذا كنت أقول الفاحشة ؛ فقد كانت تجرى على لسانى وظل الأمر . على هذا النحو حتى ذهبت إلى نيسابور يوما ، وكان بها الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز ، فذهبت لزيارته ، وكان قد جلس ووقف بين يديه أحد المريدين يقلب لفتا مساوقا فى مسحوق من السكر، ويعطيه له، فيأكله. ولما دخلت عليه ، كانت بيده لفتة أكل نصفها ،فوضع بيده النصف الثانى فى فمى . ومنذ ذلك الوقت لم تجر على لسانى فاحشة قط ، أوشىء غير لائق ، وفتح لى باب التصوف. وكل مايجرى على لسانى من أقوال إنما هو بفضل نصف اللفتة الذى وضعه الشيخ بيده المباركة فى فمى .

حكاية :

روى أن الشيخ أبا سعيد كان قد أقترض فى وقت من الأوقات بمدينة ميهنه مبلغ خمسمائة دينار ذهبى من أجل الدراويش . وقال لحسن بن المؤدب يوما : أعد الجواد لاذهب إلى أبى الفضل الفراتى ، فهو يستطيع سداد هذا القرض .

وسار الشيخ وفى رفقته جماعة الصوفية . وأخبر درويش أبا الفضل الفراتى أن الشيخ قادم للاقتراض منه . وذكر له ماقاله الشيخ فى ميهنه . فخرج أبو الفضل لاستقبال الشيخ فى حفاوة كبيرة ، وأنزله فى مكان طيب،وأنفق عليه مالا كثيرا ، وأقام له الولائم ثلاثة أيام . ولم يتوان لحظة عن خدمة الشيخ ،طوال هذه الأيام الثلاثة .

وفى اليوم الرابع ، (ص٢٤٥) وقبل أن يتفوه الشيخ بكلمة فى هذا الموضوع

أو يشير إليه ،أعطى ابو الفضل حسن بن المؤدب خمسمائةدينار نيسابورى وقال له: هذه من أجل قرض الدراويش .وأعطاه مائة دينارأخرى ، وقال: وهذه من أجل الطعام فى الطريق . ومائة دينار ثانية ، وقال : وهذه من أجل نفقات السفر .

وذهب حسن بن المؤدب إلى الشيخ ، وحدثه بالامر . فسأل الشيخ أبا الفضل عن الدعاء الذى يدعوه له . فقال: مايتفضل به الشيخ . فسأله الشيخ :هل أدعو لك الله سبحانه وتعالى إلا يمنحك الدنيا ؟.فقال: لاأيها الشيخ ، فلو لم تكن الدنيا ، لما جئت إلى هنا ، ولما إستراح قلبك . فقال الشيخ : ياالهى لاتدعه للدنيا ، وأجعل الدنيا زاداله ، لا وبالا عليه . وقد شملته بركةدعاء الشيخ هو وأولاده ، فأصبح من من كبار الصوفيه ، ووصل أبناؤه إلى الدرجات الرفيعة ،سواء فى الدين أوالدنيا ، وأصبحوا من مشاهير خراسان .

حكاية :

عندما كان الشيخ أبوسعيد فى نيسابور قال لحسن يوما : انهض واحضر قوالا.وخرج حسن وبحث،فلم يجد أحدا . ولما عجز عن العثور على أحد القوالين، أرشدوه إلى شاب فى حانة . وذهب حسن لاحضاره ، فوجده ثملا . فرجع إلى الشيخ وقال له : لقد بحث فى جميع المدينة فلم أجد أحد إلا شابا ثملا . فقال له الشيخ : ينبغى إحضاره . فأحضر حسن الشاب الى الشيخ ، فقال له الشيخ : أنشدنا شيئا أيها الشاب. فأنشد الشاب بيتا مكسوراً ، غير مفهوم ، لأنه كان ثملا،ثم استسلم للنوم. وقال الشيخ : هيئوا له نوما مريحا. ونام الشاب ساعة . وعندما استيقظ صاح قائلا : أين أنا ؟ . فاقترب منه حسن وقال له : لقد طالبك الشيخ لتنشد شيئا . فأخذ يتقدم ببطء ،وهو يتعثر فى كل خطوة ، حتى وصل أمام الشيخ ، وقبل أقدامه وقال : لقد تبت . فربت الشيخ على رأسه ، وأرسله إلى الحمام ،

وطلب من الحلاق أن يحلق له . (ص ٢٤٦) فحلق له رأسه ، وألبسه ثوب الشيخ .وقام بخدمة الدراويش فى الخانقاه ثلاثين عاما بفضل بركة الشيخ .

حكاية :

وحدث أيضا عندما كان الشيخ فى نيسابور أن قال يوما : أعدوا الجواد . فأعدوه . وركب الشيخ ، وسار فى رفقته جمع من الدراويش . وفى وسط السوق اقتربت من الشيخ إمرأة مطربة ، ثملة ، ذات وجه مكشوف ، مزين . فصرخ فيها الدراويش قائلين : إبتعدى عن الطريق . فقال الشيخ : لاتؤذوها . ولما اقتربت منه المرأة قال الشيخ :

« بيت »

— أهكذا تأتى إلى السوق مزينا ثملا ،
ألا تخشى أيها الحبيب أن تقع فى الأسر .

فتملكت المرأة حال ، وبكت كثيرا ، وذهبت إلى مسجد فى تلك الناحية ، ونادت واحدا من مريدى الشيخ . فقال له الشيخ :اذهب لترى ماذا تريد.فذهب الدرويش .ووضعت المرأة كل ما كانت تلبسه من ثياب وحلى فى أزار . وأعطته للدرويش، وطلبت منه أن يوصلها للشيخ . فأحضرها الدرويش للشيخ ، وأبلغه رسالتها . فقال الشيخ: باركها الله . وأمر بأن ينفقوا كل ماتخلت عنه المرأة فى شراء الحلوى والخبز والبخور الزكى . وأتجه الشيخ وجماعة الصوفية إلى الصحراء لتأدية الصلاة فى المدينة . وكان جمع كبير من عامة الناس يسيرون خلف الشيخ ، فأحضر الجمالون الطعام ، ووضعوه كله أمام الجميع ، ودعوهم إليه . ولم يشاركهم الصوفية . ووقف الشيخ مع الصوفية فى ناحيه ينظرون إلى الناس ، ووضعوا العود والبخور على النار . وأخذ العود يحترق ، وانتشرت رائحته فى الهواء ، وغمرت

النشوه الشيخ ، فأخذ يصرخ، قائلا : كل ما يأتى بالنفس ، يذهب بالدخان والريح.
وعندما فرغ الناس من الطعام (ص ٢٤٧) ذهب الشيخ إلى المدينة .

وظلت المرأة المطربة ثابته على توبتها ، وأصبحت من جملة السيدات الصالحات،
ببركة كرامة الشيخ قدس الله روحه العزيزه .

حكاية :

قال السيد الشيخ أبو الفتح رحمة الله عليه إنه عندما كان فى نيسابور كان سيف الدولة واليا عليها ، وكان من جملة السلاطين الكبار . وذات يوم جاء لزيارة الشيخ فى الخانقاه ، وبكى كثيرا ، وقدم له وفيرا ، وقال : أرجو أن يقبلنى الشيخ ابنا له . فقال له الشيخ : ياإبراهيم ، لقد أحرزت درجة رفيعة ، فلا ينبغى أن تعجز عن القيام بحقها . فقال : سأقوم بها إن شاء الله ببركة همة الشيخ . فقال له الشيخ ، هل تعاهدنى على ألا تظلم ، وتقصر أيدى الجنود حتى لا يظلمون الرعية ؟ . قال : أعاهدك . فقال له الشيخ : لقد قبلتك ابنا لى. فعظمه سيف الدولة وخرج . واتبع العدل والسيرة والحسنة حتى اشتهر بالعدل والإنصاف فى خراسان . وكانوا يضربون المثل بمروئته ، بفضل بركة الشيخ .

حكاية :

عندما كان الشيخ فى نيسابور ، حدث يوما أن كان يعظ فى خانقاه الأستاذ الإمام . وفى أثناء عودته من هنالك إلى محلة عدنى كوبان ، قابلة فى الطريق إبراهيم ينال أخو السلطان طغرل . فلما اقترب من الشيخ، ترجل عن جواده، وأحنى رأسه تحية للشيخ . فقال له الشيخ : أحن رأسك أكثر. ففعل . فقال الشيخ : أحنها أكثر . فأحناها حتى اقتربت من الأرض .فقال الشيخ : انتهينا ، اجلس بسم

الله . فجلس ، وسار الشيخ إلى الخانقاه . وسأل الدرويش نفسه ماهذا الذى فعله الشيخ مع أخى السلطان طغرل ؟ . فالتفت إليه الشيخ وقال : أيها الدرويش ، ألا تعرف أن كل من يسلم علينا إنما يسلم علينا من أجل الله ؟ . إن قالبى هو القبلة التى يتقرب إليها الناس، ولست أنا المقصود فى نفسى، إنما المقصود هوالله جل جلاله. وكل تبجيل لله سبحانه وتعالى كلما كان أقرب إلى الخشوع ، كان أكثر قبولا . ولهذا أمرت ابراهيم ينال بتبجيل الله تعالى، لابتبجيل شخصى . ثم قال الشيخ : لقد جعل الله الكعبة قبلة المسلمين (ص ٢٤٨) ليسجد الناس له ، أماالكعبة نفسها فلاقيمة لها . وجعلنا قبلة الناس ليحترموه فينا ، ولاقيمة لنا بأنفسنا . فسقط الدرويش على الأرض،وأدرك أن مايفعله الشيوخ لايصل إليه تفكير أى شخص، وأنه لايمكن الأعتراض على مايفعلونه لابالظاهر ولا بالباطن ؛ لأنه لايمكن أن يكون إلا حقا .

حكاية :

فى رواية صحيحة نقلا عن السيد الإمام أبى على العثمانى أنه قال : سمعت الشيخ أبا سعيد يقول : رأيت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى النوم ، وعلى رأسه تاج ، وفى وسطه حزام . وقد وقف أمير المؤمنين على رضى الله عنه عند رأسه ، ووقف أبو القاسم الجنيد وأبو بكر الشبلى بين يديه . فسلمت عليه وسألته: «يارسول الله ماتقول من أولياء الله ؟ » ، فقال المصطفى : « هذا منهم ، وأنت آخرهم ، فإذا مضيت أنت لشأنك لانذكر أحد بعدك » وأشار إلى كل واحد منهما .

ويقول جامع هذه الاقوال ـ المؤلف ـ سمعت الإمام عبد الرحيم يقول فى طوس إنه سمع والده السيد الإمام عبد الكريم الإزجاهى يقول : سمعت الشيخ أبا سعيد بن أبى الخير يقول : رأيت المصطفى صلوات الله عليه فى النوم ، فقال لى : ياأبا سعيد ، كما أننى آخر الأنبياء ، فأنت آخر الأولياء ، ولن يكون بعدك ولى . وخلع خاتما من يده وأعطاه لى .

حكاية :

فى وقت من الأوقات كان الشيخ يعظ فى ميهنه . وفى أثناء ذلك وصل درويش من ماوراء النهر ، ودخل إلى المكان وجلس . وأتم الشيخ المجلس فى ذلك اليوم ، وحياه الدرويش ، وأقام لديه ثلاثة أيام . وكان يجلس كل يوم فى مجلس الشيخ ، والشيخ يلتفت إليه ، ويقول أقوالا طيبة . وفى اليوم الرابع وقف الدرويش فى وسط المجلس وصاح قائلا : أيها الشيخ ، أريد (ص ٢٤٩) أن أعرف أى رجل أنت ، وماأحوالك؟ . فقال له الشيخ : أيها الدرويش: أنا رجل لاأربط كيسى ، ولاأتعارك من الناس. ولما سمع الدرويش ذلك القول هذا وجلس. وعندما فرغ الشيخ من الحديث أسرع الدرويش عائدا إلى بلده .

وكان فى ماوراء النهر شيوخ كبار، اعتادوا أن يجلسوا فى حلقة، ويتبادلون فيها الحديث. فلما جلس بينهم، وتحدث كل منهم فى موضوع ، وجاء دوره قالوا له : هيا، حدثنا عما رأيت فى خراسان. فقال: رأيت فى ميهنه شيخا كان يعظ وعظا جيدا لاأذكره كله ، وقد سألته أى رجل أنت ، وما أحوالك ؟ . فقال لى : أنا رجل لاأربط كيسى ، ولاأتعارك مع الناس . فنهض الشيوخ دفعة واحدة ، وتوجهوا

إلى خراسان، وسجدوا تعظيما للشيخ. قائلين إن مثل هذا الشخص يستحق التعظيم، لأنه لم يبق له من نفسه شيء قط .

حكاية :

عندما ذهب الشيخ إلى نيسابور ، ظل أبو القاسم القشيري لايراه عاما ، وكان منكرا له . بيد أن الناس كانوا ينقلون إليه كل مايفعله الشيخ ، وينقلون إلى الشيخ أيضا كل مايصنعه الأستاذ الإمام . وكان الأستاذ الإمام يتحدث في حق الشيخ دائما ، مظهرا إنكاره له . وكانوا يخبرون الشيخ بذلك ، ولم يكن الشيخ يعقب عليه بشيء .

وذات يوم قال الأستاذ الإمام : ليس هناك ماهو أكثر من أن أبا سعيد يحب الحق سبحانه وتعالى ، والحق سبحانه وتعالى يحبنا . ويوجد فرق كبير بين الحالين ، فأنا كالفيل ، وأبو سعيد كالبعوضة .

ونقل رجل هذا القول إلى الشيخ فقال له : إذهب إلى الأستاذ الإمام ، وقل له : أنت البعوضة أيضا ، أما أنا فلست شيئا قط ، ولا جود لي . فذهب الدراويش وأبلغ الأستاذ الإمام هذا الكلام ، فلم يذكر بعدذلك شيئا يسيء إلى الشيخ . ثم جاء إلى مجلس الشيخ ، وتبدل ذلك الإنكار بالألفة . وقد دونت هذه الحكاية في ذلك الوقت .

حكاية :

وأيضا (ص ٢٥٠) عندما كان الشيخ في نيسابور ، مرض أحد الأئمة الكبار ، فذهب الشيخ لعيادته ، وجلس إليه . وبينما كان الشيخ يسأله عن حاله ، دخل جمع من وكلاء أعمال هذا الإمام ، وأخذ أحدهم يقول يلزم لفلان كذا من

البذور ، ويقول الآخر تلزم عمارة لفلان ، وظلوا يتحدثون على هذا النحو ، وهو يجيبهم، وقد إنهمك فى الحديث تماما . ولما تنبه لنفسه ، إعتذر للشيخ . فقال له الشيخ : الأفضل للسيد الإمام أن يموت . فأفاق الإمام لنفسه، وأدرك أنه أخطأ ، وأن الحق فى جانب الشيخ ، فاعتذر إليه قائلا : إن نظرى لا يرقى إلى حيث يضع الشيخ قدمه . وتاب عن ذلك .

حكاية :

وأيضا عندما كان الشيخ فى نيسابور ، حدث أنه كان ذاهبا يوما إلى مقبرة الحيرة . وعندما بلغ قبور المشايخ ، رأى هناك جماعة كانت تشرب الخمر ، وتدق الدفوف. فثار الصوفية، وأرادوا أن يعتدوا عليهم ، فمنعهم الشيخ . ولما إقترب منهم قال لهم : سوف يجعلكم الله مسرورين فى الآخرة ، على نحو ما أنتم عليه من السرور فى الدنيا . فنهضوا جميعا ، وقبلوا أقدام الشيخ ، وسكبوا الخمر ، وحطموا الدفوف وتابوا ، وأصبحوا من خيرة الرجال بفضل بركة الشيخ .

حكاية :

كان الشيخ أبو سعيد ذاهبا إلى « مرورود » ولما وصل « بغشور » ، وجدها مدينة سيئة ، ووجد أهلها رجالا أخياراً ، عظماء ، أكثرهم من الأئمة ، وأهل التقوى .

وكان فى « بغشور » ثلاثمائة رجل من أهل الفتوى والدين . وكان جميع أهل المدينة صالحين ويقال إنه فى وقت من الأوقات أراد واحد من عمال السلطان أن يفسد فى تلك المدينة . (ص ٢٥١) فاجتمع أهلها ، سواء العوام منهم والخواص، الصغار والكبار ، وقالوا لن ندع أحدا ينشر الفساد فى مدينتنا ، أو يرتكب

معصية ،أو يعلم أبناءنا ممارسة الفساد . وبلغ الصراع بينهم وبينه مدى بعيدا ، ولم يستسلموا له فى النهاية ، أو يتركوه ينفذ مآربه .

وعندما وصل الشيخ بغشور قال : هذه المدينة جحيم لأهل الجنة . وسار منها إلى « مرورود ». ولما رأى القاضى حسين رحمة الله عليه الشيخ أبا سعيد فى هذه المدينة ، أصبح من مريديه ، أقام الشيخ هناك ثلاثة أيام .

وكان أحد الدراويش يحتفل بختان ولده ، ودعا الشيخ والصوفية ، فذهبوا إليه . وبعد أن فرغوا من تناول الطعام ، أقاموا السماع . وغمرت النشوة الشيخ ، وركب جواده على تلك الحال ، وذهب الخانقاه والصوفية فى رفقته ، والقوالون ينشدون . وأخذوا يسيرون على هذا النحو ، حتى بلغوا قلب المدينة . وأنكر الناس عليهم ذلك ، وذهبوا إلى القاضى حسين ، وأطلعوه على ماحدث . فكتب حسين رقعة إلى الشيخ يقول له فيها : إن الناس يظهرون أنكارهم ، وشكون فى هذه الحركة . فكتب الشيخ على ظهر الرقعة هذا البيت ، وأعادها إليه :

« بيت »

لقد صار هذا الطبع السيء تعويذه لذلك

الوجه الجميل ، وإلا لأصابته عين السوء.

وعندما قرأ القاضى هذا البيت ، بكى ، وزال الإنكار عن الناس .

حكاية :

روى أنه عندما ماذهب الشيخ إلى مرو وحدث ماحدث من الشيخ أبى على سياه والسيد الخباز ، على النحو الذى مر ذكره من قبل ، خرج الشيخ من الخانقاه

وأخذ يسير إلى الصحراء . وكان أحد السادة يسير فى ركابه بحكم أنه من مريديه. ولما بلغ الشيخ قصر السيد ، أمسك بعنان جواد الشيخ ، ودعاه قائلا : يجب أن يدخل الشيخ قصرى ، ويشرفنى بزيارته . فدخل الشيخ والصوفية القصر . وكان به عمود كبير (ص٢٥٢) ترتكز عليه عدة أخشاب ، وكانت أكثر العمارات محملة على عمود على هذا النحو . وعندما وقع بصر الشيخ على ذلك العمود قال : « لاستوائك حملت ما حملت » . وما أن ذكر الشيخ هذه العبارة ، حتى قال السيد : حقا أيها الشيخ ، لقد أنفقت كثيرا على هذا العمود ، وطفت كثيرا ، وتحملت المشاق حتى أحضرته إلى هنا ، ولا يوجد عمود أكبر منه فى المدينة كلها . فقال الشيخ : سبحان الله ! ...أين نحن ، وأين هذا الرجل . ونهض وبارح القصر ، ورفض البقاء ، رغم إلحاحهم عليه ، وذهب من هناك إلى رباط عبد الله مبارك ، ولم يقم بمرو ، وعاد إلى ميهنه .

حكاية :

قال السيد الشيخ أبو الفتوح رحمه الله : عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز فى نيسابور ، أحضروا له ثوبا خيط حديثا ، وغسلوه ، ووضعوه على الحبل ليجف ، فضاع الثوب . وأخذ كل شخص يقول من الذى يجرؤ على عمل كهذا ؟ . وكان الشيخ قد جلس فى رواق الخانقاه فلم يقل شيئا . وكان هناك رجل مسن جلس بجوار الشيخ أبى سعيد ، وكان أبو سعيد يحبه كثيرا . وقال الصوفية سنبحث فى الزوايا ، ونرى أين نجد الثوب . . وبدأوا بالرجل الذى كان يجلس إلى جوار أبى سعيد ، وفتشوه ، فوجدوا ثوب أبى سعيد مربوطا على وسطه . ولما رآه أبو سعيد قال : أخرجوا متاعه إلى الطريق . فأخرجوه إلى باب الخانقاه ، وخرج الرجل ، وذهب ولم يره أحد بعد ذلك مرة ثانية .

حكاية :

روى أن تاجراً كان قد أحضر للشيخ جارية تركية ، وكانت تلك الجارية تقوم بخدمة الشيخ ، وتعتقد فيه اعتقادا شديدا ، فمنحها الشيخ لابنه السيد (ص ٢٥٣) أبي طاهر . وجاءت إلى الشيخ وبكت وقالت له : أيها الشيخ ، لا أدرى لماذا تبعدنى عن خدمتك ؟ . فقال لها الشيخ : إن أبا طاهر قطعة منى ، وأنا لا أبعدك عن خدمتى عندما تكونين عنده . فذهبت الجارية إلى خدمة أبي طاهر ، وظلت فى الوقت نفسه تقوم بخدمة الشيخ ، وأصبحت موضع إعجاب الجميع فى تدينها وتقواها ، حتى لقد قال لها الشيخ ، فى يوم من الأيام :

« بيت »

— من الذى أتى بك من التركستان .
قولى له يذهب ويحضر مثلك .

وكانت تلك الجارية والدة السيد الشيخ أبي الفتح .

فى أقوال الشيخ أبى سعيد التى قالها :

* قال أبو سعيد : كنت أسير حتى وصلت إلى قرية على حدود بلاد الجبل يقال لها « طرق » فنزلت بها ، وسألت : هل كان يوجد هنا أحد من الشيوخ ؟. فقالوا أجل ، شخص يدعى « دادا » . فسرت إلى قبر ذلك الشيخ ، وزرته فشعرت بالراحة التامة . وخرجت جماعة من القرية ، فسألتهم : هل رأى أحد « دادا » لأسأله عنه ؟ . فأجابوا : يوجد رجل رآه فى آواخر أيامه . فأرسلت شخصا ليحضره . وكان رجلا ذاهبية فسألته : أيها الشيخ . هل رأيت دادا ؟ . فأجاب : كنت صغيرا عندما رأيته . قلت : ماذا سمعت منه ؟ . قال : لم تكن

لدى القدرة على أن أفهم كلامه ، ولكنى أتذكر قولا من أقواله . فطلبت إليه أن يذكره . فقال : دخل عليه صوفى ذات يوم وحياه وقال له : لقد أسرعت إليك أيها الشيخ لانال الراحة على يديك ، فقد طفت العالم،ولم أحصل على الراحة قط ، ولم أر مجربا . فقال له دادا : ايها الغافل ، لماذا لم تسعد الآخرين لتستريح أنت (ص ٢٥٥) ، ويستريح بك الناس أيضا ؟ .

قلت : الحق ماقال ، ولا يوجد ماهو أحسن من هذا ، فاذهب وعد إلى بيتك . ثم التفت الشيخ — أبو سعيد — إلى واحد من القوم وقال : « ما كل هذا إلا نفسك . إن قتلتها ، وإلا قتلتك . وإن صدمتها ، وإلا صدمتك . وإن شغلتها وإلا شغلتك » .

ثم قال الشيخ : « لا يصل المخلوق إلى المخلوق إلا بالسير إليه ، ولا يصل المخلوق إلى الخالق إلا بالصبر عليه ، والصبر عليه بقتل النفس والهوى « فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

حكاية :

قال الشيخ : فى يوم من الأيام مر رجل دهرى على حلقة أبى الحسن النورى ، وكان يتحدث عن الحق ويقول : إن الصوفية يسمون الله « الحق » فى لغتهم . وفى كل لغة يسمون الله عزوجل باسم آخر ، فبعضهم يسميه « الرحمن » لأنه يمنحهم الرزق . وبعضهم يسميه « الرحيم » لأنهم يريدون الجنة ، وبعضهم يسميه « الملك » لأنهم يريدون المنزلة . وكل شخص يحتاج إلى شىء يسميه باسم ذلك الشىء . والصوفية يسمونه « الحق » لأنهم لا يمدون أيديهم إلى غيره ، ولا يتطلعون إلى شىء . ثم قال : وقولهم أكثر طهرا ، لأنهم يقولون الحق . وعندئذ قال الدهرى لأبى الحسن

النورى : أولئك الذين يقولون « الحق » مامعنى قولهم هذا ؟ . فقال : معناه ، ذلك الذى يغمر الناس بنعمه الكثيرة ، وهو فى غنى عنهم جميعا .

ثم قال الشيخ : إنه السبحان ، وأطهر من كل مايقولون وما يفكرون . ولله عز وجل تسع وتسعون اسما فى القرآن والتوراة والإنجيل والزبور . وأعظم هذه الأسماء السبحان ، وعندما تقول السبحان ، فقد قلتها جميعا . وإذا قلتها جميعها ، ولم تقل السبحان ، فإنك لم تقل شيئا . وكلها مرتبطة بهذا الإسم ، فإذا ماقلته ، تفتحت لك جميعها ، وامحت الذنوب .

وكما أن المسبحة تتكون من ألف حبة على رأسها واحدة كبيرة تسمى المؤذن ، وإذا ماتقطعت انفرطت جميعها ، كذلك عندما تقول السبحان تجد أسماء الله جميعها . (ص ٢٥٥) فيجب أن تجتهد كثيرا فى أن تقول السبحان .

وجميع المخلوقات تقول « سبحان » ولكنك لاتسمعها لما أنت فيه من غفلة . فهذه البلابل التى تتغنى بآلاف الألحان تقول سبحان الله ، ولكنك لاتسمع إلا الألحان . والله تعالى يقول : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم » .

حكاية :

قال الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز : رآنى بعضهم فى النوم أتحدث وأناميت ، وفمى مغلق . فقال شخص : لاتقل كلاما للناس ، وإذا قلت كلاما فقل كما قال الشيخ . عندما تموت يبقى هو وكفى « مات العبد وهو لم يزل » .

قرأ مقرىء هذه الآية أمام الشيخ : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك

إلى معاد » فقال الشيخ : لقد قال المفسرون فى هذه الآية : أراد به فتح مكة ، وأنا أقول إنه لم يذكر القسم من أجل فتح مكة ، وإنما أراد به لقاء الاخوان .

حكايات وفوائد

جرت هذه الفوائد متفرقة على لسان الشيخ أبى سعيد المبارك :

* قال شيخنا إن عمر بن الخطاب سأل كعب الأحبار : أى آية فى التوراة وجدتها أكثر إيجازا ؟. فقال كعب : وجدت فى التوراة أن الحق سبحانه وتعالى يقول : «ألا من طلبنى وجدنى ، ومن طلب غيرى لم يجدنى » وقد كتب فى مقابل هذا : « قد طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشوق » .

* قال الشيخ : (ص ٢٥٦) قال بايزيد البسطامى إن الحق سبحانه وتعالى فرد فينبغى أن تبحث عنه بالتفريد ، وأنت تحاول أن تدرك وحدانيته عن طريق الكتب فكيف يتأتى لك ذلك .

* قال الشيخ : قال بعض الحكماء : « ولدت باكيا والناس يضحكون ، فاجتهد أن تموت ضاحكا والناس يبكون » .

« بيت »

— إننى أسعد عندما يتحدثون عنك ،
وتصعد روحى وأنا ضاحك .

* قال الشيخ إن الشبلى قال : كل من أطلع على مقدار ذرة من علم التوحيد يعجز عن حمل بعوضة ، من ثقل ما وضع على عاتقه .

* قال شيخنا :

« بيت »

— منـــــذ تماسكنى عشقك ،

طردنى الثعلب الأعرج من عرينى .

* قال شيخنا : « أشرف كلمة فى التوحيد قول النبى صلى الله عليه وسلم : « سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته » .

* قال الشيخ: قال يوسف بن الحسين : كل من وقع فى بحر التوحيد يزداد ظمأ كل يوم ، ولا يرتوى أبدا ، ولا ينطفىء ذلك الظمأ إلا بالله .

* قال شيخنا إن الجنيد قال : ذلك التوحيد الذى للصوفية ، من قبيل فصل الحديث عن القديم ، والخروج من الوطن ، ورؤية المحن ، وترك مايعرف وما لايعرف ، وبدلا من هذا كله يكون الحق .

* قال الشيخ : جاء رجل إلى ذى النون المصرى وقال له أدع لى . فقال ذو النون إذا كان لك سبق فى علم الغيب يكون جميع الدعاء سابق لك فى علم التوحيد . وإلا فكيف ينجى صياح النظارة وصراخهم الغريق ؟ .

« بيت »

— لو أننى حملت حبك معى إلى القبر ،

لظللت أصرخ رغم أنى لم أر منك إلا الفضل

* قال الشيخ : سئل السيد أبو الحسن البوشنجى رحمة الله عليه : ما الايمان؟ وما (ص ٢٥٧) التوكل ؟ . فقال : الإيمان : أن تأكل مما تجده أمامك ،

وتمضغ اللقمة وأنت مرتاح القلب ، والتوكل : أن تعلم أن مالك لن يفوتك .

* قال الشيخ إن أبا عبد الله الرازى قال : عصف بى البرد و الجوع ، فتكاسلت — عن القيام للصلاة — وسمعت هاتفا يقول لى : هل تظن أن العبادة صلاة وصوم ؟ إن إذلال النفس لأحكام الله تعالى أفضل من الصلاة والصيام .

* سئل الشيخ: ما التصوف ؟ فقال : التصوف كله شرك. فقالوا: لماذا أيها الشيخ ؟ . فقال : لأن التصوف حفظ القلب من الغير والسوى ، وليس هناك شيء غير الله .

* قال الشيخ : كان الجنيد قد جلس يوما مع جماعة من الدراويش وأخذ يتحدث فى أفضال الله ونعمه جل جلاله . فقال درويش « الحمد لله » . فقال الجنيد : قل الحمد تاما كما قال الله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » . فقال الدرويش : ومن يكون هؤلاء العالمون حتى يقرنوا به ؟ . فقال الجنيد : قله تاما لأنك عندما تقرن الحديث بالقديم يتلاشى المحدث إلى جانبه ويبقى القديم .

* قال الشيخ : كان الشبلى يقول كثيرا : « الله ، الله ، الله » . فسألوه لماذا تقول الله ، الله ، ولا تقول « لا إله إلا الله » فأجاب : إننى أخجل أن أذكره على لسانى بالإنكار ، وأخشى أن أموت وأنا أقول « لا إله » ولا أصل إلى « إلا الله » .

قال الشيخ : «لا إله » طريق التصوف . و « الا الله » نهايته. ومالم يستقم الشخص فى « لا إله » سنوات . لا يصل إلى « إلا الله » .

* : قال الشيخ قول معاوية بن أبى سفيان: حيث تكفى السياط لا آمر بالسيف، ولو

أن ما بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت . لأنه عندما يجذبونها أرخيها ، وعندما يرخونها اجذبها .

* (ص ٢٥٨) قال الشيخ : يقولون فى كليلة ودمنة إن الشخص لايقدر على السلطان القوى إلا إذا سلمه رقبته . ومثل هذه الأعشاب الغضة ، فهى كلما هبت عليها الريح ، أسلمت نفسها لها لتلقيها على الأرض ، فتنجو فى النهاية . أما الشجرة الكبيرة التى لاتستسلم ، فإن الريح تقتلعها من جذورها . وعندما ترى الأسد وتشعر بالخوف منه ، تدحرج على الأرض ، وتواضع حتى تنجو ؛ لأن الأسد قوى ولكنه كريم . ولايخدعنك العدو الضعيف ؛ لأن البغل القوى ينفر من التبن الضعيف ، بل إنه يهلكه . والنار لاتحرق فتيلة على نحو ماتحرق العداوة قبيلة . والعتاب افضل من الحقد الدفين . وجرح الناصح الأمين أفضل من سلام العدو المبين .

* قال الشيخ : مثل الأدب للاحمق كالماء تحته الحنظل ، كلما شربت منه أكثر ، ازداد مرارة .

* قال الشيخ : إن العاقل هو الذى عندما يعرض له أمر من الأمور يجمع الآراء جميعا وينظر فيها ببصيرته ، حتى يخرج منها بالصائب ، ويترك الآخر . كالشخص الذى يضيع منه دينار فى التراب ؛ فإنه إذا كان ماهرا ، جمع التراب الذى فى تلك الناحية ، ونخله بغربال حتى يظهر الدينار .

* قال الشيخ : كان لأعرابى ابن توفى فجزع عليه كثيرا . فقالوا له اصبر فقد وعد الله الصابرين بالثواب . فقال : كيف لمن كان مثلى أن يصبر على قدرة الله سبحانه وتعالى ، فوالله إن الجزع منه أحب إليه من الصبر ، لأن هذا الصبر يسود القلب .

* ذكر شيخنا عن الشبلى أنه قال : كان هناك صديقان تعودا أن يصحبا بعضهما فى الإقامة والسفر . وتصادف أن اضطرا إلى أن يعبرا البحر .(ص٢٥٩) ولما وصلت السفينة إلى منتصف البحر ، صعد أحدهما على حافتها فسقط فى الماء قضاء . فألقى الصديق الآخر بنفسه فى الماء خلفه . وأوقفوا السفينة ونزل الغواصون إلى الماء وانتشلوهما سالمين . وبعد أن استراحا ساعة قال الصديق الذى سقط أولا لصديقه : انفرض انى سقطت فى الماء فما الذى أوقعك أنت ؟ . فقال : لقد غبت بك عن نفسى حتى ظننت أنى أنت .

* قال الشيخ : كان للخليفة ابنة عم يحبها . وكانا قد جلسا يوما على حافة بئر فسقط خاتم الخليفة فيها . فخلعت الفتاة خاتمها وألقته فى البئر . فسألها الخليفة لم فعلت هذا ؟ . فقالت لقد جربت الفراق عندما بعد كل منا عن الآخر ، فلم أرض أن يشعر خاتمك بوحشة الفراق ، فجعلت خاتمى مؤنسا له .

* قال الشيخ :

(شعر)

يامن وجهك مثل النهار دليل للموحدين

ويامن شعرك مثل ليل الملحد فى اللحد

ويامن أنت المقدم عندى على جميع العشاق

أنت المقدم فى الحسن عندما يتحدثون عن القد

إن أهل مكة يفخرون بالكعبة والمصريين بالنيل

والمسيحيين بالمحراب والعلويين بالجد

وأنت تفخر بهاتين العينين السوداوين

الباديتين تحت نقابك فوق الخـــــد .

* قال الشيخ : وقف صبي في حلقة الشبلي وقال له : ياأبا بكر اجعلني غائبا عن نفسي ثم أعدني إليها حتى أكون معه كما كنت . فقال له الشبلي : من أين لك هذا القول فأنت أعمى أيها الغلام . فقال . من أين أجد هذا ياأبا بكر إن لم يجعلني أعمى فيه ؟ . ثم فرمن أمامه .

* قال الشيخ :

(بيت)

— إذا أبصرتني أبصرته ،

وإذا أبصرته أبصرتنا .

* (ص ٢٦٠) قال الشيخ : يقول يحيى بن معاد الرازى : طالما يكون العبد في الطلب يقال له : ماشأنك بالاختيار ، لست حرا في اختيارك . وعندما يغنى العبد يقال له : إذا كنت ترغب فاترك لأنك إذا اخترت فاختيارك لنا ، وإذا تركت فتركك لنا . فاختيارك أختيارنا ، وفعلك فعلنا .

* قال الشيخ : يقول سهل بن عبد الله إن أصعب حجاب بين الله والعبد هو الادعاء . قال الشيخ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يقبل من... صادقا كان أو كاذبا لم يرد على الحوض».

* قال الشيخ : يقول عبد الله بن الفرج العابد : عددت على نفسي أربعة

عشر ألف نعمة فى يوم وليلة ، من ناحية واحدة . قيل له وكيف عددتها ؟ . قال : عددت أنفاسى فكانت أربعة عشر ألف نفس فى يوم وليلة .

* قال الشيخ : يقول محمد بن حسام إن الطبيب الذى يعطيك دواء مراً لكى تشفى ، يكون أكثر إشفاقا عليك من الذى يعطيك حلوى لتمرض . وكل جاسوس يحذرك لتسلم ، يكون أكثر عطفا عليك من الشخص الذى يطمئنك عما تخاف منه بعد ذلك .

* قال الشيخ: قال ملك لوزير : ماذا ينبغى للرجل لكى يكون شريفا ؟ . فأجاب أن تجتمع فيه سبع خصال . فقال : ماهى ؟ .قال:الأولى : همة الأحرار ، والثانية : حياء العذارى . والثالثة : تواضع العبيد . والرابعة : سخاء العشاق . والخامسة : سياسة الملوك . والسادسة علم : الشيوخ وتجربتهم. والسابعة : عقل غريزى مختف .

* قال الشيخ : يقول أبو جعفر القاينى : سمعت والدى يقول : إن الرجال يفخرون بأربعة أشياء ، لكنهم لايعرفون معناها ، وهى : الحسب والغنى والعلم والورع . وقد ظنوا أن الحسب (ص ٢٦١) شرف النسب ، والحسب هو الخلق الطيب . وظنوا أن الغنى كثرة المال ، والغنى هو غنى القلب . والعلم نور يلقيه الله تعالى فى قلب العبد . والورع هو الامتناع عما حرم الله .

* قال الشيخ : كان لاعرابى جارية تدعى زهرة . فقالوا له : أتريد أن تكون أمير المؤمنين وتموت جاريتك؟ . فقال : كلا، لأن زهرة ستموت ،وأمور الأمة سوف تختل .

* قال الشيخ: قال مزارع لوكيله: أشترلى حمارا لايكون صغيرا ولا كبيرا، بحيث يصونى فى المنخفضات والمرتفعات، ولايعجز فى وسط الشدة، ويسير مستقيما فى الطريق الوعر، وإذا أعطيته علفا قليلا صبر، وإذا أعطيته كثيرا أمتلأ.

فقال له الوكيل: ياسيدى، إنى لاأعرف هذه الصفات إلا فى أبى يوسف القاضى، فاطلب من الله أن يجعله حمارا من أجلك.

* قال الشيخ: جاء رجل يهودى إلى أمير المؤمنين على رضى الله عنه وقال: ياأمير المؤمنين، من يكون الله عز وجل؟، وكيف يكون؟. فتغير لون على وقال: إن إلهنا لاصفة له ولا كيف، وهو لايتغير أبدا، وليس له بداية، وهو سابق على البداية، وليس له غاية ولانهاية، وجميع الغايات تنقطع بدونه؛ لأنه غاية الغايات.

فقال اليهودى إنى أشهد أن كل من يقول غير هذا على ظهر الأرض يكون باطلا. «وأنا أشهد أن لاإله إلاالله وأن محمدا رسول الله».

* يقول سيد الطائفة الجنيد: لن تشعر بالتوحيد إلا فى الوقت الذى يكون لله حق عليك، لأنه طالما لم تؤد هذا الحق لايكمل شعورك به.

* (ص ٢٦٢) قال الشيخ: فى وقت من الأوقات أتى درويش من البادية، وتحمل مشقة كبيرة، وكان معه رفيق، فوصلا الكوفة، وذهبا إلى حديقة نخيل، وسأل الدرويش شيئا. فقال له صاحب الحديقة: أدخل، وأصعد النخلة، وكل بقدر ماتستطيع، وأحمل معك ماترى. فصعد الدرويش على النخلة، وجلس رفيقه تحتها. وأنزلقت قدم الدرويش من مكانها، وسقط من الشجرة، ودخلت شوكة من النخيل فى بطنه، ومزقتها حتى صدره. ونظر ذلك الدرويش، ولما رأى بطنه ممزقة قال: الحمد لله أننى لم أمت حتى لاأراك وقد حققت مرادك، معدة

خاوية وبطن ممزقة ، وروح زاهقة ، لأن جزاءك فى الآخرة سوف يكون أسوأ من هذا. وتقدم ليرى بطنه ويربطها . وعندما رفع ذيله قال الدرويش هذا البيت :

اليوم لا يرفع غيرى ذيلى ليلى .'. نهارى ونهارى ليلى

قال الدرويش : لم تبق هنا خيانة .

* قال الشيخ : سوف يكون جمال الله ونواله عذرا لخيانة العباد ، ففى عفوه عنك اظهار لألوهيته ، وفى عقوبته لك إظهار لجرمك .

* قال الشيخ : مرض سرى السقطى ، وذهب الجنيد لعيادته ، وحمل معه مروحة ليروح له فقال له سرى : ياجنيد ، إن النار تزداد حمية من الريح . فقال الجنيد : كيف ؟ . فقال سرى : « عبد مملوك لايقدر على شىء » . فقال له الجنيد أوص . فقال : لا تشغل عن صحبة الله بصحبة الأغيار . قال الجنيد لو أننى سمعت هذا من قبل لما صحبتك أنت أيضا .

* قال الشيخ : «أوحى الله تعالى إلى داود ياداود قل لعبادى إنى لم أخلقهم لاربح عليهم ولكن خلقتهم ليربحوا على » .

* قال الشيخ. كان أبو بكر الكتانى رجلا عظيما . وكان ذا علم ومجاهدات كثيرة، بحيث لم يبلغ أحد درجته . وواحدة من مجاهداته أنه (ص ٢٦٣) جلس فى مكة ثلاثين عاما تحت قبة ، وكان يتطهر مرة واحدة كل يوم وليلة ، وهذا صعب لأنه لم ينم قط ، بل إن النوم لم يكن يأتيه فى مجلسه هذا .

وذات يوم دخل شيخ مهيب من باب بنى شيبه ، واقترب منه ، وحياه وقال له : ياأبا بكر ، لماذا لم تذهب إلى مقام إبراهيم لأن الناس اجتمعوا هناك ، ليستمعوا إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتسمعه أنت أيضا. فقد

جاء شخص يعرف أخبارا عظيمة ، وأخذ يمليها عليهم . فرفع أبو بكر رأسه وقال له : أيها الشيخ ، ذلك الذى يروى — أخبارالرسول — عمن يرويها ؟ . فقال : عن عبد الرازق بن صنعان ، عن معمر الأزهرى ، عن أبى هريرة . فقال له: أيها الشيخ ، لقد ذكرت اسنادا طويلا ، وكل مايتحدثون عنه هناك بالإسناد والخبر، أسمعه هنا بدون اسناد . فقال الشيخ : ممن تسمعه ؟ قال : حدثنى قلبى عن ربى . فقال الشيخ : وما دليلك على هذا ؟ . قال دليلى هو أنك الخضر . قال الخضر : لقد كنت حتى ذلك الوقت أظن أنه لا يوجد ولى لم يعرفنى الله به ، حتى رأيت الشيخ أبا بكر الكتانى الذى عرفنى ولم أعرفه .

* قال الشيخ : جاء الأستاذ أبو على الدقاق إلى — الشيخ — أبى على شبوبى فى مرو ، وكنت عندئذ بها . وكان الشيخ شبوبى محدثا ، يحفظ صحيح البخارى ، وقد استمعت إلى صحيح البخارى منه . وكان مطلعا إطلاعا تاما فى هذه الناحية . فأحضر الأستاذ أبا على ليتحدث عن شىء ، وقال له : حدثنا فى هذا المعنى . فقال الأستاذ أبو على : إن الحديث فى هذا الأمر مغلق على .فقال الشيخ شبوبى : يجدر بنا أن نعد لك ماتريد حتى تحدثنا فيما نريد . فهذا المعنى نار ، ويحتاج إلى وقود . فقبل الأستاذ أبو على ،وعقدوا له مجلسا ، وكان الحديث لا يأتيه وهو على المنبر إذ لم يكن الناس أهلا له ، ودخل الشيخ من باب المسجد ، ولما رآه الأستاذ، تهيأ له الحديث . وعندما انتهى المجلس ، قال الشيخ شبوبى : لقد كنت على النحو الذى كنا نحن عليه .

* (ص ١٦٤) قال الشيخ : تلزم الحاجة ، فليس للعبد طريق أقرب إلى الله من الحاجه . ولو أنها وقعت على الحجر الصلد ، لفجرت منه عيون الماء . فالأصل هو هذا ، وهو للدراويش ، وتلك رحمة الله معهم.

* قال الشيخ : فى وقت من الأوقات فى فصل الصيف ، كان الجو حارا

جدا فى وقت القيلولة . ورأيت الشيخ شبوبى يسير فى هذا الحر والغبار ، فقلت له : إلى أين أيها الشيخ ؟ . فقال : إلى هـذه الخانقاه القريبة ، ففيها دراويش . وقـد سمعت أن كل من يقضى وقت القيلولة بين الدراويش ، تمطر عليه مائة وعشرون رحمة فى اليوم ، وخصوصا فى هذا الوقت الذى أذهب فيه .

قال الشيخ : أربط نفسك بهم ، وادعوهم إلى مصادقتك .

قال الشيخ : كان سرى السقطى يملك حانوتا فى بغـددا ، اعتاد أن يجلس فيه . ولم يـكن بالحانوت شىء يبيعه ، وكان قد علق على بابه ستارا ، وأخذ يصلى خلفه . وجاء رجل من جبل اللـكام لتحيته ، فأرشدوه إلى مـكانه ، فدخل السوق ، وسار حتى بلغ الحانوت ، ورفع الستار وحياه . وقيل لسرى : لقد حياك الشيخ فلان من اللـكام . فقـال : أين ذهب ؟ . قيل : لقد عاد إلى الجبل . فقال : لاينبغى هذا لـكى يـكون الرجل رجلا ، بل ينبغى للرجل أن يشتغل بعبادة الله ، ولو كان فى سوق وسط الناس . وألا يجعل قلبه يخلو من ذكر الله لحظـة .

* قال الشيخ : كان الشيخ أبو العباس يقول كثيرا : كل مريد يقوم بخدمة واحدة لدرويش أفضل له من مائة ركعة يزيدها فى الصلاة . وإذا أنقص من طعامه لقمة واحدة أفضل له من أن يصلى طول الليل .

* قال الشيخ : طاف درويش كثيرا ، وسافر طويلا ، فلم يشعر بالراحة ، أو يجد شيئا . وانقبض قلبه ، ونام تحت شجرة شوك ، وغطى رأسه بدثارة ، فشعر قلبه بالراحة . فرفع رأسه إلى السماء (ص ٢٦٥) وقال : « يارب أنت معى فى الـكساء وأنا أطلبك فى البوادى مذ كذا » .

* قال الشيخ : خرج الجنيد يوما فرأى صبيا خرج من مكان وقال له : أيها الشيخ ، إلى متى انتظرك ؟ . فقال الجنيد : أعن وعد ؟ . فقال : نعم ، سألت مقلب القلوب أن يحرك قلبك إلى . فقال الجنيد: صدقت ، ماذا تريد ؟ . فقال الغلام : لقد جئت لتجيبنى عمن يقول : « إذا خالفت النفس هواها صار دواها ». فقال الجنيد : نعم فالعلل تجذب المرء ، فإذا خالف هواه شفى .

* قال الشيخ : قال المرتعش : قمت بالحج عدة مرات مجردا ، بدون زاد ، ولا دلو ، ولا شىء . وعرفت أننى فعلت هذا كله بسبب هوى النفس . فسألوه كيف ؟ . فأجاب : لأن والدتى قالت لى يوما أحمل الجرة ، فحملتها ، وأحسست بالتعب . فأدركت أن مافعلته كان من أجل هوى النفس .

* قال الشيخ : يقول سفيان الثورى : إذا قال لك شخص « نعم الرجل أنت » وسرك ذلك أكثر من أن يقول لك « بئس الرجل أنت » فأعلم أنك رجل سىء .

* قال الشيخ: في وقت من الأوقات وصل نساج إلى منصب الوزارة ، فكان ينهض كل يوم وقت الفجر ، ويخرج المفتاح ، ويفتح الباب ، ويقضى ساعة فى — مصنعه — ثم يخرج منه ، ويذهب إلى خدمة الأمير. فأخبروا الأمير بما يفعل. فتحرق شوقا لأن يعرف ماذا يوجد فى ذلك المكان . وذات يوم تبع الوزير متخفيا إلى ذلك المكان، فرأى مغارة على شاكلة مغارة النساجين، ورأى الوزير يدير الآلة ، فسأله : ماهذا . فأجاب الوزير : إن كل ما أنا فيه من نعم مالك للأمير ، ولكننى لم أنس بدايتى ، فأنا أذكر نفسى بها حتى لاأقع فى خطأ . فخلع الأمير خاتمه(ص ٢٦٦) من أصبعه وقال له . خذه وضعه فى أصبعك، وإذا

كنت قد بقيت إلى الآن وزيرا فأنت منذ الآن أمير ، وهذا الملك لك ، وهو يليق بك .

* قال الشيخ : كان بايزيد يركب أسدا ، ويتخذ الأفعى سوطا ، وكان يقول : هل توجد درجة أعلى من هذه بين الناس . وعندما كان يصلى يقول : « إلهى بسترك عشنا ، فلو رفعت عنا غطاءك لافتضحنا » .

* قال الشيخ : كان أبو على الدقاق يتحدث فى أحد المجالس ، وكان الحماس قد تملكه ، واستولت النشوة على الناس . وقال رجل : ياأستاذ ، إننى أرى هذا كله ، فأين الله ؟ . فقال : وكيف أعرف ، إننى أيضا أصرخ بسبب هذا . فقال له مادمت لاتعرف فلا تتحدث . فقال : وماذا أقول إذن ؟ .

* قال الشيخ : قيل لبايزيد : ماذا تقول فى شخص يسافر من أجل الله وهو معه ، لماذا يسافر ، وهلا يتحقق مقصوده فى مكانه ؟ . قال : تتوسل الأراضى إلى الله قائلة : ياإلهى ، أرنى وليا من أوليائك ، وأضىء عينى بمقدم حبيب . فيوحى الله إليهم بالسفر ، حتى يتم مقصود تلك البقعة .

* قال الشيخ : كان فى مدينه مرو رجل فاضل ، لم يكن يغادر منزله قط . وتصادف أن خرج يوما وجلس فى المسجد . فأحضر شخص طعاما ، ووضعه أمامه ، فمد يده ، وأخذ يأكل قليلا قليلا . وعندما انتهى من الطعام ، دخل كلب واتجه إليه ، وأمسك بذيله . فقال له الرجل : من السهل على أن أوذيك ، وأنا لا أخشاك ، وأعرف من الذى أرسل إليك ، ومن الذى عين لذلك ، ولكن الآخرين غافلون . ولا أدرى إذا كانوا سيتركونك أم لا . وبعد لحظة دخل المؤذن ومعه عصا وضربه ضربة محكمة فصرخ الكلب . والتفت الرجل إليه وقال له : أرأيت

كيف (ص ٢٨٧) قلت لك إنني لا أخشاك ولكن لا أعرف ما إذا كان الآخرون سيتركونك أم لا ؟ إن الصديق لا يخشى صديقه .

(ص ٢٦٧) قال الشيخ : قال رجل لشيخ فى سمرقند : اكتب لنا بعض الآيات القرآنية فقال له الشيخ : منذ ثلاثين عاما وأنا معاق بكلمة واحدة وهى : « ونهى النفس عن الهوى » ولم أنته منها للآن .

* قال الشيخ : يؤتى بإبليس يوم القيامة بين يدى الله ، ويقال له هل ضللت هؤلاء الناس جميعا ؟ . فيقول : كلا ، ولكننى دعوتهم ، ولم يكن من الواجب عليهم أن يستجيبوا لى . فيقال له : إذهب الآن ، واسجد لآدم ، حتى تنجو . فيدوى الصياح فى العرش أن أسجد لكى ننجو نحن وأنت من هذه المحنة . فيأخذ فى البكاء ويقول : لو كان ذلك متوقفا على رغبتى ؛ لسجدت له من أول يوم .

* قال الشيخ : ذهبت إلى أبى بكر الجوزقى وقلت له : ارو لى حديثا . ففتح كتابا ، وروى لى هذا الحديث : إن لله عز وجل جيشين أحدهما فى السماء يرتدى الأردية الخضراء ، والآخر فى الأرض وهو جيش خراسان . والصوفية الآن هم جيش الأرض ، فهم يريدون أن يستولوا على جميع الأرض .

* قال الشيخ : كان لأحد الصوفية ابن محبوب اسمه أحمد . وكان يريد شخصا يتحدث معه عنه . ولما لم يجد أحدا ، ذهب إلى حيث يوجد الاجراء ، وقال لواحد منهم : كم تريد أجرا عن يوم ؟ . قال ثلاثة دراهم وطعاما . فاصطحبه إلى المنزل ، وأحضر له طعاما ، وأعطاه ثلاثة دراهم ، وقال له : إجلس لاتحدث إليك عن أحمد ، وحرك رأسك إعجابا كلما تحدثت إليك . ومضت ساعة قال الأجير بعدها : أيها

السيد ، إذا كان لديك عمل آخر فدعني أقوم به ؛ لأن اليوم يمر ببطء ، فقال الرجل : إن هذا هو عملى معك فقط .

* (ص ٢٦٨) قال الشيخ : كان فى قريتنا رجل أجر جواده لآخر ، فهلك الجواد . فقال الرجل . إننى أستطيع أن أدفع ثمنه . فقال صاحب الجواد : لا أريد إلا جوادى . واشتبكا معا ، وتجمع الرجال من هنا وهناك . ولم يمض بعض الوقت حتى قتل ألف رجل ، وترملت نساؤهم ، وتيتمت أطفالهم ، وتخربت بيوتهم . وكان هذا كله بسبب جواد ذلك الرجل .

* رأى أحد رجال السلطان محمود السلطان فى النوم فقال له : كيف حال السلطان ؟ . فقال : صه ، فلست سلطانا هنا ، ولست شيئا . إنه هو السلطان ، ولقد كان ذلك خطأ . فسأله الرجل : وماذا حدث لك بعد الموت ؟ . فأجاب : لقد أحضرت إلى هنا ، وسئلت عن كل صغيرة وكبيرة . لقد سلب غيرى بيت المال ، وترك لى الحسرة والألم .

* قال الشيخ : اعتمد زكريا عليه السلام على الشجرة وقال : يارب ، قل لهذه الشجرة أن تحمينى . فعاتبه الله سبحانه وتعالى وقال له : اتعتمد على الشجرة؟ انظر ماذا يحدث لك . وعندما احتوته الشجرة ، ظل جزء من ردائه خارجها . وجاء الناس إلى الشجرة ، ورأوا ذلك الجزء ، فقالوا : ماذا يوجد فى داخل هذه الشجرة ؟ . وأحضروا فأسا ، وقطعوا أعلى الشجرة . وأخذوا يقطعون منها ، حتى وصلوا إلى رأس زكريا ، فتأوه . فقيل له : أصمت ، إنك أنت الذى اعتمدت على الشجرة ، فلماذا تتأوه الآن ؟ لو إنك اعتمدت علينا لحميناك .

* قال الشيخ : قال رجل لآخر : تعالى لاستضيفك . فقال : حقاً ؟ . فأجابه :

وإذا كنت تقبل ، فإنني أحضر شخصا ليسمعك شيئاً . فقال الرجل : اعطنى أولا من هذا الشراب اللذيذ . فأعطاه بعض الشراب ، فشرب الرجل وقال لمضيفه : إذا أعطيتنى (ص ٢٦٩) عدة كؤوس أخرى من هذا الشراب ، فلا حاجة بى إلى السماع ، بل أقوم أنا بإسماع ألف شخص ، لأنى فى كل وقت أتناول فيه الشراب تصبح أعضائى السبع آذانا ، وأسمع جميع السماع . « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » .

* كان الشيخ يقول : الريح : فى أيديهم وفى يد سليمان أيضا « ولسليمان الريح » . إعلم أن — سليمان — طالب التملك . وسوف يحتفظون له بالدنيا فى السماء أربعين عاما ، ويذهب إلى الجنة بعد جميع الرسل بأربعين عاما .

* قال الشيخ : لقد قال الشيوخ إن الله يحب من يبتليه ويجذبه ويقذف به من هذا المكان إلى ذلك المكان حتى يذله ، ولا يبقى من قوته شيئاً . وعندئذ يتجلى بنور بقائه على ذلك العبد الطاهر .

قال الشيخ : كان أبو حفص حدادا يضرب الحديد بالمطرقة . فأمر غلمانه أن يدقوا المطرقة لتتطهر . ثم قال : دقوا المطرقة ثانيا . فقالوا : أيها الاستاذ علام ندق ؟ ... لقد تطهرت ولم يبق شيء . ولما سمع أبو حفص ذلك سقط فى الحال ، وصرخ وألقى المطرقة من يده ، وتخلى عن حانوته ، وأصبح شيخا عظيما .

* قال الشيخ : قيل لأمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضى الله عنه : فيمن تأمل ؟ . قال : فى شخص لم يخلقه الله تعالى . فقالوا . أيها الشيخ ، ماذا يأملون من شخص لم يخلقه الله ، فإنه لا يعلم شيئا ؟ . قال شيخنا : إنه ليس المخلوق الذى تتصورونه ، والذى لم يخلقه الله وإنما هو المخلوق الذى إذا خلقه ، خلق فيه جميع الصفات التى تطهره ، وتحمله على الطهر ، بحيث يخيل إليك أنه ليس بشرا ، لأن جميع علائق البشر لا تكون موجودة فيه .

ثم قال الشيخ : لقد كان الشيخ أبو الحسن الخرقانى يقول إن الصوفى ليس بشرا لهذا السبب.

* قال الشيخ : « قال رجل لعبد الله بن مبارك : أسلم على يدى يهودى ، فقطعت (ص ٢٧٠) زناره . فقال : قطعت زناره ، فما فعلت بزنارك ؟ » .

* قال الشيخ : « قيل لاعرابى : هل تعرف الرب ؟ قال : لا أعرف من جوعنى وعرانى وأفقرنى وطوفنى فى البلاد » كان يقول هذا ويتواجد .

* كان الشيخ يعظ يوما . وفى وسط الحديث ، التفت إلى الأستاذ الإمام أبى القاسم القشيرى وقال له : ألم تقل إن الاستاذ أبا إسحاق الاسفراينى قال «الناس كلهم فى التوحيد عيال على الصوفية » . قال : نعم . قال الشيخ : استمعوا إلى مايقول .

* قال الشيخ : عندما ذهبت إلى أبى عبد الرحمن السلمى ، ورأيته لأول مرة قال لى : سأكتب لك مذكرة بخط يدى . فقلت : تفضل . فكتب بخطه : « سمعت جدى أبا عمرو بن نجيد السلمى يقول سمعت أبا القاسم جنيد بن محمد البغدادي يقول : التصوف هو الخلق ، من زاد عليك بالخلق زاد عليك بالتصوف .

وأحسن ماقيل فى تفسير الخلق ماقاله الشيخ الإمام أبو سهل الصعلوكى : الخلق هو الاعراض عن الاعتراض » .

* كان شيخنا يقول كثيراً : جلس شيخ فى سفينة ، وتناول طعامه ، وكان قد بقى رغيف جاف ، فحمله إلى فمه ، ولكن أسنانه لم تستطع مضغه . فكسره بيده ، وألقاه فى البحر . فأقبل الموج وسأله : من أنت ؟ . فقال : رغيف جاف . فقال له : مادام أمرك قد انتهى إلىّ فسوف تصير رطبا .

* قال الشيخ : كنت فى مدينة مرو ، فرأيت صرافا شيخا ، فقال لى : أيها الشيخ، لايوجد فى العالم كله من يعطينى شربة ماء، أويسلم على. وجميع الناس يريدون أن يتحرروا من أنفسهم ساعة ، وأنا أريد أن أعرف لساعة واحدة أين وقفت ؟ .

وفى أواخر عمره سقطت عليه نار واحترق .

* قال الشيخ : كان هناك رجل يملك مالا كثيرا ، ففكر فى أن يستغله فى التجارة . وركب سفينة ، (ص ٢٧١) فتحطمت السفينة ، وغرق ماله ومتاعه ، وجميع من كانوا بالسفينة . وبقى وحده معلقا بلوح من ألواحها . وبلغ جزيرة خالية ليس بها مؤنس . ومرت عليه سنوات ، فاستولى عليه الضيق والحزن . وذات ليلة كان قد جلس على شاطىء البحر عاريا، وقد استرسل شعره، وبليت ملابسه ، فأخذ يردد هذا البيت :

إذا شاب الغراب أتيت أهلى   وهيهات الغراب متى يشيب

فسمع صوتا آتيا من البحر يقول :

« بيت »

عسى الكرب الذى أمسيت فيه   يكون وراءه فرج قريب

أيها الرجل ، لاتيأس ، ألا تعرف أن هذه الشدة والألم الذى أنت فيهما الآن قد يظهر بعدهما الفرج ؟ .

وفى اليوم التالى وقعت عين ذلك الرجل على البحر ، فرأى شيئا كبيرا ، فلما اقترب كان سفينة أهله . وعندما رأوه سألوه عن حاله ، فقال إن قصتى طويلة . وذكر لهم قصته ، وأخبرهم عن بلده . فسألوه : ألم يكن لك ولد ؟ . قال : كان لى ولد صغير . وعندما سمعوا ذلك ، قبلوا الأرض بين يديه ،وقالوا له : هذه سفينة إبنك ، ونحن جميعا غلمانه. ثم ألبسوه بعض الملابس ، وقالوا له :إذا أردت فاننا نعود الآن . ثم عادوا معه ، وأوصلوه إلى بلده .

* قال الشيخ :

(بيت)

— عندما تتأزم الأمور تنفرج ،
وعقب كل حزن يزداد الفرح .

* قال الشيخ : فى وقت من الأوقات كان رجل من ازجاه يأتى إلى مسجد فى محلة ناوسار فى وسط قرية ميهنه. وكان يقوم بالوعظ ، وعندما ينتهى من الحديث يصيح (٢٧٢) قائلا : « ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين » .

* كان الشيخ قد جلس يوما ، ونهض شاعر لينشد شعرا ، وبدأ يقول :

ماذا تريد الأرض والزمان من هذا الدوران

فقال له الشيخ : كفى ، كفى ! اجلس فقد أفسد قولك طعم الشعر .

* قال الشيخ : أرسل كاتب الروم رسولا إلى أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه. وعندما جاء ، وسأل عن منزله ، أرشدوه إليه . فقال لنفسه : ماهذا الخليفة الذى بعثت إليه . وعندما بلغ المنزل تعجب . وسأل الحاضرين عن عمر فقالوا إنه ذهب إلى المقابر . فذهب خلفه ، فوجده نائما على الرمال فى المقبرة . فقال الرسول : حكمت وعدلت فلاجرم أن نمت آمنا سعيدا . أما ملكنا فقد حكم ولم يعدل ، وأقام الحراس على السطح ، ولم ينم آمنا .

* قال الشيخ : كنت فى مرو ،وكان بها سيدة عجوز تدعى « سيارى » ، فجاءت إلى ، وقالت : ياأبا سعيد ، لقد جئت اليك متظلمة . فقال لها الشيخ :قولى مظلمتك . فقالت : إن الناس يدعون دائما قائلين : ياالهى لاتدعنا لانفسنا طرفة عين ، وقد مرت ثلاثون عاما وأنا أقول : ياالهى دعنى انفسى طرفة عين ؛ لأرى من أنا ،ومن أكون ، ولم يتحقق هذا بعد .

* (ص ٢٧٣) قال الشيخ : مر رجل على مجلس يحيى بن معاذ الرازى ، وكان يعظ الناس وينصحهم ، فقال له الرجل « ماأعرفك بالطريق وما أجهلك برب الطريق ! » .

* قال الشيخ : قيل للشيخ أبى الفضل حسن : أدع الله الا يسقط المطر. فقال حسنا . وفى تلك الليلة تساقط الثلج فى قطع كبيرة . فقيل له : ماذا فعلت ؟ . فقال شربت مرطبا ، فكنت منتعشا ، وكان الجو لطيفا أيضا .

* قال الشيخ : قيل للشيخ أبى الفضل حسن : ادع للسلطان محمود ، فربما يشفى . ففكر لحظة ثم قال : إن هذا الدعاء يبدو فى نظرى تافها ، فلا تنظروا إليه على أنه عظيم .

* رؤى أبو حمزة النورى ، قبيح المظهر ، مسترسل الشعر ، قذر الملابس . فقال شخص : هذا الاضطراب الظاهر دليل على اضطراب الباطن . فقال : «كلا ، إن الله تعالى ساكن الأسرار فجملها ، وباين الأبدان فأهملها » .

* قال الشيخ: قال أبو الحسن النورى« أهل المعرفة عرفوا القليل من القليل ؛ لأنهم عرفوا الدليل والسبيل ، والحق وراء ذلك » .

* قال الشيخ : كان أبو يعقوب النهرجورى شيخا كبيرا ، ومع هذا كله فلم يكن يقلل من العبادة والمجاهدة ساعة ، ولم يشعر بالسعادة لحظة ، وظل يتأوه

في مناجاته لله تعالى . فسمع نداء يقول له: «يا أبا يعقوب اعلم أنك عبد واسترح ».

* قال الشيخ : «من أحب ثلاثة فالنار أقرب إليه من حبل الوريد : لين الكلام ، ولين الطعام ، ولين اللباس » .

* قال الشيخ : دخل درويش على الشبلي وقال له: أيها الشيخ إذا نام شخص في ذلك الطريق فهل يسير فيه ؟. فقال الشبلي:إذا كان قد نام في ظل الاخلاص فإن نومه صدر منزل .

ثم قال الشيخ : قول الشبلي هو ماذكره الرسول صلى الله عليه وسلم : «نوم العالم عبادة » .

* (ص ٢٧٤) قال الشيخ : هبط الوحي على موسى، أن قل لبني إسرائيل اختاروا أفضل شخص فيكم . فاختاروا ألف شخص . فهبط الوحي ثانيا ، أن اختاروا الأفضل من هذه الألف.فاختاروا عشرة أفراد.وهبط الوحي للمرة الثالثة ، أن اختاروا الأفضل من هؤلاء العشرة فاختاروا واحدا .

ثم هبط الوحي أن قولوا لذلك الأفضل : أحضر أسوأ شخص في بني إسرائيل . فطلب مهلة قدرها أربعة أيام .وأخذ يطوف ويتجول حتى نزل في اليوم الرابع بمحلة رأى فيها رجلا ، كان معروفا بأنواع الرذائل والفساد.فأراد أن يأخذه معه ، ولكنه قال لنفسه : لا ينبغي أن أحكم بالظاهر ، ويجوز أن يكون ذا قدر ومكانة ،ولا يليق بي أن آخذه بقول الناس. كما أنه يجب علي ألا أغتر باختيار الناس لي على أني الأفضل ، ومادام ماأفعله ليس إلا ظنا فمن الأفضل لي أن أظن في نفسي . ووضع العمامة على رأسه ورجع إلى موسى وقال له : لقد بحثت كثيرا فلم أر من هو أسوأ مني . فهبط الوحي على موسى أن ذلك الرجل أفضلهم حقا ، لا لأنه أكثر منهم طاعة ، ولكن لأنه عرف أنه الأسوأ .

* قال الشيخ : قال أبو بكر الواسطى : يسقط شعاع الشمس على نافذة المنزل فتظهر فيه الذرات . وتهب الريح ، وتحرك تلك الذرات فى وسط الضوء ، فهل تخافون من ذلك ؟ . قالوا : كلا . فقال : إن الكون كله يكون أمام قلب العبد الموحد كالذرة التى تحركها الريح .

* قال الشيخ : قال الشبلى : « لا يكون الصوفى صوفيا حتى يكون الخلق كلهم عيالا عليه » . قال الشيخ : أى ينظر إلى الجميع بعين الشفقة ، ويعد الاهتمام بهم فرضا عليه ، لأنهم جميعاً فى تصرف القضاء والمشيئة .

قال الشيخ : قال أبو العباس المغربى « الخلق قوالب وأشباح تجرى عليها أحكام القدرة » .

* (ص ٢٧٥) قال الشيخ : قال محمد بن على القصاب : « كان التصوف حالا فصار قالا ، ثم ذهب الحال والقال ، وجاء الاحتيال » .

* قال الشيخ : سمعت الشيخ أبا الحسن على بن المثنى فى « استراباد » قال : وقفت على الشبلى يوم الجمعة فى الجامع ببغداد بعد الصلاة فإذا وقف عليه سائل وعليه زى القوم . فقال : ما الوصل ؟ . فأقبل عليه الشبلى وقال : أيها السائل عن الوصل ، اخطو تين ، وقد وصلت . فقال السائل : يا أبا بكر ما الخطوتان ؟ . قال الشبلى : قيام ذروة بين يديك تحجبك عن الله : فقال السائل : يا أبا بكر أخبرنى بشرح قولك عن الذروة ؟ فما شرح تلك الذروة . قال : الدنيا والعقبى . كذا قال ربنا تعالى « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » فأين من يريد الله . ثم قال الشبلى : إذا قلت الله فهو الله ، وإذا سكت فهو الله . يالله ، يالله ، يا من هو

هو ولا يعلم أحد ما هو إلا هو . سبحانه وحده لاشريك له . ثم غشي على الشبلي وهو يتململ كما يتململ السليم ، ثم حمل إلى داره » .

* قال الشيخ : سمعت الشيخ أبا الفضل حسن شيخ وقته بسرخس يقول : الماضي لايذكر ، والمستقبل لاينظر ، وما في الوقت يعتبر ، وهذا صفة العبودية . ثم قال : حقيقة العبودية شيئان : حسن الافتقار إلى الله تعالى ، وهذا من أصل العبودية . وحسن القدوة برسول الله صلى الله عليه وسلم : وهو الذي ليس للنفس فيه نصيب ولا راحة » .

* قال شيخنا : « سمعت الشيخ يقول: من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته ، فقد بطلت صدقته .

قال أبو علي الفقيه : سمعت بأسانيد عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اليد العليا خير من اليد السفلى وهي السائلة . ثم قال عبد الله بن عمر الأيدي ثلاث : يد الله العليا ، ويد المعطي الوسطى ، ويد السائل السفلى .

* قال شيخنا يوما في وسط الحديث : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم القيامة يجاء بالإخلاص والشرك فيبعثوا بين يدي رب العالمين، فيقول الله جل جلاله للإخلاص انطلق أنت وأهلك إلى الجنة ، ويقول للشرك انطلق أنت ومن معك إلى النار . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون »

* (ص ٢٧٦) قال شيخنا إن شيخاً قال « دخل مسلمة بن عبد الملك على الوليد فاسترضاه من شيء بلغه عنه ، فرضي عنه ، فخرج مسلمة . فقال : خدر السمع يدي مسلمة. فقال مسلمة : يا أمير المؤمنين ما ينسي الليل إلا في ضياء وصالك» .

* قال شيخنا : « عن ثابت أن امرأة كانت تأكل طعاما ، وأتاها سائل فسأل ولم يبق معها من طعامها غير لقمة ، فأطعمتها السائل . فأتاها الأسـد ، وأخذ صبياً لها فذهب به ، فإذا هو برجل قد أقبل إلى الأسـد حتى انتهى إليه ، فأخذ بلحيته ففلقها حتى استخرج الصبي من فيه ، فسلمه إلى أمه فقال لها لقمة بلقمة » .

* قال شيخنا يوما على المنبر إن داود النبي عليه السلام قال إلهى أطلبك حتى أجدك . فأوحى الله تعالى إلى داود: يارأس العابدين ويا محجة الزاهدين تركتنى فى أول قدم رفعته وذلك أنك رأيت الطلب منك لا منى .

* قال شيخنا : « إذا ظننت أنك وجدته فحينئذ فقدته » .

* قال شيخنا : « قال داود الطائى : ذهبت ليلة إلى المقبرة . فسمعت قائلا يقول : آه مالى، ألم أكن أصلى؟ألم أكن أصوم ؟. فأجابه مجيب : بلى ، ولكنك إذا خلوت بربك لم تراقبه » . ثم قال شيخنا : « من راقب الله تعالى فى خطرات قلبه عصمه الله فى حركات جوارحه » .

* قال شيخنا : سئل أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عن معنى الركوع فقال :« المسلم يركع ويقول بقلبه لو ضرب عنقى لم أدع دينى وعبادة ربى » .

* قال شيخنا يوما فى وسط حديثه : « طلب مريد من شيخه دعاء فقال : يا بنى ، اختيار ما جرى لك خير من معارضة الوقت » .

* قال شيخنا : سمعت من أبى على الفقيه أن رابعة سئلت : بم أدركت ما أدركت ؟ قالت بكثرة قولى هـذا : أعوذ بك من كل شاغل يشغلنى عنك ، ومن كل مانع يمنعنى عنك .

* قال الشيخ : سمعت أبا العباس القصاب عندما سئل فى مدينة آمل عن الآية

« قل هو الله أحد » . فقال : « قل » شغل . « وهو » إشارة . و « الله » عبارة ومعنى التوحيد منزه عن الإشارة (ص ٢٧٧) والعبارة .

قال الشيخ : قال لقمان السرخسي يوما : مضت ثلاثون عاما منذ وكل الله إلينا أمر هذه البطاح ، فلم يجرؤ أحد على أن يتصرف فيها ، ويجلس بها .

* قال الشيخ : سئل الأستاذ أبو على الدقاق عن السماع فقال : السماع هو الوقت ، فمن لا سماع له ، لا سمع له . ومن لا سمع له ، فلا دين له ؛ لأن الله تعالى قال « إنهم عن السمع لمعزولون » . وقال « قالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير» فالسماع سفير من الحق، ورسول من الحق، يحمل اهل الحق بالحق إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بطبع تزندق .

* قال الشيخ : دخلت عائشة ابنة الصديق رضى الله عنها على الرسول من عرس . فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : يا عائشة ، كيف كان العرس ، هل كان طيبا ، وهل كان هناك أحد أنشدكم شعرا ؟ .

* قال الشيخ : سماع الأحبة يكون بالحق . وهم يسمعون على أحسن وجه . يقول الله تعالى : « فبشر عبادى الذين يستمعون القول فتتبعون أحسنه » . وسماع كل شخص يحمل لون عهده ، فقد يستمع شخص للدنيا ، ويستمع شخص لهوى النفس ، وربما يستمع شخص لحبيب ، وقد يستمع شخص لأحاديث الوصال والفراق وهذا كله يكون وبالا وظلاما لذلك الشخص . وعندما يكون العهد مظلما يكون السماع مظلما . وربما يستمع شخص فى معرفة ، وذلك هو السماع الصحيح ، لأنه يستمع من الحق ، وأولئك هم الأشخاص الذين يخصهم الله بلطفه . « الله لطيف بعباده » . فالعبودية ملك وموضع اختصاص لله ، وقد اختص هؤلاء بأنهم عباده فيكون سماعهم من الحق بالحق .

حكاية :

سئل الشيخ :

لقد كان لكل شيخ شيخ ، فمن كان شيخك ؟ . (ص ٢٧٨) .

وقد أضعف الشيوخ أنفسهم بالمجاهدة ، بينما رقبتك لايسعها طوقك .

والشيوخ قاموا بالحج وأنت لم تحج ، فما سبب ذلك ؟ .

فأجاب : أما سؤالكم عن أنه كان لكل شيخ شيخ فمن كان شيخك ؟ .

فإن « ذلك مما علمنى ربى » .

وأما ما تسألون عنه .ن أن الشيوخ قد أضعفوا أنفسهم بالمجاهدة ، بينما رقبتك لايسعها طوقك ، فإنى أتعجب لذلك لأنه عند ما تحشر رقبتى فى السماوات السبع والأرض ، فإنها تحشر بما منحنى الله .

وأما ماتقولونه من أن الشيوخ أدوا فريضة الحج وأنت لم تحج ، فليس بالأمر الكبير أن تقطع ألف فرسخ لتزور الكعبة ، وإنما الرجل الحق هو الذى يجلس هنا ، وتطوف الكعبة فوق رأسه هكذا فى كل يوم وليلة ، انظر لترى . فنظر كل الحاضرين ورأوا .

حكاية :

كان الشيخ ذاهبا يوما للعزاء فى نيسابور ، فتقدم المعروفون إلى الشيخ ، وأرادوا أن يقوموا بتقديمه إلى الناس ، جريا على عادتهم . وعندما رأوه ، عجزوا ولم يعرفوا ماذا يقولون ، فسألوا مريدى الشيخ عن اللقب الذى يقدمون به الشيخ . وأدرك الشيخ مايسألون عنه ، فقال لهم: إذهبوا وقولوا افسحوا الطريق للفقير ابن الفقير . وسمع جميع العظماء ذلك ، فرفعوا رؤوسهم ، ورأوا الشيخ قادما . وسر الجميع لتواضع الشيخ ، وبكوا .

حـكاية :

كان الشيخ يمر يوما فى طريق . وكان الكناسون ينظفون المرحاض ويخرجون الفضلات بالقرية . وعندما بلغ الصوفية ذلك المكان ، استجمعوا أنفسهم (ص ٢٧٩) وفروا . فناداهم الشيخ وقال لهم : إن هذه القاذورات تتحدث إلى بلسان حالها وتقول : أنا تلك الأطعمة الطيبة الرائحة ، اللذيذة ، التى تبعثرون من أجلها الذهب والفضة ، وتضحون من أجلها بأرواحكم ، وتتحملون كل تعب ومشقة من أجل الحصول عليها . وقد تلونت بلونكم من ليلة واحدة صحبتكم فيها . فلماذا تفرون منى ؟ . يجب أن أفر أنا منكم ! .

ولما قال الشيخ ذلك ، صرخ الجميع وبكوا ، ووردت الأحوال .

حـكاية :

روى أنه حدث يوما فى ميهنه أن وضع حسن بن المؤدب المصباح أمام الشيخ ، وذهب . فناداه الشيخ ، وقال له : ما السبب فى أن هذا المصباح لا يضىء الليلة جيدا ككل ليلة ؟ . فقال حسن لا أعرف . فقال له الشيخ : افحصه . فلما فحصه قال لقد ترك الصوفية الخشبة التى ينظفون بها مصباحهم فيه . فقال الشيخ : ارفع هذا المصباح من أمامى . فرفع حسن المصباح من أمامه .

حـكاية :

قال طلحة بن يوسف العطار : مكثت عند الشيخ أبى سعيد مدة . وعندما عزمت على العودة قال لى : عندما تذهب إلى بغداد ، ويسألونك : ماذا رأيت ، وماذا إستفدت ، فماذا ستقول ؟ هل تقول رأيت وجها وذقنا ؟ . فقلت : بم يأمر

الشيخ ؟ . فقال الشيخ : كل من يعرف العربية إقرأ عليه هذا الشعر :

قالوا خراسان أخرجت رشأ   ليس في جماله ثاني

فقلت لاتذكروا محاسنه   فمطلع الشمس من خراسان

وكل من لايعرف العربية إقرأ عليه هذه الرباعية .

« رباعية »

إنهم يقطفون منك سندس الجنة وأزهار الربيع

ويحملونها تذكارا منك إلى الخلد

ويأخذون منك النقوش والصور إلى بلاد الصين

وفأل السعد إلى جميع أنحاء إيران

حكاية :

قال السيد الشيخ أبو الفتح : كان الشيخ قدس الله روحه العزيز (ص٢٨٠) ذاهبا يوما من نيسابور إلى بستقان ، وفي رفقته السيد على الطرسوسى . وكان الشيخ يقول في الطريق : « اللهم اجعلنى من الاقلين » . ولما وصل إلى بستقان سأل السيد على الشيخ قائلا : لقد كنت تقول كثيرا في الطريق «اللهم اجعلنى من الاقلين » . فقال الشيخ : يقول الله عز وجل : « وقليل من عبادى الشكور » فكنت أريد أن أكون من أولئك القوم ، وأؤدى شكر نعمته .

حكاية :

قال السيد الشيخ أبو الفتح : كان القوال ينشد هذا البيت أمام الشيخ يوما:

« بيت »

— سوف أختفي في غزلي ،
حتى أقبل شفتك عندما تقرأه .

فسأله الشيخ عن صاحب هـذا البيت فقال : اسمه عماره . فنهض الشيخ وذهب مع الصوفية لزيارة قبر عماره .

حكاية :

قال السيد أبو بكر المؤدب : كان الشيخ يتحدث يوما مع خطيب كوفى بصوت منخفض ثم التفت إلى وقال : هل كنت تسمع ما نقول ؟ . قلت كلا . قال الشيخ : كنا نقول : « العجز عجزان : التوانى فى الأمر إذا أمكن . والجد فى طلبه إذا فات » . وعندما كان الشيخ يقول هذا الكلام كان القوال ينشد هذا المصراع :

« مصراع »

« ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر »

حكاية :

عندما كان الشيخ فى نيسابور ، أحضر شخص كوبا من المـاء ، وقال له : انفخ فيه من أجل مريض . فنفخ الشيخ فى الكوب ، وأخذه من الرجل ،وشربه فقال الرجل : أيها الشيخ ، لم فعلت هذا ؟ . فقال : إن النفس الذى نفخته فىهذه الجرعة لا يستطيع أحد غيرى أن يسحبه الآن . فتعال غدا لأنفخ له نفخة الشفاء .

حكاية :

عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز فى نيسابور ، ذهب إلى الحمام . وقام درويش بمساعدته ، وأخذ يحك سواعد الشيخ ، ويجمع القاذورات عن ظهره ، (ص ٢٨١) جريا على عادتهم ليراها الشخص . وفى أثناء قيامه بهذا سأل الشيخ: أيها الشيخ : ما المروءة ؟ . فأجاب الشيخ : ألا تحضر قذارة الشخص أمام وجهه . فأقر الحاضرون بأنه لم يقل فى هذا المعنى قول أفضل من هذا .

حكاية :

قال الشيخ : كل من يصلى على المصطفى صلوات الله عليه ألف مرة فى ليلة الجمعة ، يرى الرسول فى النوم . وقد نفذت هذا القول فى مدينة مرو ، ورأيت المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى نومى ، وكانت فاطمة الزهراء رضى الله عنها جالسة أمامه ، والمصطفى يضع يده المباركة على مفرقها الميمون . وعندما أردت أن أتقدم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم قال : إحذر ؛ فإنها سيدة نساء العالمين » .

حكاية :

عندما كان الشيخ فى نيسابور ، ظل الناس لمدة عام يرددون أقوال المنجمين ، ويصغون لأحكامهم . وأخذ عوام الناس يرددون دفعة واحدة أن هذه السنة ستكون كذا وكذا . وقال الشيخ يوما على المنبر : أحدثكم اليوم عن أحكام النجوم ، ثم قال : ستكون هذه السنة كلها كما يريد الله تعالى ، على نحو ما كانت السنة الماضية كما أراد الله تعالى ، وصلى الله على محمد وآله اجمعين . ومسح وجهه بيده ، وختم المجلس .

حكاية :

قال أحدهم للشيخ يوما : أيها الشيخ ، أدع لى . فقال :

« بيت »

– أواه ... لقد انعدم العدل من العالم أيها الناس

فهو يذنب وعلى أنا أن أعتـــــذر .

(ص ٢٨٢) وقد جرى هذا البيت على لسان الشيخ كثيراً .

* قال الشيخ : لوصدق مايروى عن أمير المؤمنين على رضى الله عنه أنه كبر على ميت خمس تكبيرات فى صلاة الجنازة ، فربما تكون أربع تكبيرات منها على الميت ، والخامسة على الناس جميعا .

* فى يوم من الأيام نهض رجل فى مجلس الشيخ ، وطلب شيئا من الناس، وأخذ يقول : أنا رجل فقير . فقال له الشيخ: لايجب أن تقول هكذا ، وإنما يجب أن تقول : أنا رجل سائل ، لأن الفقر سر من أسرار الله جل جلاله .

حكاية :

عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز فى نيسابور ، كان قد جلس يوما فى الخانقاه . فدخلت ابنة علوى عند الشيخ ، وأخذ أبواها يسألان عنها . وأجلس الشيخ تلك الفتاه أمامه ، وقال : هذه الفتاه من أبناء الرسول ، وأنتم تدعون أنكم تحبونه ، وتنادونه فى وقت الصلاة بصوت مرتفع . والآن اظهروا برهان صدق هذه الدعوى التى تدعونها فى حق جدها ، بالإحسان إلى أبنائه وذريته . ثم خلع ثوبه وأعطاه للفتاة . وشاركه فى ذلك جميع الحاضرين فى الخانقاه . ونالت الفتاة شيئاً كثيرا .

حكاية :

قال حسن بن المؤدب : عندما كان الشيخ فى نيسابور ، كان أئمة المدينة وعظماؤها يفدون عليه ، مثل الشيخ أبى محمد الجوينى ، والأستاذ الإمام أبى القاسم القشيرى ، والأستاذ إسماعيل الصابونى . وكانوا يسألون الشيخ عن أشياء ، ويتباحثون معه . وذات يوم كان الشيخ يتحدث فى حضور هؤلاء الجمع ، وآخرين من عظماء المدينة (ص ٢٨٣) . وفى وسط الحديث جرى هذا البيت على لسان الشيخ :

« بيت »

— أيها الحبيب إننى لا أغفل عن أحوالك لحظة ،
ولى رسل ينبؤننى عنك حيثما تكون .

وعندئذ إلتفت الشيخ إليهم وقال : أين معنى هذا البيت فى القرآن ؟ . ففكر العظماء كثيرا ثم قالوا : ليقل الشيخ . فقال الشيخ : هل ينبغى أن أقول ؟ قالوا . نعم قال : إن الله يقول : « أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم . بلى ورسلنا لديهم يكتبون » . فتعجبوا جميعا لسعة إدراك الشيخ .

حكاية :

قال حسن بن المؤدب : كان الشيخ يتحدث يوما ، وعندما فرغ من الحديث وقفت أمامه ، فقد تعودت أن أقف هكذا عندما يذهب الناس ، لأتلقى أوامره . فقال لى : ياحسن ، إذهب إلى المدينة ، وانظر من من أهلها أكثر بغضا لى ، وأكثر إنكارا للصوفية ؟ واذهب إليه وقل له : ليس للدراويش علم ، وهم لايفقهون شيئا حتى يقولوه فينبغى أن يكون لهم شيخ . فخرجت وأخذت أطوف المدينة جميعها وأنا أفكر فى هذا الأمر .

ولم أجد من هو أكثر إنكارا من على الصندلى، ولكننى قلت لنفسى : ربما يكون هذا الظن خاطئاً . وطفت المدينة مرة أخرى ، وفكرى لا يزال متجها إليه . وأخذت أستعرض المدينة مرة أخرى ، فاتجه تفكيرى إليه ثانية ، فأدركت أنه حق . وذهبت إلى خانقاته وكان قد جلس ،وتلاميذه بين يديه ، يطالع كتابا. فسلمت عليه . فأجاب فى نخوة كعادته، وقال : أتريد شيئا ؟ . فقلت : إن الشيخ يحييك (ص ٢٨٤) ويقول لك إنه لا يعرف شيئا ، وينبغى أن تعظ الدراويش . وكان رجلا مرحاً حاضر النكتة فقال : أتعتبر هذا عملا مهما أو فريضة ؟ ظننت أنك جئت تسأل شيئا . اذهب أيها الصديق لأن لدى عملا أكثر أهمية من أن أعظكم . إنكم عمى ، فاستمروا فى عبثكم،وقولوا هذا البيت وأرقصوا عليه :

« بيت »

— أتأتى إلى السوق مزينا ثملا ،

ألا تخشى أيها الحبيب أن تقع فى الأسر .

وعندما سمعت هذا الكلام ، ذهبت إلى الشيخ ، وأردت ألا أذكر له ما حدث . فقلت : إنه يقول لا أعرف شيئا الآن ، فلنر ماذا يكون بعد ذلك . فقال الشيخ : لا تنبغى الخيانة ، يجب أن تذكر ماحدث . فقصصت عليه ماحدث بالصدق . فقال الشيخ : ينبغى أن تذهب إليه مرة أخرى ، وتقول له : أتيت إلى السوق مزينا بزينة الدنيا ، مخمورا بحبها ، ألا تخشى أن تصبح فى الغد أسيرا فى سوق القيامة ، لأن الله يقول « إهدنا الصراط المستقيم » .

فرجعت إليه وأبلغته رسالة الشيخ . فأحنى رأسه وفكر ساعة وقال : اذهب إلى الخباز فلان وخذ منه مائة درهم ،فانتم الذين أستطعتم أن تفسروا هذا البيت

على هذا النحو لاأستطيع أنا أن أفعل لكم شيئا ، ولايستطيع غيرى أن يتفوق عليكم .

حكاية :

روى أنه أثناء إقامة الشيخ فى خانقاه محلة عدنى كو بان ، كانوا قد وضعوا المائدة يوما ، وأخذ الشيخ والدراويش يتناولون الطعام . وفى أثناء ذلك دخل الشيخ أبو محمد الجوينى وألقى التحية. فلم يجبه الشيخ،ولم يلتفت إليه. فتألم أبو محمد، وجلس غاضبا . وعندما انتهى الطعام ، وغسلوا أيديهم ، نهض الشيخ ، وأجاب على تحية أبى محمد . وقال له : إن السلام من أسماء الله جل جلاله ، ولا يليق بنا أن ننطق باسمه بفم ملوث . فسر أبو محمد (ص ٢٨٥) وقال : ليس لأحد من العلم بالطريقة والشريعة مثل ماللشيخ .

وقد استفاد جميع الحاضرين من الصوفية من هذا . ولهذا السبب لايسلم الصوفية وهم على المائدة ، وينتظرون حتى ينتهوا من الطعام .

حكاية :

كان للشيخ أبى سعيد قدس الله روحه العزيز أخت يدعوها أبناء الشيخ بالعمة. وكانت فى غاية الزهد ، بحيث لم تكن تخرج من المنزل إلا للضرورة القصوى . وكانت تحتفظ برداء وحذاء خارج المنزل ، وإذا ماخرجت لضرورة إرتدتهما ، ولم ترتد الثياب التى تلبسها فى الداخل ، حتى لاتحضر إلى المنزل الغبار الذى علق بها من الطريق . وكانت إذا ماذهب الشيخ لزيارتها تمسح المنزل وتقول : لقد دخل الشيخ البيت بالحذاء الذى يسير به فى الطريق .

وذات يوم كان الشيخ يتحدث فى منزل العمة فقالت له : أيها الشيخ إن ، كلامك سبيكة من الذهب . فقال لها الشيخ : وصمتك جوهر غير مثقوب .

وكانت العمة قد ثقبت ثقبا بين صومعتها وصومعة الشيخ ، حتى تراه دائما ، وتستفسر منه عما تريد . وذات يوم كان الشيخ فى صومعته . وكان الخضر ، الذى كثيرا ما كان يصحب الشيخ ، قد جاء لزيارته ، وجلسا منفردين ، وأخذا يتحدثان . فأقبلت العمة إلى الثقب ، وأدركت بفراستها أنه الخضر الذى يتحدث مع الشيخ ، فأخذت تراقبهما فى الخفاء . وشرب الخضر مرتين من الكوز الذى كان الشيخ قد وضعه أمامه . (ص ٢٨٦) وعندما نهض الخضر ، نهض معه الشيخ ، وخرج خلفه . ولما غادر المكان ، جاءت العمة سريعا عن طريق السطح ، ودخلت صومعة الشيخ ، وشربت من الكوز فى الموضع الذى شرب منه الخضر ، أملا فى الحصول على البركة ، ثم خرجت . وجاء الشيخ إلى صومعته ، فى الوقت الذى ذهبت فيه العمة إلى صومعتها ، وأدرك بكرامته ماحدث منها . ولم يقل شيئا ، ونادى الخادم ليسد الثقب الذى فى صومعة العمة .

حكاية :

قال الشيخ قدس الله روحه ، رأى شخص الجنة فى النوم ، وقد مدت فيها مائدة ، جلست عليها جماعة . فأراد أن يجلس معهم . فجاء شخص وأمسك بيده وقال له : ليس هذا مكانك ، فهذه المائدة لمن يملكون ثوبا واحدا ، وأنت تملك ثوبين ، فلايمكنك أن تجلس معهم .

ثم قال شيخنا : لقد وصل الأمر الآن إلى أنهم يخيطون مرقعا أزرق ،

ويلبسونه ، ظانين أن جميع الأمور قد استقامت . ويقفون أمام دن الصبغة ، ويقولون : ألقوه فى الدن مرة أخرى ليزداد زرقة . فهم يظنون أن الصوفية هى هذا المرقع الأزرق ، وقد حصروا همتهم فى تجميله وتزيينه ، وجعلوه صنمهم ومعبودهم .

وفى اليوم الذى قال فيه الشيخ هذا الكلام ، كانوا يخيطون له رداء جديدا، فلبسه ، وقال : لقد ألبسونى الآن مرقعا بعد سبع وسبعين عاما قضيتها فى هذا الطريق ، وكان عملى فيها واحدا ، فى الليل والنهار ، فألبسونى المرقع بعد هذا كله ، أما الآن فمن السهل أن يخيطوا لكل شخص مرقعا ، ويلبسوه إياه .

* قال شيخنا إن الحق تعالى يقول : لقد كنا نقول للجميع « قولوا لا إله إلا الله » ونقول لك «فاعلم أنه لا إله إلا الله » . (ص ٢٨٧) وكان هناك شخص من ما وراء النهر، فقرأ هذه الآية : « وقودها الناس والحجارة » . وكان الشيخ يقلل من الحديث فى آيات العذاب ، فقال : ما دام الحجر والإنسان عندك فى مقام واحد ، فاشغل الجحيم بالأحجار ، ولا تحرق هؤلاء المساكين ا.

حكاية :

روى أن رجلا خرج من بغداد ، وجاء إلى الشيخ فى ميهنه ، وسأله قائلا : أيها الشيخ ، لماذا خلق الله سبحانه وتعالى هذه المخلوقات ، هل كان فى حاجة اليها ؟ . فأجاب الشيخ : كلا ، ولكنه خلقهم من أجل ثلاثة أشياء :

الأول : لما كانت قدرته كبيرة جدا ، فكان يلزم لها ناظر .

والثانى : لما كانت نعمته كثيرة جدا فكان يلزم لها آكل .

والثالث : لما كانت رخمته واسعة جدا فكان يلزم لها آثم.

حكاية:

فى وقت من الأوقات كان درويش يسير أمام الشيخ إلى الخانقاه ، فقال له الشيخ : يا أخى ، كن كالكرة أمام المكنسه، ولا تكن كالجبل خلف المكنسة .

حكاية :

فى يوم من الأيام وصل الشيخ مع جماعة الصوفية إلى باب طاحون . فأوقف جواده وتوقف عن السير لحظة وقال : هل تعرفون ماذا تقول هذه الطاحون ؟ إنها تقول : إن التصوف هو ما أنا فيه ، فأنا آخذ الأشياء الغليظة ، وأعيدها ناعمة . وأدور حول نفسى ، وأنقى نفسى بنفسى ، حتى أبعد عنها مالا يلزم . فسر الجميع لهذا الرمز .

حكاية :

روى أن الأستاذ أبا صالح المقرىء ألم به مرض ، بحيث لزم الفراش . فقال الشيخ للسيد أبى بكر المؤدب : أحضر الدواة والقلم حتى أملى عليك حرزا من أجل أبى صالح . ثم أمره أن يكتب :

« رباعية »

اصطفت الحور لرؤية محبوبى الجميل
وتعجب رضوان فدق كفا بكف
ولطم خالا أسود على وجهه الجميل
وتشبث العارف بالمصحف من الخوف

(ص ٢٨٨) فكتبها السيد أبو بكر المؤدب، وحملوها إلى أبى صالح، وعلقوها له، فظهرت عليه معالم الصحة فى الحال، وزال ذلك المرض.

حكاية :

روى أن واحدا من المشايخ ذهب غازيا إلى بلاد الروم فى عهد الشيخ — أبى سعيد — وذهب يوما إلى ميدان الحرب، فرأى إبليس هناك فقال له : أيها الملعون، ماذا تفعل هنا ؟ ألك شأن بهؤلاء الجمع الموجودين هنا ؟. قال : لقد وقعت هنا دون رغبتى. فسأله : كيف ؟. فأجاب: كنت أمر فى ميهنه، وكان الشيخ أبو سعيد يسير من المسجد إلى البيت، فعطس عطسة ألقت بى هنا .

* وسئل الشيخ أيضا عن رأيه فى الشخص الذى يسرق فى الليل، ويصلى فى النهار ؟ . فقال الشيخ : ليس هذا عجيبا ؛ فإن بركة الصلاة فى النهار، ستمنعه من السرقة فى الليل .

* قال أحد الشيوخ للشيخ : لقد رأيتك فى نومى، فسألتك : ماذا نفعل أيها الشيخ لكى نتخلص من هذه النفس ؟ . فقال الشيخ : لا ينبغى عمل شىء من أجل هذا، لأن كل شىء قدر، وكتب، ولا يمكن إبعاده . فإذا أراد الله، يكون التوفيق . وإذا لم يرد، فإن ذلك لن يقلل من الأمر أو يزيده . ولو أنه أراد لألقى بك فى الطلب . وفى الحقيقة أنه إذا طلبك هو ؛ فإنه عندئذ يلقى بك فى الطلب .

* قال الشيخ : ورد فى الخبر أن قوما ذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسألوه : ما الفقر ؟ . فنادى أحدهم وقال له : هل تملك خمسة دراهم ؟ . فقال : أجل. فقال له : إنك لست فقيرا. ونادى آخر وقال له: هل تملك خمسة دراهم؟.

فقال : كلا . فقال : هل تملك متاعا بخمسة دراهم ؟ . قال نعم . فقال له : لست فقيراً أنت أيضاً . ونادى آخر وقال له : هل تملك خمسة دراهم قال : كلا . قال هل تملك ممتلـكات بخمسة دراهم ؟ . قال : كلا . فقال : هل تملك جاها بخمسة دراهم ؟ . قال : كلا. قال :هل تستطيع أن تـكسب خمسة دراهم ؟ . قال : نعم. (ص ٢٨٩) فقال: إنهض فإنك لست فقيرا. ودعا آخر وقال له: هل تملك شيئا من هذا كله ؟ . قال : كلا . فقال له : إذا ظهرت خمسة دراهم هل تطالب بنصيب منها ؟ . فقال : لا أقل من هذا . قال : إنهض فإنك لست فقيرا . ثم دعا آخر وقال : هل تملك شيئاً من هذا كله ؟ . قال : كلا . فقال : هل إذا ظهرت لك خمسة دراهم تتصرف فيها ؟ . قال : كلا يارسول الله . فسأله : ماذا تصنع بها ؟ . قال : أضعها تحت تصرف الجماعة . فقال: أنت فقير حقاً ، والفقير يكون هكذا .

ولما قال الرسول ذلك ، بكى الجميع وقالوا : يارسول الله ، إن الجميع ينادوننا بالفقراء ، والفقر هو ما أوضحته ، فماذا نـكون نحن الآن ؟ . فقال : إنه هو الفقير وأنتم طفيليون .

* قال الشيخ قدس الله روحه العزيز : فى وقت من الأوقات لحق زنبور بنملة ، فرآها تحمل قمحة إلى منزلها . وكان الناس يدوسونها ويؤذونها . فقال لها الزنبور : ماهذه الشدة والمشقة التى تتحملينها من أجل حبة ؟ هل تذلين نفسك هكذا من أجل حبة واحدة حقيرة ؟ . تعالى ، لـترى كيف أحصل على قوتى فى سهولة ، وآخذ نصيبى منه بدون هذه المشقة . ثم حمل النملة إلى دكان قصاب ، وكان اللحم معلقا ، فطار الزنبور ، وجلس على اللحم ، وأكل حتى شبع ، وجمع قطعة ليحملها . فدخل القصاب ، وضربه بسكين ، فشقه نصفين وألقاه . ووقع

الزنبور على الأرض. فتقدمت النملة وأمسكت بقدمه وأخذت تسحبها وهى تقول: كل من يجلس حيث يريد ، يسحبونه إلى حيث لا يريد .

حكاية :

قال السيد مصعد ابن السيد الإمام المظفر النوقانى : كان الشيخ أبو سعيد قد جلس مع والدى يوما ، فقال له والدى : إننى لا أدعوك صوفيا ، ولا درويشا ؛ بل أدعوك عارفا كاملا . فقال الشيخ أبو سعيد : (ص ٢٩٠) هو ما يقول .

وقال السيد مصعد : أخذت جدتى « صاينه » والدتى « راحة » إلى الشيخ أبى سعيد فى نيسابور . وكانت والدتى فى سن الثانية عشر ، ولم يكن والدى قد طلبها للزواج بعد . فسأل الشيخ والدتى : ما اسمك ؟ . فقالت : راحة . فقال : بارك الله فيك ، ينبغى أن تقيمى وليمة للصوفية . فقالت : إننى لا أملك شيئاً . فقال لها الشيخ : إسألى . فقالت : كيف أفعل ذلك ؟ . وعندما طلب منها الشيخ إقامة الوليمة سألته أن يعطيها شيئاً ، فأعطاها الشيخ رداءه وقميصه ، فحملتهما ؛ وذهبت بهما إلى منزل الميكاليين . وكانت هناك سيدة وابنتها ، فقالت لهما : لقد طلب الشيخ أبو سعيد منى إقامة وليمة، فقلت له إننى لا أملك شيئاً ، فقال لى إسألى. فسألت منه ، فأعطانى هذه . فكم تساوى فى نظركم ؟ . فنهضت الفتاة ودخلت إلى المنزل ، وأحضرت سوارين يقدران بستين دينارا ، ووضعتهما أمامى ،وأخذت الرداء . وأحضرت الأم عقدا قيمته ستون دينارا ، وأخذت القميص .

وجلسنا نتحدث بعض الوقت ، وقلت لهما إن ملابس الشيخ تتحدث إلى ، هل تعرفان ماذا تقول ؟ قالتا : كلا . قلت : إنها تقول إننى لن أستريح مع أحد ، إما أن أكون فى مكانى وإما ألا أكون . فهل تقدرون على ذلك ؟ . فقالتا :

كلا . فقلت لهما : ينبغى أن نتبين ماذا نفعل . فنهضتا ، وقبلتا الرداء والقميص ، ووضعتاها أمامى وقالتا : إنهما يليقان بك أكثر ، كما أن الأساور والعقد تحت تصرفك . فنهضت وذهبت إلى الشيخ، ووضعت الرداء والقميص والأساور والعقد أمامه ،وقلت له : أقم الدعوة للصوفية على نحو ماتراه صوابا . فأمر الشيخ بإعداد وليمة ، ومزقوا الرداء والقميص ، ووزعوها على الصوفية ،

وذهبت صاينة بعد ذلك إلى نوقان،ونزلت عند السيد المظفر،وأخذا يتحدثان . وكانت صاينه تتحدث فى الفناء . والسيد المظفر يتحدث فى البقاء . وسر السيد المظفر من حديث صاينة فقال لها : كل من يوافقك يوافق الحق ، وكل من يخالفك يخالف الحق. فقالت صاينة : ينبغى أن أقدم إليك شيئاً على سبيل الشكر ، ولست أملك شيئاً ، وقد وضعت راحة تحت تصرفك . فقال السيد المظفر أنا لا أفكر فى هـذا . وكانت قد مرت عشرة أعوام منذ لحقت زوج السيد المظفر برحمة الله تعالى (ض ٢٩١)، ولم تكن له رغبة فى الزواج ، طوال العشرة أعوام التى كانت فيها على قيد الحياة . وبعد مضى عشرين عاما ، تزوج راحة ، وأنجب منها السيد مصعب ، ببركة همة الشيخ ، ونظره قدس الله روحه .

حكاية :

قال أبو الفضل محمد بن أحمد العارف النوقانى : خرجت فى رفقة الشيخ أبى سعيد إلى مقابر الحيرة فى نيسابور ، لتشييع صوفى . وعندما وصلنا فى مواجهة قبر أحمد الطابرانى ، توقف جواد الشيخ . ووقعت عين الشيخ على القبر ، وظل ينظر إليه فترة ،ثم ساق الجواد ، وقال : لقد كان أحمد الطابرانى يتكلم معى .

حكاية :

قال الشيخ: رأيت نفسى فى النوم أجلس مع الأستاذ أبى على الدقاق والأستاذ أبى القاسم القشيرى . ودوى نداء يقول : إنهضوا ، وليقدم كل منكم قربانا . فنهضنا كلانا ، ونفذنا ذلك . وحاول الأستاذ القشيرى كثيراً أن يقوم ليفعل ، فلم يستطع ، وأخذ يبكى . ولو أنه نفذ ذلك ، لما كان هناك مثله فى الدنيا .

حكاية :

روى أن الشيخ قدس الله روحه العزيز كان يسير مرة ، فجاءت حية كبيرة ، وأخذت تمسح رأسها فى أقدام الشيخ ، وتتقرب إليه . وكان مع الشيخ درويش ، فتعجب لذلك . فقال له الشيخ : لقد أقبلت هذه الحية لتحيتى . فهل ترغب أن يكون لك مثل هذا ؟ . فقال الرجل : أجل . فقال له الشيخ : لن يكون لك أبدا مادمت تريد .

حكاية :

كان الشيخ أبو سعيد قدس الله روحه العزيز قد جلس على قبر الشيخ أبى يزيد البسطامى (ص ٢٩٢) قدس الله روحه العزيز . فأشار إلى القبر وقال : «قال هذا الشيخ إن الله تعالى جعل أقدام الأولياء نثار الأرض فما لهؤلاء الأجساد ، يعنى لا يرضون بذلك» .

حكاية :

كان أحمد بن أبى الليث قد جاء إلى الشيخ فى وقت من الأوقات . وعندما رجع ، أرسل الشيخ شخصا معه . فلما رجع ذلك الشخص ، سأله الشيخ : ماذا

كان أحمد يقول فى الطريق ؟ . فأجاب : كان يتحدث بنعم الله . فقال الشيخ : عن أى النعم كان يتحدث ؟ فإن النعم درجات ، أهى النعم التى أنعم على بها ؟ أم تلك التى أنعم بها عليك ؟ فالنعم التى أنعم على بها أرفع وأعظم النعم ، والنعم التى أنعم عليك بها متوسطة ، وقد اكتملت .

ثم قال : كان هناك شيخ لم يمشط شعره حتى عششت العقرب فى رأسه ، وتكاثرت .

وروى أنه عندما كان شخص يدخل على شيخنا كان يقول له : لقد كنا فى البداية نتحدث معكم عن نعم ربكم ، ونقول لكم إنه يوجد فى بلدتكم كذا من النعم . أما الآن فأى النعم نشكر ؟ لقد اسندنا ظهورنا من العجز ، هنا على هذا الجدار .

حكاية :

روى أن السيد على الخباز جاء من مرو إلى ميهنه ، ليذهب منها إلى باورد . وكان الشيخ ابو سعيد قد جلس فى المسجد ، ومعه السيد احمد بن نصر ، وكثير من الشيوخ ، واخذوا يتبادلون الحديث . وفى اثناء ذلك تكلموا عن رجل من ابناء الدنيا . فقال السيد على الخباز . حقا إنه رجل ذو همة . فقال الشيخ : إن المروءة لايجب أن تسمى بالهمة ، وإنما تسمى أمنية ، فالذى ينفق المال يوصف بأنه ذو أمنية ، لاهمة . وصاحب الهمة هو الذى لايتطرق تفكيره إلى شىء بدون الله .

حكاية :

روى أن الشيخ قدس الله روحه العزيز كان قد جلس فى المسجد ، (ص٢٩٣) فوقعت قشة على ذقنه المباركة . فمد درويش يده ، وأمسك بالقشة ، وألقاها فى

المسجد . فالتفت إليه الشيخ وقال : يا أخى ، ألا تخشى أنه بسبب ما فعلت أن يدق الله عز وجل السماوات السبع على الأرض ، ويفنيها ؟ . إن الله تعالى أمرك أن تضع وجها بهذه العزة على تراب المسجد فقال : « واسجد واقترب » . وانت لم تستسغ وجود هذه القشة فوق ذقننا ، فكيف تستسيغ أن تلقى بها فى بيت الله ؟ .

حكاية :

روى أنه عندما كان الشيخ فى نيسابور ، أرسل رسالة إلى الأستاذ الإمام أبى القاسم القشيرى يقول له فيها : سمعت أنك تتصرف فى الأوقاف . فأجاب : إن الأوقاف فى يدى ، وليست فى قلبى . فأرسل إليه الشيخ ثانيا يقول : ينبغى أن تكون يدك مثل قلبك .

حكاية :

قال الأستاذ عبد الرحمن مقرىء الشيخ : عندما كان الشيخ قدس الله روحه العزيز فى نيسابور ، جاءه شخص وقال له : أنا رجل غريب ، جئت إلى هذه المدينة فوجدتها مليئة بصيتك وشهرتك ، وأن لك كرامات كثيرة . والآن أريد أن تظهر لى أحداها . فقال له الشيخ : كنت فى آمل ، فدخل شخص على أبى العباس القصاب وسأله هذا السؤال نفسه ، فقال له الشيخ أبو العباس : ألا ترى ذلك ؟ ... أليس ما تراه هنا كرامة أن ابن قصاب تعلم المهنة من أبيه ، ورأى رؤيا سلبته لبه ، وأحضر إلى بغداد ، وأرساه الشيخ شبلى إلى مكة ، ومن مكة إلى المدينة ، ومن المدينة إلى بيت المقدس ، وأراه الله الخضر ، وألقى بمحبته فى قلب الخضر ، حتى حظى بالقبول عنده ، وصاحبه ، وأعاده إلى هنا . واتجه إليه الناس فى جميع أنحاء العالم ، يخرجون من الحانات ، ويتخلصون من ذنوبهم ، ويتوبون على يديه . ويأتى المحترقون إليه من جميع أنحاء العالم ، يسألونه عن الله ، هل توجد كرامة أكثر من هذا ؟ . فقال الرجل : أريد أن أرى كرامة الآن . فقال له : تأمل جيدا ، أليس كرما من الله أن

أحد أبناء ذابحي العنز يجالسونه في مقعد العظماء ، ولاتفطس به الأرض ، ولاتقع عليه الجدران ، ولا يتهدم فوقه هذا المنزل ، ينال الولاية دون ممتلكات أومال ، ويتلقى رزقه دون عمل أو كسب ، ويطعم الخلق ، أليس هذا كله كرامة ؟ .

ثم قال الشيخ : أيها الرجل ، لقد حدث لي معك ماحدث للشيخ أبي العباس . فقال الرجل : أيها الشيخ ، أأطلب منك كرامة من كراماتك ، فتحدثني عن الشيخ أبي العباس ؟ . فقال الشيخ : (ص ٢٩٤) كل من ينتمي إلى الكريم تكون كل أعماله للكريم . ثم ابتسم وقال :

« شعر »

— كل نسمة تهب على من ناحية بخارى ،
يفوح منها عبير الزهور والمسك والياسمين .
— وكل رجل وامرأة تهب عليه هذه النسائم ،
يظن أنها تهب من بلاد التتار .
— لا . لا . إن مثل هذه النسائم العطرة لاتهب من التتار ،
إنها تهب من صدر محبوبي .
— وإني لاتطلع إلى اليمن كل ليلة أملا في أن تأتي ،
لأنك مثل سهيل يأتي من اليمن .
— وإنني لاجتهد أيها الحبيب ان اخفي إسمك عن الناس ،
حتى يقل حديث الناس عنك .
— ولكن كلما تحدثت إلى شخص يكون إسمك
أول ما أنطق به ، سواء أردت [illegible] أرد .

ثم قال الشيخ : عندما يتطهر العبد تكون [illegible]كناته واقواله كلها كرامات . وصلى الله على محمد وآله اجمعين .

الفصل الثالث

في بعض فوائد أنفاس الشيخ قدس الله روحه العزيز، وبعض الرسائل والأشعار التي جرت على لفظه العزيز بالقدر الذي تحقق لنا صدقه

* قال الشيخ : العمل يعكس صورة القلب لاقول اللسان .

* « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » إذا لم تقتل النفس فلن تتحرر من هواها ، ولا يكفي أن تقول « لا إله إلا الله » لتصير مسلما .

* « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » . يقول الله عزوجل : إنني لا أغفر الشرك . « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » . ولك سبع هياكل محشوة بالشك والشرك فيجب عليك إخراج الشرك منها لتستريح .

« فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله» طاغوت كل أحد نفسه . طالما أنت لاتكفر بنفسك فلن تؤمن بالله . وطاغوت كل شخص نفسه ، فتلك النفس هي التي تبعدك عن الله ، وتقول لك إن زيداً قد أساء إليك ، وعمراً أحسن إليك ، فهي تجعلك تتجه إلى الخلق ؛ وهذا كله شرك . فلاشيء يصير إلى الخلق ، إنما الكل يتجه إلى الله . ويجب أن تعرف هذا وتقول به .وعندما تقوله، يجب عليك أن تثبت على هذا القول ، (ص ٢٩٦) وأن تستقيم .والإستقامة هي أنك إذا أمنت بواحد ،فلا تشغل بغيره ، لأن الخلق والخالق اثنان .

* جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : قل لي في الإسلام

قولا يكون أصلا أسير عليه . فقال له : قل « آمنت بالله ثم استقم » . وفى هذا المعنى جاء فى القرآن : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » . ويقال فى معنى هذه الآية « لاتروغوا روغان الثعلب » فتنتقلوا فى كل لحظة من مكان إلى آخر ، لأن هذا لايجعل الإيمان صحيحا . فالإيمان أن تقولوا « الله ، الله » وأن تستقيموا على ذلك . والاستقامة هى أنه إذا قلت « الله » فلا تذكر على لسانك حديث مخلوق غيره ، ولا تدخله فى قلبك ، وكأنه ليس هناك خلق. فإلى متى تستطيع أن تقول عنهم ماتراه وتسمعه ؟ أنظر إلى الوجود الأزلى ، وتحدث وانقل عنه لأنه لايفنى مطلقا، وأحب الله الذى إذا أفنيت أنت لا يفنى هو بل يظل باقيا، حتى تكون أنت أيضا هذا الكائن الذى لا يفنى أبدا .

* قال الشيخ : البحث فى حقيقة الله كفر ، وعن غير بصيرة شرك ، والتطهر فريضة .

* قيل للشيخ إن رجلا تاب ثم نقض توبته . فقال شيخنا . لولم ينقض الله توبته لما نقضها .

كان الشيخ يقول دائما : أنت مسكين . وكان يقول أيضا : لاتبحث عن معشوق خال من العيوب لأنك لن تجده .

* قال الشيخ : ألف صديق قليل ، وعدو واحد كثير .

* قال الشيخ فى مناجاته يوما : ياإلهى اغفر لعبدك لأن له مثل هذا الوجه ، ولا تحاسبه (ص ٢٩٧) فإن له هفواته .

* سئل الشيخ : هل يكون رجال الله فى المسجد ؟ . قال : وفى الحانات أيضا .

* سئل الشيخ ما التصوف ؟ . فقال : أن تترك مافى رأسك ، وتمنح مافى كفك ، ولا تجزع مما يصيبك .

* قال الشيخ : « كل ما شغلك عن الله فهو مشئوم عليك ».

* قال الشيخ : أنت تتنفس ثلاثين ألف نفس فى يوم وليلة . وكل نفس لا يكون لله يكون نتنا كالجيفة .

* قال الشيخ : « وقتك بين النفسين » واحد مضى، والآخر لم يأت بعد . ثم قال : مامضى فات ، والمؤمل غيب ، ولك الساعة التى أنت فيها . « الوقت سيف قاطع » .

قال الشيخ : التصوف شيئان : أن تنظر فى ناحية واحدة ، وأن تحيا بطريقة واحدة .

* قال الشيخ : « الله » وكفى . « وما سواه هوس ، وانقطع النفس ».

* قال الشيخ « من صح قصده إلينا ، وجب حقه علينا » .

* قال الشيخ : « الذكر نسيان ماسواه » .

* كان الشيخ يقول كثيرا : « كن يهـــــوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة » .

* قال الشيخ : « راحة النفس كلها فى التسليم ، وبلاؤها فى التدبير » .

* قال الشيخ : قيل لذلك الشيخ : أدع لنا . فقال : « اختيار ماجرى لك فى الأزل ، خيرمن معارضة الوقت . الخير أجمع فيما اختار خالقنا ، واختيار سواه الشر والشؤم » .

قال الشيخ : هذا وكفى ويمكن أن يكتب على الظفر : « إذبح النفس وإلا فلا تشغل بترهات الصوفية » .

* قال الشيخ : الإسلام هو الاستسلام لأحكام الأزل . « والإسلام أن يموت (ص ٢٩٨) عنك نفسك » .

قال الشيخ : ينظر العبد فى الصلاة فيقول له الله سبحانه وتعالى : لاتنظر فإن كل ماتنظر إليه أنا أفضل لك منه ، فانظر إلىَّ ، وعندما ينظر مرة أخرى يقول الله تعالى :لاتنظر ، هل تنظر إلى ما هو أعظم وأعز منى ؟. وعندما ينظر مرة ثالثة يقول الله تعالى : اذهب إلى ماتنظر إليه .

« بيت »

— هل تعرف ماذا قال لى الحبيب اليوم ؟ ،
لقد قال: أغلق عينيك، ولا تنظر إلى أحد سواى .

* قال شيخنا يوما على رأس الجمع: اقسم بالله الذى يعلم ،وهذا سبعون قسما،أن كل من يضع الله أمامه طريقا آخر فإنه يكون قد أبعد عن طريق الله . ثم قال هـذا البيت :

يجب اختصـــار القول ،
والحـذر من صديق السوء .

فالصديق السيء هو الذى يقول بالإثنين ، والقول بالاثنين كفر يجب الحذر منه . وهذه هى نفسك التى تتحدث إليك دائما ، وتوقع بينك وبين الناس . فيجب اختصار القول ،وأن تقول واحدا ، وكفى .

* قال الشيخ : يقول الله عز وجل : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، والتقوى منه. وعندماتتطهر من نفسك تصل إلى الله ، « وهذا صراط ربك مستقيما » . هذا طريقى ، وغيره كله ضلال . وهذا الطريق لايكون للصوام ولا للقوام ولا

للعابد ولا للساجد والراكع وإنما يكون للذى يتقى نفسه « وهذا صراط ربك مستقيما » . هذا هو طريقى إذا أردته .

* قال الشيخ : « التصوف اسم واقع فإذا تم فهو الله » .

(ص ٢٩٩) وقف درويش أمام الشيخ يوما فى احترام كما يقف فى الصلاة فقال له الشيخ : إنك تقف بخشوع كما يقف الناس للصلاة ، ولكن الأفضل من هذا أن تحطم نفسك .

* قال الشيخ : إن الحجاب بين العبد والله ليس السماء والأرض ، وليس العرش والكرسى ؛ وإنما هو ظنك وأنانيتك ، فانتزعهما لتصل إلى الله .

* قال الشيخ : هناك أربعة أقوال مختارة من كتب الله تعالى الأربعة لسلامة العمل ؛ فمن التوراة : « من قنع شبع » . ومن الإنجيل « من اعتزل سلم » . ومن الزبور « من صمت نجا » . ومن القرآن « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .

* قال الشيخ : لقد حرر الرجال الجسد ، ولزموا مكانا واحدا ، واستسلموا للقدر سنين طويلة أملا فى نفحة من هذا الحديث .

* سئل الشيخ : أين نضع اليد فى الصلاة ؟ فقال : توضع اليد على القلب ، والقلب على الحق جل جلاله .

* قال الشيخ : لقد وصل جميع السالكين إلى محلة بايزيد وسحبوا العنان وقالوا : أين بايزيد ليرى العنان قويا .

* سئل الشيخ : متى يتحرر العبد من رغباته ؟ . فقال : عندما يحرره الله . وهذا لا يتأتى بجهد العبد ، وإنما يتأتى بفضل الله ورحمته ، وبصنعه وتوفيقه . ففى أول الأمر يظهر الله فى نفسه الرغبة فى تحقيق هذا الأمر ، ثم يفتح له باب التوبة .

ثم يأتى به فى المجاهدة ليجتهد. وأحيانا يتمنت العبد فى مجاهداته معتقداً أنه يتقدم أو يحرز شيئا . ثم يقع بعد ذلك فى العجز ، ولا يشعر بالراحة ، لأن (ص ٣٠٠) عمله غيرخالص ، وملوث . وعندئذ يعرف أنه قام بهذه الطاعات لغرض، فيتوب ، ويتبين أنها أعمال تمت بتوفيق الله . وعندما يعلم هـذا ، ينفتح أمام قلبه طريق الحق، وعند ذلك يشعربالراحة . ثم يفتح الله له باب اليقين ، فيسير بعض الوقت، ويتقبل كل شيء من كل شخص ، ويتحمل أنواع الإذلال ، ويعلم علم اليقين من الذى يجب أن يمضى إليه . وعندئذ يخرج الشك من قلبه ، فيفتح الله له باب المحبة . وخلال هذه المحبة تبدو على الإنسان الأنانية ، ويتعرض عندئذ للملامة . والملامة هى أن كل شيء يبدو له ، يتقبله حبا فى الله ، ولا يخشى اللوم . ويظهر فيه الاعتقاد بأن له حبيبا ، ويمضى فى هذا فترة ، ثم يتخلص منه أيضا . ولا يستريح ولا يهدأ حتى يعرف أن الله هو الذى يحبه ، وأن الفضل فى هذا كله لله ، وليس نتيجة لجهده الخاص . وعند ما يرى هذا كله يستريح . وعندئذ يفتح الله له باب التوحيد ، ليجعله يعلم ويرى ويعرف أن جميع الأمور لله جل جلاله « إنما الأشياء برحمة الله ».وهنا يعرف أن الله هو كل شيء ، وأن كل شيء لله ، وكل شيء منه، وأن الذى ابتلى به الناس إنمـا هو امتحان وبلاء لهم ، وخطأ يسوقهم الله إليه بجبروته ، لأن له صفة الجبروت . وعند ما يتأمل العبد صفاته ، يعلم أنه هو الله ، ويصبح كل ما كان مجرد خبر عيانا أمامه ، يراه رؤية العين ، ويتأمل فى صنع الله . وعندئذ يدرك تماما أنه لن يصل إليه ، لأنه يقول « أنا » أو « إن هذا بفضل عملى » . وهنا فى هـذا المقام يدرك أنه لاحول له ولا قوة ، ويستريح ، ويرغب فيما يرغبه الله ، ولا تصبح له أية رغبات ،ويحصل على الراحة ، ويعرف

أن الله هو كل شيء وأنه ليس شيئاً . وعندئذ يقول أنا لست شيئاً . ولكن إذا تجاوز حده قيد شعره فإنه يتوقف دون الوصول .

ويلزم العمل أولا ، (ص ٣٠١) ثم المعرفة ، حتى يعرف الإنسان أنه لا يعلم شيئاً وأنه ليس شيئاً . وليس هذا بالأمر الذى تسهل معرفته . وهو لا يتأتى بالتعليم والتلقين ، ولا يمكن حياكته بابرة ، أو ربطه بخيط . إنه عطية . وحتى يهبه للشخص ، ويمنحه القدرة على تذوقه ، يلزم تعليم الله « ذلك مما علمنى ربى . الرحمن علم القرآن » .

وقال الشيخ : « جذب جذبة من الخلق إلى معاينة الذات فحينئذ صار العلم عينا ، والعين كشفا ، والكشف شهودا ، والشهود وجودا ، وصار الكلام خرسا ، والحياة موتا ، وانقطعت العبارات ، وانمحت الإشارات ، وانمحقت الخصومات ، وتم الفناء ، وصح البقاء ، وزال التعب والعناء ، وطاح الماء والطين ، وبقى من لم يزل ، كما لم يزل ، حين لا حين « قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » .

* قال الشيخ : يتعب الخلق لأنهم يطلبون الأمور فى غير أوقاتها .

* قال الشيخ : إن الله تعالى يحول حقه فى كل مكان تبعا لحقوق الخلق . ويعفو بكرمه وفضله عن التقصير فى حقه ويصفح عنه ، ولا يقبل هذا فى حقوق الخلق ، لأن الرحمة صفة الحق ، والعجز صفة الخلق . ثم قال هذا البيت :

— حقا إن الكرماء يفعلون كما فعل الملك ،

فقد نظر إلى طريقه بعين العظمة .

* التفت الشيخ يوما أثناء حديثه إلى واحد من القوم وقال له : إن الوحشة

من النفس فإذا لم تقتلها ، قتلتك . وإذا لم تقهرها ، قهرتك وتغلبت عليك .

* قال شيخنا يوما على المنبر : إن سألكم سائل بعدى ماذا كان أصل شيخكم فقولوا أربعة أصول : حكم الوقت ، وإشارة السر ، وفتوح الغيب ، وسلطان الحق .

* سئل الشيخ يوما : ياشيخ ، ما الصدق ؟ وكيف السبيل إلى الله ؟ فقال الشيخ : الصدق وديعة الله في عباده ليس للنفس فيه سبيل ، لأن الصدق سبيل إلى الحق وأبى الله أن يكون لصاحب النفس اليه سبيل .

* قال الشيخ : إذا وصل شخص إلى الدرجة العليا فى المقامات ، واطلع على الغيب ، ولم يكن له شيخ أو استاذ ، فإنه لا يرجى منه خير . وتكون كل حال من مجهداته خالية ، ضررها (ص ٣٠٢) أكثر من نفعها .

* قال الشيخ يوما أثناء المجلس : إن هذا التصوف عز فى ذل ، وغنى فى فقر ، وسيادة فى عبودية ، وشبع فى جوع ، ولبس فى عرى ، وحرية فى عبودية ، وحياة فى موت ، وحلاوة فى مرارة . وكل من يسير فى هذا الطريق ، ولا يسير على هذه الصفة ، يزداد حيرة كل يوم .

* قال الشيخ : يجب أن يشتغل الرجل بعملين هما : أن يرفع من أمامه كل ما يشغله عن الله ، وأن يسعى لراحة الدراويش . فإذا سار على هذا النحو ، وصل إلى مقصوده .

* سئل شيخنا : ماعدد الطرق من الخلق إلى الحق ؟ . فقال : — فى رواية — أكثر من ألف طريق . وقال — فى رواية أخرى — : الطريق إلى الحق بعدد ذرات الموجودات ، ولكن ليس هناك طريق أقرب وأفضل وأسرع

من العمل على راحة شخص . وقد سرت فى هـذا الطريق ، وإننى أوصى الجميع به .

* سأل درويش شيخنا : أين أجد الله ؟ . فقال له الشيخ : وأين بحثت عنه ولم تجده ؟ إنك إذا خطوت خطوة صادقة فى طلبه ، تراه فى كل ماتنظر إليه .

* قال الشيخ : يرى الشخص الذى يساق إلى الجحيم نورا من بعيد ، فيسأل : ماهذا النور ؟ فيقال له إنه نور الشيخ فلان . فيقول : لقد كنت أحب ذلك الشيخ فى الدنيا . ويحمل الريح ذلك الـكلام إلى أذن الشيخ ، فيطلب الشفاعة لذلك العاصى من حضرة الحق سبحانه وتعالى ، فيحرره الله تعالى من العذاب ، بشفاعة ذلك العزيز .

* سئل الشيخ ماالذى يظهره الله لبعض أحبائه ، ويخفيه عن البعض ؟ . فقال الشيخ : الشيء الذى يريد الحق تعالى أن يخفيه ، والشيء الذى يحب الحق سبحانه وتعالى أن يظهره .

* سئل الشيخ : من هو الصوفى ؟ . فأجاب : الصوفى هو الذى يرضى بكل مايفعله الحق ، حتى يرضى الحق بـكل مايفعل .

* (ص ٣٠٣) قال الشيخ : إن المنعمين فى الدنيا ينعمون بالدنيا . أما المنعمون فى الآخرة فينعمون بالآلام .

* قال الشيخ : قال شيوخ ماوراء النهر : للشرك منزل هو البطر ، وللايمان منزل هو الحزن .

* قال الشيخ . الألم قلعة تحمى العبد من البلايا بحماية الحق .

* قال الشيخ : أهل الدنيا صيد لابليس بشباك الشهوات . وأهل الآخرة صيد للحق بشباك الهموم . قال الله تعالى : « لا تفرح إن الله لايحب الفرحين » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « إن الله تعالى يحب كل قلب حزين » .

* قال الشيخ : عندما تعترض شخص مشكلة يفكر في أن يقولها لله . وعندئذ يجب عليه أن يقول كل ما يطرأ على خاطره من الغيب ، ولا يهتم بما يقوله هو نفسه .

* قال الشيخ لأحد الدراويش كل مايلزم قوله قله حتى لا يبقى ما لا يقال ، وكل مايجب عمله إعمله حتى لا يبقى مالا يعمل .

* رأيت بخط السيد الشيخ ابى البركات مكتوبا جاء فيه : سمعت عن الشيخ أبى بكر الدرونى أنه قال : سمعت عن الشيخ ابى الحسن الفاروزى أنه قال : سمعت هذا الخبر من الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحب قوما على أعمالهم حشر فى زمرتهم ، وحوسب بحسابهم ، وإن لم يعمل بأعمالهم ».

* قال الشيخ : « الغنى تعب محبوب ، والفقر راحة مكروهة » . وقد اتفق جميع الفضلاء والشيوخ على أنه لم يقل شخص فى هذا المعنى قولا أفضل وأكثر إيجازا من هذا القول.

* روى أنهم كانوا يحضرون إلى الشيخ كل ابن أو حفيد عند ولادته ، ليؤذن فى أذنه . وكان الشيخ يضع فمه على أذنه ويقول له بدلا من الآذان : «يجب أن تصير على هذا الطريق ».

* (ص ٣٠٤) قال الشيخ « من نظر إلى الخلق بعين الخلق طالت خصومته معهم ؛ ومن نظر إليهم بعين الحق استراح منهم » .

* قال الشيخ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول من يقرع أبواب الجنة من أمتى فقراؤها ، وأكثر أهل الجنة من أمتى ضعفاؤها ، وشرار

أمتى من يساق إلى النار الأُقماع » قيل يارسـول الله ومن الأقماع ؟ . قال صلى الله عليه وسلم « الذين إذا أكلوا لم يشبعوا ، وإذا جمعوا لم يستغنوا» .

* قال الشيخ : « من لم يتأدب بأستاذ فهو بطال . وكل حال ووقت لايكون من العلم ، وعن نتيجة المجاهدة وان حلّ فضرره أكثر من نفعه . ولو أن رجلا بلغ أعلى المراتب والمقامات حتى ينـكشف له من الغيب أشياء ، ولا يـكون له مقدم وأستاذ ، فلا يجىء البتة منه شىء » .

* سئل الشيخ فى المجلس : ما التصوف ؟ . فقال الشيخ : « التصوف الصبر تحت الأمر والنهى ، والرضا والتسليم فى مجارى الأقدار » . ثم قال : « لم يظهر على أحد حالة شريفة منيفة إلا وأصلها الصبر تحت الأمر ،والرضا والتسليم بقضاء الله وأحكامه عز وجل » .

* قال الشيخ : كل قلب لايـكون فيه سر من الله ، وليس له سر مع الله ، وسماع من كلام الله فإن سبب ذلك أن هذا القلب خالٍ من الإخلاص . وكل من لا إخلاص له لاخلاص له على أى وجه من الوجوه . ثم روى خبرا عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كان يوم القيامة جىء بالإخلاص والشرك كحيوان بين يدى الرب تعالى فيقول الله للاخلاص انطلق أنت وأهلك إلى الجنة ويقول للشرك انطلق أنت ومن معك إلى النار . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون . ومن جاء بالسيئة فـكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون » .

ثم قال ــ الشيخ : اطلبوا الإخلاص فإن الإخلاص خلاص فى الدنيا والآخرة، كذا قال رسول الله صلى الله عليه « يامعاذ اخلص دينك يكفيك القليل من العمل » .

* (ص ٣٠٥) قال الشيخ : العالم هو المخلص ، فمن لا إخلاص له فى قلبه فلا علم له فى دينه وشرعه . فقال واحد : ياشيخ ، ما الإخلاص ؟ . فقال : لقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الإخلاص سر من أسرار الله فى قلب العبد وروحه يطهر مسلكه به ، ومدد ذلك السر يأتى من عناية الله سبحانه وتعالى ، وهذا المدد رقيب على ذلك السر ، والموحد يكون موحدا بهذا السر. فقال رجل : أيها الشيخ ، ما السر ؟ . فأجاب الشيخ : السر لطيفة من الطاف الحق على نحو مايقول : « الله لطيف بعباده » . وتلك اللطيفة تظهر بفضل الله تعالى ورحمته لابكسب العبد وعمله . ففى البدايه يشعل فى قلب العبد الحاجة والحزن والرغبة . ثم ينظر إليه بتلك الحاجة وذلك الحزن فيضع بفضله ورحمته فى قلبه لطفا « لا يطلع عليه ملك مقرب ولا نبى مرسل » . ويقال لذلك اللطف سر الله . وهذا هو الإخلاص . وقد قال الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوله للناس فقال له : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

* قال الشيخ : من كان حياته بنفسه ، فحياته إلى ذهاب . ومن كان حياته بالإخلاص والصدق ، فهو حى بقابه ، ينتقل من دار إلى دار . ثم قال : الإخلاص : الذى لا يكتبه الملكان ، ولا يطلع عليه إنسان .

* قال الشيخ : كل شخص يحيا بالنفس يموت بالموت . وكل من يحيا بالإخلاص والصدق ، لا يموت أبدا ، وينتقل من قصر إلى قصر. ثم قال الشيخ :

« شعر »

يا عز أقسم بالذى أنا عبده ... وله الحجيج وما حوت عرفات
لاابتغى بدلا سواك خليلة ... فثقى بقولى والكرام ثقات

ولو أن فوق تربة ودعوتنى   لأجبت صوتك والعظام رفات

وإذا ذكرتك ماخلوت تقطعت   كبدى عليك وزادت الحسرات

وتملكت الشيخ حال من السرور وقال هذه الرباعية : (ص ٣٠٦) .

إذا مت فمهما مرت على السنون

لا تظن أن القبر يذهب بحبى للحبيب

فإذا ماوضعت يدك على قبرى سائلا : من هنا ؟

لانبعث صوتى يسألك عن حال الحبيب

ثم قال الشيخ : إن ذلك السر الطاهر هو معشوق الموحدين . وذلك السر قائم بنظر الحق وللحق ، وهو من نصيب الخلق الطاهرين ، ووديعة فى هذا الجسد. وكل من يملك هذا السر إنسان ، وكل من لايملكه حيوان.

* قال الشيخ على المنبر يوما : ألا من عاش بالله لايموت أبدا .

* قال الشيخ : «إذا أردت أن يصير الحق فى قلبك موجودا ؛ فطهر قلبك عن غيره ، فإن الملك لايدخل بيتا فيه الخرافات والأقمشة ؛ وإنما يدخل بيتا فارغا ليس فيه إلا هو ، ولاتكون أنت معه كما قيل » .

* قال الشيخ : إن فضلى عليكم أنكم تقولون لى ، وأنا أقول لله . وأنتم تسمعون منى ، وأنا أسمع منه . وأنتم معى ، وأنا معه .

* قال الشيخ : « حقيقة العبودية شيئان : حسن الافتقار إلى الله ، وهذا من باطن الأحوال . وحسن القدوة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس للنفس فيه نصيب ولا راحة » .

وقال : « طوبى لمن كان له فى عمره نفس واحد » . ما أسعد ذلك الذى يتنفس نفسا واحدا صافيا طيلة عمره ويكون ذلك النفس ضد نفسه . وحينما تقهر النفس وتغلب ، يغلب نور الإسلام . وعندئذ تصعد من الجسد أنفاس صافية وافية مثل نسيم الصبا الذى يهب على الروضة . وكل مريض يصل إليه ذلك النسيم ، يجد الراحة العاجلة ، ويكون سببا لشفائه .

* قال الشيخ : «التصوف إرادة الحق فى الخلق بلاخلق» . ثم قال : وهذا التغير والتلون والبلبلة والاضطراب كله من النفس . وحينما ينكشف أثر من أنوار الحقيقة لاتكون هناك ولولة ولا دمدمة ولاتغير ولا تلون . « ليس مع الله وحشة، ولا مع النفس (ص ٣٠٧) راحة » . ثم قال :

« بيت »

— يسعد المرء حينما يشتعل قلبه بالحب ،
وليس مثل هذا الرجل كثير الوجود .

* سئل الشيخ : ما الفتوة ؟ . فأجاب الشيخ : « قال النبى صلى الله عليه : أن ترضى لاخيك ماترضى لنفسك » . ثم قال : « حقيقة الفتوة أن تعذر الخلق فيما هم فيه . ومن صحب الفتيان من غير فتوة يفتضح سريعا » .

* قال الشيخ : « إن لله تعالى فى كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة إلى قلب عبده ، ينظر هل ينظر إليه قلب العبد ، فإن وجده ناظرا إليه، ألحقه المزيد ،وأكرمه بالزيادات والأنوار ، وجذب قلبه إليه . ومالم يكن له جذبة من فوق ؛ لاينتظم أمره ، ولايصلح شأنه . كما قال الشيخ : جذبة من الحق توازى عمل الثقلين جميعـا » .

* ثم قال : التحمل أفضل من الاجتهاد . ومالم يوجد التحمل ، لايكون الاجتهاد . ومالم يوجد الاجتهاد ، لاتكون البصيرة .

* ثم قال : « من طلبه بالعبودية لايجده ، ومن طلبه به يوشك أن يجده » .

* ثم قال : « لو بسط بساط المجد والفضل لدخل ذنوب الأولين والآخرين فى حاشية من حواشيه ، ولو بدت عين من عيون الجود ألحق المسىء بالمحسن » .

* ثم قال : ليس الدراويش أولئك الذين لو لم يكونوا هم هم ، لما كانوا دراويشا ، إسمهم صفتهم . وكل من يطلب الطريق إلى الله ينبغى أن يمر (ص٣٠٨) عليهم لأنهم فيه .

* قال شيخنا : « انقطع عن الكل حتى يكون لك الكل » . ثم قال .

(شعر)

الذكر يمنعنى والجود يطمعنى ... والحق يمنع عن هذا وعن ذاكا

فلا وجود ولا ذكر أسير به ... حتى فؤادى إذ ناديت إياكا

* سئل شيخنا : ياشيخ ، كيف الطريق ؟ . فقال الشيخ : « الصدق والرفق » . الصدق مع الحق ، والرفق مع الخلق . وقد اتفق جميع المشايخ على أن المروءة احتمال زلل الإخوان . ولا يسود الرجل حتى يكون فيه خصلتان : اليأس عما فى أيدى الناس ، والتغافل عما يكون منهم .

* قال الشيخ يوما لمريد : لاحقق الله لك مرادك ؛ لأن كل من حقق الله له مراده أبعده عن بابه . وانفض يدك من كل من يكون موزعا بين مايلزمك ومالا يلزمك لأنه يكون بلاء لك وللخلق . وعندئذ قال : كنت يوما عند أبى العباس

القصاب ، وكان يتحدث ، فقال فى أثناء حديثه هـذه الـكلمة : كل شخص له مايلزمه ، وأبو العباس يلزمه ألا يكون له ما يلزمه .

* سأل درويش شيخنا قائلا : ماهذه النار التى فى القلوب ؟ . فأجاب الشيخ يسمونها نار الحاجة . وقد خلق الله تعالى نارين : أحداهما نار حية، والأخرى نار ميتة . والنار الحية هى نار الحاجة التى وضعت فى صدور العباد لتحرق نفوسهم . وهى نار نورانية عندما تحرق النفس تتحول نار الحاجة هذه إلى نارالشوق . ونار الشوق هذه لاتخمد أبدا ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . وهذه هى النار التى قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم : « إذا أراد الله بعبد خيرا قذف فى قلبه نورا » . قيل يارسول الله ماعلامة ذلك النور؟ . قال : « التجافى عن دار الغرور ،والأنانية إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت » . قال ذلك السائل : (ص ٣٠٩) ياشيخ ، عندما تـكون نار الشوق وتتحقق الرؤية الطاهرة ، هل تهدأ نار الشوق ؟ . فقال الشيخ : لايمـكن الاقتناع بنصيب من رؤية القمر ، فهذه الرؤية تزيد الظمأ ولاتحدث الشبع . وكما أنها اليوم غيب فإنها سوف تكون فى الغد عندما يريدون الرؤية غيبا أيضا . وليس من الصواب الطواف حول صفاته فـكل شخص يراه على قدر إيمانه . ويكون نور الإيمان هو النور الذى يأتى من القلوب إلى العيون حتى ترى بنور الإيمان هذا جلاله وجماله على حد نفسه .

والنار الميتة هى نار الجحيم ونار الظلمة والوحشة . وكل من لايحترق بالنار الحية يحترق بتلك النار الميتة سواء فى الدنيا أو الآخرة . ثم قال هـــذه الرباعيـة :

لم تحرق نار نمرود إبراهيم بن آذر

فلقد احترق وصار مثل الرماد قبل هذه النار

مالم تحترق بهذه النار فلن يصفو يقينك

سواء سميت هذا عبثا أو سميته جنونا

* قال الشيخ : لقد تحدث سبعمائة شيخ من الشيوخ فى الطريقة فقال أولهم ماقاله آخرهم . ومهما اختلفت العبارات إلا أن المعنى واحد وهو : « التصوف ترك التكلف » . وليس هناك تكلف أكثر من اهتمامك بنفسك ، لأنك عندما تشغل بنفسك تعجز عن الله .

* قال شيخنا : لقد قيل أن التصوف شيئان : النظر فى ناحية واحدة ، والحياة على وتيرة واحدة .

* سئل الشيخ : إذا أراد رجل أن يسلك الطريق بدون شيخ فهل يستطيع ؟ . فقال الشيخ : إنه لا يستطيع ، لأنه يلزمه شخص يكون قد سار فى هذا الطريق حتى يستطيع أن يرشده إليه ، (٣١٠) ويحدثه عن عيوبه ومحاسنه ؛ ويعرفه بكل منزل أو يقول له يلزم البقاء هنا أكثر . وعندما يكون هناك موضع يؤدى إلى التهلكة يقول له ينبغى الحذر . ويشجعه برفق حتى يقطع ذلك الطريق بقلب قوى ، فيصل إلى مقصوده . والشخص الذى يسلك الطريق بمفرده ، يكون كشيطان يتخبط فى وسط صحراء ، لا يعرف من أين يكون الطريق على نحو مايقول الله عز وجل : « كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران » . وأصل هذا الطريق هو إطاعة الشيخ « فإن تطيعوا تهتدوا » . وعندما يطيع المريد الشيخ فإنه أيضا يطيع الله « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » . « والشيخ فى قومه كالنبى فى أمته » ،

* قال الشيخ : « إياك وصحبة الأشرار، ولا تنقطع عن الله بصحبة الأخيار» .

* قال الشيخ : للصحبة شروط . وأحسن لباس يلبسه العبد هو لباس التواضع . وليس لعبد حلية أحسن من حلية التواضع ، ولا يعز العبد إلا التواضع « ومن تواضع لله رفعه » . والتواضع هو الخضوع والتسليم فى هذا الطريق حينما لا تتضح الأمور أمامه . وليس هناك آفة للعبد فى هذا الطريق أسوأ من التكبر . والتكبر هو التعاظم والغرور كما قال إبليس « أنا خير منه » فقد فقد طاعة ألف عام بغروره مرة واحدة . ويقال إن إبليس يطوف فى الأسواق ، ويقول للناس ، تنبهوا ولا تغتروا ولا تقولوا أنا ، وتأملوا ماذا حدث لى من الغرور . والتكبر والتعاظم صفة الله ، وكل من ينازعه فيه ، ويساوى نفسه به ، فإن الله يقهره .

* قال الشيخ : « التصوف بالتلقين كالبناء على السرقين » . ثم قال : « هذا الأمر لا يخاط على أحد بالإبرة ، ولا يشد عليه بالخيط » . وهذا أمر لا يتحقق بالكلام ، فما لم تسلك طريقه لا تسرى دماؤه فيك . وهذا أمر يتحقق بشعورك بالحاجة ، فتلزم الحاجة .

* (ص ٣١١) قال الشيخ . كل من يوافقنى فى هذا الأمر يصبح قريبا لى ، ولو كان بينه وبينى مراحل كثيرة . وكل من لا يؤيدنى فى هذا الأمر لا علاقة لى به ، ولو كان من أقربائى . فأنت تكون معى وبيننا منازل كثيرة . ثم قال : لقد حل غضب الله .

وفى كل وقت كان يرى فيه قافلة كان يقول لهم : ألم يكن بينكم شخص من زملائنا يلبس ملابس ممزقة ؟ . ثم يقول لمريديه : إن زملاءنا قليلون ولا شأن لهم بالدنيا والآخرة .

* قال الشيخ : الحكم للوقت ، والأمر للغيب . ثم قال :

« بيت »

— إن طرتك سوداء ، وقد صرت منحيا للمسك ،
ولكثرة مابحثت عن المسك أصبحت أنت المسك.

* قال الشيخ : من السهل على الخلق جميعا أن تكون لهم علاقة بالرحمن الرحيم . ومن الأصعب علينا أن تكون لنا علاقة بالجبار والقهار .

« بيت »

— لقد كانت الحيرة المقربين كثيراً ،
لأنهم يعرفون قهر السلطان .

* قال الشيخ : مهما أكثرنا من العمل فى حق الله، فإننا لا نستطيع أن نبلغ شيئا فى طريقه .

* قال الشيخ : يلزم فى كل أمر صديق ، ويلزم أصدقاء فى هذا الطريق ؛ بحيث يرشدونك إلى الحق ، وعندما تعجز يعاونونك .

* قال الشيخ : إننا ننظر من الشرق إلى الغرب مثلما تنظرون أنتم إلى طبق وترون كل مايكون فيه . وإننا ننظر لنرى هل أخذ أحد بهذا الأمر ، نحن نرى أنه قد ختم ، وختم هنا . وإذا وجد فى الدنيا جميعها شخص أو قوم أخذوا به ، فإنه ينبغى عليهم أن يزحفوا إلينا .

* قال شيخنا : « قال النبي عليه السلام: « ستتفرق أمتى نيفا وسبعين فرقة ، الناجى (ص ٣١٢) منهم واحدة والباقون فى النار » . قال الشيخ : أى فى نار أنفسهم .

* قال المقرىء عبد الرحمن مقرىء الشيخ إن الشيخ اعترته يوما حال أثناء

السماع ، فأخذ يصيح ويرقص فى حلقة الجماعة . ولما جلس وهدأ ، وكان الصمت قد استولى علينا ، قال : لقد تحدث سبعمائة شيخ فى ماهية التصوف ، وأتم هذه الأقوال وأفضلها هو هذا القول : « استعمال الوقت بما هو أولى به » .

* قال شيخنا : « كان التصوف ألما فصار قلما » .

* قال الشيخ : « أهل الرسوم فى حياتهم أموات ، وأهل الحقائق فى مماتهم أحياء » .

* قال الشيخ : لقد كنت أتجول طويلا فى مواضع كثيرة ، وكان هذا الأمر يقتفى أثرى . وكنت أبحث عن الله فى الجبال والصحارى ، فأجده تارة ، ولا أجده أخرى . والآن لقد صرت بحيث لا أرى نفسى ، لأنى فنيت فيه ، وتلك صفته . ولم أكن أنا ، وسوف يكون هو ، ولن أكون أنا . والآن لا أستطيع أن أتنفس نفسا بنفسى . ولست أدعى المشاهدة والتصوف والزهد ، فالشخص الذى ليس له اسم ، هل يمكن أن يطلق عليه اسم ؟ . هذا محال وليس بجائز .

* قال الشيخ : كل من يلزم له أن يأتى إلى هنا ، يجب عليه أن يأتى ليستمع إلى نفحة منه . فالمجالس الأخرى مجالس علم ، أما هذا فهو مجلس الحق . وهم فى تلك المجالس يبحثون عن السلطة والجاه والعز ، أما هنا فهم يبعدون عن أنفسهم السلطه والعز والجاه . فالعز لله « لله العزة جميعا » والله يقول فى كلامه « لم يزل العز كله لى » ،

* قال الشيخ : كل قراء ينكر سماع الدراويش فهو بطال الطريقة .

* كان الشيخ يتحدث فى مجاس ميهنه ، فمرت قافلة بذلك المكان ، فقال الشيخ : ماأسعد هذه القافلة . ثم مر كلب على ذلك الموضع فقال الشيخ : ماأسعد

هذا الكتاب . غدا فى يوم القيامة سوف يكون له الشرف على كلب أصحاب الكهف ، لأنه سمع هذا الكلام .

* (ص ٣١٣) سئل الشيخ فى نيسابور : هل توجد علامة فى الدنيا على أن الله راض عن العبد ؟. فأجاب الشيخ: أجل ، ينبغى أن يتبين العبد هل هو راض بما منحه الحق سبحانه وتعالى فى الدنيا أم لا ؟ فإذا كان راضيا كان الله تعالى أيضا راضيا عنه .

* قال الشيخ : حيثما ذكر أبو سعيد تسعد القلوب ، لأنه لم يبق لأبى سعيد من أبى سعيد شىء .

* سئل الشيخ : كيف يمكن رؤية الحق ولا يمكن رؤية الدرويش ؟. فقال: لأن الحق تعالى باق ، والباقى يمكن رؤيته . أما الدرويش فهو فان ، والفانى لا يمكن رؤيته .

* قال الشيخ : أيها المسلمون ، اعلموا أنهم لن يدعونكم تمرون بدون عبء ، فإذا كنتم تحملون عبء الحقيقة فإنكم سوف ترتاحون الآن ، وتحصلون على الراحة غداً . وإلا فسوف يضعون الباطل على أعناقكم ، فلا تستريحون فى الدنيا ولا فى الآخرة .

* سئل الشيخ عن معنى هذه الآية : « ولذكر الله أكبر » . فقال :معناها أن ذكر الله لعبده أكبر ، لأن العبد لا يستطيع أن يذكر الله مالم يذكره الله أولا . وإنه لأكبر أن يذكر الله العبد ويمنحه التوفيق لكى يذكره أيضا . وإذا تأملت جيداً تجده يذكر نفسه ، لأن العبد ليس شيئا . والعبد يسعى كثيراً ، ويطوف بالدنيا ، ويظن أنه حصل على الراحة ، ولا راحة فى مكان يخلو منه. وأينما توجهت لن تجد الراحة مادام هو ليس موجودا . إنه فى كل مكان ، وأنت تراه هنا أيضا .

« رباعية »

سعيت كثيرا حتى كلت قدماى

وفى النهاية لم أحصل على فائدة بدونك

ولما بسطت يدى مبايعا لك بالوفاء

قبعت فى دارى مستريحا

* (ص ٣١٤) قرأ مقرىء هذه الآية أمام الشيخ : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها » . فقال الشيخ :

« بيت »

— ماذا ينال خالى الوفاض من رؤية

الحسان ، غير الحسرة والالم .

وقرأ مقرىء : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » .فقال الشيخ :

« بيت »

أتقودنى إلى حافة البئر وتدفعنى ،

ثم تدق كفيك حزنا على .

* قال الشيخ : لن يأتى أعز من سليمان ، ولم يكن هناك ملك أعظم منه . ومع هذا فلم يكن فى قبضته سوى الريح « ولسليمان الريح » وعندما أراد الله أن يريه قدر ملكه ، أنزله عن العرش ، واجاس « صخرا » الجنى مكانه ، ايسوس نفس الملك الذى كان يسوسه ،ثم اطلع سليمان عليه ثانية ، وقال له : إن هذا الملك الذى تتطلع إليه لا يهتم أحد بامتلاكه ، ولا يستحق أن تقول : « وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » .

* سئل الشيخ : ما الدولة ؟ . فقال الشيخ : قيلت فى هذا المعنى أقوال كثيرة ، وأنا أقول : « الدولة إتفاق حسن » . وعندما تظهر تكون العناية الأزلية « سبقت العناية فى البداية فظهرت الولاية فى النهاية » . والناس فى الدنيا على ألوان شتى ، وقد صبغ الله القلوب منذ الأزل على نحو مايقول « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

(شعر)

وهواك أول ماعرفت من الهوى   والقلب لاينسى الحبيب الأولا

وهذه الولاية ليست من تلك المجموعة حتى يمكن حياكتها بالأبرة ، أو ربطها بالخيط ، أو وزنها بالميزان ؛ فهى عندما لاتكون لاتكون .

(بيت)

— جاءت الدنيا لمن جاءت إليه ،

فاعلم أن مايجىء بغير كد لا يكون كالذى تكدح للحصول عليه.

* (ص ٣١٥) نهض رجل فى مجلس الشيخ وسأله: أيها الشيخ ، أى تدبير لنا ؟ . فقال الشيخ : « التدبير فى العقل تدمير . والتدبير فى العشق تزوير » . ولا يوجد خطأ أسوأ منه لأنك تدبر مع عدوك فى حق صديقك وربك . والتدبير صفة النفس والنفس عدو . وإذا كنت تريد أن تدبر ، فيجب عليك أن تدبر مع شخص ماهر . ولم يوجد ولن يوجد منذ العهد الأول حتى منقرض العالم شخص أمهر من المصطفى صلى الله عليه ،فدبر معه،وانظر ماذا قال، وسر عليه ،وابتعد عما نهى عنه .

(بيت)

— يجب اختصار القول ،
والحذر من صديق السوء .

وصديق السوء هو نفسك « أرأيت من اتخذ إلهه هواه » . وطالما أنت تهتم بنفسك فلن تجد الراحة قط « نفسك سجنك إن خرجت منها وقعت فى راحة الأبد » .

* فى وقت من الأوقات سأل درويش الشيخ : أيها الشيخ ، ماالعقل ؟ . فقال الشيخ : « العقل آلة العبودية » ولا يمكن إدراك أسرار الربوبية بالعقل ؛ لأنه محدث ، وليس للمحدث طريق إلى القديم .

* قال درويش للشيخ : أيها الشيخ ، أدع لى . فقال شيخنا : لاجعلك الله لائقا لأى عمل ؛ لأنك إذا لقت لعمل ، بقيت فى قيده ، وأصبح ذلك حجاباً لك عن ربك . وأساس العبودية الفناء ، فإذا بقيت فى صفاتك ذرة من إثبات ؛ فقد دام عليك هذا الحجاب . فاثبات الصفات لله ، ونفى الصفات للعبد . قال موسى : «فأرسل إلى هارون» وموسى هنا لم يهرب من النبوة ، ولكنه تذوق النفى فكان يقول « دعنا فى هذا الفناء فقد شبعنا من وجودنا ، وتحملنا كثيراً من البلايا » .

وقد قيل : لابد للنبوة من نفى البشرية ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم فى الغار : دعنا هكذا فى عجزنا . وكان جبريل يقول له اقرأ فكان يقول (ص ٣١٦) ما أنا بقارىء ، هنا الكبراء والعظماء ، فماذا تريد من أجير خديجة ، ويتيم أبى طالب .

(بيت)

— لن يفيدك من التقاعس شىء ؛
فاعقلها وتوكل .

* قال الشيخ ، إن الملوك لا يبيعون العبد ، فاجتهدوا أن تكونوا عبيداً لله، فعندما قبلكم عبيداً له ، وناداكم « ياعبادى » تجاوز أمركم القياس والتصرف .

* قال رجل: ياشيخ ، هل يخرج الأثم العبد من العبودية؟ فأجاب الشيخ: مادام عبداً فلا ، ولما كان آدم عبداً ؛ فإن الذنب لم يبعده عن الله . فكن عبده حيثما شئت « ذنب مع الافتقار خير من طاعة مع الافتخار » . ولقد شعر آدم بالافتقار وشعر ابليس بالافتخار . « ولولا العصاة لضاع رحمة الله » .

* كان الشيخ يتحدث يوما فقال : حركوا رؤوسكم استحسانا لهذا الحديث حتى إذا سئلتم يوم القيامة من أنتم ؟ قلتم : نحن المستحسنون لحديث رجالك ، فيرفع القيد عنكم سريعا .

* سئل الشيخ عن هذه الآية « وربك يخلق مايشاء ويختار » . فقال الشيخ : إن الاختيار لله . والذى يختاره الله يجب أن يكون لائقا حسنا . أما مايختاره العبد فلا فائدة منه . ونحن لانستطيع أن نتنفس نفسا بدونه . والشيء الذى لايريده الله لا يحدث ، وأفضل لنا ألا نكون . وإذا ماعرض للعبد فتح ، فإنه يزدان بهذا الفتح ، ويصير هذا الفتح حلية له ، فيصبح جديرا بالبصيرة . وإذا ماصار بصيراً أصبح سميعا ، وعلى هذا فالله يقول : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » . والله يقول لى « هو خير يا ابن أبى الخير » . وأنا أقول لكم : « هو خير يا آل ابى الخير » . وكل شخص يتيه بشيء ، بعضهم يتيه بالدنيا وبعضهم بالعقبى ، ويفخر بعضهم بالدرجات وبعضهم بالحسنات . وأنا أقول لكم إن هذا كله لم يكن موجودا وكان هو موجودا ، ولايزال ، وسيظل دائما .

وقد كان الشيخ أبو القاسم بشر ياسين يعلم العجائز فى ميهنه هذا الذكر : ياأنت ، يامن أنت كل شيء ، يامن كل شيء لك (ص٣١٧)وحدك لاشريك لك.

وهذا كله لأن الحق تعالى يقول : « هو خير مما يجمعون » . أيها المسلمون ، لقد أصبح غريبا ذلك الشخص الذى يشم نفحة منه، أوالشخص الذى شبع من نفسه . والفيض يأتى الشخص الذى يتعلق بالله فيصير محتاجا لله . تلزم الحاجة ، فالحاجة مغناطيس يجذب أسرار الحقيقة .

قال الشيخ : قبل أن يخلق الله تعالى الأجساد باربعين ألف سنة ، خلق الأرواح ، واحتفظ بها فى جواره ، وألقى عليها نوراً . وكان يعرف كمية النور التى حصلت عليها كل روح ، فكان يميل إليها بقدر نسبة النور الذى تلقته . وظلت الارواح فى ذلك النور ، ونمت نموا كاملا . وإن أولئك الذين يعيشون فى الدنيا فى مرح ووفاق مع بعضهم لا بد وأنهم كانوا على وفاق قبل ذلك . وهم يحبون بعضهم البعض ، ويعرفون باحباب الله ، ويظلون على هذا الحب ، لأنهم أحبوا بعضهم من أجل الله . وكل من يبحث منهم عن الله ، يحمل إلى الآخر نفحة من ذلك الطلب .

ثم قال الشيخ : هذه الأرواح تعرف بعضها البعض بالرائحة «كما تشام الخيل» ورغم أن إحداها قد تكون فى الشرق والأخرى فى الغرب ، إلا أنهما تشعر بالانس والارتياح فى حديث كل منها للأخرى . ولو أن أحدهم عاش فى القرن الأول ، وعاش الآخر فى القرن الخامس ، فإن هذا الأخير لايجد الفائدة والمواساة إلا فى كلام الأول . وهؤلاء القوم يتحلون بفضل الله تعالى ، وهم لا يتغيرون بشىء يصيبهم من الله ، فلا البلاء ولا النعماء ولا الكرامات ولا المقامات تغيرهم. وكل من ينزل إلى شىء من هذه الأمور لايكون إلا كاذبا ، لأن الكرامات والمقامات والدرجات كلها ليست لله ، وإنما هى من نصيب العبد ، وكل ماتزل منها صار نصيباً للعابد .

* قال الشيخ : أيها المسلمون ، إلام تخجلون من أنيتكم ؟ . لا تفعلوا شيئا لا تستطيعون قوله يوم القيامة ، ولا تقولوا فى الدنيا ما يكون وبالا عليكم فى الآخرة . إن هذه الأنية تجاب الدمار للناس ، هذه الأنية شجرة اللعنة . وأول شخص قال « أنا » كان ابليس وشجرة (ص ٣١٨) لعنته كانت ملكا لكلمة « أنا » ، وكل من يقول (أنا) يقطف ثمرة من تلك الشجرة ، ويبتعد كل يوم عن الله أكثر من ذى قبل .

طرق جابر بن عبد الله باب حجرة الرسول عليه السلام فقال الرسول عليه السلام : من الطارق ؟ . فقال جابر : « أنا » فنهض الرسول عليه السلام وأخذ يقول وهو يسير إلى الباب : « أنا ، أنا ، أما أنا فلا أقول أنا » . وعندما تخلص من أنيته ، وصح واستقام فى ذلك ، قيل له : قل هذا باذن منا « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله ، على بصيرة أنا » .

* قال الشيخ : « لا تكرهوا النفس فإن فيها خسار المنافقين » .

* سئل الشيخ فى تفسير هذا الخبر « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » . فقال : إن تفكر ساعة وأنت فان عن نفسك ، خير من أن تقوم بالعبادة سنة وأنت تفكر فى وجودك .

* سئل الشيخ عن السماع فقال : « للسماع قلب حى ، ونفس ميت » .

* قال الشيخ : نحن نعظ بدون علم ، ونقيم الولائم بدون نقود .

* قال الشيخ : ظللت أبحث عن الله مدة طويلة ، وكنت أجده تارة ولا أجده أخرى ، والأن أبحث عن نفسى فلا أجدها ، لقد فنيت لأن الكل هو .

« شعر »

— ابثت فى كيف ولماذا سنين طويله ،
أقول كيف هذا ولم ذلك .
— وعندما استيقظ النائم من غفلته ،
أصبح الغم أسهل عليه فى اليقظة .

* قال الشيخ : تلزم جميع الأشياء للرجل حتى لايلزمه شيء . وقد فسر أحد كبار الصوفية هذا القول فقال : يلزم للرجل أن يصل إلى كل شيء ، ويجرب كل شيء ، حتى لايهفو قلبه لشيء .

* قال الشيخ : كل من يظن فى نفسه ظنا طيبا لا يعرف نفسه . وكل من (ص ٣١٩) يظن فى الله ظنا سيئا لا يعرف الله .

* قال الشيخ : « لولا أن العفو أحب الأشياء إلى الله تعالى ، لما ابتلى بالذنب أحب الخلق إليه ، يعنى آدم » .

* سئل الشيخ عن معنى القول: «من عرف الله كل لسانه.فقال شيخنا : يعنى كل لسانه عن خصومة الخلق ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان أعز الخلق ولم يكل لسانه » .

* سئل الشيخ عن معنى « من عرف نفسه فقد عرف ربه » . فأجاب الشيخ : « من عرف نفسه بالعدم ، عرف ربه بالوجود » .

* قال شيخنا: «من فضل الفقير على الغنى أن كل أحد يتمنى عند الموت وفى القيامة أنه كان فقيرا ، وذلك فى حالة الصدق ، ولا يتمنى أحد فى ذلك الوقت الغنى » .

* سئل الشيخ عن معنى « نصر عزيز » فقال الشيخ : العدو اثنان : أحدهما تحت القميص ، وثانيهما خارج القميص . وعندما تتغلب عليه يقال لذلك الفتح ظفراً . أما ذلك الذى فى داخل القميص فهو الذى عندما تتغلب عليه يسمون ذلك نصرا عزيزا . هذا هو تفسير « نصر عزيز » .

* قال شيخنا : كل مالا يليق للخلق لا يليق لله ، وكل ما يليق لله لا يليق للخلق .

* قال شيخنا : أصل الزلة هو أن المصطفى عليه السلام جاء إلى الأرض بزلة آدم وخرج من حضرة الحبيب . إذن فالزلة ينبغى أن تكون من قبل الحبيب لا من قبل الغريب .

* قال شيخنا : يمكنك أن تزيد فى الجهد والتعب ولكن لا يمكنك أن تزيد فى الرزق ، لأنه يكون بالمنح لا بالكفاح .

* قال الشيخ : أن تسحب جبلا بشعرة أسهل من أن تخرج بنفسك من نفسك .

* قال الشيخ : يقول الناس إننا سعداء نشعر بالراحة ولو أنهم (ص ٣٢٠) رأوا ما تحملنا ، لتألموا كثيرا وهربوا .

* قال الشيخ : ليس الشيطان هو الذى يقول « لا حول الله » وإنما هو الخاسر الهارب من رحمة الله .

* سئل شيخنا : « ما الشر ؟ . . وشر الشر ؟ » . . فقال الشيخ : الشر أنت ، وشر الشر هو أنت وأنت لا تعلم .

* قال الشيخ : إن الله تعالى لا يخشى أن يجعل مائة ألف شخص فدا . لصوفى واحد .

* قال الشيخ : بعد أكثر من سبعين عاما عرفت معنى هذا البيت :

ـــ أواه أيها الناس . . . لقد انعدم العدل فى الدنيا ! ،
فالحبيب يرتكب الذنب وعلى أنا أن اعتذر.

* قال الشيخ : قال سليمان « هب لى ملكا » فمنحه الله ذلك الملك . ولما رأى آفة ذلك الملك ، وأدرك أنه يسبب البعد لا القرب ، قال لحضرة الله تعالى « لاينبغى لأحد من بعدى » .

قال الشيخ : عندما يصل الرجل إلى طريق التجرد لايهتم بملك سليمان . وإذا لم يصل إلى التجرد يعرف مايزيد عن الكم . ولهذا السبب قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى السوق : اقطعوا مازاد عن الكم .

* قال الشيخ « ينبغى أن يكون لك وارد ولا يرد » .

* قال الشيخ . « كلما كان من قبل الهوى والباطل فهو نفس ، وما كان فيه راحة من الخلق فهو نفس » .

* سئل الشيخ عن معنى« فلما جن عليه الليل رأى كوكبا » فقال: الليل ليل الاستتار والنهار نهار التجلى .

* قال الشيخ :« لما خلق الله تعالى العقل وقفه بين يديه ،فقال من أنا؟ فتحير (ص ٣٢١) فكحله بنور وحدانيته فقال من أنا ؟ فقال أنت الله لا إله إلا أنت . فلم يكن للعقل طريق إلى معرفته إلا به » .

* سئل الشيخ عن المعرفة فقال : المعرفة هى ما نقوله لأطفالنا ، نظف أنفك ثم تحدث عنا .

* قال الشيخ : « القرب على ثلاثة أوجه: قرب من حيث المسافة، وهو محال. وقرب من حيث العلم والقدرة ، وهو واجب ، وقرب من حيث الفضل والرحمة ، وهو جائز » .

* قال الشيخ : عمرك هو نفسك بين نفسين : أحدهما مضى والآخر لم يأت بعد . وقد سبق شرح هذا القول .

* قال شيخنا : يغسل الغاسل الثوب كل أسبوع ولكنه لا يبدو نظيفا . وعندما يغسله بعناية يقول له : إنى لا أخونك ، ولا أؤدى عملك بإهمال . وإذا أردت ثوبك نظيفا فانتظر حتى أضعه فى الماء مرة أخرى ، وقد يصلح لأسبوعين ؛ لأنه عندئذ يخرج القماش نظيفا ، بحيث أن كل من ينظر إليه يقول : ما أحسن هذا الغاسل الماهر .

* قال شيخنا يوما أثناء حديثه : « إن الذين يكثرون الصلاة والذكر ويعدون ما لهم عند الله ، فلو عدوا ما لله عندهم لاستراحوا » . ثم قال : « قال رسول الله صلى الله عليه : إياكم ومجالسة الموتى . قيل يارسول الله ، من الموتى ؟ . قال أهل الدنيا الذين ولدوا فى التنعم . ثم قال صلى الله عليه : يامعاذ إياك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بمتنعمين » .

* قال الشيخ أثناء المجلس : الحياة بالعلم ، والراحة فى معرفة الذوق فى الذكر ، وثواب التوحيد النظر إلى الله تعالى فى الجنة . وثواب أداء الأمر الجنة ، وثواب اجتناب النهى الخلاص من النار . ثم قرأ الشيخ : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » .

* (ص ٣٢٢) قال الشيخ « لماخلق الله تعالى الأرواح خاطبهم بلا واسطة، وأسمعهم كلامه كفاحا ، وقال : خلقتكم لتساروني ، وأساركم . فإن لم تفعلوا ، فتناجوني ، وأناجيكم . فإن لم تفعلوا ، فكلموني وحدثوني . فإن لم تفعلوا ، فاسمعوا مني . ثم قرأ الشيخ : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » .

ثم قال : « إن كلام الله صفة قديمة مختصة بذاته ، ليس بحرف ولا صوت ، وهو مسموع فى ذاته . فإذا أسمع عبده من غير واسطة حرف ولا صوت ، يسمى مكالمة ومخاطبة . وإذا اعتبره عليه ، بأن يخلق فى المحل ما يدل عليه من العبارات والحروف أو غير ذلك من الأدلة ؛ فيسمى مسارة . وإذا خلق فى قلبه معانى كلامه ؛ فيسمى مناجاة . ومن شرط هذا القسم الأخير أن يتعقبه علم ضرورى بأن هذا من كلام الله . فما ورد من ألفاظ المسارة والمناجاة والمخاطبه فمحمول على هذه المعانى . وأما الوحى والإيجاد فإذا الكلام فى النفس بواسطة رسول من رسله » .

* قال الشيخ أثناء الحديث : « سيروا إلى الله سيرا جميلا ، وسيروا إلى الله بالهمم لا بالقدم » .

* قال الشيخ : « من عرف الله بلا واسطة ، عبده بلا عوض . ومن عرفه بواسطة ، عبده على العوض » .

* قال الشيخ : « الزم بابا يفتح لك الأبواب ، واخدم سيدا واحدا يخضع لك الرقاب » . ثم قال الشيخ : « تأن تنل فإن هذا رب ليس العجلة من شأنه » .

* سئل الشيخ عن معنى هذا الخبر: «إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ولا

إلى أموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . فأجاب : قيمة كل امرىء قلبه ، لأن الصورهو الصدف ، والقلب هو الجوهر . والملوك لا ينظرون إلى الصدف ، بل ينظرون إلى الجوهر . والجواهر مختلفة . وقيمة كل امرىء قلبه ، وعاقبة كل امرىء قلبه . والقلب ناظر بالفضل والرحمة ، كذا قال الله تعالى: « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » « يختص برحمته من يشاء » .

* (ص ٣٢٣ » قال الشيخ : « الدنيا صوركم ، والآخرة صوركم ، وجميع ما في الكونين صوركم والأمر والإسم والصور . فالمقامات حركات الظواهر ، والأحوال حركات السرائر ، والتوحيد والمعرفة وراء الظواهر والسرائر . ولا يصل العبد بروح التوحيد وصفاء المعرفة إلا بكفاية ورعاية وعناية من الحق تعالى وتقدس » .

* قال الشيخ : « السماع يحتاج إلى إيمان قوى لأن الله تعالى قال : « إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا » . فالسماع غذاء الأرواح وشفاء الأشباح . والسماع لسالك الطريق . ومن لم يسلك الطريق لا يكون له سماع بالتحقيق » .

* قال الشيخ : « إن أردت أن تجده فاطلبه في رجوعك عما دونه » .

* قال الشيخ : « السلامة في التسليم ، والبلاء في التدبير » .

* قال الشيخ : « من أحب الدنيا ، حرم عليه طريق الاخرة ؛ لأن النبي صلى الله عليه قال : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » .

* قال الشيخ : « من سكن إلى شيء دون الله تعالى فهلاكه فيه » .

* وقال: « من حدث في نفسه ، غاب عن مولاه ، ورده الله إلى نفسه ، لأن أول جناية الصديقين حديثهم مع أنفسهم » .

* قال الشيخ: « لايجد السلامة أحد حتى يكون فى التدبير كأهل القبور؛ لأن الله تعالى خلق الخلق مضطرين لاحيلة لهم . وأسعد الناس من أراه الله قلبه حيلته » .

* سئل الشيخ : « ياشيخ ، ما الشريعة وما الطريقة وما الحقيقة ؟ . فقال : الشريعة أفعال فى أفعال ، والطريقة أخلاق فى أخلاق ، والحقيقة أحوال فى أحوال. فمن لا أفعال له بالمجاهدة ومتابعة السنة ، فلا أخلاق له بالهداية والطريقة .ومن لاأخلاق له بالهداية والطريقة ، فلا أحوال له بالحقيقة والإستقامة والسياسة » .

* قال شيخنا : « من حياته بنفسه ، فحياته إلى ذهاب روحه . ومن كان حياته بالإجابة والصدق فهو حى ينقل من دار إلى دار . أما سمعتم قول رسول الله صلى الله عليه « يا أهل الخلود والبقاء خلقتم للبقاء لا للفناء ولكنكم تنقلون من دار إلى دار » .

* (ص ٣٢٤) قال الشيخ : « أوحى الله تعالى إلى نبى من أنبيائه: تزعم أنك تحبنى ، فإن كنت تحبنى فأخرج حب الدنيا من قلبك ، فإن حبها وحبى لايجتمعان » . ثم قال الشيخ : « ماترك عبد فى الله شيئا إلا عوضه الله خيرا منه . ومن لم يكن عيشه بالله ولله، فلا عدة لموته » .

ثم سأل سائل : « ياشيخ ، ففيم الراحة ؟ . فقال : الراحة فى تجريد الفؤاد عن كل المراد ، لأن الله تعالى قال : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » أى فضلناهم بأن بصرناهم بعيوب أنفسهم . وكذا قال رسول الله : « إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه». كذا قال صلى الله عليه :« من زهد فى الدنيا أسكن الله الحكمة قلبه ، ونطق بها لسانه ، وبصره عيوب الدنيا، وصار

داءها دواءها . ومن قال لا إله إلا الله فقد بايع الله ، ولا يحل له إذا بايعه أن يعصيه . ومن لم يتنعم بذكره وأمره فى الدنيا ، لم يتنعم برؤية جنته فى العقبى » .

* قال الشيخ : ليس هناك كلام أحسن مما أقول ، ولكن إذا كان لا ينبغى قول هذا فإنه يكون أحسن .

* فى وقت من الأوقات كان جماعة من العقلاء عند الشيخ فقال أحدهم : إننا نفعل كل ما نقول . فقال شيخنا : إننى على خلاف هذا فأنا أفعل كل ما أفكر فيه .

* قال شيخنا :

« بيت »

أيها الحبيب ، إنك عندما فنيت بقيت ،
فلا جرم أن تطهرت عندما صرت ترابا .

* سئل الشيخ عن العشق فقال : « العشق شبكة الحق » .

* قال الشيخ: أنت لا تعرف ، ولا تعرف أنك لا تعرف ، ولا تريد أن تعرف أنك لا تعرف .

* كان الشيخ كثيرا ما يقول : ياإلهى . . . إننى استغفرك عما قصرته فى حقك ، وأحمدك على ما أنعمت علينا به .

* فى كل وقت كان الشيخ يقرأ فيه القرآن ، كان يقول عندما يصل إلى آية من آيات القسم : ياإلهى ... إلى متى نعجز عن إدراك كنهك .

* (ص ٣٢٥) قال الشيخ : كل قلب يكون فيه حب الدنيا يزيغ ، والقلب المشتت لا يصلح لشىء .

كان الحسن البصرى من أعزة التابعين ، وقد سأله شخص يوما : كيف أنت ، وكيف حالك ؟. فقال حسن : يا أخى ، لقد أغلقت باب النفس منذ ثلاثين عاما وجلست انتظر الأمر .

* وفى ذلك الوقت قال الشيخ : إن تشتت القلب سببه حب الدنيا. والقلب لا يطمئن طالما كان فيه حب الدنيا ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « حب الدنيا رأس كل خطيئة » فإذا كان رأس كل خطيئة قد استقر فى القلب ، فهل يدع الطريق لشىء آخر يصل إليه ؟ . وقال الشيخ : كان أبو القاسم بشر ياسين يقول هذه الرباعية كثيراً .

« رباعية »

سوف أحل ضيفا عليك أيها الحبيب
وأحضر متواريا ومتخفيا عن الحساد
فادخل البيت واغلق الباب خلف الضيف
ولا تدع أحدا يجلس معنا

* وعندئذ قال الشيخ : إن تتمة هذا القول قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « طوبى لعبد جعل الله همومه هما واحدا ، ومن تشعبت به الهموم لا يبالى الله فى أى واد أهلكه » .

* وقال أيضا : « كل ما شغلك عن الله فهو شؤم عليك » وكل ما شغلك هو دنياك ولو أنها كلها فانية . وكل ماهو دنياك هو آفتك وسبب زيغك وتخلفك فى الدنيا والآخرة .

* وقال الشيخ أيضا فى ذلك الوقت : كان الشيخ أبو القاسم بشر ياسين من عظماء ميهنه ، وكثيرا ما كان يقول هذا الشعر :

« شعر »

— لقد عاش بالعشق كل من فنى فى الله ،
ولايحيا بالله إلا من تعلق به وحده .
— أتريد مقام الصفوة وذيلك ملوث ،
أخشى أيها الخسيس أنك لن تصيب من العشق شيئا .

* سئل الشيخ : أيها الشيخ ، إننا مهما فكرنا لا نصل إلى هذا المعنى . (ص ٣٢٦) فقال الشيخ : « التدبير تدمير » . والتدبير عمل الجهلاء ، وليست هناك آفة أكبر من التدبير ولقد قيل : « أطابوا الله بترككم التدبير ، فإن التدبير فى هذا الطريق تزوير » .

* وحينئذ قال الشيخ : إن أغبى الناس هو الذى يتحالف مع العدو ضد الصديق ، وهذا التحالف من قلة المعرفة . وقد كان هناك شيخ يقول هذا الدعاء كثيراً :

« اللهم إنى أشكو إليك قلة معرفتى بك » .

* ثم قال : لقد كانت سعيدة الصوفية من ناسكات هذا الطريق ، وقد ذكرها الشيخ أبو عبد الرحمن فى طبقات الناسكات . وقد ذهب جمع من هذه الطائفة إلى باب حجرتها لتحيتها أملا فى الحصول على البركة ، وقالوا لها أدعى لنا . فقالت تلك الموفقة : « قطع الله عنكم كل قاطع يقطعكم عنه » .

* وقال الشيخ : « المتكلف محجوب بتدبيره ، مقطوع بدعواه فى جميع أموره » .

* قال الشيخ فى أواخر عهده : رأيت أبا الفضل حسن فى النوم وقلت له :

إننا نحفظ عهد الأصدقاء . فقال : ماأحسنكم أيها الأصدقاء لأنكم تحفظون مايجب أن يحفظ ، والأفضل أن تكفوا الآن عن ذلك .

* قال الشيخ : « إغباب الزيارة مع حضور القلب ، خير من دوامها مع نفور القلب » .

* ثم قال : العبد هو من يعبد نفسه .

* وعندئذ قال: طالما العبد لايرى صفاء المعاملة يقول أنت وأنا. وعندما ينظر إلى فضل الله ورحمته يقول بجميع جوارحه «أنت» وعندئذ نصبح عبوديته حقيقية.

* قال الشيخ : « من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد بطلت صدقته » .

* سئل الشيخ عن الشريعة والطريقة والحقيقة فقال شيخنا :هذه أسماء منازل، وكانت موجودة مع منازل البشرية . والشريعة كلها نفي واثبات على القالب والهيكل . والطريقة كلها محو . والحقيقة كلها حيرة . وقد كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يلفظ أنفاسه الأخيرة (ص ٣٢٧) وهو يقول : «ياهادى الطريق جرت » فكان يصرخ من حيرة الحقيقة . وهذه الاقوال برهان ، والبرهان بلا دليل كفر .

* قال الشيخ : لاتفعل هذا الشيء حتى لاتجعل قلبك بعيدا عن الحقيقة . وكان ينشد هذه الرباعية أثناء حديثه :

« رباعية »

تضاءلت حتى لم يعد يرانى الناس
ولا سبيل لأن يدعونى أستقر أمامك أيها الحبيب
أنت كالشمس وأنا كالذرة
ومن هنا يطلقون على الذرة العالقة بالشمس

* قال الشيخ : ينبغى أن يجرد العمل من الطمع إذا أردت أن يكون العمل سهلا عليك، لأنه يجب أن يخلو العمل من الطمع . ثم استشهد بالرباعية التالية :

« رباعية »

كمال الحب يأتى من حبيب خلا من الطمع
وأى قيمة لما يقدر بالثمن
يقينا أن المعطى خير لك من العطاء
وما قيمة العطاء حتى ولو كان عين الكيمياء

* سئل الشيخ : ياشيخ ، الفقر أتم أم الغنى؟ فقال الشيخ :

« بيت »

— ما أعجبك من حبيب أيها الحبيب الخراسانى ،
فأنا أسير للأحبة الخراسانيين .

ثم قال : الأتم والأكمل والأفضل فى الشريعة أنه إذا وقع نظره السبحانى على شخص تبدل فقره غنى وغناه فقرا . فالبشرية مرآة الربوبية ، والله لم يلتفت من كل ما خلق إلا للآدمى « إن الله تعالى لم ينظر إلى الدنيا منذ خلقها بغضاً لها ». ولما وصل إلى حديث الآدمى قال : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم». وقد خلق الله العالم كله بأمر،فقال « كن » فكان . فلما وصل إلى خلق الإنسان، تجاوز عن الأمر وقال لقالب الإنسان « خلقت بيدى » فلما وصل إلى الأرواح قال : « ونفخت فيه من روحى » .

* (ص ٣٢٨) قال الشيخ : إذا كانوا قد أرسلوا من السماء فدية لإسماعيل، فإنهم سيرسلون فى يوم القيامة فدية عن أراذل أمة محمد . « يجاء بالكافر ويقال للمسلم هذا فداؤك من النار » .

* قال الشيخ : كل من يستطيع أن يجلس مع كل إنسان ، وأن يسمع كلاماً من كل إنسان ، وأن يأكل طعاماً مع كل إنسان ، ويستطيع النوم ، فلا تأمل فيه خيرا ، لأنه يسلم نفسه للشيطان .

* سألوا الشيخ : أيها الشيخ ، ما أصل الإرادة ؟ . فقال الشيخ : كل شىء مبعثه الرغبة . وهناك فرق بين الرغبة والدافع ؛ ففى الرغبة يكون هناك تردد ، فالإنسان يريد أن يفعل ويريد ألا يفعل . أما الدافع فليس للتردد منفذ إليه ولو قيد شعرة . والرغبة شىء جزئى ، والدافع شىء كلى . فإذا عنَّ حديث ظهر معه فورا جهد فى تتبعه ، ثم ظهرت الهمة ، ثم ظهر الكشف . وحينذاك يصير الإنسان سيد الكون .

* سأل درويش الشيخ : أيها الشيخ ، ما العبودية ؟ . فقال : « خلقك الله حرا فكن كما خلقك » . فقال : ياشيخ ، إن السؤال عن العبودية . فقال الشيخ : ألا تعلم أنك لن تصير عبدا مالم تتحرر من الكونين . ثم قال هذه الرباعية :

الحرية والعشق يتحققان فى أروع صورة
إذا صرت عبدا وتحررت من نوازع الجسد
وعند ذلك حين أتخذ صديقا حميا
فإن الجدل والخصومة ينتفيان بيننا

* سأل درويش الشيخ : ما الفتوة ؟ . قال : يجب أن يوجد صاحب همة حتى يمكن التحدث معه فى حديث الفتوة ، لأنه لا يمكن إثارة حديث الفتوة مع شخص يهتم بنفسه « زلة صاحب الهمة طاعة ، وطاعة صاحب المنية زلة » فالفتوة الشجاعة واللطافة والظرافة تنبت فى بستان الهمة ، وفى بستان الهمة تكون الصلوات

الطويلة والصوم والجوع وقيام الليل والصدقة الكثيرة ، وكل من يثبت الهمة يصل إلى الفناء .

* (ص ٣٢٩) قال الشيخ يوما : « رأى النبي صلى الله عليه ليلة المعراج قوما من الملائكة كلهم نور ، من بين يديهم ومن خلفهم نور ، وفوقهم نور ، وتحتهم نور . قال : قلت يا جبريل من هؤلاء ؟ . قال : هؤلاء قوم لم يعرفوا سوى الله » .

* قال الشيخ يوما : بلغنا أن السيد الصادق جعفر بن محمد قال : « ما رأيت أحسن من تواضع الأغنياء للفقراء . وأحسن من ذلك إعراض الفقير عن الغنى استغنى بالله عز وجل » . ثم قرأ المقرىء « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » .

* قال شيخنا يوما : غاية عزنا الافتقار إلى الله تعالى ، والتذلل بين يديه ؛ لأن النبي صلى الله عليه قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً دله على ذل نفسه » .

* سئل شيخنا : هل الفقر أتم أم الغنى ؟ فقال الشيخ : « الغنيه عن الكل » . ثم قال :

« شعر »

إذا نحن أدلجنا وأنت أمامنا كفى لمطايانا بذكرك هاديا

* قال الشيخ : « كيف يدرك الخالق بالمحدث ، أم كيف يدرك ذو مدى من لا مدى له » .

* قال الشيخ يوما أثناء المجالس : سمعت السيد الصادق جعفر بن محمد يقول : « الغنى بالله لا يريد به بدلا ، ولا يبغى عنه حولا . ومن قال لا إله إلا الله ، فقد بايع الله ، ولا يحل له إذا بايعه أن يعصيه » .

* قال الشيخ : الشخص الذى يسلك طريق الحق أول اسم يطلقونه عليه اسم « مريد » . وقد رووا آلاف الأشياء التى تجب على المريد كى يطلق عليه اسم مريد، أولها أنه إذا تجرد ينبغى عليه أن يكون كل شىء له خلافا للخلق ، فلا يكون قوله مثل قول الخلق ، ولا مسلكه مثل مسلك الخلق ، وأن يخشى كثرة التكلم .

* سألوا الشيخ : من الشيخ الصادق ؟ ومن المريد الصادق ؟ . فقال ، علامة الشيخ الصادق أن تكون فيه هذه الخصال العشر حتى يكون صادقا فى المشيخة : (ص ٣٣٠) .

الأولى : أن يكون مثلا حتى يستطيع المريد أن يحتذيه .

الثانية : أن يكون قد سلك الطريق حتى يستطيع أن يرشد إلى الطريق .

الثالثة : أن يكون مهذبا مؤدَّبا حتى يستطيع أن يكون مؤدِّبا .

الرابعة : أن يكون سخيا فى غير إسراف حتى يستطيع أن يجعل المال فداء للمريد.

الخامسة : أن يتنزه عن الطمع فى مال المريد حتى لا يتقيد بأمر فى طريقه .

السادسة : إذا كان قادرا على إسداء النصح بالإشارة فلا يسديه بالعبارة.

السابعة : إذا كان قادرا على التأديب بالرفق لا يفعله بالعنف والغضب .

الثامنة : أن ينفذ هو أولا كل ما يأمر به .

التاسعة : أن يمتنع عن أى شىء ينهى عنه .

العاشرة : إذا قبل مريد لله فلا يرده للخلق .

وإذا كان الأمر كذلك، وكان الشيخ يتحلى بهذه الأخلاق ،فإن المريد لن

يكون إلا مصدقا وسالكا . وكل صفة تظهر على المريد ، تكون صفة للشيخ ، ظهرت على المريد منه .

أما المريد الصادق فإن أقل الأشياء التى يجب أن تتوفر فيه حتى يكون لائقاً لأن يكون مريداً ، عشرة أشياء هى :

أولا : أن يكون ذكيا حتى يستطيع أن يفهم اشارة الشيخ .

ثانيا : أن يكون مطيعا حتى ينفذ أمر الشيخ .

ثالثا : أن يكون حاد السمع حتى يفهم كلام الشيخ .

رابعا : أن يكون نير القلب حتى يدرك عظمة الشيخ .

خامساً : أن يكون صادق القول حتى يكون كل خبر ينقله صحيحاً .

سادسا : أن يكون صادق الوعد حتى يفى بكل ما يريد .

سابعا : أن يكون حرا حتى يستطيع أن يتخلص من كل ما يملك .

ثامنا : أن يكون كتوما للسر حتى يستطيع أن يحفظ سر الشيخ .

تاسعاً : أن يكون متقبلا للنصيحة حتى يتقبل نصيحة الشيخ .

عاشرا : أن يكون فدائيا حتى يستطيع أن يضحى بروحه العزيزة فى هذا الطريق .

وينبغى على المريد أن يتحلى بهذه الأخلاق حتى يسهل عليه سلوك الطريق، ويتحقق هدف الشيخ فى الطريقة منه سريعا إن شاء الله تعالى .

* كان الشيخ يوما يتحدث حديث الرسميين فقال : من الرسمى أن يفعل الإنسان ما يفعل بالتكليف كما يفعل بالعادة ، وحينئذ تصير العادة طبيعة ، ثم تصير الطبيعة حقيقة ، ثم قال للشيخ أبى بكر المؤدب : انهض واحضر دواة وورقة حتى أملى عليك فصلا عن عادات ورسوم أهل الخانقاه . فلما أحضرها ، قال اكتب : إعلم أن عادات ورسوم أهل الخانقاه عشر ، وهى فريضة على كل مقيم فى الخانقاه ،

على سنة أصحاب الصفة رضى الله عنهم وعن أهل الخانقاه . فالصوفى سمى صوفيا لأنه يكون صافيا مقتديا بأفعال أهل الصفة (ص ٣٣١)

أما الأشياء العشرة التى يعتبرونها فريضة عليهم ، والتى تتفق مع كتاب الله تعالى وسنة المصطفى عليه السلام فهى :

أولا : أن يكون ثوبه طاهرا لأن الله تعالى قال « وثيابك فطهر » . ويكونون أطهار دائما لأنه تعالى قال : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين » .

ثانيا : أن يجلس فى مسجد أو بقعة من بقاع الخير . على نحو ماقال سبحانه وتعالى « يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال » .

ثالثا : أن يؤدى الصلاة فى أوقاتها جماعة كما قال : « والذين هم على صلواتهم يحافظون » .

رابعا : أن يصلى فى الليل كثيرا كما قال : «ومن الليل فتهجد به نافلة لك».

خامسا : أن يكثر فى وقت السحر من الاستغفار والدعاء على نحو ماقال : « وبالأسحار هم يستغفرون » .

سادسا : أن يقرأ كل ما يستطيع قراءته من القرآن فى وقت الفجر . وألا يتحدث بحديث آخر حتى طلوع الشمس . كما قال : « إن قرآن الفجر كان مشهودا » .

سابعا : أن يشتغل فى الفترة ما بين صلاة العشاء والنوم بورد أو ذكر كما قال : « ومن الليل فسبحه وأدبار السجود » .

ثامنا : أن يقبل المحتاجين والضعفاء ، وذوى القربى ولا يطردهم كما قال :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » .

تاسعا : ألا يأكل شيئا دون إذن كما قال: « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا» .

عاشرا : ألا يذهبوا دون أن يستأذن بعضهم بعضاً كما قال : « وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه » .

وفضلا عن ذلك فإنهم ينبغى أن يشغلوا أوقات فراغهم إما بتعلم العلم ، أو بقراءة الورد أو بفعل خير لإنسان ، أو توصيل شيء إلى محتاج . إذن فكل من يحب هذه الطائفة ينبغى أن يساعدها بكل ما يستطيع ، وأن يكون شريكا لأصحابها فى الفضل والثواب (ص ٣٣٢) لأنه قال : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » .

وقال الرسول صلى الله عليه : « من أحب قوما فهو منهم » وفى حق هؤلاء قال المصطفى : « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن عازب » . وقال رب العالم فى حقهم أيضا : « أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم » وصلى الله على محمد وآله أجمعين .

* قال الشيخ : كل من رآنا وسعى فى حق أبنائنا وأسرتنا سيكون غدا تحت ظل شفاعتنا ، ولن يحرم منها.

* قال الشيخ : سألنا الله أن نكون جيرانا لليمين واليسار والخلف والامام وقد جعلها الله تعالى تحت اختيارنا . ثم قال : فجهاتنا بلخ ومرو ونيسابور وهراة .

وقال شيخنا أيضا : لا يجوز أن يقال شيء لمن فى كنفنا ، لأن من يركب حماراً ويمر على محلتنا وخانقاهنا ، أو ينزل فيها ، أو يكون قد أضاء له نور شمعنا يمن الله تعالى عليه بكرامة الرحمة .



« الأدعيـــة »

* قال شيخنا السيد أبو طاهر إن السـيد أبا منصور الورقانى جاء يـوما لزيارة الشيـخ ، وقال له : أيها الشيخ ، دانى على طريق . فقال الشيـخ : اسلك الطريق الذى أمر الله تعالى به . فقال : أى طريق هو ؟. قال الشيخ: هو الطريق الذى قال الله عنه « واتبع سبيل من أناب إلى » ولم يقل «واتبع سبيل من خاب» (ص ٣٣٣) فقال: ياشيخ،بأى زاد أسلك هذا الطريق ؟ . فقال : قل دائمـا : « يا رجاء الراجين ، ويا أمل الآملين ، لاتخيب رجائى ، ولا تقطع أملى يا أرحم الراحمين . توفنى مسلما ، والحقنى بالصالحين » .

* وأيضا قال شيخنا السيد أبو طاهر : قال الشيخ يوما : أرسـل السلطان طغرل رجلا يدعو وزيره أبا منصور الورقانى . فقال له إننى لم أصل العشاء بعد ، ولا أستطيـع الحضور . وعنـدما سمع الرجل هـذا الـكلام أبلغه إلى السلطان فلم يقل شيئا .

ولـما فرغ أبو منصور من الأوراد جاء إلى السلطان فقـال له السلطـان : أيها السيد ، كلـا دعوتك لعمل قيل لى إنك تقرأ القرآن أو تصلى فيتعطل العمل . فقال أبو منصرر : إن الأمر كما يقول السلطان ، واعلم أننى عبـد الله وخادمك . فما لم أؤد أوامر الله ، فلن أقـوم بخدمتك أيضا. فإذا وجدت وزيراً يمـكن أن يـكون خادما لك دون أن يكون عبداً لله فسأعود إلى منزلى . فقال السلطـان :

لن أجد ذلك الذى لايكون عبداً لله ، وابس لنا عليك أكثر من ذلك ، فقم بكل ما تستطيع من العبادة ثم عد إلى . فرجع أبو منصور إلى المنزل .

وانتهى الخبر إلى الشيخ أبى سعيد ، وكان حينئذ بنيسابور ، فلما سمعه أمر باعداد الجواد ليذهب لتهنئة أبى منصور . وحين خرج من الخانقاه أرسل حسن بن المؤدب درويشا ليخبر أبا منصور بقدم الشيخ . ولما وصل الشيخ إلى باب القصر ، قال البواب لحسن بن المؤدب : أدخل سريعا فمنذ بلغ السيد خبر قدوم الشيخ وهو واقف فى وسط القصر ، وكلما أشار أحد عليه بالجلوس (ص ٣٣٤) قال : ليس من اللائق أن يسير مثل ذلك العظيم على قدميه لتحيتى وأنا جالس . وعندما دخل الشيخ القصر وجده واقفا فى وسطه . فسأله : ماسبب وقوفك هكذا ؟. فقال : عندما سمعت بخبر مقدم الشيخ وقفت ، فلا ينبغى أن أجلس والشيخ يسير إلى . فقال له الشيخ : أيها السيد ، ان أقبل أنا أيضا فى يوم القيامة أن تقف أنت وأنا جالس ، فلن أجلس مالم أجاسك . فقال السيد : لقد أقبلت على الدنيا والآخرة . ولما جلس الشيخ وهنأه ، قال الوزير : أيها الشيخ ، إننى أخاف لأن السلطان تركى ، ولا ينبغى أن يتهور الإنسان ، فيعمل عملا بتهوره . فقال له الشيخ : حين تذهب إليه ، اقرأ دعاء يوم الاحزاب ، فقد صدق عن الرسول صلى الله عليه أنه قال : كل من يذهب إلى السلطان ويقرأ دعاء الاحزاب ، لايصاب بأذى ، ويرجع مقضى الحاجة . وهذا الدعاء هو : « اللهم إنا نعوذ بنور قدسك ، وعظمة طهارتك ، وبركة جلالك ، من كل سوء وعاهة ،ومن طوارق الليل والنهار ، إلا طارقا يطرق بخير منك يارحمن ، اللهم أنت غياثنا فبك نغوث ، وأنت ملاذنا فبك نلوذ يامن ذلت له رقاب الجبابرة ، وخضعت له أعناق الفراعنة . ونعوذ بك من خزيك ، وكشف سترك ، ونسيان ذكرك ، والانصراف عن شكرك . ذكرك

شعارنا ، وثناؤك دثارنا في نومنا وقرارنا وظعننا وأسفارنا وليلنا ونهارنا . اضرب علينا سرادقات حفظك ، وادخلنا جميعا في خفض عنايتك ، وجد علينا بخير منك يارحمن يارحيم ، يالاإله إلا أنت وحدك لاشريك لك ، نستغفرك ونتوب إليك» .

* قال السيد أبو طاهر : عندما أرسلني الشيخ إلى نسا ، علمني هذا الدعاء ، وقال لي لاتغفل عنه: « ياحنان ، يامنان ، ياديان ، يابرهان ، ياسبحان ، يارحمن ، يامستعان ، ياعزيز الشأن ، يادائم السلطان ، ياكثير الخير والاحسان ، نعوذ بك من الحرمان والخذلان » .

* كان الشيخ يقرأ هذا الدعاء بين أوراد الفجر : « بسم الله الرحمن الرحيم ، بسم الله ماشاء الله ، لايأتي بالخير إلا الله ، بسم الله ماشاء الله ، ومابنا من نعمه فمن الله .(ص ٣٣٥) ماشاء الله ، ولا حول ولاقوة إلا بالله . بسم الله لايضر مع أسمه شيء في الأرض ولا في السماء ، وهو السميع العليم. بسم الله الشافي ، بسم الله الكافي ، بسم الله المعافي ، بسم الله ذي الشأن ، الشديد السلطان ، العظيم. ماشاء الله كان ، أعوذ بالله من الشيطان ، ونزّل من القرآن ماهوشفاء ورحمة للمؤمنين ، فتحصنا بالحي الذي لا يموت ، ورمينا من أرادنا بسوء ، بلا إله إلا أنت ، وتمسكنا بالعروة الوثقى « لاانفصام لها والله سميع عليم » .

* وفي رواية صادقة أيضا عن شيخنا قدس الله روحه العزيز أنه كان يقرأ هذا الدعاء أيضا كل يوم بعد صلاة الفجر : « الحمد الله رب العالمين ،حمداً كثيراً طيبا مباركا كما يحبه ربنا ويرضى ، كما ينبغي لكرم وجهه وعز جلاله ، والحمد لله حمدا لا انقضاء لعدده ، ولا انتهاء لمدده . والحمد لله الذي حلانا ليوم عاقبته ، وأقالنا بعمل عافيته ، والحمد لله حمداً بعدد إحسانه وفضله علينا وعلى جميع خلقه ، والحمد لله حمداً بعدد حسنات خلقه وسيئاتهم ؛ إذ فضلنا على كثير من خلقه .

اللهم لك الحمد بجميع محامدك كلها على جميع نعمائك كلها علينا وعلى جميع خلقك كلهم . وصلوات الله وملائكته ورسله وجميع خلقه على نبينا محمد وعلى آله عليهم السلام ورحمة الله وبركاته . مرحبا مرحبا بالحافظين ، وحياكما الله من كاتبين ملكين رفيقين شاهدين عدلين،جزاكما الله عنى من جليسين كريمين خيرا كتبا ، رحمكما الله ورضى عنكما . بسم الله وبالله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأن الجنة حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . أصبحت عبداً مملوكا لا أقدر أن أسوق إلى نفسى خير ما أرجو ،ولا أن أصرف عن نفسى شر ما احذر . أصبحت على فطرة الاسلام ، وكلمة الاخلاص ، وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى ملة أبينا إبراهيم عليه السلام ، وولاية وليهما ، والبراءة من عدوها. اللهم إنى اصبحت فى عافيتك ونعمتك فأتمم على عافيتك ونعمتك ، اللهم بك أصبحت، وبك أمسيت ، وبك أحيي، وبك أموت، وعليك أتوكل ، وإليك النشور ، ولا حول ولا قوة إلا (ص ٣٣٦) بالله العلى العظيم » .

* نقل عن شيخنا أيضا فى رواية صادقة أنه كان يقول كل يوم فى الفجر بعد تأدية الفريضة ، هذا الدعاء عشرين مرة : « اللهم بارك لى فى الموت ، وفيما بعده ، وأجرنى من النار » .

* رأيت بخط السيد أبى البركات الشيخ مكتوبا جاء فيه : سمعت عن السيد إسماعيل بن عباس أنه قال : سمعت عن محمد العارف النوقانى أنه قال : سمعت عن الشيخ أبى سعيد قدس الله روحه العزيز أنه قال : ورد فى الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلى عشر ركعات فى يوم الجمعة بين صلاتى

العشاء وصلاة الفجر بخمس تسليمات، وفى كل ركعة يقرأ «الفاتحة» مرة، و«قل هو الله» إحدى عشرة مرة . وعندما يفرغ يقول مائة مرة : « سبحان الله ، والحمد لله ، واستغفر الله ، وأتوب إليه » .

* اعلم أنه كان من عادة شيخنا أبى سعيد قدس الله روحه العزيز أن يقول دعاء المائدة بعد أن يفرغ من تناول الطعام . وهذا الدعاء هو : « اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، وارزقنا خيرا منه وأفضل ، وأعطنا جميع ماسألناك من الخير ، ومالم نسأل ، وزدنا من فضلك الواسع ، وإنا إليك راغبون » .



رســـائل

« شيخنا قدس الله روحه العزيز نورد بعضها على سبيل البركة »

كان السلطان جغرى قد كتب رسالة إلى الشيخ بيد السيد حمويه رئيس ميهنه، وأحد مريدى الشيخ ، وطلب من شيخنا شيئا ، وأرسل السيد حمويه لتلك المهمة . فكتب له شيخنا هذا الخطاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

حفظ الله عز وجل الأمير الجليل ، الملك المظفر ، بعنايته . ولا تركه لنفسه وللناس ، ومنحه مافيه رضاه . وحفظه بفضله ورحمته مما يكون عاقبته الندم .

(ص ٣٣٧)لقد وصلت رسالة الأمير الجليل، الملك المظفر وفقه الله للخيرات، على يد السيد حمويه ،سدده الله . وقد قرئت الرسالة ، وعرف مضمونها ، وقد وضحت الأعذار العارضة ، فأحيط بها تماما . وأنا بدورى أبسط أعذارى وأوضحها، وآمل أن تقبل . وأسأل الله عز اسمه أن يقبل أعذار الأمير الجليل ، الملك المظفر بفضله ، وأن يبعد عنه بلايا الدارين ، وأن يوفقه دائما لكل مافيه صلاحه ونجاته فى الدنيا والآخرة ، والحمد لله وحده لاشريك له .

* عندما كان شيخنا قدس الله روحه العزيز فى نيسابور جاء إليه درويش وقال له : أنا ذاهب إلى ميهنه . فطلب الشيخ الدواة وورقة وقال : انتظر لحظة حتى أكتب كتابة لأبى طاهر . وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

سلام الله اللطيف الخبير ، على الكبير والصغير ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . والسلام ».

وأعطى الورقة للدرويش ليحملها إليه .

* قال درويش للشيخ : أيها الشيخ ، إنى ذاهب إلى مرو الرود فهل من حاجة ؟ . فقال له شيخنا : انتظر حتى أكتب شيئا للقاضى حسين . وكتب له :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« شعر »

ألا حظها فتعلم ما بقلبي وتلحظنى فاعلم ماتريد

والسلام .

* وكتب الشيخ إلى أحد العظماء بشأن خطيب عزيز :

« بسم الله الرحمن الرحيم

سلام الله تعالى على الشيخ العالم ورحمة الله وبركاته . وهذا الخطيب الأفضل أدام الله فضله من أهل بيت العلم والفضل . وقد قصد ساحته وطلب مجاورته متقيأ ببركته . ونرجو أن ينزله منازل أمثاله باظهار شفقته عليه . ويشمله بكرمه وافضاله والسلام .

* كتب خطيب قرية « أزجاه » شيئا إلى شيخنا ، فكتب إليه هذا الخطاب : (ص ٣٣٨)

« بسم الله الرحمن الرحيم

وصل أدام الله فضله كتاب الخطيب الأفضل الأديب ، وفقه الله على

جميع مايقربه إليه دينا ودنيا وآخرة . وكشف لى عن جميع مايضمره من صحة الاعتقاد ، ومحض الوداد . ولا غرو أن يكون كذا ، إذ القلوب مشاهدة ، والضمائر بنور الحق ملاحظة . والله يبقيه ، ومن الأسواء يقيه . وأما حديث المتوفاة نور الله قبرها ، وبشر بلقياه صدرها ، وأنشد على فراقها قصيدة غير طويلة :

ولو كان النساء كمن فقدنا   لفضلت النساء على الرجال

والسلام .

* توفى السيد الإمام محمد بن عبدالله بن يوسف الجوينى فى نيسابور ، فكتب شيخنا رسالة من ميهنه إلى عظماء نيسابور للعزاء فيه قال فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم

سلام الله تعالى على الأجلة السادة ورحمته وبركاته فيقول ، « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ثم « إنا لله وإنا إليه راجعون » رضاء بقضائه ، وتسليما لحكمه ، وصمودا تحت قهره » .

* عندما كان شيخنا قدس الله روحه فى نيسابور تقدم إليه درويش وقد انتعل حذاءه وقال : إننى ذاهب إلى ميهنه ، فهل من خدمة ؟ . فقال له الشيخ : انتظر حتى أكتب شيئا لأبنائى ، وكتب :

«بسم الله الرحمن الرحيم

« بيت »

— لا يستطيع فنان مهما أخرج من الروائع مائة عام ،

أن يبدع ما أبدعه مطر واحد .

* كتب شيخنا هذه الرسالة من ميهنه إلى أبي بكر الخطيب في مرو :

« بسم الله الرحمن الرحيم

إننا نذكر دائماً العالم الأوحد ، الأفضل ، أدام الله قوته ونصرته واستقامته على طاعته ، بالفكر والدعاء . ولا نغفل في وقت من الأوقات عنه وعن أبنائه ، وأسأل الله عز اسمه أن يحفظه وإياهم جميعاً (ص ٢٣٩) بفضله ، وألا يتركه بفضله لنفسه وللناس ، إنه خير مسئول .

وقد كانت أفضال العالم الأفضل الأوحد ، أدام الله توفيقه ، تصل دائماً ، فتكون فيها السعادة . ونرجو أن تتحقق الرؤية بعد ذلك قريباً . سلامنا وتحيتنا لك ولأبنائك وأصدقائك جميعاً ، الصغير والكبير إن شاء الله . والحسن بن المؤدب نخصه ، أدام الله عزه ، بالسلام الجزيل . والحمد لله ، والسلام على محمد وآله .

الأشعـــار

التى جرت على لسان شيخنا قدس الله روحه العزيز

« رباعية »

أيها الحبيب ابست بأرض خاوران شوكة واحدة

ليست لها صلة بى وبعهـــدى

ولو كان لى مائة ألف روح لم أجد عاراً

فى أن أضحى بها جميعاً من أجل لطفك وجمالك

« بيت »

ـــ لى رسل ينبئونى عنك حيث تكون

سواء وفيت لى أو نقضت عهدى

« رباعية »

ليس لنا دنيا أخرى غير هذه الدنيا

ولا مآل لنا سوى الجحيم والنعيم

والمجون والعشق هما رأس مالنا

أما القراء والزاهد فلهما عالم آخر

« رباعيه »

ليس أمامنا دائما إلا اللبن الحامض والفجل

فهى طعامنا اليوم ، وقد تكون من مخلفات الأمس

وعز السلطنة لا يستأهل ذل العزل

مادام لك نور يلازمك كنور الحاج

« قطعة »

— ما أكثر ما بحثت لعلى أجد أثرا للحب ،
ومنذ تطرق الشك إلى اليقين ضاع فى الشك اليقين
— (ص ٣٤٠) فلم يأت إلى خيالى ، لا ولا إلى يقينى ،
ولم تصدق أى أشارة تلقيتها عنه .
— لقد مارست العشق أوقاتاً طويلة ، وظننت
أنى أصبحت مشهوراً بأنى هكذا وأنه كذلك .
— ولما نظرت فى الحقيقة لم أجد أيضاً خيالا منه فيها ،
تأمل هذه القصة ، فقد كنت أنا العاشق والمعشوق .

« قطعة »

— كل قلب تشمله برعايتك ،
يصبح عظيما مهما كان حقيرا أو تافها .
— والنبتة والغصن إذا نظرت إليهما ،
صار كل منها سروا غنفريا باسقا .
— وكل قلب اختفى فى الأرض السابعة ،
إذا ما نظرت إليه علا شأنه وارتفع على العرش .

« رباعية »

ليس فى طريق التوحيد كفر ولا دين
فاخرج عن نفسك خطوة واحدة وتبين الطريق
ويا حبيب الدنيا اختر طريق الإسلام
وجالس الحية الرقطاء ولا تجالس نفسك

* نظر شيخنا يوما إلى الشجرة التى على باب روضته المقدسة فرأى أوراقها قد اصفرت ، فقال هذا البيت :

— أنا وأنت سواء فى اصـــفرار الوجه ،
بيد أن وجهك مصفر من الخريف ووجهى من عشق القمر .

* وفى وقت من الأوقات أنشد القوال هذا البيت أمام الشيخ :

— أصبحت كالياسمين بالنسبة لحبيبى الملائكى الوجه ،
لأنه يتصرف كالأنبياء ولا يرتـكب حماقة .

(ص ٣٤١) فقال الشيخ : معاذ الله . لايجوز قول هذا ، بل ينبغى قول :

— أصبحت كالياسمين بالنسبة لحبيبى الملائكى الوجه ،
لأنه يجعلك تفنى فيه ولا يرتـكب حماقة .

* وفى يوم آخر كان قوال ينشد هذا البيت أمام الشيخ :

— لن أسير معك فخذ طريقك ،
وليمنحك الله السلامة ، وليمنحنا الشقاء .

فقال الشيخ : لاينبغى أن يقال هـكذا ، بل يجب أن يقال :

وليمنحك الله السلامة ، ولنا راحة البال .

* قال الشيخ : لقد قرأ إبراهيم فى تلك الليلة

« مصراع »

لقد كنت أنا وهو وهو وأنا وتـكفينى هذه سعادة :

لقد كان هؤلاء بضعة أشخاص ، وكان ينبغى أن يقول هـكذا :

لقد كنت أنا وهو وهو وهو وهذه هى السعادة

« رباعية »

إذا كنت تريد أن تكون رجلا فاقتصد فى عبادة نفسك
ودون أن تشرب شراب الوصال ، أقلل من السكر
وكف اليد عن العبث بجدائل الحسان
وأى ذنب لهن ؟ أقالل أنت من عبادة الاصنام

« رباعية »

منذ أصبحت طرتك ملكا وخدك عرشا
استسلم قلبى أمام عرشك
وسوف ترانى يوماً صريع حظى التعس
وقد تعلق عنقى فى حلقة ذؤابتك

« قطعة »

— سوف أمسك بجدائلك السوداء العطرة ،
وأمطر وجهك الناصع بالقبلات .
— وكل أرض تطؤها قدمك يوماً ،
أسجد على ترابها ألف سجدة .
— وألثم صفحة رسالتك ألف مرة ،
إذا رأيتها موقعة بخاتمك .
— ومهما قطعوا يدى بسيف مهند ،
فسأمسك بأكمامك يوماً .
— ولو أصابنى صمت الموت وحق قول الشعر ،
لردده لسانى مثنياً عليك .

« رباعية »

يانبع طراز . . . منذ رأيت وجهك الجميل
عجزت عن كل شيء فلا أصوم ولا أصلى
وعندما أكون معك يكون مجازى كله صلاة
وعندما أكون بدونك تكون صلاتى كلها مجازا

(ص ٣٤٢)

« شعر عربى »

تقنع بالكفاف تعش رخاء
ولا تبغ الفضول مع الكفاف
ففى خبز القفار بغير أدم
وفى ماء القراح غنى وكافى
وكل تزين بالمرء زين
وأزينه التجمـــــل بالعفاف

« شعر عربى »

وأحببت أولاد اليهود بأسرهم
لأجلك حتى كدت أن أتهودا
أصلى فأزوى قبلتى متعمداً
لقبلتكم فاشهد صلاتى لتشهدا
وأنى لأهدى فى صلاتى بحبكم
بتوراة موسى ثم فرقان أحمدا

ولولا مقال الكاشحين وبغضهم
تعبدت يوم السبت فيمن تعبدا
وكان دخول النار فى الحب هيناً
إذا كان من تهواه فى الحب مسعدا

* قال الإمام إسماعيل الساوى : كتبت رقعة إلى الشيخ أقول له فيها : لقد اغتابك شخص فاصفح عنه . فقال الشيخ : لقد صفحت عنه . وكتب بخطه المبارك على ظهر الرقعة :

« شعر عربى »

تقشع غيم الجهد عن قمر الحب
وأشرق نور الصبح فى ظلمة الغيب
وجاء نسيم الاعتذار مخففاً
فصادفه حسن القبول من القلب

« بيت »

— الأسد من ناحية والسيف من الأخرى ،
مسكين قلبي بين السيف والأسد

« قطعة »

— لقد استقامت الأمور كما ينبغى ،
وعم السرور فيجب أن تكون مسروراً .
— ولماذا تطيل الهموم والأحزان ،
وحظك يعمل لك ما ينبغى .

— ولن تفيدك مشورة الوزراء ،
فحظك السعيد مشير بكل ماهو صواب .
— ولن يأتى الفلك بمثيل لك بين الخلائق ،
وحتى التى ولدتك فان تلد نظيرك .
— ولم يغلق الله بابا عليك قط ،
إلا وفتح أمامك ألفاً أخرى أفضل منه .

« رباعية » (ص ٣٤٣)

الدنيا التى ينبغى أن توجد فيها ، عدها فانية
و الآخرة التى ليست مكاناً لإقامتك الآن ، انجذب إليها
وكن عاشقاً وابحث عن مراد العاشقين
لأن هذه هى السعادة واللطف والحسن

« بيتان من الشعر »

— أيها الساقى ، أحضر لى كأسا من أصل السرور
من تلك الخمر التى تضيىء مثل تاج قباد .
— من تلك الخمر التى لها ريح الورد ولون العقيق ،
والتى هى قفل باب الاثم ومفتاح باب السرور .

« بيتان من الشعر »

— يسر حبيبى عند ما أكون حزينا ،
ومادام هو مسرورا فلست أريد السرور .
وحين أبكى يضحك فرحا ،
وكلما رآنى ضامرا تمادى فى الدلال .

« بيت »

— لقد اتخذ كل شخص من الشمس و الحجر والخشب محراباً ،
أما أنا فقد جعلت من وجه هذه الحسناء محرابى .

« قطعة »

— عندما ترفع النقاب عن وجهك فى الليل الحالك ،
يرتد إلى الأعمى بصره ويجد طريقه .
— ولست أستطيع الصبر خمسة أيام حتى أراك ،
وأظل أتأوه بسبب هذا أيها الحبيب خمسين مره .
— إنى أريدك الآن، ولا تلزمنى خمس وخمسون لأراك،
فأنا أعجمى أجهل كل شىء عن الحساب .

« رباعية »

أينما تكون لا يوجد أثر للحزن
وعندما تغيب لا يجد القلب سبيلا إلى السعادة
والذى يعيش معك دائما
قليل عليه سعادة الأرض والسماء

* (ص ٣٤٤) كان الشيخ قد كتب هذين البيتين بخطه :

لئن كانت الأيام فرقن بيننا
فإنا بقرب القلب مجتمعان

تصورت فى قلبى لفرط صبابتى
فشخصك لى نصب بكل مكان

« رباعية »

لقد صرت لك كلى أيها الحبيب
وليس فى هذا الكلام رياء ولافن
وإذا تحررت أنت من وجودك
فربما أكون مكانك أيها الحبيب

« رباعية »

طالما كان فى حى سلمة استقبال ووداع
وطالما كانت الأشجار تثمر ثمارها الناضجة
وطالما كانت النجوم مستقرة فى هذا الفلك
سيكون منى التحية والسلام للحبيب

مصراع :

النمو شىء والنضج شىء آخر

« بيت »

— لا تكن محزوناً ولا ضيق الصدر ،
فلا خير لمحزون عندنا .

« قطعة »

— أسفت لقراءة اسمين بغير مبالاة ،
وصارا اسمين عظيمين لقراءتى لهما جزافا :
— الأول اسم الحبيب ، وينبغى أن يقرأفى خشوع ،
والثانى اسم العاشق،ويجب أن يحدد لأن العشاق كثيرون.

— وقد أسفت حينما ذكروا اسمك بالحسنى ،
واسفت عندما أطلقوا على طريقك اسم العشق .

* قرىء هذا البيت أمام شيخنا فى وقت من الأوقات :

— عليك بالوفاء والطبع اللطيف وأقال من الرياء ،
حتى يظل العهد محكما بيننا .

« رباعية »

أتعب الناس حب الغنى والتفوق
والراحة والأمن فى الفقر
فاختر من هذه الدنيا واحداً وكفى
إذا كنت من ذوى العقل والعلم

الباب الثالث

في انتهاء حال الشيخ ، وهو ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في وصاياه عند وفاته .

الفصل الثاني : في حالة وفاته وكيفيتها .

الفصل الثالث : في كراماته التي جرى بعضها على لسانه المبارك أثناء حياته ، وظهرت بعد وفاته ، وبعضها مما أشار إليه ورآه الناس بعد وفاته على سبيل الكرامة .



الفصل الأول

فى وصاياه عند وفاته

* فى أواخر العهد الذى اقتربت فيه وفاة الشيخ قـدس الله روحه العزيز ، قال : لقد أنبأنى الله : إن الناس يأتون لهذا المـكان ليروك ، والآن ننزعك من بينهم حتى يرانا الناس الذين يأتون إلى هنا . وسيظل هذا الأمر ينبع منا ، ويبقى إلى يوم القيامة ، سواء كنا أو لم نـكن .

* قال الشيخ فى أواخر عهده : تظهر خانقاهات كثيرة ، ويـكثر المتصوفة، ولـكنهم يكونون مستورين عن الناس ، حتى ينظـر الخلق ، ويروا أن الـكل واحد ، ويعدوه واحداً . بينما تظل هذه الجماعة مختفية عن أعين الخلق .

* قال جدى شيـخ الاسلام السيد أبو سعيد إن شيخنا قـدس الله روحه العزيز ظل لمدة عام فى أواخر عهده ،يقول أثناء حديثه فى كل يوم يعقد فيه مجلساً: أيها المسلمون ، لقد حل قحط الله .

* وفى آخر مجلس تحدث فيه ، وهو مجلس الوداع ، التفت إلى الناس وقال لهـم : إذا سئلتم غدا من أنتم ؟ فماذا تقولون ؟ . قالوا : بم يأمر الشيـخ ؟ فقال الشيخ : لاتقولوا نحن مؤمنون ، ولاتقولوا نحن صوفية ، ولاتقولوا نحن مسلمون، لأنهم سوف يطالبون منـكم الدليل على ماتقولون فتعجزون . قولوا نحن الصغار ، وكبارنا فى المقدمة ، فقودونا إلى كبارنا ، لأن على الـكبار أن يجيبوا عن الصغار .

واجتهدوا (ص ٣٤٨) فى أن تجدوا كباركم ؟ لأنكم إذا مضيتم بأنفسكم ، فما أكثر الفضائح التى سوف تظهر منكم .

* جاء السيد أبو منصور الورقانى وزير السلطان طغرل إلى شيخنا يوما ، وقال له : أيها الشيخ ، أوصنى بوصية . فقال الشيخ : « أول مقامات العبد مراعاة قدر الله ، وآخر مقامات النبوة مراعاة حق المؤمنين » وعملك اليوم هو أداء حقوق الخلق ، فتنبه دائما لهذا الأمر ، لأنه سيكون عونا لك فى الغد . فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة أحدكم حتى يرحم العامة كما يرحم أحدكم الخاصة » . فهؤلاء الناس جميعا أبناء دولتك فانظر إليهم على أنهم أبناؤك ، ولا يخدعك حطام الدنيا ومشقة الخلق ، لأن الناس عبيد لحاجاتهم ، فإذا قضيت حاجاتهم قبلوك ، ولو كانت فيك عيوب كثيرة . وإذا لم تقض حاجاتهم ، فإنهم لا يهتمون بك ولو كانت فيك أفضال كثيرة .

* التفت الشيخ فى أواخر عهده إلى الجمع وأوصاهم قائلا : يجب أن تعملوا على خدمة الدراويش، وأن تعقدوا العزم على خدمتهم. فلا ينبغى أن يلعب الصغار ، ولا أن يزهو الشبان ، ولا أن يرائى الشيوخ . وقد قيل إن علم الدنيا والآخرة فى هذه الكلمات « إنا لله وإنا إليه راجعون ». لقد جاء قحط الله ! جاء قحط الله ! جاء قحط الله ! . لقد كان هناك قحط الخبز والماء قبل هذا ، والآن جاء قحط الله . انظروا إلىّ فقد ختم بى هذا الأمر . ثم مسح وجهه بيده وأنهى حديثه .

* قال الشيخ فى مجلس الوداع : كنت فى طفولتى أتعلم القرآن عند أبى محمد العنازى ، ولما أتممته قيل لى يجب أن تذهب إلى أديب ، فقلت لأستاذى : أعفنى. فقال : أعفيناك ، واحفظ عنى هذا القول : « لأن ترد همتك إلى الله طرفة عين

خير لك مما طلعت عليه الشمس » . وأنا أوصيكم بهذه الوصية نفسها ، فلا تغيبوا عن الله . ثم قال لحسن بن المؤدب : انهض . فنهض حسن . وقال الشيخ : (ص ٣٤٩) اعلموا أنني لم أدعوكم إلى أنفسكم ، بل دعوتكم إلى فنائكم ، وقلت يكفي وجوده . لقد خلقتم للفناء فإذا أطاع أحدكم طاعة الثقلين ، فإنه لا يسقط في مقابل ذلك لأنه أراح شخصاً . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصيته لأصحابه « تخلقوا بأخلاق الله » وأنا أقول لكم هذا نفسه . فسيروا في طريق الله ، وانظروا إلى الجميع بالله ، وانظروا إلى الخالق بالله . فمن نظر إلى الخلق بعين الخلق ، طالت خصومته معهم . ومن نظر إلى الخلق بعين الحق استراح منهم .

* التفت الشيخ قدس الله روحه العزيز إلى السيد حمويه في مجلس الوداع وقال : ياسيد إنهم يسمونك حمويه لأنك تحمى الخلق . فأصغ إلى خالق الله ، واصغ إلينا ، فسوف يحضروننا هنا يوم الجمعة ، ويكون هذا اليوم يوم سوقنا . وسوف يكون هناك ازدحام كبير ، سواء من الجماعة الذين يُرَوْنَ ، أو الجماعة الذين لايرون . فحافظ على إيمانك ، واجتهد في أن توصلنا من المنزل إلى القبر دفعة واحدة ، لأن عقبة العظيم سوف يكون في المقدمة . فقال السيد النجار : أيها الشيخ ، من هم الجماعة الذين لايرون ؟ فقال الشيخ : يا أحمد ، اعلم أن ثلاثة من خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا قد نصبوا خلفاء على الجن ، وهم : عمرو وبحر وعقبة . وقد صاحبنا عقبة ، وسوف يقيم على قبرنا بعد وفاتنا حتى وفاته . ولن يغيب سوى يوم عرفة ، ويوم عيد الأضحى . وقد ارتاحت جماعة كثيرة من الجن إلى أقوالنا سواء في نيسابور أو هنا ، وأنست إلى هذه الأنفاس ، ووقفت بين أيدينا أثناء السماع . وطالما أقمت أنت والدراويش السماع على قبري فسوف يأتون للخدمة . فاحفظ حقهم بطهر وأحرق البخور كل ليلة في قصورك ،

فإن الجن الكفرة يفرون من رائحة البخور . وأمر بأن ينظفوا المكان عند صلاة العصر ويطهرونه . وإذا سمعت صياحاً عند وفاتي (ص ٣٥٠) ولم تر أحدا فاعلم أنه هم .

واعلم أننا ذهبنا وورثناك أربعة أشياء : الكنس والغسل والبحث والقول . وطالما أنتم على هذه الأشياء الأربعة يجرى ماء نهركم ، وتخضر زراعة دينكم ، وتكونون قبلة أنظار الخلق . واجتهدوا ألا يفوتكم شيء من هذه الأصول الأربعه ، لأنه لم يبق شيء فى آخر العهد ، وكل ما كان قد بقى ذهب أيضاً ، فلقد ختم هذا الأمر بنا ، وقد تم لنا ألف شهر ، وليس هناك عدد بعد الألف « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

* وقال الشيخ فى هذا المجلس أيضا : احضروا ورقة ودواة . فأحضروها ، فأشار إلى كاتبه أبي الحسن الأعرج قائلا : اكتب . فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

* أبو طاهر سعيد بن فضل الله ، طهره الله وأسعده بفضله ومنه وعونه ونصرته ولاقوة إلا بالله .

* أبو المظفر بن فضل الله ، ظفره الله وأيده وسدده وخيره ومهده ولا قوة إلا بالله .

* أبو العلا ناصر بن فضل الله ، نصره الله وظفره وأيده وخيره ونصره ولا قوة إلا بالله .

* أبو على المطهر بن فضل الله ، أعلاه الله وطهره وجمله ونصره وأدبه وخيره ولا قوة إلا بالله .

* أبو البقاء المفضل بن فضل الله ، أبقاه الله وفضله على كثير من خلقه تفضيلا ولا قوة إلا بالله .

* أولاد أبى طاهر : أبو الفتح طاهر بن سعيد ، فتح الله له وبه ومنه وبجماعته ولا قوة إلا بالله .

* أبو سعد أسعد بن سعيد ، أسعده الله وأيده وأكرمه وسدده ولا قوة إلا بالله

* أبو العز الموفق بن سعيد ، وفقه الله ونصره وأيده وخيره وأدبه وسدده ولاقوة إلا بالله .

* أبو الفرج الفضل بن أحمد العامرى، فرج الله عنه وبه ومنه ولا قوة إلا بالله.

* أبو الفتوح مسعود بن الفضل ،أسعده الله وفضله وفتح له وبجله ولا قوة إلا بالله .

ثم قال : إن هؤلاء هم العشرة أشخاص الذين طالما بقى واحد منهم بعدنا ، بقيت آثارنا ، واستمر الطريق والطلب ، وعندما يموتون جميعاً يختفى هذا الأمر من بين الناس.

ثم قال : فإنما نحن به وله .

* (ص ٣٥١) عندما قال الشيخ هذه الكلمات فى هذا المجلس أحنى رأسه إلى الإمام برهة ، ثم رفعها ، وجرى الدمع من عينيه ، وبكى الجميع . وقال الشيخ : لقد سأل داعينا الحق : كم يبقى هذا الأمر ؟ فجاء الجواب أن نفحات هذا الأمر ستظل بين الناس مائة عام أخرى ، وبعد ذلك لن تبقى الرائحة ولا الأثر . وإذا وجد معنى فى مكان ، فإنه يندثر بالتدريج وينقطع الطلب .

وقد شاهدنا هذا الأمر فإنه عندما تمت المائة عام التى أشار إليها الشيخ ، ظهرت بوادر الفتنة والاضطراب فى الشهر التالى ، إلى حد أنه لم يستطع أى شخص جاء لزيارة ضريح الشيخ أن يدخل ميهنه ، وكانوا يكتفون بالزيارة فى موضع يقال له « سركاه » على بعد فرسخ خلف الجبل ، ثم يعودون ، على النحو الذى جرى به لفظ الشيخ المبارك فى مجلس من المجالس بخصوص هذا الأمر ، فقد قال : يأتى وقت لا يستطيع فيه شخص أن يحضر لزيارتنا فى ميهنه ، فيزوروننا متخفين فى سركاه ثم يعودون .

وفى خلال هذه المائة عام التى ذكر الشيخ أنه سيكون خادمنا فيها ، لم يتخل عن الجماعة قط فى الصلوات الخمس ، ولم تخل المائدة من الطعام فى الصباح أو المساء .

وكان يقام ذكر على قبره كل يوم عند الفجر ، ويضاء القبر حتى الصباح ويرتب المقرئون فى الفجر والليل . وقد أقام على قبره أكثر من مائة شخص من الصوفية من أبنائه ومريديه . ولم يتطرق فتور أو خلل إلى الطريق ، بل كان يظهر فى كل يوم فتوح جديد ، ونعم كثيرة .

وكان عظماء الصوفية يأتون من جميع أنحاء العالم إلى تلك الحضرة كل عام ، ويديمون السماع وتمزيق الخرق . وكل من اعترضه إشكال فى الطريقة كان يحله بواسطة أبناء الشيخ . ولم ير أحد فى أى مكان تلك المهابة والرفاهية التى كانت لأبنائه ، ولاهل ميهنه خلال هذه المائة عام .

ثم حدث ماذكره بلفظه المبارك من أنه سوف يأتى وقت يصبح فيه مايزن درهما يعادل سيرا ، ومايزن سيرا يعادل منا ، وكل مايزن منا يعادل حملا ، ومايزن حملا يعادل مخزنا . أى (ص ٣٥٢) أن ولايتنا تصير هكذا بحيث لا يبقى من هذا الأمر نفحة ، أى من الفقر ، وعندئذ يحدث مايحدث .

وقد حدث هذا فى الوقت الذى تمت فيه المائة عام ، بحيث لم يبق فى الشهر التالى شيء من هذا كله ، ولم يبق على قبره إلا نفر قليل من أبنائه ومريديه ، واستشهد الباقى جميعهم على يد الغز ، واغترب بعضهم فى أنحاء الدنيا ، وانتقلوا جميعاً إلى رحمة الله فى غربتهم .

وقد مضت الآن أربعة وثلاثون عاما لم يظهر خلالها أى ترتيب — من الترتيبات التى مر ذكرها — على قبره المقدس . وإننا لنتأمل فى شيئين : أولهما أن الشيخ قال بلفظه المبارك : يظهر من بعدنا بأكثر من مائة عام شخص منا ، ولكنه ليس مثلنا ، فيبعث هذا الأمر على يديه .

والثانى أنه روى عن والدى نور الدين المنور رحمة الله عليه أنه قال : سمعت من السيد الشيخ أبى الفتح أن الشيخ قال : سنكون فى خدمتكم مائة عام ، ويظل أبناؤنا فى خدمتكم مائة عام أخرى ، وتبقى تعاليمنا ألف عام .

وقد روى عن السيد عبد الكريم خادم الشيخ أنه قال : قال الشيخ: إلى أن تأتى القيامة مازال أمامنا فى شيئين هما الاشارة والبشارة .

وربما ندرك هذه السعادة فى آخر العمر فنقضى بضعة أيام على قبره المقدس ونشعر بالراحة .

* وفى هذا المجلس أيضاً التفت شيخنا قدس الله روحه العزيز إلى السيد عبد الكريم وقال : إن هذا الصبى يريد أن يسلك الطريق . ولكن حيثما تصل يا بنى ثبت قدمك ولا تطالب الزيادة لأنك لن تجدها . ثم التفت إلى ابنه الأكبر وقال انهض يا أبا طاهر . ولما نهض ، أمسك الشيخ بثوبه ،وسحبه بنفسه وقال : لقد وقفتك أنت وأبناءك على خدمة الدراويش ، وقال : « شعر »

— إذا كنت تريد أن تسير فى طريق العشق إلى النهاية ،
فعليك أن تهجر كثيرا مما كنت تستحسن .
— وعليك أن ترى القبيح وتتخيله حسناً ،
وأن تتجرع السم وتتخيله عسلا .

(ص ٣٥٣) ثم سأله : هل قبلت ؟ . فأجاب : نعم . فقال الشيخ : فليبلغ الحاضرون الغائبين أن السيد أبا طاهر قطب ، فانظروا إليه نظرتكم إلى العظماء.

وقد كان للصوفية سيدين : أحدهما السيد على حسن فى كرمان ، وثانيهما السيد على الخباز فى مرو . وكان ثالث سادة الصوفية أبو طاهر ، ولم يكن للصوفية سيد بعده ، والسلام .

الفصل الثانى

فى كيفية وفاة شيخنا أبى سعيد قدس الله روحه العزيز

(ص ٣٥٤) كان شيخنا يتحدث فى المجلس يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة أربعين وأربعمائة . وفى نهاية المجلس اختتم حديثه بهـذا البيت :

— لقد وجب الرحيل وا أسفاه ،

ووجب طىّ مفرش العشق .

ثم أمر السيد «عليك» ، وكان من أهل نيسابور ومريداً للشيخ ، بالنهوض، فنهض عليك . وقال له الشيخ: ينبغى أن تذهب الآن إلى نيسابور،فتذهب فى ثلاثة أيام ، وتعود فى ثلاثة أيام، وتظل هناك نصف يوم ،بحيث تعود إلى هنا يوم الخميس عند صلاة الظهر . وهناك تبلغ سلامى إلى — فلان — النحاس وتطلب منه أن يهىء الكفن الذى أعده لنا .

ونفذ عليك ما أمر به ،واتجه إلى الطريق فى الحال. وعم الاضطراب الصوفية حتى فجر يوم الاثنين الأول من شهر شعبان . وأخذ الشيخ يوصى بوصاياه فى المجلس ، فالتفت إلى السيد عبد الكريم وقال له : لقد كنت تعنى بتطهيرى فى حياتى ، وينبغى عليك أن تعنى بهذا أيضاً عند وفاتى . ولا تقصر فى غسلى ، وعاون حسن فى هذا الأمر ، وتنبه حتى لا يقع خطأ . وقم بجميع الفرائض والسنن لأننا محفوظون ، وإذا تركت سنة أظهرناها .

وعندما أتم الشيخ وصاياه ، وأنهى المجلس ، نزل من المنبر ، وقال لحسن بن المؤدب : أعد الجواد . وركبه وأخذ يطوف حول ميهنه ، ويودع كل مكان (ص ٣٥٥) كان قد اختلى فيه .

قال حسن بن المؤدب : كنت أسير فى ركاب الشيخ وأنا أفكر فى نفسى هل أستطيع أن أقوم بمهمتى هذه بعد وفاة الشيخ : وكيف أستطيع هذا وقلبى مشغول به ؟. واستغرقت فى هذا التفكير ، فسحب الشيخ عنان جواده ، والتفت إلى وقال:

« بيت »

— ياروحى إننا نحن كالعسكر على رقعة الشطرنج ،
وحين يقال لنا مات الملك علينا أن ندع اللعب .

فاستولى على الذهول . وقال الشيخ : ياحسن ، لاتقلق فسوف يأتى أبو سعد دادا بعد وفاتى ويقضى الدين . وقد تحقق هذان القولان على النحو الذى ذكره الشيخ . فبعد وفاة الشيخ لم يستطع السيد حسن بن المؤدب أن يؤدى خدمة للدراويش ، وقام بخدمتهم السيد أبو طاهر وأبناؤه وفق ما أشار به الشيخ . ووصل أبو سعد دادا من غزنين بعد وفاة الشيخ بثلاثة أيام ووفى الدين .

ثم عاد الشيخ إلى منزله وألم به مرض يسير ، وكان مريدوه وأبناؤه يقومون بخدمته . وقد سألوا الشيخ عن الآية التى يقرأونها أمام جنازته فقال هذا أمر عظيم . ولكن ينبغى قراءة هذا الشعر :

« رباعية »

أى شىء فى الدنيا أطيب من هذا
فقد ذهب الصديق مع الصديق والحبيب مع الحبيب

لقد كانت الدنيا غماً كلها وهذه الدار سعادة كلها

لقد كانت الدنيا لغواً كلها وهذه الدار عمل كلها .

وفى ذلك اليوم الذى أخرجوا فيه جثمان الشيخ من منزله قرأ المقرئون (ص ٣٥٦) هذا الشعر أمام جنازته وفق ما أشار به .

وسألوا الشيخ أيضا فى هذا اليوم : هل نكتب على قبرك شهادة لا إله إلا الله وآية الكرسى ، أم تبارك ؟ . فقال الشيخ : ذلك أمر عظيم . ينبغى كتابة هذه القطعة :

سألتك بل أوصيك إن مت فاكتبى على لوح قبرى كان هذا متيما

لعل شجياً عارفاً سنن الهوى يمر على قبر الغريب مسلما

وأملى هذه القطعة التى يقولها كثير فى حق عزة :

يا عز أقسم بالذى أنا عبده وله الحجيج وما حوت عرفات

لا أبتغى بدلا سواك خليلة فثقى بقولى والكرام ثقات

ولو أن فوقى تربة ودعوتنى لأجبت صوتك والعظام رفات

وإذا ذكرتك ما خلوت تقطعت كبدى عليك وزادت الحسرات

وبعد وفاة الشيخ كتبت هاتان القطعتان على قبره فى ثلاثة أسطر ، كل بيتين منهما فى سطر .

وقبيل وفاة شيخنا بيومين جرى على لفظه المبارك هذا القول عندما جلس إليه أبناؤه ومريدوه ، فقد التفت إليهم وقال : « نعمة الله مجهولة مادامت محصولة فإذا فقدت عرفت » .

وآخر الأقوال التى قالها الشيخ هو : أنصتوا جيداً حتى لاتفسدوا الإيمان بعمل الخلق .

قال السيد عبد الكريم : فتح الشيخ عينيه يوم الخميس عند الظهر وسأل السيد أبا طاهر : هل جاء « عليك » ؟ . فأجاب كلا .فأغلق الشيخ عينيه . ونهضت إلى الخارج ،ووصل«عليك» فدخلت المنزل، وقلت للسيد أبى طاهر: لقد جاء «عليك» وأحضر الكفن . فأبلغ أبو طاهر هذا للشيخ . ففتح الشيخ عينيه وسأل أبا طاهر : ماذا تقول ؟ . فقال : لقد وصل « عليك » . فقال الشيخ : الحمد لله . وانقطعت أنفاسه فى الرابع من شعبان سنة أربعين وأربعمائة . وفى ليلة الجمعة فى وقت العشاء انبعث صراخ من منزل الشيخ دوى فى جميع أنحاء ميهنه ، وعرف أنهم الجن كما سبق أن ذكر الشيخ . وفى أثناء هذا الصياح (ص ٣٥٧) كانوا يسمعون هذه الكلمات : يا أسفا ! يا أسفا ، إنك ذهبت ومضيت ولم تترك للخلق شيئاً ! . وظل الأمر على هذا النحو حتى منتصف الليل .

وفى الصباح انشغلنا بالغسل . وكان الشيخ قد قال : اجعلوا نصف الكفن مئزراً ، وضعوا النصف الثانى على أكتافى ، ولفونى فى وطائى ، ولاتزيدوا شيئاً.

قال السيد عبد الكريم : عندما وضعنا الشيخ على الكفن ، كان السيد أبو طاهر وجميع أبناء الشيخ حاضرين . وكنت أقف عند أقدام الشيخ ، ولما نظرت إليه ، فتح عينيه ، وأشار بسبابة يده اليمنى إلى فخذه ، على نحو رآه جميع من كانوا هناك . فنظرت إلى الموضع الذى أشار إليه، فرأيت أنى لم أكن قد سحبت عليه طرف المئزر ، وكان فخذ الشيخ من ناحية العورة عارياً ، فأصلحته . وهذا

ماذكره من قبل فقد قال : انتبه حتى تقوم بالفرائض والسنن ، لأننا محفوظون ، وإذا ترك شيء أظهرناه . وقد تركت شيئاً فأظهره .

وعندما أشرقت الشمس أخرجوا جثمان الشيخ ، وصلوا عليه، وحملوا النعش حتى جاءوا به إلى ضريحه ، مارين بداره . وبقى فى الطريق حتى وقت الضحى . ومهما حاول الناس أن يرفعوا النعش لم يتحرك . وظل هكذا حتى سأل السيد النجار السيد حمويه : بم أمرك الشيخ ؟ هل حان الوقت أم لا ؟ . فرفع السيد حمويه عصاه ،وفقا لما أوصاه به الشيخ ، وأخذ يبعد الناس ، حتى حملوا النعش داخل الضريح ، ودفنوه .

ومن الكرامات التى شوهدت فى ذلك الوقت :

أولا : أنه كانت هناك منصة مرتفعة ، كانوا يضعون أمامها مقعداً على شاكلة درجة ، ليضع الشيخ عليها قدمه ، ويصعد المنصة ؛ لأن هذه المنصة كانت من الارتفاع بحيث لم يكن الشيخ يستطيع الصعود عليها دون درجة . وكان الشيخ يعظ على هذه المنصة فى ميهنه ؛ وقد قاموا بغسله فوقها . وعند وفاة الشيخ فى زاوية منزله ، فى مواجهة الضريح، لم يحركوا المنصة من ذلك المكان الذى غسلوا فيه الشيخ قط .وفى كل وقت كانوا يرتبون فيه الزاوية كانوا يرفعون مستوى الأرض (ص ٣٥٨) التى ترتكز عليها ، بحيث إذا رفعوا أيديهم عنها هبط الجزء الذى رفعوه ، وتساوى مع الأرض. وقد قاموا بهذا العمل مرات عديدة . وذات يوم حاولوا أن يثبتوا مستوى الأرض الذى رفعوه ، ولكن الارتفاع هبط فى الحال ، وتساوى مع بقية المكان . ولم تستقر الأرض التى نزل عليها ماء غسل الشيخ قط.

ثانياً : عند ما توفى الشيخ ، وضعوا عتبة المنصة هذه ، والمقعد الذى كان

الشيخ يتوضأ عليه تحت المنصة . وكان الناس يقومون بزيارتهما حتى الوقت الذى أغار فيه الغز ، وخربوا ميهنه ، وحرقوا كل شيء وجدوه ، فاختفت تلك المنصة والمقعدان ، ولم يعرف أحد من أبناء الشيخ ومريديه الذين وقعوا أسرى فى يد الغز عنهما شيئاً . وعندما رجع أبناء الشيخ ومريدوه ، بعد أن أفرج عنهم ، رأوا المنصة والمقعدين سالمين فى هذا المكان ، وفى فجر اليوم التالى دخلوا فلم يروا شيئاً .

وقد وقع فى هذه الفتنة عدة حوادث غريبة فى هذه البقعة نفسها ، من بينها أنه عندما تخلص السلطان السعيد سنجر بن ملكشاه ، برّد الله مضجعه ، من يد الغز ، وجاء إلى دار الملك مرو ، ذهبت — أى المؤلف — من سرخس مع جماعة من الشيوخ ، للتهنئة بعودة السلطان ، ولألتمس إصلاح مقر الشيخ . ولم يكن معى أحد من أقارب الشيخ وأبنائه ؛ فقد تفرق ما كان قد بقى منهم ، وذهب أكثرهم إلى العراق. ولما وصلت مرو ، كان رئيس ميهنه قد ذهب إليها منذ بضعة أيام ، من أجل مصالح الولايات ، ولكنه لم يكن قد رأى السلطان بعد .

ولم يكن أحد فى جميع الأوقات السابقة يستطيع أن يتحدث فى مصالح الولاية سوى أبناء الشيخ (ص ٣٥٩) وإذا حدث وتحدث أحد فلا يستمع إليه . ولم يكن الرئيس والعامل والشحنة وكل من له عمل فى تلك الولاية يستطيع أن يفعل شيئاً إلا بإشارة أبناء الشيخ . وإذا ظلم رجل آخر فى هذه الولاية فإنه بمجرد أن كان كبير أبناء الشيخ يكتب : إنه لا ينبغى بقاء فلان فى الولاية ، ويحمل درويش تلك الورقة إلى البلاط ، فإنها كانت تعرض على السلطان فى الحال ويكتبون أمر استبعاد ذلك الشخص .

وقصارى القول إنه عندما علم رئيس ميهنه بقدومى ، جاء إلى ، وأظهر سروره

بلقائى وقال : لقد انتظرت عدة أيام حتى يصل أحدكم لنتشاور فى الأمر. ويجب أن نرى السلطان فى الغد . وفى اليوم التالى ذهبنا معاً لرؤية السلطان . وعندما رآنى ، أحسن استقبالى ، ولما جلسنا ، دعوت له . فقال السلطان سنجر : إن ميهنه بقعة مباركة ، وقبر الشيخ مكان لا يوجد أعز وأعظم منه ، وعندما أراد أحد أولئك الغز أن يمد يده إليه ، ليحصل على الأمتعة المدفونة فيه ويأخذها ، يبست يده فى الحال . وقد أحضره أقاربه إلى المعسكر ورأيته — ولم أسمع هذه الحكاية إلا من لفظ السلطان والعهدة عليه — ثم أمر السلطان بألف حمل من البذور لزراعة خاوران ، ومائة حمل من أجل مطالب الضريح .

وطلب رئيس ميهنه زوجاً من الثيران ، فقال له السلطان : لقد تخربت خراسان ، والخزانة خاوية ، فينبغى أن تتدارك الأمر بهذه الأشياء . وأرسل مائة دينار نقداً من أجل ضريح الشيخ . ورجع رئيس ميهنه ، وبعث إلى جميع الأطراف فى طلب كل من تبقى من أبناء الشيخ ومريديه ، فاجتمع خمسون شخصاً ، ومدت المائدة ،وأقيمت الصلوات الخمس والخاتمة على قبر الشيخ،وأضيئت الشموع ، وحضر المقرئون ، (ص ٣٦٠) وابتهج الجميع ، وعمت البركة ، وتمت الترتيبات الواجبة ، وكنت قد وقفت نفسى على الخدمة وتوجه الصوفية والغرباء من جميع الأطراف إلى تلك الحضرة ،وظهر الاستقرار .

وفى تلك الأثناء توفى السلطان سنجر رحمة الله عليه ، وجلس السلطان محمود على العرش ، وحدثت موقعة داندانقان مع الغز فى مرو ، وانهزم جيش السلطان مرة أخرى ، واستولى الغز . وفى هذه المرة أفلت من أيدينا أمر تلك البقعة دفعة واحدة ، وحدث ماحدث . حقق الله تعالى بلطفه لخراسان ، ولجميع العالم الأمن والعدل والعمران، يوماً بمنّه وفضله .



الفصل الثالث

فى كرامات الشيخ التى جرى بعضها على لسانه المبارك أثناء حياته وظهرت بعد وفاته ، وبعض ما أشار إليه ورآه الناس بعد وفاته على سبيل الكرامات

حكاية :

فى بداية حال شيخنا أبى سعيد قدس الله روحه ، كانت توجد فى منزل الشيخ سيدة عجوز ، تقوم بالطبخ ، وكانوا يسمونها « دادا الطاهية » وكان لها ابن يسمى « أبو سعد » وعندما كانت أمه تأمره بعمل ، كانت تقول له : هيا يا حبيب دادا اعمل كذا.

وذات يوم كان الشيخ قد نام فى صومعته فى وقت القيلولة ، ونام الصوفية جميعاً فى المسجد ، وقد اشتد الحر لدرجة كبيرة ، فأعطت إبريقاً لأبى سعد ، وقالت له هيا ياحبيب دادا ، أحضر إبريق ماء حتى أصنع منه شيئاً للشيخ والصوفية . فأخذ أبو سعد الإبريق وذهب لإحضار الماء . وكان عارى القدمين ، والأرض ساخنة ، فكانت تحرق أقدامه . وأخذت الدموع تجرى من عينيه ، وقد أمسك بالإبريق على ظهره وراح يحضر الماء . ولما دخل باب منزل الشيخ ، صاح الشيخ من صومعته : لقد منحنا بغداد لأبى سعد حبيب دادا وأبنائه بهذا الإبريق من الماء . وأخذ الناس بعد هذا يسمونه «أبو سعد حبيب دادا» تبركا بلفظ الشيخ .

وشب أبو سعد بعد ذلك فى خدمة الشيخ ، ووصل إلى درجة أنه أصبح من أصحابه العشرة . وقد كان هناك عشرة أفراد من مريدى شيخنا سموا بالأصحاب العشرة ، لأن الرسول (ص ٣٦٢) صلى الله عليه وسلم كان له عشرة أصدقاء يسمون بالأصحاب العشرة ، وقد منحنا الحق جل وعلا عشرة مريدين متابعة لسنة المصطفى صلوات الله عليه . وقد عين شيخنا لكل واحد منهم ولاية يذهب إليها بعد وفاته ، وصاروا هم وأبناؤهم من مشاهير تلك الولاية أو أصبحوا زعماء هذه الطائفة فى تلك الولاية.وقد تمت أمور كثيرة على يد هؤلاء ، ووجدوا كثيرا من السعادة .

وفى أواخر أيام الشيخ استدعى أبا سعد حبيب دادا يوماً وقال له : إننى لا أستطيع الرحيل عن هذا العالم ، فقد اقترض حسن بن المؤدب قروضاً من أجل الصوفية ، قدرها ثلاثة آلاف دينار ، فينبغى عليك أن تذهب إلى مدينة غزنين عند السلطان ، وتبلغه سلامى ، وتقول له إننى اقترضت ثلاثة آلاف دينار ، وينبغى عليه أن يريح قلبى من ناحية هذا القرض ، لأننى لا أستطيع الرحيل عن الدنيا لهذا السبب .

قال أبو سعد : عند ما قال الشيخ هذا الكلام اضطربت قليلا ، إذ كيف أستطيع أن أقول هذا الكلام للسلطان ، وكيف يعرفنى السلطان ، وكيف أقص على سمعه هذه الحكاية ؟ . ولما طافت هذه الأفكار بمخيلتى قال الشيخ : اطمئن يا أبا سعد فقد قلت له هذا الكلام وقبله . قال أبو سعد : فلبست حذائى سريعاً، وجئت إلى الشيخ ، فقال لى : يا أبا سعد ، ودعنى لأنك لن ترانى عند ما تعود ، وتنبه إلى أنك عند ماتعود إلى ميهنه ، لاتبقى بها أكثر من ثلاثة أيام ، ثم تذهب إلى بغداد ، فلقد أقطعتك إياها أنت وأولادك . وحذار أن تقيم فى أى

مكان إلا فى بغداد ، فسوف تنال هذه الطائفة على يديك هناك كثيراً من الراحة والفتوح .

قال أبو سعد : فبكيت كثيراً ، وقبلت أقدام الشيخ ويديه ، وودعته ، وذهبت إلى غزنين . وعندما بلغت أبواب المدينة ، استولى على التفكير والتردد ، إذ كيف أرى السلطان ، وكيف أستطيع أن أقول له هذا الكلام ؟ . وفكرت فى نفسى أنه ينبغى على أن أبحث عن مسجد قريب من قصر السلطان، وأنزل به. وإذا ماجاء أحد من خواص السلطان للصلاة فى المسجد ، أقول له هذا الكلام ، ليبلغه إلى مسامع السلطان . وجئت إلى المدينة وقد استقر رأيي على هذا .

وأخذت أسير دون وعى ، وأنا لا أعرف إلى أين أذهب . وعند ما قطعت مرحلة طيبة من الطريق وصلت إلى محلة واسعة ، فتوجهت إليها .ولما سرت قليلا ، ظهر أمامى باب قصر كبير فخم ، يليق لسكنى الملوك والسلاطين ، (ص ٣٦٣) وقد اصطف على بابه أناس كثيرون ، وأيديهم على أوساطهم .وعند ما ظهرت من بعيد أفسحوا لى الطريق . ورأيت خادماً حسن الوجه يجلس هناك، وعند ما رآنى نهض ، وتقدم إلى ، وعانقنى قائلا : اجلس هنا أيها الشيخ حتى أعود إليك . فجلست . ودخل هو إلى القصر ، ثم خرج سريعاً وسألنى : أأنت الشيخ أبو سعد حبيب دادا مريد الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير الميهنى ؟ . قلت: نعم فقال: انهض وادخل . فنهضت باكياً ودخلت قصر السلطان وأنا أتعجب كيف عرفونى ؟ وممن سمعوا اسمى ؟ وماذا يريد السلطان منى ؟ . وأدخلنى الخادم ، وقادنى إلى حجرة دخلت إليها ، فرأيت السلطان جالساً فيها ، وقد استند على أربع وسائد . فسلمت عليه ، ورد سلامى ، وسألنى : أأنت أبو سعد حبيب دادا ؟ . قلت نعم . فقال السلطان : لقد مضت أربعون يوما منذ رأيت الشيخ أبا سعيد

فى النوم . وقد أجلست هذا الخادم على باب القصر فى انتظار وصولك . وقد حدثنى الشيخ بقصة القرض ، ووافقت على أدائه. والآن أسأل الله أن يجزيك عن ذلك ، فقد رحل الشيخ عن الدنيا . ولما سمعت هذا ، استولت على الدهشة ، وصرخت وبكيت كثيراً ، وبكى السلطان كثيراً أيضاً . وأمر الخادم قائلا : قده إلى حيث يستريح ويخلع حذاءه . فقادنى إلى حجرة فى قصر السلطان ، مزينة كحجرات الملوك . وجاء الخدم وخلعوا حذائى ، وأعدوا لى من المعدات مايليق بقصور الملوك ، وبعثوا بى فى ذلك اليوم إلى الحمام ، وأرسلوا إلى ملابس صوفية جيدة ، واستضافونى ثلاثة أيام أحسن ضيافة .

وفى فجر اليوم الرابع جاء الخادم وقال لى : إن السلطان يدعوك . فنهضت وذهبت إليه ، وكانوا قد وزنوا ثلاثة آلاف دينار ذهبى فسلموها إلى ، وقال السلطان : هذه من أجل قرض الشيخ . وأعطانى ألفاً أخرى وقال : وهذه من أجل عرس الشيخ لتوزعوهاعلى قبره . ثم أعطانى ألفاً غيرها وقال : وهذه لك لتعد لنفسك حذاء فقد جئت من طريق بعيد . ثم قال للخادم : أوصله إلى قافلةخراسان فهم ذاهبون إليها غداً ، واكتر له دابة ليذهب بها إلى هناك ، وهيىء له معدات الطريق ، (ص ٣٦٤) واعهد به إلى رؤساء القافلة وقل لهم إنه وديعتنا لديهم ليقوموا بتوصيله إلى خراسان سالماً ، وليساعدوه فى الطريق . وشملنى السلطان بإعزازه وعانقنى .

وجاء الخادم معى ، وعهد بى إلى قافلة خراسان ، وهيأ لى معدات الطريق ، واستأجر لى بغلا حتى خراسان ، ثم ودعنى ورجع . ولم أعان مشقة فى الطريق وتوجهت إلى ميهنه متألماً باكياً لوفاة الشيخ وعندما بلغت مشارف ميهنه ، استقبلنى

جميع أبناء الشيخ والمريدون والصوفية وفق ما أشار به الشيخ ، فقد قال لحسن بن المؤدب : سيصل أبو سعد حبيب دادا من غزنين بعد وفاتى بثلاثة أيام ويريحكم من ناحية القرض. فلما رأونى، صرخوا ، وجددوا مأتم الشيخ ، وظهرت أحوال كثيرة.

وذهبت مع الدراويش إلى قبر الشيخ ، وزرته ، وسردت قصتى أمام الجميع ، ووضعت أمام أبى طاهر ثلاثة آلاف دينار لقضاء قرض الشيخ وقلت : هذه للوفاء بدين الشيخ . وسلمته الألف دينار التى أعطيت لى من أجل عرس الشيخ . كما وضعت أمامه أيضاً الألف دينار التى أعطيت لى وقلت له : هذه منى لتقيموا بها عرساً للشيخ ، ولم آخذ لنفسى شيئاً . ورد الدين فى ذلك اليوم ، وأعدت معدات العرس . وفى اليوم التالى أقيم عرس للشيخ من أجلى ، ومزقوا خرقة الشيخ ، وخرق الصوفية .

وفى اليوم الرابع عزمت على الذهاب إلى بغداد وفق إشارة الشيخ ، وودعت مريديه ، ورحلت قاصداً بغداد . وعندما وصلت إليها ، كان هناك نهر فى ذلك الوقت فى مكان العمران . ونزلت فى أحد المساجد ، وبعد أن استرحت بضعة أيام ، أفضيت بهذه القصة إلى صديق ، وقلت له : ينبغى على أن أقيم مقراً للصوفية، وأتوفر على خدمتهم . فقال لى ذلك الصديق : إن جميع المساجد موكلة إلى ، فاذهب إلى المسجد الذى تريده ، وباشر الخدمة فيه ، وإذا كنت تريد أن تقيم خانقاها بجوار هذا النهر، فلن يتيسر لك ذلك ،لأن الناس هنا ينكرون الصوفية ، وليس معك نقود أومعدات . والمصلحة تقتضى أن تكتب إلى الخليفة ، وتطلب منه أرضاً بجوار النهر ، بالقدر الذى تريده ، لتقيم عليها الخانقاه .

وكتبت رقعة إلى أمير المؤمنين ، ذكرت فيها أنى أرغب فى إقامة خانقاه

للصوفية فى هذا المكان ،(ص ٣٦٥) وأوضحت له أنى خراسانى من مريدى الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، وقد جئت من ميهنه لأقوم بخدمة الصوفية هنا . فأمر لى الخليفة بمكان بجوار النهر لأقيم عليه خانقاها لهذه الطائفة . وكتب الخليفة بخط يده : له أن يأخذ من جانب النهر بقدر مايريد ، وتسلم إليه الأرض . فجئت ، وانتقيت ناحية اخترت فيها مكاناً طيباً ، وأخذت أسير وأنا أصب التبن حتى حددت قرابة ألفى ذراع من الأرض ، واستوليت عليها .

وبعد ذلك كنت آخذ سلة ، وأذهب بها ليلا ونهاراً إلى خرائب بغداد ، وأجمع قطع الأحجار الجافة ، وأحضرها على ظهرى إلى ذلك المكان ، وأضعها فى وسط التبن الذى حددته . وظللت أفعل هذا حتى جاءتنى الأخبار يوماً ، بأن هناك قافلة قادمة من خراسان ، فذهبت إلى النهروان لاستقبالها . وعند ما رأونى احتفوا بى وقربونى إليهم ، فقد رآنى أكثرهم فى خدمة الشيخ ، وكانوا يعرفون منزلتى عنده ، كما كان بعضهم أيضاً من مريدى الشيخ . وقلت لهم : إننى أنوى إقامة خانقاه للصوفية فى هذا المكان ، وينبغى عليكم الآن أن تنزلوا به ، وتقيموا عندى ، لأن مسافريكم سيقدمون على غيرهم .

وكان فى القافلة جماعة من الصوفية والتجار وأناس كثيرون . فوافقوا جميعاً ، ونزلوا فى ذلك المكان ، وضربوا خيامهم به . ونهضت ، وأخذت سلة ذهبت بها للسؤال . وأخذت أقوم بإعداد المائدة كل يوم فى الصباح والمساء ، وأؤذن فى أوقات الصلوات الخمس ، وأؤمهم للصلاة . وكنا نقرأ القرآن كل فى دوره عند الفجر ، وظهرت أنوار كثيرة خلال المدة التى أقاموا فيها بذلك المكان . ولما

همّوا بالرحيل ، وكانوا قد اطّلعوا على حياتى واستحسنوا خدماتى ، أعطانى كل منهم بعض المال ،حتى توفر لى قدر كبير . وعندما رحلت القافلة ، اتجهت إلى العمارة، وأقمت جدران الخانقاه الأربعة، وشيدت صفة كبيرة جيدة، وداراً حسنة للصوفية، ومطبخاً ، ودورة المياه ، وأقمت مسجداً كبيرا ، وصنعت أبواباً لها جميعاً . ووضعت أساس الأبنية والحجر الأخرى ، بحيث أصبحت معالم جميع الأماكن تدل على طبيعتها .

وعندما وصل مقدم الحجاج وأخبرنى بعودة القافلة ، ذهبت إلى الفرات لاستقبالها . وقلت لهؤلاء الجمع : عند قيامكم بسفركم المبارك نزلتم فى خانقاهى ترضية لى ولله ، (ص ٣٦٦) وفى وقت رحيلكم بذلتم لى الشىء الكثير ، والآن ينبغى أن تأتوا معى لتروا نتيجة بذلكم ، وأن الترتيبات التى أشرتم بها قد تمت . فأجابونى إلى طلبى، ووافقوا على النزول فى الخانقاه . ولما رأوا تلك الأبنية الكثيرة الجيدة ، تعجبوا كثيراً ، إذ كيف صنعت هذا العدد الكبير من الأبنية فى تلك المدة القصيرة ، وتضاعف اعتقادهم . وأخذت على نحو ما مضى ، أذهب للسؤال وأهيىء المائدة ، وأؤذن للصلاة ، وأؤمهم فيها . وكنت أزيد فى العناية بهم كل يوم ، حتى لقد أعطونى عند رحيلهم الشىء الكثير ، بحيث توفر لى مبلغ كبير .

ولما رحلت القافلة اتجهت إلى العمل ، واشتغلت بالبناء ، حتى أتممت خانقاها جيدة جداً ، بجميع مرافقها من الحجرات والحمام وقاعة الجماعة وغير ذلك . وأعددت المفروشات المناسبة ، ومعدات المطبخ ، وجميع ما يلزم لذلك من الأدوات . وأقمت على باب الخانقاه سوقاً به بعض الحوانيت ،ورباطاً للقوافل ،وغير ذلك. وتوفرت

على الخدمة الجيدة ، وتوجه الصوفية من أنحاء العالم إلى هذه الخانقاه ، وانتشر الخبر فى الدنيا أن أبا سعد أسس فى بغداد خانقاها لم يقم أحد مثلها فى هـذا العهد من أجل الصوفية ، وهو يقوم على خدمتهم .

وأصبح أكثر أهل بغداد من المريدين لى . وكانوا يحملون الأخبار إلى مسامع الخليفة دائماً ، حتى أنه حدث ذات ليلة أن كنا نؤدى صلاة العشاء ، فدق شخص باب الخانقاه . وفتحت الباب ، فوجدته أمير المؤمنين ، ومعه بضعة أفراد من خواصه ، مثل أستاذ دار الخلافة ، والحاجب ، وصاحب المخزن وأمثالهم ، وكانوا قد جاءوا لزيارتى ورؤية الخانقاه. فرحبت بهم ، ودخل الخليفة الخانقاه ، وعند ما تفرس فى البناء ، ودخل مقر الدراويش ،رأى جمعاً كبيراً يزيد على خمسين شخصاً من الشيوخ والصوفية ، وقد جلسوا على سجادة . فحياهم ، وجلس بينهم، وجلست بين يديه ، وقصصت ، بقدر ما سمح به الوقت ، بعض الحكايات عن كرامات الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير . فسر الخليفة ، وبكى كثيراً ، وأصبح من مريدى هذه الطائفة . وفى أثناء جلوسه أمر أستاذ القصر قائلا : فى كل وقت يأتى فيه أبو سعد إلى القصر لا ينبغى له طلب الإذن ما دمت موجوداً ، ويجب إحضاره إلى الحرم سريعاً دون إخبارى بذلك . ثم قال : يا أبا سعد ، لقد وضعت مصالح المسلمين فى عنقك .

وفى اليوم التالى ذهبت إلى دار الخلافة لتحية الخليفة (ص ٣٦٧) فقادونى إلى الحرم فى الحال دون إذن . فتقدمت إلى الخليفة ، ودعوت له ، واعتذرت عن تقصيرى فى الليلة الماضية . وشملنى أمير المؤمنين بإعزازه الكثير ، وأكرمنى ، وأعاد على مسامعى ما كان قد ذكره من قبل ، ووضع عهدة المسلمين فى عنقى .

وخرجت من عنده وقد استولت الدهشة على الجميع . واتجه الناس إلى دفعة واحدة، ورفعوا حاجاتهم إلىّ ، وكنت أعرضها على الخليفة ، فكان يجيبها .

ورغب كثير من الناس فى مجاورتى ، وشيدوا منازل بجوار الخانقاه ، بحيث امتلأ ذلك المكان . وأخذت مكانتى عند الخليفة ترتفع كل يوم ، ويزداد اعتقاده فى ، حتى أنه قال يوماً : سأجعل أنا أيضاً عمارة دار الخلافة تمتد حتى النهر تمشياً مع الشيخ أبى سعد حبيب دادا . وجعل الماء يغمر نصف البناء . واحتذى الناس حذوه ، فانتقلت المدينة كلها إلى هذا المكان ، وخربت الناحية الأخرى . وأصبحت شيخ شيوخ بغداد ، ولم تكن مكانتى فيها تقل عن مكانة الخليفة ، ببركة نظر الشيخ المبارك .

وأبناء — أبى سعد — الآن يتولون منصب شيخ شيوخ بغداد ، وفى أيديهم الحل والعقد ، وأصبح الخليفة رمزاً ، بحيث أن كل خليفة يرشح لعرش الخلافة يمسك أكبر أبناء الشيخ أبى سعد بيده ، ويجلسه على العرش ، ويقوم بمبايعته أولا ، ثم يتبعه فى ذلك أبناء الخليفة ، ومن بعدهم الخواص ، ثم العوام ، حتى تتم له بيعة الجميع . وتكون مقاليد الأمور فى يد أبناء الشيخ أبى سعد .

حكاية :

سمعت أشرف بن أبى اليمان يقول نقلا عن الشيخ محمد بن أبى إسحاق : سمعت من والدى أن الشيخ كان يملك جواداً سريعاً ، لا يستطيع أحد أن يركبه ، لما كان عليه من السرعة . وعندما كان الشيخ يريد أن يركبه ، كان يسند كتفه على الدكان ، حتى يستطيع الشيخ أن يفعل . وعندما توفى الشيخ ، رأوا الجواد مقطوع

العنان ، وكانت الدموع تجرى من عينيه . وامتنع عن الأكل والشراب ، وظل هكذا سبعة أيام وليال .

وفى اليوم السابع قالوا : لقد نحل الحصان ، وامتنع عن الأكل والشراب ، وأشرف على الهلاك ، فماذا نصنع ؟. وأبلغوا هذا إلى السيد أبى طاهر فقال : ينبغى أن نذبحه ليأكل الدراويش منه شيئاً ، ويعطى الباقى للناس . ثم ذبحوه وتبركوا به.

حكاية :

(ص ٣٦٨)سمعت عن زين الطائفة الشيخ عمر الشوكانى أنه قال : فى يوم من الأيام كان السيد أبوالفتح ، ابن الشيخ من أخت الشوكانى ، قد جلس مع والدى فى الخانقاه . وأخذ السيد الإمام أبو الفتح يحكى قصة وفاة الشيخ فقال : قبل وفاة الشيخ بثلاثة أيام، التفت إلى وقال : سوف أموت يوم الخميس ، وسوف يكون هناك ازدحام كبيرفى يوم الجمعة ، بحيث لاتستطيعون أن تقتربوا من نعشى. ثم أمر بأن يحضروا غطاء ، وأمسكوا به من أطرافه الأربعة ، وشدوه فى الهواء ، وقال لنا اخرجوا من تحت هذا الغطاء ،وتخيلوه نعشى. ففعل أبناء الشيخ كما أمرهم. وبعد ذلك بثلاثة أيام ، حدث ما أشار إليه الشيخ ، فعندما أخرجوا النعش كان التزاحم شديداً ، بحيث لم نستطع نحن أبناء الشيخ أن نقترب منه . وكان يقص هذه الحكاية ، و يبكى هو ووالدى .

حكاية :

كان الشيخ أبو القاسم الروباهى مريداً للشيخ ، ومقدماً لعشرة من الصوفية المعروفين ،مثل أبى نصر الحرضى، وأحمد العدنى ، وأمثالهم. وقد قال:عندما بلغ خبر

وفاة الشيخ نيسابور ، كان الأستاذ الإمام أبو القاسم القشيرى بها ، فقال : لقد ذهب شخص لم يكن خلفاً لأحد ، وإن يخلفه أحد . وقام وجاء إلى خانقاه محلة عدنى كوبان ، وجلس فى المأتم ، وتولى أمره . وفى ذلك اليوم قال فى المأتم : عندما رأينا الشيخ أباسعيد لم نكن صوفية ، ولم نر صوفية ، ولو لم نره ؛ لقرأنا التصوف فى الكتب . ولما فرغنا من العزاء ، أقام الأستاذ الإمام حفل الشيخ .

وفى اليوم السابع أرسل الأستاذ الإمام إلينا علياً المحتسب وكيله ، وكنا عشرة أشخاص ،فقال لنا : إذا كان هدفكم هو الشيخ فقد مات .وقد كنتم أنتم العشرة من مريدىّ ،ولما جاء الشيخ ذهبتم إليه والآن ينبغى عليكم أن تعودوا إلىّ ،فقالت الجماعة : أعطنا مهلة لنفكر .

وفى اليوم التالى جاء شخص وقال: إن الأستاذ الإمام يقول لكم هل فكرتم ؟. (ص ٣٦٩) فصمتوا . ونفد صبرى فقلت : لماذا لاتجيبون ؟ . فقالوا : وماذا نقول ؟. فقلت: هل تأذنون لى بالإجابة عنكم ؟. قالوا أجل. فقلت له : بلغ ولاءنا للأستاذ الإمام ، وقل له إن الشيخ أبا سعيد كان من عادته عند ما تكون هناك وليمة ، أن يعطينى طبقاً من الطعام وقطعة من اللحم وبعض الحلوى التى أمامه. وكنت آخذ طبق الطعام وقطعة اللحم والحلوى التى أعطيت لى من المطبخ. وذات يوم كانت هناك وليمة فأخذت صحفة الطعام واللحم والحلوى التى أعطيت لى من المطبخ ووضعتها فى كم ، ووضعت الطعام واللحم والحلوى التى أعطانيها الشيخ من أمامه فى الكم الآخر ، وكان الوقت قيلولة وقد نام الشيخ فى زاويته ، ونام الجميع وأخلدوا إلى الراحة . وخرجت أنا على هذه الصورة من الخانقاه ، ولما خطوت أول خطوة خارجها ، فك رباط الإزار عن قدمى ، ووقعت فى مأزق . وخرج صوت الشيخ من زاويته يقول : أدركوا أبا القاسم .وفى الحال رأيت صوفياً يهرع إلىّ ، ويقول

لى : ماذا حدث لك ؟ . فأخبرته بما حدث لى ، وعاونى . ونحن الآن شيوخ مشرفون ، فهل تستطيع أن ترعانا هكذا عندما نجىء إليك ؟. فرجع على المحتسب.

وفى فجر اليوم التالى جاء إلينا الأستاذ الإمام ،واعتذر إلينا ، ورجانا ألا نقول هذا الكلام لأحد طيلة حياته ، فوافقنا . ورجع الأستاذ الإمام ، وذهب بعد ذلك لزيارة قبر الشيخ فى ميهنه ، وذهب معه أربعون شخصاً من كبار المتصوفة . وعندما وصلوا إلى رباط سركاه ، ووقعت عين الأستاذ والجماعة على ميهنه ، نزل عن الجواد ، وأمر المقرئين المرافقين أن ينشدوا شعر الشيخ :

« رباعية »

أيها الحبيب ،لاتوجد فى أرض خاوران شوكة واحدة
ليس لها علاقة بى وبعهدى (ص ٣٧٠)
ولو كانت لى مائة ألف روح لما أصابنى العار
لو أننى بذلتها جميعها من أجل لطفك ورقتك

وأخذ المقرئون ينشدون هذا الشعر ، وسر الأستاذ ، وخلع خرقته ، وحذا الجميع حذوه فخلعوا خرقهم . وأبلغوا أبناء الشيخ أن الأستاذ الإمام قادم من نيسابور مع جماعة الصوفية وخرج جميع أبناء الشيخ ومريديه لاستقبالهم . وتقابل الفريقان فى الطريق ، وكان المقرئون لايزالون يقرأون . وخلع صوفية ميهنه أيضاً خرقهم دفعة واحدة ، وأخذوا يسيرون على هذا النحو ،حتى جاءوا قبر الشيخ ،وأخذ المقرئون يقرأون ، والدراويش يطوفون حول القبر ، ووردت الأحوال ، ثم مزقوا الخرق. واستراح الأستاذ الإمام يوماً ، ثم طلب منه أبناء الشيخ أن يعظ فى الضريح فلم يقبل . وتحدث بعد إلحاح كبير فى المسجد وقال فى وسط الحديث : كنا نعترض

على الشيخ أبي سعيد في أشياء ، وكنا نظاره ، لأن من قابل صاحب الحال بالعلم ظلم . وبقي في ميهنه عدة أيام ، ثم رجع.

حكاية :

في بداية حال الشيخ قدس الله روحه العزيز رأت سيدة من أبناء عظماء ميهنه في النوم ، أن النبي عليه السلام جاء ومعه جميع الرسل إلى ذلك المكان ، حيث يوجد الآن ضريح الشيخ ، وتوقف بحيث رأت تلك السيدة إبراهيم ويعقوب وموسى وعيسى وعرفتهم واحداً واحداً . وفي ذلك الوقت كان في موضع الضريح بيت اشتراه الشيخ ، وكان يوقف دابته بجواره . ثم أعد به ضريحاً له ، وأقام فيه مع الصوفية . وعندما كان الشيخ يشيده ، وأطلق عليه اسم ، « مشهد » قال السيد الإمام أبو البدر المشرقي هذا الشعر بين يدي الشيخ :

« شعر »

بنى شيخ الزمان لنا بناء ... تصاغر فيه ما قد كان قبله

فكعبة قبلة للناس طراً ... وهذا البيت للعشاق قبلة

(ص ٣٧١) وعند ما أشرف الشيخ على الوفاة ، أمر بأن يدفنوه في تلك الدار ، حيث يوجد قبره الآن . قالت السيدة : لقد اتضح تأويل ذلك الحلم الذي رأيته وانتظرت تأويله أربعين سنة . فعند مادفنوا الشيخ ، تبينت أن ذلك المكان هو المكان الذي كنت قد رأيت الرسل يقفون فيه. وهكذا ظهر تأويل ذلك الحلم بعد أربعين سنة ، فأصبح هذا المكان مرقداً لعظيم الدين .

حكاية :

سمعت عن أشرف بن أبي اليمان أنه قال : سمعت الشيخ حسن الجاناروى

يقول : سمعت السيد أبا الفتح حفيد الشيخ يقول : كان والدى السيد أبو طاهر ابن الشيخ يذهب إلى المدرسة فى طفولته ، وكان الأستاذ قد ضربه يوما ، بحيث ظهرت آثار الضرب على جسده . ورجع السيد أبو طاهر من المدرسة باكياً ، وأظهر الشيخ على آثار العصا . فأرسل الشيخ رسالة إلى الأستاذ يقول له فيها : إننى لن أجعل منه مقرئاً أو إماماً ، وإنما ينبغى له أن يعرف كيف يؤدى الصلاة . انتبه فهو من أحبة الله ، وقد رباه الحق تبارك وتعالى بلطفه ، وخلقه بلطفه ، فحاذر ولا تستعمل العنف معه .

وكان أبو طاهر يكره المدرسة جداً أكثر من جميع الأطفال . وكان يذهب إليها بصعوبة كبيرة ، ويبحث دائما عن فرصة ليتخلص من الذهاب إليها . وذات يوم قال الشيخ : كل من يخبرنى بمقدم الدراويش أحقق له أى أمنية يريدها . وكانت قد مرت عدة أيام لم يحضر فيها درويش لزيارة الشيخ ، وكان يشتاق لرؤية أحدهم ، فلما سمع أبو طاهر قول الشيخ ، صعد سريعاً إلى السطح ، وأخذ يتجسس على مقدم الدراويش ، وينتظر وصولهم . وتصادف فى ذلك الوقت أن ظهرت جماعة من الدراويش قادمين من ناحية طوس . فنزل أبو طاهر من السطح مسروراً وقال للشيخ : ياوالدى ، إن جماعة من الدراويش قادمون إلينا . فسأله الشيخ : ماذا تريد الآن ؟ . (ص ٣٧٢) فأجاب : أريد ألا أذهب إلى المدرسة اليوم . فقال له الشيخ : لك ذلك . فقال : وغداً أيضاً ، فقال : لاتذهب . فقال : لن أذهب هذا الأسبوع . فقال الشيخ : لاتذهب ، فقال : لن أذهب إلى المدرسة أبداً . فقال له الشيخ : لاتذهب ولكن تعلم « سورة الفتح » واحفظها ، ولا تذهب إلى المدرسة ثانية . فسر أبو طاهر . ومد الشيخ يده وقطع غصناً من شجرة التوت التى على باب روضته ، وربطه على وسط أبى طاهر ، وأعطاه جاروفاً ، وقال له اكنس المسجد .

وأخذ أبو طاهر ينظف المكان . ووصل الدراويش وتقدموا إلى الشيخ ، فسألهم : كيف ترون أبا طاهر ؟ . فقالوا : حسن جداً . فقال الشيخ : لقد أوقفته الآن هو وأبناءه لخدمتكم . ثم علم الشيخ أبا طاهر سورة الفتح .

وبعد أن انتقل الشيخ إلى رحمة الله ، ومرت عدة سنوات وأصبح نظام الملك وزيراً لملكشاه ، وأصبحت العاصمة فى إصفهان — وكان نظام الملك مريداً للشيخ يرعى جميع المتصوفة من أجله — احتاج أبو طاهر إلى قرض من أجل الصوفية . فذهب مع جميع أبناء الشيخ إلى نظام الملك فى إصفهان ، فأسبغ عليهم من الرعاية ما يجل عن الوصف . وتصادف أن كان أحد العلويين قد جاءه برسالة من السلطان فى غزنين ، وكان رجلا فاضلا من أصحاب الرأى، متعصباً ينكر الصوفية، فأخذ طوال المدة التى مكثها عند نظام الملك يلومه قائلا : إنك تعطى أموالك لجماعة لا يستطيعون أن يؤدوا سنن الوضوء ، ولا يعرفون كيف يصلون ركعتين ، ولا مقدار الفرض أو السنة ، وليس لهم حظ من علوم الشرع ، وهم حفنة من الجهلة وصنائع الشيطان.

وأخذ نظام الملك يقول له : لا تقل هذا (ص ٣٧٣) فهم أناس متعلمون ، ولا يوجد من يعرف فى علوم الشرع بقدر ما يعرفون ، وزعماؤهم علماء الشريعة والطريقة . والهدف من العلم العمل ،وهم يعملون .

وقصارى القول أن الحديث طال بينهم فى هذا الأمر . وكان رسول غزنين يعرف أن السيد أبا طاهر يجهل القرآن ، ولم يكن نظام الملك يعرف ذلك . فقال رسول غزنين لنظام الملك : هل توافقنى على أن الشيخ أبا سعيد هو زعيم صوفية العالم جميعاً ؟ . فقال : نعم . فقال : وهل توافقنى على أن ابنه أصبح من بعده

أفضل من جميع صوفية هـذا العصر ؟ . قال نعم . قال الرسول : وهل توافقنى أيضاً على أن الشيخ قال إن أبا طاهر قطب ؟ فقال نظام الملك : أجل. فقال رسول غزنين : إن أبا طاهر لايعرف القرآن . فعارضه نظام الملك قائلا إنه يعرفه ، وقال : سأناديه وتختار سورة من القرآن أطلب إليه أن يقرأها .

ونودى أبو طاهر ، فأقبل مع جماعة الصوفية وأبناء الشيخ أمام نظام الملك . ولما جلسوا سأل نظام الملك الرسول قائلا : أى سورة تريد أن يقرأ ؟ . فأجاب . سورة « الفتح » . وأشار نظام الملك إلى أبى طاهر فقرأ سورة الفتح . وبدا السرور على الجميع . وعندما انتهت السورة سر نظام الملك ، وخجل رسول غزنين لأنه بدا كاذبا أمام كثير من العظماء والحاضرين ، ونهض لشدة شعوره بالهزيمة وانصرف .

وسأل نظام الملك أبا طاهر : ماذا كان سبب سروركم ؟ . فأجاب أبو طاهر قائلا : إعلم أيها الصدر الأعظم أنى لاأعرف القرآن . وقص عليه القصة من البداية إلى النهاية . فازداد اعتقاد نظام الملك فى الشيخ وقال : أنظر إلى الشخص الذى يرى قبل هذا بسبعين عاماً أنه سوف يعترض معترض على واحد من أبنائه ، كيف تكون درجته ! . وأصبح بعد ذلك مريداً للشيخ أكثر مما كان من قبل الف مرة ، وبكى كثيرا .

وكان عمر أبى طاهر يقل عن عشر سنوات عند ما أمره الشيخ بحفظ سورة الفتح . وقد بلغ الأربعين (ص ٣٧٤) عند وفاة الشيخ ، وعاش بعده أربعين عاماً أخرى . وتوفى سنة ثمانين وأربعمائة .

حكاية :

عند ماكان الشيخ مشغولا بالمجاهدة والرياضة ، كان يغيب عن المنزل لمدة شهر أو شهرين ولا يعثر عليه أحد . وكان السيد أبو طاهر عندئذ طفلا صغيراً ، يحب والده كثيراً ، ويشعر بالاضطراب إذا ماتغيب الشيخ ، ويأخذ فى السؤال عنه كل يوم . وفى وقت من الأوقات مضت عدة أيام تغيب الشيخ فيها ، ولم يحضر إلى المنزل خلالها . واضطرب أبو طاهر ـ وكان الوقت صيفاً والجو حاراً ـ ونهض فى فجر يوم ، وأخذ يتجول فى صحراء ميهنه ، وأماكن عبادة الشيخ . وطاف بكل مكان فيه رباط أو مسجد أو مقبرة كان يعرف أنه من الممكن أن يكون الشيخ قد اختلى به . ولم يجد الشيخ فى مكان منها ، وكان الجو حاراً وقد نال منه الاعياء . وذهب إلى الرباط القديم عند الظهر ، وهو رباط يقع فى طريق باورد من الأماكن التى كان الشيخ يتعبد بها والتى سبق ذكر بعضها فى بداية هذا الكتاب ، ولما بلغ السيد أبو طاهر باب هذا الرباط وجده مغلقاً ، فدقه بيده . وتصادف أن كان الشيخ هناك ، ففتح الباب ، ورأى أبا طاهر على هذه الحال ، وقد أثر فيه الحر ، وأخذت آلاف القطرات من العرق تسيل من وجهه وشعره وجسده . ولما رأى الشيخ ، سقط بين يديه ، وغاب عن الوعى . وجرى الدمع من عينى الشيخ وسأله : ماذا حدث يا أبا طاهر ، ولماذا جئت ؟ . فأجاب : أيها الشيخ ، أنا فى حاجة إليك . فقال له الشيخ : مادمت فى حاجة إلى فسوف تكون معى فى الدنيا وفى القبر وفى الجنة . ومد يده وأخذ أبا طاهر فى أحضانه ، وحمله إلى الرباط . وظل أبو طاهر يلازم الشيخ إلى أن توفى الشيخ .

وعند وفاة أبى طاهر كان أبناء الشيخ قد نسوا هذا القول ، (ص ٣٧٥) وأرادوا أن يدفنوا أبا طاهر فى المقابر . ولما قاموا بغسله ، وأرادوا أن يشيعوه إلى

القبر ، سقط مطر غزير فى الحال . وانتظروا حتى يتوقف المطر ، ولكنه أخذ يتزايد كل لحظة . وظلوا يحتفظون بجثمان أبى طاهر فى الضريح ثلاثة أيام ، والمطر يزداد كل ساعة . وعندما أسقط فى ايديهم ، قال واحد من خواص المريدين : ألم يقل الشيخ له إنه سوف يكون معه فى القبر ؟ ينبغى أن تدفنوه فى جوار الشيخ ، فهذا المطر لم يسقط إلا لقول الشيخ وكراماته. فلما قال المريد هذا ، تذكر الجميع كلام الشيخ ، وصدقوه .

وكان فى محلة الصوفية لحاد يدعى قتيبة بالقرب من ضريح الشيخ ، وهو الذى كان قد حفر للشيخ قبره، فطالبوه وأمروه باعداد قبر السيد أبى طاهر ، خلف قبر الشيخ . وانشغل قتيبة بالعمل ، وعندما تم القبر ، وسوى مكان الرأس فيه ، دق حجراً حتى تهبط الأرض ، فسقط جزء من الحجر ، وأحدث فجوة . فصرخ قتيبه ، وأعاد الحجر مكانه ، وفقد الوعى . ونظر الناس فى القبر فوجدوه مغشياً عليه ، فأخرجوه وحملوه إلى داره . ودفنوا أبا طاهر ، ولم يكادوا يخرجون أيديهم من القبر بعد دفنه حتى توقف المطر ، وسطعت الشمس ، وتحقق للجميع أن ماحدث كان كرامة من كرامات الشيخ .

وظل قتيبه فى غيبوبته أربعين يوماً، لم يفتح خلالها عينيه ، أو يتحدث قط . ولم يعرف أحد ماذا كان قد رأى على وجه التحقيق . ولحق برحمة الله بعد هذه الفترة . وتضاربت أقوال الناس بشأن مارآه من كرامات الشيخ ، ولكن قتيبة صاحب هذه الحادثة لم يذكر شيئاً ، لأنه لم يكن يستطيع الحديث ، ولم يستعد رشده ، ثم توفى .

حكاية :

(ص ٣٧٦) كان الشيخ أبو الفضل الشامى رجلا عظيما جدا ، من مشاهير

شيوخ المتصوفة ، وكان قد سافر فى شبابه كثيراً. وفى أواخر عمره ، أمضى سنين طويلة مجاوراً فى بيت المقدس . وذات ليلة كان قد نام مع جماعة من الصوفية فى خانقاه ببيت المقدس ، فرأى فى نومه الشيخ أبا سعيد قدس الله روحه العزيز يدخل إلى الخانقاه وفى يده طبق مملوء بالسكر ، وأخذ يسير بين الجمع ، ويعطى لكل واحد قدراً من ذلك السكر . وعند ماوصل إلى الشيخ أبى الفضل ، وضع فى فمه كل ما كان قد تبقى فى الطبق ، بحيث امتلأ فمه . ونهض من نومه مسروراً لهذا السبب ، ووجد فمه مملوءاً بالسكر . فنادى الخادم فى الحال ليحضر ضوءاً . واستيقظ الجميع وجلسوا ، فقص عليهم الحلم ، وأعطاهم جزءاً من ذلك السكر . ثم نهض وتوضأ وصلى ركعتين ، وطلب حذاءه وقال : لقد كانت هذه الصلاة من أجل زيارة قبر الشيخ أبى سعيد . فوافقه الجميع . وجاء من بيت المقدس إلى ميهنه سيراً على الأقدام ، ولم يجلس فى الطريق قط ، وكانت سنه عندئذ تزيد عن الثمانين عاماً . ولما بلغ ميهنه أقام بها عدة أيام ، وعند عودته دعا أبناء الشيخ جميعاً وقال لهم : إنى أوصيكم بالمحافظة على قداسة هذه البقعة ، وحق هذا القبر العظيم . وودع الجميع ، وعاد إلى بيت المقدس .

حكاية :

بعد وفاة الشيخ بعدة أيام ، رأى أحد عظماء الصوفية الشيخ فى النوم ، جالساً على المنصة ، وهو يقول : « من ثبت نبت » ، فاطرقوا ، وتفكروا حتى لاتخذلوا .

ورأى شخص آخر من الصوفية الشيخ فى النوم بعد وفاته بمدة طويلة ، وكان يقول : كلوا خبز الدراويش ولا تمساوا عماهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكاية :

(ص ٣٧٧) روى عن جدى شيخ الاسلام أبى سعيد رحمة الله أنه قال : فى وقت من الأوقات خرجت إلى الطريق مع جمع من الدراويش . وسقط مطر غزير ، فلجأنا إلى مكان لبضعة أيام وليال ، وبقينا نحن والدواب بدون طعام ، فقلت لشدة ما أشعر به من الضيق : يا الهى ! ما هذا الذى تفعله ؟ . ونمت فى تلك الليلة ، فرأيت الشيخ فى نومى وقال لى : يا أبا سعيد ، بم يفيد مثل هذا القول ؟ قل اللهم اشملنا بعطفك . فاستيقظت ، وتبت ، وبكيت كثيراً .

حكاية :

كان الشيخ مهد الباوردى صوفياً عظيماً ، وموضع اعتقاد . وقد أصبح السلطان سنجر وجميع جيشه من مريديه . وكانت له أحوال طيبة ، وكان يلقى قبولا كبيراً من أهل عصره . وقد جاء إلى ميهنه لزيارة ضريح الشيخ فى عهد والدى نور الدين المنور رحمة الله عليه — الذى كان خادماً لزاوية الشيخ ، وشيخاً وزعيما لأبناء الشيخ أبى سعيد ، ولم يقم أحد بخدمة الدراويش مثله ، ولم يدرك أحد ما أدركه فى تعمير تلك البقعة المباركة والمحافظة على جماعة الدراويش — وعند ماقام بالزيارة ، وانقضى ذلك اليوم ، وجاء الليل ، وانتهى الصوفية من تناول الطعام ، وصلاة العشاء ، أوقدوا شموع الضريح كما هى العادة المتبعة فى كل ليلة ، وقرأ المقرئون القرآن أمام قبر الشيخ ، وقام الصوفية والناس بزيارة القبر ، قال الشيخ مهد : إنى أفكر فى أن أقضى الليلة هنا على رأس القبر ، وأشتغل بالعبادة . فقال له أبناء الشيخ : هذا ليس متبعاً ، ولم يقض أحد الليل هنا بعد وفاة الشيخ ، لأن الشيخ قال من قبل : النهار لكم ، والليل لجماعة آخرين ،

أى للجن . وكل من كان ينصت فى الليل بعد إغلاق الضريح ، ووضع القفل فى مكانه ، يسمع صوتاً ، ويشعر بحركة لجماعة ، ويعلم أنما ذكره الشيخ من أن الليل نوبة الجن (ص ٣٧٨) يقيمون فيه على قبره ، حقيقة. ولهذا السبب لا يستطيع أحد أن يقيم فى الضريح أثناء الليل .وتحدثوا إليه كثيراً فى هـذا الأمر دون جدوى . وقال : سأظل هنا الليلة. ولما ألحوا عليه كثيرا ولم يقبل، خرج الخادم وأخذ الشمع وأغلق باب الضريح من الخارج ، ووضع القفل فى مكانه وذهب .وصعد الصوفية للنوم على سطح الخانقاه ، فقد كان الوقت صيفاً ، ولم يكونوا قد ذهبوا فى النوم بعد عندما ارتفع صياح الشيخ مهد من الضريح . ونزل الصوفية من السطح ،فرأوا الشيخ جالساً على حافة الحوض فى مقر الصوفية على شاطىء النهر ، وقد وضع قدميه فى المـاء . فرفعوه وذهبوا به إلى باب الضريح ، ونظروا فوجدوا القفل مستقراً فى الباب .

وحملوا الشيخ مهد إلى سطح الخانقاه ، وسألوه كيف حدث ذلك ؟ . فقال الشيخ مهد : عندما أخذوا الشمع ، وأغلقوا الباب ، انشغلت بالصلاة ، وصليت ركعتين ، وجلست ووضعت رأسى فى جيبى لأفكر ساعة ، فوصلت رطوبة الماء إلى قدمى ، ففتحت عينى ، ورأيت نفسى جالساً فى وسط المحلة على شاطىء النهر ، وقدماى فى الماء كما رأيتمونى . ونام الشيخ مهد تلك الليلة على السطح . وفى وقت السحر فتح الخـادم باب الضريح ، ووضع الشمع فيه ، وأخرج نعل الشيخ مهد منه ، ووضعه أمامه .

وأقام الشيخ مهد عدة أيام فى ميهنه ثم رجع . وعندما وصل إلى نسا ، سـأله

شيوخها : كيف وجدت أبناء الشيخ ؟ . فقال : لقد رأيت المنور منوراً . قال هذا في حق والدي رحمة الله عليه .

حكاية :

سمعت تاج الإسلام أبا سعد بن محمد السمعاني يقول في مجلس على باب ضريح الشيخ قدس الله روحه العزيز : ذهبت مع والدي للحج ، وعندما فرغنا من مناسك الحج قال والدي : تعال لنزور الشيخ عبد الملك الطبري (وكان من عظماء مشايخ عصره وله كرامات مشهورة على نحو (ص ٢٧٩) ما حكى عنه السيد أبو الفتوح الغضائري إذ قال : سمعت من أحد عظماء المتصوفة أنه كان جالساً يوماً في المسجد الحرام أمام الشيخ عبد الملك الطبري ، فدخل شخص من باب المسجد على شاكلة البشر ولكنه ليس مثلهم وقال للشيخ عبد الملك : « الغد أمر إلى سالار ؟ » . فقال الشيخ عبد الملك : نعم . وذهب ذلك الشخص . وكان أحد الدراويش حاضراً ، فقال له : أيها الشيخ ، أستحلفك بحرمة المصطفى صلى الله عليه وسلم أن تقول من كان هذا الشخص ، وماذا قال ؟ . فقال الشيخ عبد الملك : لقد كان الخضر عليه السلام ، وقال هل تأتي غداً لنذهب إلى المدينة ؟ . فقلت له نعم . وله كرامات كثيرة مثل هذه) قال تاج الإسلام : فذهبنا معاً إلى خانقاه مكة لنبحث عنه : فقيل لنا : لقد أدى الصلاة ، وذهب إلى مسجد عائشة رضي الله عنها ؛ فهو يمهد طريق الميقات والعمرة ؛ لأن هناك أحجاراً غليظة سيئة ، وهو يقوم بسحقها حتى لا تجرح أقدام الحجاج . وينبغي أن تبحثوا عنه هناك . فذهبنا إلى ذلك المكان ،وتوقفنا بعيداً . ورأيته وقد ارتدى مرقعاً ، وعقد وسطه ، وشمر أكمامه ، وجلس على حجر ، ووضع حجراً آخر أمامه ، وأخذ

يكسره إلى أجزاء صغيرة . وعندما أتم كسره التفت إلينا . وحياه والدى ، فرد تحيته ، وقال : اقتربوا أكثر . فاقتربنا منه، وقال له والدى : نحن من خراسان ، من مدينة مرو ، وولد أبى المظفر السمعانى . فقال : إننى أعرفه . ثم سأله : هل جئت للحج ؟ . فأجاب والدى : نعم ، قال : ألم تذهب إلى ميهنه ؟ . قال ذهبت. فقال : هل قمت بزيارة الشيخ أبى سعيد ؟ . قال : أجل . فقال : ماذا تصنع هنا إذن ؟ ولماذا قطعت هذا الطريق الطويل ؟ ، قال هـذا وانشغل بعمله . فعظمناه وعدنا . ثم قال تاج الإسلام : منذ سمعت هذا الكلام ، فرضت على نفسى عندما يذهب الناس للحج كل عام، أن أحضر إلى هنا لزيارة الشيخ.

حكاية :

وقد سمعت هذه الحكاية نفسها باسناد آخر من ناصح الدين بن أبى محمد بن عمى إذ قال : كنت قد ذهبت مع رئيس ميهنه إلى سرخس ، فقال رئيس ميهنه : تعال لنذهب لتحية (ص ٣٨٠) السيد كبير أئمة بخارى — وكان إماماً أحضره الأمير الأجل من بخارى للتدريس فى مدرسته فى سرخس — وعند ما دخلنا عليه، وعرفه أننى ابن الشيخ أبى سعيد بن أبى الخير ، نهض مرة أخرى ، واحتضننى ، وقربنى إليه ، وقال : كنت فى شبابى فى مرو عند السيد الإمام محمد السمعانى ، أتعلم الفقه عليه . وعرض له السفر إلى مكة ، فعهد بى إلى أحد معيديه . ولما رجع، كان ينبغى أن أقرأ عليه كل ما تعلمته فى غيبته . وذات يوم ذهبت إليه ، وكان قد جلس أمامه رجلان من كبار أئمة مرو ، وأخذوا يتحدثون معه . وكان السيد الإمام السمعانى يحكى حكاية حجه ،ثم قال : وعند ما وصلت إلى مكة أردت أن

أزور عبد الملك الطبرى ، وقص هذه الحكاية التى كتبت من قبل .

حكاية :

قال الحكيم محمد الأبيوردى : كان لدينا رجل عظيم ، زاهد ، متعبد ، له مجاهدات كثيرة . قال : ظللت أتعبد طيلة عام ، وأنا أتضرع إلى الله ، وأطلب إليه أن يرشدنى إلى خير أنال به درجة الشيخ أبى سعيد . وبعد أن أتممت عاماً على هذا النحو من العبادة والمجاهدة ، استسلمت للنوم ليلة ، فرأيت فى نومى هاتفاً يقول لى : لقد عمل الشيخ أبو سعيد بحديث من أحاديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ، حتى بلغ تلك الدرجة التى رأيتها وسمعت بها . فاستيقظت من نومى ، وقمت بكثير من العبادات والمجاهدات عاماً آخر ، وتضرعت إلى الله أن يطلعنى على هذا الحديث ، وأن يظهر لى أى حديث من أحاديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذى عمل به الشيخ . وبعد مضى سنة أخرى فى العبادة والمجاهدة ، رأيت فى نومى هاتفاً يقول لى : ذلك الحديث الذى عمل به الشيخ هو الذى يقول فيه المصطفى : (ص ٣٨١) « صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك ! » . فاستيقظت ، وأدركت أنه ليس لى ولأمثالى أن أطلب مرتبة الشيخ أبى سعيد ، فقد لزم لى عامان من العبادة والرياضة والمجاهدة ، حتى قيل لى أى حديث من أحاديث المصطفى صلوات الله عليه وسلم هذا الذى قام به ، فلاشك أننى لا أستطيع أن أقوم بالعمل الذى قام به .

حكاية :

قال أبو الفتح محمد بن على الحداد : كان والدى يقوم بخدمة الشيخ سنين

طويلة . وعندما توفى الشيخ كان متغيباً . ولما رجع ، أقام بالمنزل، وأخذ يذهب لزيارة الشيخ مرتين كل عام . وكنت أرسل معه أشياء إلى أبناء الشيخ ، تقرباً إلى حضرة الشيخ . وكان والدى يحكى لى دائماً حكايات عن الشيخ ويصف لنا طلعته، ووجهه ،وشعره المبارك .وعندما توفى والدى ، خطر لى أن أذهب لزيارة – قبر – الشيخ أبى سعيد . ولما بلغت مشارف ميهنه ، توقفت حتى أقبل الليل . وذهبت إلى ميهنه ، وتوضأت وصليت ركعتين على باب ضريح الشيخ ،وجلست وأحنيت رأسى. واستولى على النوم ، فرأيت الشيخ فى نومى ، على نحو ماوصفه والدى ، وقال لى : لاتطف حول أبنائى ، وإذا كنت تريد أن تتعلم طريق الله، فاذهب عند «بانوفله» فى سرخس . فاستيقظت ، وانتعلت حذائى سريعاً . وذهبت إلى سرخس عند بانوفله – وكان من عظماء مريدى الشيخ، وعندما أشرف الشيخ على الوفاة ،أمره بالذهاب إلى خانقاه الشيخ أبى الفضل حسن رحمة الله عليه فى سرخس ، ففعل هذا . وقد تمت أمور كثيرة على يده هناك ، وأصبح له كثير من المريدين،ونالت تلك الطائفة على يديه خيرات كثيرة . والآن يسمون هذه الخانقاه « خانقاه بانوفله – وذهبت إلى خدمته ، وظهر لى على يديه كثير من النور فى طريق الدين. وعندما توفى، ذهبت إلى أبى القاسم القشيرى . وسألنى القشيرى : من أين جئت ؟ . فحدثته بحكاية الحلم الذى كنت قد رأيته من قبل ، فبكى من أجل كرامات الشيخ ، وقال لى : لقد حدثت لى حادثة مع بانوفله ؛ فقد ذهبت مرة إلى سرخس فى مهمة . وعندما وصلت إليها ، جاء جميع أئمة المدينة والولاية وعظماء الصوفية لاستقبالى ، ما عدا بانوفله فقد تخلف . وكنت أتوقع أن يأتى للسلام على ، فلم يفعل . وغضبت لذلك كثيراً . وذات ليلة رأيت المصطفى (ص ٣٨٢) عليه

الصلاة والسلام فى النوم ، وقال لى : لقد وقف بانوفله خلف الأبواب ، فاذهب إليها ، لأنه ينبغى عليك أن تذهب الآن للسلام عليه . فاستيقظت من نومى ، وذهبت فى اليوم التالى لزيارة بانوفله وفق إشارة المصطفى عليه الصلاة والسلام . وقد أصبح محمد الحداد هذا من عظماء هذه الطائفة ، بفضل إشارة الشيخ ، وإرشاد بانوفله ، رحمهما الله .

حكاية :

سمعت السيد الإمام ظهير الدين أسعد القشيرى حفيد الاستاذ الإمام يقول : كنت قد اقترضت سبعمائة دينار نيسابورى من أجل الصوفية فى نيسابور ، وقصدت المعسكر ، وكان الجند حينئذ فى مرو . ولما بلغت ميهنه ، احتجزنى أبناء الشيخ أبى سعيد عدة أيام ، وأكرمونى كثيراً . وبعد أن أمضيت هناك مدة ، أعددت أمورى لأذهب إلى مرو . وانتعلت حذائى ، وذهبت إلى الضريح ، وقد عزمت على هذا .

وعندما وقعت عينى على قبر الشيخ ، أحنيت رأسى ، وأغمضت عينى ، فرأيت الشيخ عياناً ، وكأنما رفعت جميع الحجب عن عينى ، وكان يقول لى : هل فعل والدك أو جدك هذا الذى تفعله ؟ اذهب ، وعد إلى هناك ، وانتظر فسوف يتحقق هدفك . فخرجت ، وقلت أعدو الجواد . واكتروا دابة ، وقادوها إلى نيسابور . وعدت ومكثت فى الخانقاه . وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن أقضى السبعمائة دينار قيمة القرض فى ذلك الشهر . وقد تحقق فى ذلك العام توفيق كبير ، فضلا عن نفقات الخانقاه ، وأوقفت عليها أعيان طيبة . ولم يتيسر لى فى سنة من السنين حياة بمثل هذا الرغد ، ببركة همة الشيخ قدس الله روحه العزيز ، وإشارته .

حــكاية :

قال السيد الإمام أبو المعالى القشيرى : بعد وفاة الشيخ أبى سعيد بعدة سنوات، كانوا قد أقاموا وليمة فى خانقاه الشيخ فى نيسابور . وكنت هناك مع والدى وأعمامى الإمام أبى نصر والإمام أبى سعيد . وحضر أيضاً جميع (ص ٣٨٣) أكابر الأئمة والمتصوفة فى المدينة . وكان معنا فخر الإسلام أبو القاسم ابن إمام الحرمين أبى المعالى ، وكان متكبراً متهوراً لايزال فى سن الشباب، فأخذ يقول لوالدى كلاماً كثيراً . فقال له والدى : لاتتحدث كثيراً فربمـا استدعانى الصوفية . فقال فخر الإسلام : اضحك على ذقن جميع الصوفية ولو بلغوا منزلة الجنيد ،قال هـذا وظل يتحدث .

ودخلت من باب الخانقاه قطة ، وأخذت تسير من ناحية ، وتشم واحداً واحداً من أولئك الجمع . ولما وصلت إلى فخر الإسلام ، شمته ، وتبولت عليـه ، وخرجت من باب الخانقاه . فانهار فخر الإسلام ، وأدرك السبب فى هذه الصفعة ، ونهض ليعتذر . فأشاروا جميعا إلى السيد الإمام أبى سعد القشيرى ، على أنه كبير الجماعة ، ليعتذر إليه . ولما علم أبو سعيد بما حدث قال : ينبغى أن يـكون هـذا الاعتذار للشيخ أبى سعيد ، فهذه كراماته وهذه خانقاته . وهو رغم مرور عدة سنوات على وفاته ، إلا أنه لايزال يشرف على الأحوال ، وإذا ماارتـكب واحد من الجمع حماقة تولى عقابه . ووافق الجميع على هذا الرأى ، وتوجه فخر الإسلام إلى ميهنه ، واستغفر ، وظهرت الأحوال للصوفية ، ومزقوا الخرق ، وغمرت النشوة الجميع .

حكاية :

مرض السيد ناصر ابن شيخنا قدس الله روحه العزيز فى ميهنه ، بعد وفاة الشيخ بمدة ، فذهب إلى طبيب فى طوس ، وظل هناك عدة أيام . وعندما تحسن قليلا ، توجه لزيارة قبور المشايخ فى « سفاقان ». ولما رجع ونام فى تلك الليلة ، رأى الشيخ فى النوم يقول له : يا ناصر :

« بيت »

— أنت تملك مسك التبت والعنبر الغض ،
فلا تنظر أيها الحبيب إلى العطور الأخرى .

واستيقظ السيد ناصر من النوم ، وعزم على الذهاب إلى ميهنه فى الحال ، وغادر طوس فى اليوم التالى (ص ٣٨٤) وجاء إلى ميهنه . وتوفى فى ذلك الشهر .

حكاية :

قال الإمام أبو بكر محمد بن أحمد الواعظ السرخسى إنه سمع السيد أحمد ابن محمد الصوفى يقول : بعد وفاة شيخنا قدس الله روحه العزيز ، رأى درويش من دراويش الخانقاه فى نومه ، أنه سأل الشيخ : أيها الشيخ ، لقد كنت مولعاً بالسماع فى الدنيا ولعاً شديداً ، فما حالك الآن مع السماع ؟ .

فقال الشيخ :

« بيت »

— لقد أغنانى صوت الحبيب ،
عن ألحان الموصلى ولحن الأرغول .

فلما قال الشيخ هذا البيت ، صرخ الدرويش ، واستيقظ من النوم ، واعتراه حال . ولما هدأ ، سألناه عما حدث ، فقص علينا هذه القصة .

حكاية :

عندما هزم كفار الخطا السلطان سنجر فى مرو ، وحلت تلك الكارثة بالسلطان العظيم ، جاء الخوارزمشاه أتسيز إلى خراسان ، وذهب إلى باورد وقد عقد العزم على أن يغير على خاوران . ولما بلغ موضعاً يقال له رباط « سربالا » على بعد فرسخ من ميهنه ، توقف جواده . وأخذ يضربه بالسياط ، ولكنه امتنع عن السير . فطلب جواداً آخر وركبه ، فتوقف ذلك الجواد أيضاً . وكان فى معيته وزيره سيد العراق الصابندى فقال له : أيها الملك العادل ، يقال إن بهذه البقعة ، مكاناً عزيزاً مباركا ، ففيها قبر شيخ كان فريداً فى العالم ، فانزع من رأسك ما أضمرته بشأن هذه البقعة . فقال : لقد صدقت ، وسوف أفعل هذا . فسار الجواد فى الحال .

واعتقد أتسيز اعتقاداً كبيراً فى الشيخ ، وأرسل رسولا خاصاً إلى شحنة ميهنه وقال له : بشر أهل هذه المدينة (ص ٣٨٥) أننى قد غيرت رأيى ، وينبغى ألا تشق عليهم قط ، فهذه الولاية تابعة لخزانتى . وذكر أنه سيقيم فى هذه الناحية ثلاثة أيام . وخرج إليه أبناء الشيخ والصوفية ، فاحتفى بهم ، وأكرمهم كثيراً .

وكان أبو روح ابن عمى — عم المؤلف — متبحراً فى فنون العلم ، فدعا له دعاء طيباً وحدثه كثيراً عن حالات الشيخ ، وكراماته ورياضاته . وأعاد — أتسيز — الجميع ، واحتجز لديه جمال الدين — أبا روح — وذهب معه بعد العشاء لزيارة

قبر الشيخ ، ثم صرفه بعد أن تم الاتفاق بينهما على أن يذهب إليه خلال هـذه الأيام الثلاثة عند الفجر ، ويظل فى خدمته طوال اليوم .

ولما رجع — أتسيز — إلى معسكره ، واطمأن أهل ميهنه ، ظهرت نار من ناحية القبلة ، وأخذت تزداد كل لحظة . وكان شعاعها ينعكس على صفحة السماء ، فتبدو محمرة وكأنما النيران قد اندلعت فيها . وأخذت الرياح تهب فى عنف ، وأمسكت النار بجميع جبال ميهنه،حتى بلغت مايقرب من فرسخين . وكانت تبدو وكأنما اتجهت إلى المدينة ،وأوشكت أن تصل إليها . وكثر القيل والقال ، وعم الصخب المعسكر ، واستيقظ الخوارزمشاه أتسيز من نومه وشاهد تلك الحال ، ورأى خوف الجنود وفزعهم ، فغادر المكان قائلا : لقد أشعل الشيخ النار فينا . وسار جيشه من خلفه .

وعندما وصل أهل ميهنه إلى المعسكر ،كان الجيش جميعه قد رحل. ولم يعرف أحد شيئاً مما حدث ، إلا أنهم كانوا يرون النار تندلع من ناحية القبلة والجبل ، ويشاهدون احمرار السماء وهولها . ولما حل فجر اليوم التالى ، لم يكن قد بقى فى صحراء ميهنه من ذلك الحشم الكثير والدواب والجند (ص ٣٨٦) أحد قط . وتعجب الناس كثيراً ،وتساءلوا كيف رحلوا فى الليل ولم يطلع على رحيلهم أحد ، أو يسمع شخص صوت تحركاتهم .

وسأل أهل ميهنه عن مصدر هـذه النار ، وعرفوا أن جماعة من المزارعين كانوا قد زرعوا غلالا فى ذلك الجبل القريب من ميهنه ، وقاموا بحصدها ، وجمعوا منها محاصيل كثيرة . وكانوا قد أوقدوا نارا فى الليل ، وأمسكت النار ببعض

هذه الغلال ، وأهاجتها الريح ، فأخذت تشتعل ويسقط شعاعها على السماء .

وقد كانت هذه إحدى كرامات الشيخ ، قضى بها على فتنة الخوارزمشاه وظلمه. أما هذه النار التي كانت على هذا القدر من الفداحة ، حتى أنها كانت تشتعل فيما يقرب من مساحة فرسخين طولا وعرضا ، وكن بينها الكثير من الناس والحيوانات والغلال ، فإنها لم تتلف حبة قط من غلال أحد . وابتعد هذا البلاء عن ميهنه وخاوران جميعها بحيث لم يصب أحد بضرر .

حكاية :

كان أوحد الطائفة محمد بن عبد السلام أحد أبناء مولى جدى — جد المؤلف — وعندما وقعت فتنة الغز ، استشهد فيها كثير من أبناء الشيخ ، فقتل بحد السيف في ميهنه وحدها خمسة عشر ومائة شخصا من سلالة شيخنا قدس الله روحه العزيز . وبعد مرور شهرين أو ثلاث ، توفى الكثير من أهل ميهنه بسبب المرض والوباء والقحط الذى نتج عن هذه الأحداث . وقد بلغ حالهم من السوء إلى حد جعلهم يجلون عنها تماما ، وتشتت من كان قد بقى من أهلها .

وظلت ميهنه خالية حتى رجع إليها نفر من الدراويش بعد عامين أو ثلاثة ، وعمروا القلعة التى كانت قد خربت ، وأقاموا بها . وكانت هناك مسافة كبيرة بين تلك القلعة وضريح الشيخ . وقد ظل أوحد الطائفة محمد بن عبد السلام هذا مجاوراً فى ضريح الشيخ المقدس خلال هذه المدة ، لأنه كان مصابا بعرج شديد (ص ٣٨٧) يجعله يتحرك بصعوبة كبيرة . ولما لم يكن فى ميهنه ، عند هجرة أهلها دواب ، وكان الناس أثناء فرارهم يسوقون أمامهم نساءهم وأولادهم ، ويسير

الجميع على أقدامهم وأطفالهم على أعناقهم ؛ فقد اضطر إلى البقاء فى المدينة ، ولجأ إلى ضريح الشيخ ، ولجأ معه بضعة أفراد من المكفوفين والضعفاء . وعندما رحل أهل ميهنه ظلوا فيها بمفردهم .

وفتح الحق سبحانه وتعالى بكمال فضله أبواب الرزق والنعم على أولئك الضعفاء ، وظهرت الخيرات فى ذلك المكان ، بينما أغار المفسدون على غيره من الأماكن . وكانت أنواع الإحسان تصل إليهم حتى لقد ذكر أنه لم ير فى حياته أحسن من هاتين السنتين . ولما عاد الدراويش واستقروا بالقلعة، ظل يقوم بالخدمة فى ضريح الشيخ ، وبقى على هذه الحال أربعين عاما ، يؤدى حقوق الزيارة ، والخدمة فى هذه البقعه المقدسة. وكان إذا ماجاء درويش قام على خدمته ، وأرسل السيدات إلى القلعة . وكان يقيم على باب الضريح. وبعد مرور مدة طويلة ذهبت — أى المؤلف — إلى ذلك المكان وسألته: ماذا رأيت من كرامات الشيخ خلال المدة التى أقمت فيها بروضته المباركة ؟. فقال : لم يمض يوم دون أن تظهر لى كرامة من كرامات الشيخ ، بحيث يتعذر على إحصاؤها . ولكننى سأقص عليك قصة كرامتين حدثتا لى ، ورأيتهما ، وحدثت الناس بهما ، فلم تكن لدى القدرة على أخفائهما . ولم أر مثلهما بعد ذلك ، وأدركت أننى لو كنت قد احتفظت بهذا السر ، لرأيت الكثير من هذه الكرامات . وندمت ، ولكن بدون جدوى .

الأولى : هى أنى اعتدت ألا أذهب إلى القلعة خلال فصل الصيف ، وكنت أنام طوال هذا الفصل على باب الضريح . وذات ليلة كنت نائما (ص ٣٨٨) وكانت هذه الليلة من الليالى الهادئة ، وكان القمر فيها بدرا . فأغلقت باب الضريح جريا على عادتى ، وتهيأت للنوم . وفى بداية نومى ، وصل رجل من أهل ميهنه

قادما من الصحراء ، فلما رآنى نائما على باب الضريح ، نام — إلى جوارى — على الأرض . واستيقظت فى منتصف الليل ، وكان هناك صوت ينبعث من الضريح يتلو القرآن . وأنصت جيداً ، فسمعت شخصا يقرأ سورة الفتح بصوت جميل . وتعجبت لذلك ، فقد أغلقت أبواب الضريح قبل نومى ، فكيف فتحها شخص ودخل إليه ؟ . ونهضت، فرأيت باب الضريح مغلقا كما هو ، وكان القمر قد توسط السماء ، وتبين لى أن هذا لا يمكن أن يكون إلا صوت الشيخ ، وأن هذه القراءة له. وتملكنى حال ، وحاولت كثيرا أن أمنع نفسى من الافضاء بهذا الأمر فلم أستطع . وأيقظت الرجل النائم إلى جوارى وقلت له : تأمل كيف يمكن سماع صوته جيداً بعد مضى أكثر من مائة عام على وفاته ! ! . وعندما استيقظ الرجل ، احتجب الصوت فلم يسمعه كلانا .

والثانية : كان من عادتى صباح كل يوم من أيام الشتاء ، عند ما أذهب من القلعة إلى الضريح ، أن أحضر معى ماتيسر من الطعام لأتناوله عند الظهر ، فقد كان من المتعذر على بسبب بعد المسافة بين القلعة والضريح أن أعود لتناول الطعام. وذات يوم لم أكن قد أكلت شيئاً ، وانتابتنى حمى ، وتقيأت بسبب ذلك . وفى صباح اليوم التالى غلبنى الجوع ، فلم أكن قد تناولت طعاما ليوم وليلة ، فأخذت كسرة من الخبز وبيضة ، وذهبت لأتناول طعامى على باب الضريح . ولما وصلت إليه رأيت درويشاً وقد ارتدى مرقعا ، وجلس على باب الضريح ، وأحنى رأسه ووضع عصا وإبريقا على كتفه . ولما وقعت عينى عليه ، تخليت عن بشريتى ، وشعرت بالراحة والسكينة ، بحيث غبت عن نفسى .

وتقدمت إلى الضريح فى بطء ، وفتحت الباب . وعندما سمع صوت الباب ، رفع رأسه، فألقيت عليه التحية ، فنهض لتحيتى ، وعانقنى . وجلست إليه ، وسألته عن حاله . ورغم أنه لم يقل شيئا ، فقد أدركت أنه وصل عند صلاة العشاء ، ولم يكن هناك من يعتنى به ، وظل هكذا ، وأمضى الليل كله (ص ٣٨٩) مستيقظا فى ذلك المكان . فوضعت الخبز والبيضة أمامه فى الحال ، وآثرته على نفسى ، وأكلت معه قليلا على سبيل المجاملة ، وقمت على خدمته . وبعد أن فرغ من الطعام ، غسل يديه وجدد وضوءه ، وصلى ركعتين ، ولبس نعله، وودعنى وذهب. وأمضيت اليوم دون طعام أيضا، ولكننى لم أشعر بالجوع بسبب ما بعثته صحبة ذلك الدرويش فى نفسى من الراحة .

ولما عدت إلى القلعة عند صلاة العشاء كانوا قد أعدوا طعاما لا يناسبنى ، فلم أتناول منه شيئا . وظنوا أننى تناولت طعامى . ونمت جائعا فى تلك الليلة . وفى صباح اليوم التالى ، ذهبت كعادتى إلى الضريح بعد الصلاة ، وفتحت الباب ، ودخلت ، وقمت بواجبى . ورأيت فى المكان الذى يخلع فيه الناس أحذيتهم فى مواجهة قاعدة قبر الشيخ، كوزا جديدا، أزرق اللون، مملوءا بالماء ، وقد وضع فوقه رغيفان طازجان من الدقيق الأبيض . ولما لمستهما شعرت بسخونتهما . فرفعتهما، وغلبنى البكاء ، وأدركت أن هذه كرامة من كرامات الشيخ ، فلم يكن هناك مخلوق فى هذه الساعة ، ولا يوجد بالجيرة أحد يمكن أن يكون قد أعد هذا الخبز فى تلك الساعة . وجلست وأكلت الخبز . ولم أتناول قط طيلة عمرى طعاما أطيب منه ، ولم أشرب ماء أبرد وأطيب وأحسن من ذلك الماء .

وكرامة أخرى هى أننى كنت جائعا،ولم أتناول طعاما خلال ليلتين ويومين ، وقد أحسست عندما ما أكلت هذين الرغيفين بالشبع ، بحيث لم أشته طعاما ليومين آخرين .

وحين ذهبت إلى القلعة وقت صلاة العشاء ، واجتمع أهلها ، لم استطع الاحتفاظ بهذا السر . وحاولت كثيرا أن أمنع نفسى من الإباحة به ، فلم أستطع . وقلت : أيها الناس ، أنتم لاتعرفون قيمة ما تملكون ، ولا ترعون حق هذا القبر العظيم ، وجميع البلايا والمحن (ص ٣٩٠) التى تصابون بها ، إنما هى بسبب ذلك ، وقصصت عليهم هذه الحكاية . ولم أر شيئا من هذه الكرامات بعد هذا ، فقد كنت غير أهل لذلك . وأدركت أنه لو لم أظهر هذه الكرامات لظهرت لى غيرها . وندمت ولكن بدون فائدة .

أما عن كرامات الشيخ التى ظهرت للآخرين فى وجودى ، فهى كثيرة جدا بحيث يتعذر على إحصاؤها . ولقد قال الشيخ قدس الله روحه: ماأسعد من رآنا ، وما أسعد من رأى من رآنا ، وعد سبعة أشخاص على هذا النحو ، وقال : ما أسعد الذى رأى سابع شخص رأى من رآنا .

حكاية :

اعلم أن الكرامات التى ظهرت بعد وفاة الشيخ أكثر من أن يستطيع القلم أن يسطرها . ومنها هذه الكرامة التى قص قصتها ابن خالى أبو الفرج بن المفضل وابن أخى المنور بن أبى سعيد ، فقد ذكرا أنه أثناء غارة الغز ، كانت ميهنه قد خربت ، بحيث لم يعد هنالك من يستوطنها . وكان النفر القليل الذى يبقى من أهلها يسكنون القلعة . وكانوا يحضرون إلى القرية ، ويكسرون أشجار التوت الموجودة فى أنحائها للحصول على الوقود . وقد جئنا مع التلاميذ إلى محلة الصوفية ، وكسرنا شجرة قريبة من الضريح . وكان الجو حارا فى ذلك اليوم ، ولم يكن بالمحلة أحد سوانا . واخذنا كما هى عادة الصغار من سوء الأدب نحدث شغبا . وأخذ التلاميذ يضربون بالفأس ، وكان صوت ضجيجنا يملأ المحلة . وسمعنا صوتا

من باب الضريح يقول : ماهذا الذى تفعلون ؟ . فنظرنا ، ورأينا شيخا واقفا على باب الضريح ، تصل ذقنه إلى وسطه ، على نحو ما وصف به شيخنا ، ووجهه أبيض مشرب بالحمرة وصاح فينا قائلا : ألن يأتى وقت نتخلص فيه من سوء أدبكم ؟ . وعندما وقعت أعيننا عليه، هربنا وتركنا الآلات هناك ، حتى إذا ما جاء (ص ٣٩١) أحد بعد هذا إلى المحلة عند العصر ، ذهبنا معه ، وأخذناها هى والملابس. ولم نفعل بعد هذا شيئا مجافيا للأدب فى هذه المحلة .

وهناك حوداث كثيرة من هذا النوع يصعب حصرها ، وإذا ذكرناها كلها يطول الكتاب .

والأمر كذلك فيما يختص بفوائد أنفاس الشيخ وحكاياته وكراماته وأمثال هذا ، فإن عشرين مجلدا فى وصف حال الشيخ أشبه بقطرة من بحر ، على نحو ماذكر السيد الإمام أبو الحسن المالكى فقد قال : لقد سمعت لعدد من الشيوخ الكبار يقولون إن الناس يتعجبون لكثرة كرامات الشيخ أبى سعيد ، وإشرافه على خواطر عباد الله وأحوالهم .

وقال الشيخ أبو سعيد : ليس لصاحب الكرامات منزلة كبيرة فى هذه الحضرة لأنه يكون بمثابة الجاسوس ، وواضح أن الجاسوس ليست له منزلة فى حضرة الملك . وليس لصاحب الإشراف على الولاية حظ أو نصيب من خيراتها الا بمثل دانق عن كل دينار . فاجتهد أن تكون صاحب ولاية حتى تكون كل شىء ، ويكون لك ملك كل شىء .

ويعرف من أقوال الشيخ أبى سعيد أن هذه الكرامات والاشراف على الخواطر ليست شيئا بالقياس إلى الحال التى كانت للشيخ . أما عوام الخلق فهم لايعرفون أكثر من هذا القدر من منزلة الشيخ ، ويعدونه عظيما ، ويفتنون به ،

ولكنه ليس شيئا بالقياس إلى منزلة الشيخ ؛ لأنه مالم يصل الانسان إلى منزلة أرفع ، فإنه لا يحتقر المنزلة التى هو فيها ، فالمسألة فى نظره نسبية . وكان الشيخ لايعتبر المنزلة التى وصل إليها شيئا ، ولكن هذه المنزلة كانت عظيمة فى نظرنا لأننا نجهل حقيقتها ، فنحن لانرى من الأعمال إلا ظاهرها ، وهذا ليس حكما دقيقا . نسأل الحق سبحانه وتعالى أن يمنحنا القدرة على رؤية الكرامات قبل الموت ، لأن الخلق سوف يحيون يوم القيامة بهذه الكلمات المباركة .

وإننى لأرجو من كرم العظماء الذين يطالعون هذا الكتاب ، ويجدون لذة فى قراءة حالات شيخنا قدس الله روحه ، ومقالاته، أو تبدو لهم حال ؛ ألا ينسوا فى تلك الحال ، هذا الضعيف الداعى ، وذلك المذنب العاصى ؛ بل يذكروه بالدعاء. وإذا بدت لشخص هداية من هذه الأقوال المباركة ، والحالات الشريفة ، (ص ٢٩٢) أو تحقق للسالك فى طريق الحقيقة فتح بفضل هذه الأنفاس العزيزة، ألا يغفل عن هذا المسكين بالدعاء ، وأن يمر بخاطرهم فى الأوقات والخلوات ، ولاينسونه إن شاء الله تعالى .

اسأل الله تعالى ألا يقطع بركات ملك الدين ، وسلطان أهل اليقين ، وزعيم أهل الطريقة ، وقدوة أهل الحقيقة عنا ، وعن كافة أهل الاسلام فى أى حال . وأن يحشرنا فى الدنيا والآخرة فى زمرة خدم تلك الحضرة المباركة وغلمانها المقدسين . وأن يسعدنا بالانتساب إليه فى الآخرة على نحو ما ذكره من أن إجابة الصغير على الكبير . وأن يكون شفيع أخطائنا وزلاتنا ، وأن يوقف قلوبنا على محبته ، وأجسادنا على خدمة أحبائه ، ولايتركنا لأنفسنا أو للناس طرفة عين أو أقل من ذلك . وأن يهبنا مالا غنى لنا عنه فى ديننا ودنيانا وآخرتنا ، ويمنحنا ملازمته وحضرته ومحبته دون مقابل ، بحق محمد وآله أجمعين .



ثبت بالآيات القرآنية

رقم الصفحة	الآيــة	السورة	رقم الآية
١٨	« ونفخت فيه من روحى »	الحجر	٢٩
٢٢	« أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها »	الرعد	٤١
	« وإنا على آثارهم مهتدون »	الزخرف	٢٢
	« أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده »	الأنعام	٩٠
٢٧	« فى مقعد صدق عند مليك مقتدر »	القمر	٥٥
٣٨	« وما جعل عليكم فى الدين من حرج »	الحج	٧٨
	« والله جعل لكم الأرض بساطا »	نوح	١٩
٤٢	« قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون »	الأنعام	٩١
٤٥	« ورفعناه مكانا عليا »	مريم	٥٧
٥١	« ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق »	الأنعام	٦٢
٥٢	« فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »	البقرة	١٣٧
٥٤	« ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون »	الأنبياء	٣٥
٦١ ، ٦٢	« قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » (مكرره)		
٦٩	« حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة »	الأحقاف	١٥
	« يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا »	مريم	١٢
٧٠	« قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا »	مريم	٢٩
	« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا »	الإنسان	١
	« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه »	الإنسان	٢
٩٤	« لكم دينكم ولى دين »	الكافرون	٦
١١٧	« أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله »	المائدة	١١٦
١٢٥	« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك »	المائدة	٦٧
	« فأوحى إلى عبده ما أوحى »	النجم	١٠

رقم الصفحة	الآيـة	السورة	رقم الآية
١٢٩	« ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك »	الزمر	٦٥
١٥٣	« وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون »	الأعراف	١٩٨
١٥٤	« وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »	الشورى	٥٢
١٨٥	« فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر »	الأحزاب	٢٣
١٨٨	« مازاغ البصر وما طغى »	النجم	١٧
١٩١	« يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا »	المؤمنون	٥١
٢١٩	« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته »	الحج	٥٢
٢٢٠	« الحمد لله رب العالمين » .	الفاتحة	٢
٢٣٩	« لمن الملك اليوم »	غافر	١٦
٢٤٠	« ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا »	النحل	٩٢
٢٤٣	« ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين »	الأنعام	٥٩
٢٤٤	« ويستنبؤنك أحق هو قل إى وربى إنه لحق »	يونس	٥٣
٢٦٠	« الرحمن على العرش استوى »	طـه	٥
٢٧٢	« فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »	التوبه	١١١
٢٧٣	« وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم »	الإسراء	٤٤
	« إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد »	القصص	٨٥
٢٨٧	« ونهى النفس عن الهوى »	النازعات	٤٠
٢٨٩	« وسقاهم ربهم شرابا طهوراً »	الإنسان	٢١
	« ولسليمان الريح »	الأنبياء	٨١

رقم الصفحة	الآية	السورة	رقم الآية
	« قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين »	الملك	٣٠
٣٢٧	« لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين »	القصص	٧٦
٣٢٩	« من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون » (مكرره)		
	« ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون »	النمل	٩٠
	« الله لطيف بعباده » (مكرره)		
٢٣٠	« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »	يونس	٥٨
٣٣٥	« كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران »	الأنعام	٧١
	« ومن يطع الرسول فقد أطاع الله »	النساء	٨٠
٣٣٦	« ولذكر الله أكبر »	العنكبوت	٤٥
٣٤٠	« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها »	الكهف	١٠٧
	« وأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات »	الفرقان	٧٠
	« ولسليمان الريح » (مكرره)		
	« وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى »	ص	٣٥
٣٤١	« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون »	البقرة	١٣٨
٣٤٢	« أرأيت من اتخذ إلهه هواه »	الفرقان	٤٣
	« فأرسل إلى هارون »	الشعراء	١٣
٣٤٣	« وربك يخلق ما يشاء ويختار »	القصص	٦٨
	« قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (مكرره)		
٣٤٥	« قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا »	يوسف	١٠٨

رقم الصفحة	الآية	السورة	رقم الآية
	« أولئك هم الراشدون فضلامن الله ونعمة والله عليم حكيم »	الحجرات	٨،٧
٣٦٥	« واتبع سبيل من أناب إلى »	لقمان	١٥
٣٦٧	« لا انفصام لها والله سميع عليم »	البقرة	٢٥٦
٣٩٠	« إنا لله وإنا إليه راجعون »	البقرة	١٥٦

ثبت بأسماء الأعلام

أسماء الرجال :

(ا)

أسماء الأماكن والبلاد

تصـــويب

وقعت أثناء الطبع أخطاء نعتذر عنها ونتداركها فيما يلي :

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٦	١٨	أبو	أبى
٥٧	١٤	بصيح	يصيح
٦٠	٦	عليان	بن عليان
٦٩	٧	على الدستانى	عبد الله الداستانى
٨٢	١٦	باب	على باب
٨٧	٤	العصاة	العصا
٩١	١٥	لم يزدرهم	لم يزد درهم
٩٧	١	كما	عاما
٩٩	١٩	بن المؤدب	المؤدّب
١٠٤	١٢	القوالين	القوّالين
	١٨	ثلاث	ثلاثة
١٠٨	١	الأفكار	الإنكار
١١١	٢	عندئذ حيدا	عندئذ وحيدا
١١٦	٧	أبو	أبا
١٢١	١٨	الشمعة	ألف شمعة
١٢٤	١٢	النسبة	النسب
١٢٧	١	أمر	فأمر
١٣٠	٧	تعالى	تعال
١٣٧	١٨	يحرو	يحرق
١٤٧	١٩	الشيخ	الشيوخ
١٥١	١٥	لتعجلى	لتعجل

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٦٧	٥	واحد	واحدا
١٧٥	١٤	ندويش	درويش.
١٧٧	٧	مخى	لحيا
١٧٩	١٦	ليالى	ليال
١٩٤	١٩	بن المنور	المنور
٢٠٤	١٠	إبن	بن
٢٠٩	٩	علّ	علىّ
٢٢٦	٨	فأر	فأرا
	١٠	أن يؤهل	يريد أن يؤهله
٢٣٣	٩	دعيستو	دعيت و
٢٣٦	٥	تسافر	لم تسافر
٢٤٥	٦	نوبار	نوبهار
٢٥٧	١	ماما	عاما
٢٧٢	١٢	بعده	بعهده
٢٧٩	١٣	يغنى	يفنى
٢٨٢	١٠	أوص	أوصى
	٧	من	فى
٣٠٢	٧	خطيب كوفى	الخطيب الكوفى.
٣٤٧	٥	ما يليق	مالا يليق
٣٥٦	١٤	جرت	حرت
٣٦٠	١٧	مريد	مريدا
٣٨٠	٢	تعبدت.	لعبدت
٩٣٠	١٥	أبو المظفر	أبو الوفا المظفر.
٣٩٢	١٤	جديد	جديدة
٣٩٣	١٣	مارال.	مازال
٣٩٤	٧	سيدين	سيدان
٤١٥	١٢	شبح	شيخ
٤٢٥	١٢	أئمة بخارى	الأئمة البخارى.



